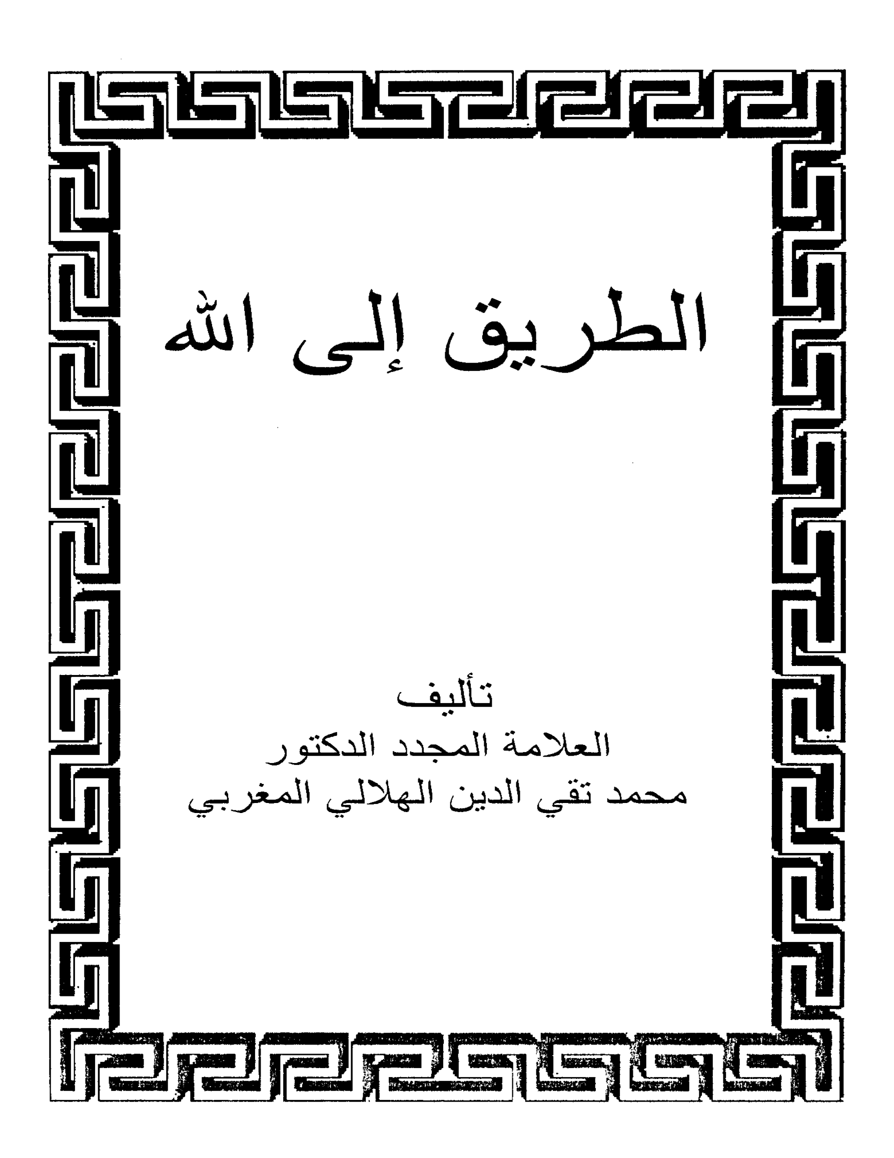
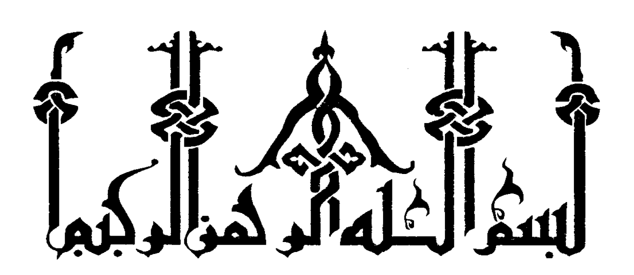
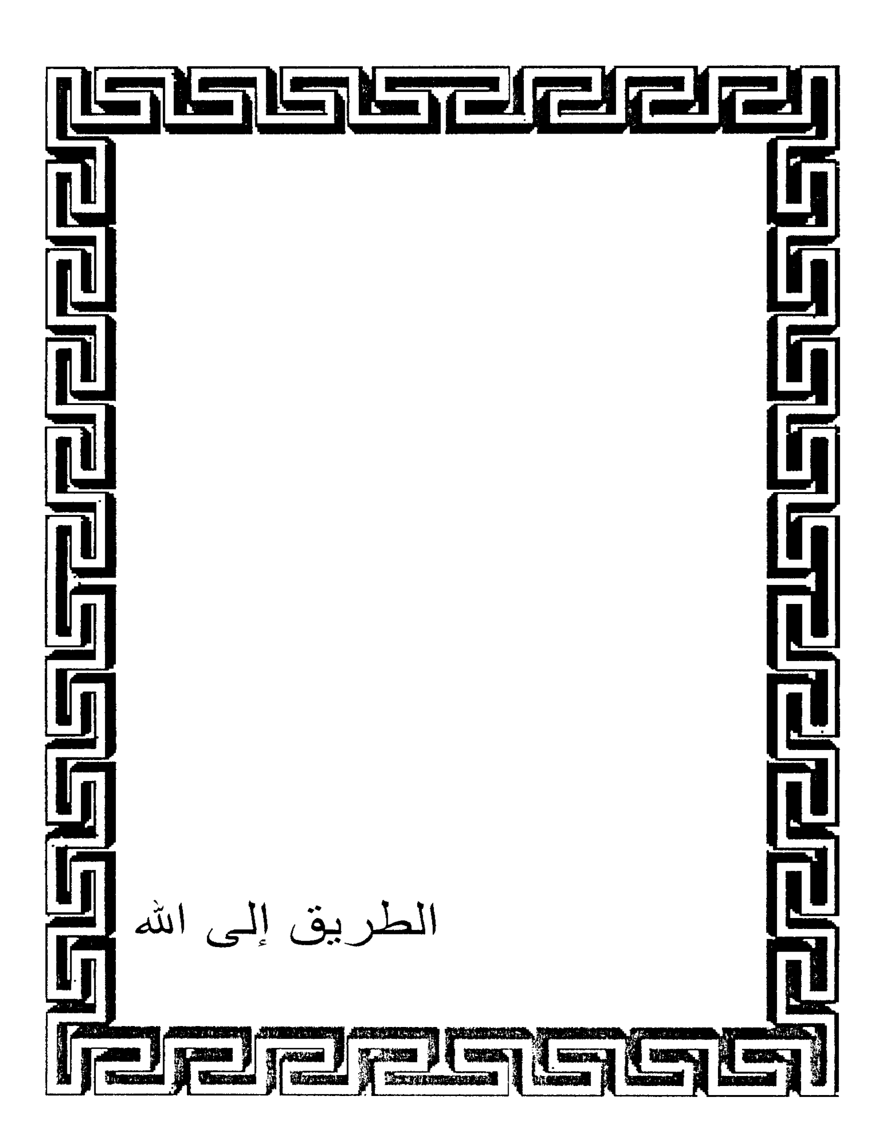


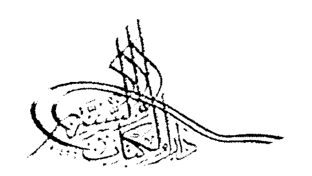
# الطريق إلى الله

تأليف

العلامة المجدد الدكتور
محمد تقي الدين الهلالي المغربي


بسم الله الرحمن الرحيم


الطريق إلى الله



الطبعة الأولي 19 /2007/2

لــ دار الكتاب والسنة

رقم الايداع بهيئة الكتب والوثائق القومية

2007/4513



دار الكتاب والسنة

للطباعة والنشر والتوزيع

المقر الرئيسي والإدارة ٩ شارع احمد اسماعيل متفرع من منشية التحرير من شارع جسر السويس عين شمس الشرقية – القاهرة جمهورية مصر العربية .

جوال : ٠٠٢٠١٠١٠٢١١٨٧ – ٠٠٢٠١٠4671439

فاكس : ٠٠٢٠١٠١٠٢١٠٥٢

موقعنا علي الإنترنت

www.dar-ketab-sunah.com

البريد الإلكتروني

Dar_alktabwalsunnah@hotmail.com

Dar_alketabwalsunnah@yahoo.com

info@dar-ketab-sunah.com

## ترجمة العلامة الشيخ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي

**نسبه:**

هو العلامة المحدث واللغوي الشهير والأديب البارع والشاعر الفحل والرحالة المغربي الرائد الشيخ السلفي الدكتور/ محمد التقي المعروف بـ محمد تقي الدين، كنيته أبو شكيب « حيث سمى أول ولد له على اسم صديقه الأمير شكيب أرسلان »، بن عبد القادر، ابن الطيب، بن أحمد، بن عبد القادر، بن محمد، بن عبد النور، بن عبد القادر، بن هلال، ابن محمد، بن هلال، بن إدريس، بن غالب، بن محمد المكي، بن إسماعيل، بن أحمد، ابن محمد، بن أبي القاسم، بن علي، بن عبد القوي، بن عبد الرحمن، بن إدريس، ابن إسماعيل، بن سليمان، بن موسى الكاظم، بن جعفر الصادق، بن محمد الباقر، ابن علي زين العابدين، بن الحسين، بن علي وفاطمة بنت النبي محمد ﷺ.

وقد أقر هذا النسب السلطان الحسن الأول حين قدم سجلماسة سنة ١٣١١ هـ .

**نشأتـــه:**

ولد الشيخ سنة ١٣١١ هـ بقرية «الفرخ»، وتسمى أيضا بـ «الفيضة القديمة» على بضعة أميال من الريصاني، وهي من بوادي مدينة سجلماسة المعروفة اليوم بتافيلالت الواقعة جنوبا بالمملكة المغربية. وقد ترعرع في أسرة علم وفقه، فقد كان والده وجده من فقهاء تلك البلاد.

**رحلاته لطلب العلم وخدمته للدعوة:**

قرأ القرآن على والده وحفظه وهو ابن اثنتي عشرة سنة ثم جوده على الشيخ المقرئ أحمد بن صالح ثم لازم الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله التندغي الشنقيطي فبدأ بحفظ مختصر خليل وقرأ عليه علوم اللغة العربية والفقه المالكي إلى أن أصبح الشيخ ينيبه عنه في غيابه، وبعد وفاة شيخه توجه لطلب العلم على علماء وجدة وفاس آنذاك إلى أن حصل على شهادة من جامع القرويين. ثم سافر إلى القاهرة ليبحث عن سنة المصطفى ﷺ، فالتقى ببعض المشايخ أمثال الشيخ عبد الظاهر أبو السمح، والشيخ رشيد رضا، والشيخ محمد الرمالي وغيرهم، كما حضر دروس القسم العالي بالأزهر ومكث بمصر نحو سنة واحدة

يدعو إلى عقيدة السلف ويحارب الشرك والإلحاد. وبعد أن حج توجه إلى الهند لينال بغيته من علم الحديث فالتقى علماء أجلاء هناك فأفاد واستفاد؛ ومن أجل العلماء الذين التقى بهم هناك المحدث العلامة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري صاحب «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» وأخذ عنه من علم الحديث وأجازه وقد قرَّظه بقصيدة يُهيب فيها بطلاب العلم إلى التمسك بالحديث والاستفادة من الشرح المذكور، وقد طبعت تلك القصيدة في الجزء الرابع من الطبعة الهندية؛ كما أقام عند الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليماني نزيل الهند آنذاك، وقرأ عليه أطرافا من الكتب الستة وأجازه أيضا. ومن الهند توجه إلى الزبير «البصرة» في العراق، حيث التقى العالم الموريتاني السلفي المحقق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مؤسس مدرسة النجاة الأهلية بالزبير، وهو غير العلامة المفسر صاحب «أضواء البيان» واستفاد من علمه، ومكث بالعراق نحو ثلاث سنين ثم سافر إلى السعودية مرورًا بمصر حيث أعطاه السيد محمد رشيد رضا توصية وتعريفًا إلى الملك عبد العزيز آل سعود قال فيها: «إن محمدا تقي الدين الهلالي المغربي أفضل من جاءكم من علماء الآفاق، فأرجو أن تستفيدوا من علمه»، فبقي في ضيافة الملك عبد العزيز بضعة أشهر إلى أن عين مراقبا للتدريس في المسجد النبوي وبقي بالمدينة سنتين ثم نقل إلى المسجد الحرام والمعهد العلمي السعودي بمكة وأقام بها سنة واحدة. وبعدها جاءته رسائل من إندونيسيا ومن الهند تطلبه للتدريس بمدارسها، فرجح قبول دعوة الشيخ سليمان الندوي رجاء أن يحصل على دراسة جامعية في الهند، وصار رئيس أساتذة الأدب العربي في كلية ندوة العلماء في مدينة لكنهو بالهند حيث بقي ثلاث سنوات تعلم فيها اللغة الإنجليزية ولم تتيسر له الدراسة الجامعية بها. وأصدر باقتراح من الشيخ سليمان الندوي وبمساعدة تلميذه الطالب مسعود عالم الندوي مجلة «الضياء». ثم عاد إلى الزبير «البصرة» وأقام بها ثلاث سنين معلما بمدرسة «النجاة الأهلية» المذكورة آنفا. وبعد ذلك سافر إلى جنيف بسويسرا وأقام عند صديقه أمير البيان، شكيب أرسلان، وكان يريد الدراسة في إحدى جامعات بريطانيا فلم يتيسر له ذلك، فكتب الأمير شكيب رسالة إلى أحد أصدقائه بوزارة الخارجية الألمانية يقول فيها : «عندي شاب مغربي أديب ما دخل ألمانيا مثله، وهو يريد أن يدرس في إحدى الجامعات، فعسى أن تجدوا له مكانا لتدريس الأدب

العربي براتب يستعين به على الدراسة»، وسرعان ما جاء الجواب بالقبول، حيث سافر الشيخ الهلالي إلى ألمانيا وعين محاضرًا في جامعة «بون» وشرع يتعلم اللغة الألمانية، حيث حصل على دبلومها بعد عام، ثم صار طالبًا بالجامعة مع كونه محاضرًا فيها، وفي تلك الفترة ترجم الكثير من الألمانية وإليها، وبعد ثلاث سنوات في بون انتقل إلى جامعة برلين طالبًا ومحاضرًا ومشرفًا على الإذاعة العربية، وفي سنة ١٩٤٠م قدم رسالة الدكتوراه، حيث فند فيها مزاعم المستشرقين أمثال: مارتن هارثمن، وكارل بروكلمان، وكان موضوع رسالة الدكتوراه: «ترجمة مقدمة كتاب الجماهر من الجواهر مع تعليقات عليها»، وكان مجلس الامتحان والمناقشة من عشرة من العلماء، وقد وافقوا بالإجماع على منحه شهادة الدكتوراه في الأدب العربي. وأثناء الحرب العالمية الثانية سافر الشيخ إلى المغرب، وفي سنة ١٩٤٧م سافر إلى العراق وقام بالتدريس في كلية «الملكة عالية» ببغداد إلى أن قام الانقلاب العسكري في العراق فغادرها إلى المغرب سنة ١٩٥٩م. وشرع أثناء إقامته بالمغرب، موطنه الأصلي، في الدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشرك واتباع نهج خير القرون. وفي هذه السنة «سنة ١٩٥٩م» عين مدرسا بجامعة محمد الخامس بالرباط ثم بفرعها بفاس.

وفي سنة ١٩٦٨م تلقى دعوة من سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة آنذاك للعمل أستاذًا بالجامعة منتدبًا من المغرب فقبل الشيخ الهلالي وبقي يعمل بها إلى سنة ١٩٧٤م حيث ترك الجامعة وعاد إلى مدينة مكناس بالمغرب للتفرغ للدعوة إلى الله، فصار يلقي الدروس بالمساجد ويجول أنحاء المغرب ينشر دعوة السلف الصالح. وكان من المواظبين على الكتابة في مجلة «الفتح» لمحب الدين الخطيب، ومجلة «المنار» لمحمد رشيد رضا رحم الله الجميع.

**شيوخه:**

**من شيوخه رحمه الله :**

- الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله الشنقيطي
- الشيخ عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري
- الشيخ محمد العربي العلوي
- الشيخ الفاطمي الشراوي

- الشيخ أحمد سوكيرج
- الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليماني
- الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، غير صاحب «أضواء البيان»
- الشيخ رشيد رضا
- الشيخ محمد بن إبراهيم
- بعض علماء القرويين
- بعض علماء الأزهر

**مؤلفاتــه:**

مؤلفات الشيخ تقي الدين الهلالي رحمه الله كثيرة جدا وجمعها ليس بالأمر الهين لأنها ألفت في أزمنة مختلفة وبقاع شتى، **ومنها :**

- الزند الواري والبدر الساري في شرح صحيح البخاري [المجلد الأول فقط]
- الإلهام والإنعام في تفسير الأنعام
- مختصر هدي الخليل في العقائد وعبادة الجليل
- الهدية الهادية للطائفة التجانية
- القاضي العدل في حكم البناء على القبور
- العلم المأثور والعلم المشهور واللواء المنشور في بدع القبور
- آل البيت ما لهم وما عليهم
- حاشية على كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
- حاشية على كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب
- الحسام الماحق لكل مشرك ومنافق
- دواء الشاكين وقامع المشككين في الرد على الملحدين
- البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في العبودية وبريء من الألوهية
- فكاك الأسير العاني المكبول بالكبل التيجاني
- فضل الكبير المتعالي «ديوان شعر»
- أسماء الله الحسنى «قصيدة»

- الصبح السافر في حكم صلاة المسافر
- العقود الدرية في منع تحديد الذرية
- الثقافة التي نحتاج إليها «مقال»
- تعليم الإناث وتربيتهن «مقال»
- ما وقع في القرآن بغير لغة العرب «مقال»
- أخلاق الشباب المسلم «مقال»
- من وحي الأندلس «قصيدة»

**وفاته:**

في يوم الاثنين ٢٥ شوال ١٤٠٧هـ الموافق لـ ٢٢ يونيو١٩٨٧م أصيبت الأمة الإسلامية بفاجعة ومصيبة يصعب على القلم وصفها، وهي مصيبة موت الشيخ تقي الدين الهلالي - رحمه الله - وذلك بمنزله في مدينة الدار البيضاء بالمغرب. وقد شيع جنازته جمع غفير من الناس يتقدمهم علماء ومثقفون وسياسيون.

وقد قال رسول الله ﷺ: **«انَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا، يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى اذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»** رواه البخاري

**فنسأل الله الكريم أن يرحم الشيخ رحمة واسعة ويدخله فسيح جناته**



## مقدمة

الحمد لله الذي وعد كل من اتقاه، أن يجعل له مخرجا من كل ضيق لاقاه، ومن توكل عليه كفاه، ما أهمه في دنياه وآخره، وصل اللهم على خير خلقك محمد وآله وصحبه وكل من قفاه، أما بعد ....

**فيقول الفقير إلى رحمة ربه المتعالي محمد تقي الدين بن عبد القادر الحسيني الهلالي:** لما وقعت الثورة في العراق سنة ١٠٩١ بتاريخ النصارى وأطلق رئيس الثورة سراح المفسدين الذين كانوا من قبل ذلك معتقلين وأظهر هؤلاء الأراذل عداوتهم لكل من يتمسك بالدين الحنيف ويدعو إليه بأقواله وأفعاله ويعض بنواجذه على الشريعة السمحة الغراء التي أخرجت العرب الأولين ومن حذا حذوهم من المسلمين من ظلمات الجهل إلى نور العلم ومن مهانة الذل إلى العز ومن شقاء التفرق إلى الاجتماع ومن هوة التخاذل إلى التعاون ومن ضيق الفقر إلى سعة الغني ومن شقاء الكفر إلى سعادة الإيمان ومن الضعف إلى القوة ومن مساوئ الأخلاق إلى مكارمها فأسسوا دولا وصلت بعلمها وعملها وأخلاقها إلى أعلى درجات الإنسانية ومن المعلوم عند كل من له أدني مسكة من العلم والإطلاع أن النصارى في القرن السابع الهجري تألبوا وتجمعوا بجيوشهم وملوكهم وغزوا فلسطين السليبة المهيضة الجناح في هذا الزمان فتوجهوا إليها بقضهم وقضيضهم، كل جيش من جيوش أوربا بقيادة ملك دولته فاحتلوا فلسطين وما حولها فقابلهم ملوك المسلمين بشجاعة وصبر واستماتة ودامت الحرب بين الفريقين زهاء خمسة أجيال مائة وتسعين سنة ولم يحاربوهم بسلاح الحديد وحده بل حاربوهم مع ذلك بسلاح الإيمان ومكارم الأخلاق ودونك حادثة واحدة يمكنك أن تقيس عليها، قراءة في مختصر تاريخ أوربا وهو كتاب في مجلدين باللغة الإنجليزية مقرر لتلامذة المدارس الثانوية ومعني ما قرأته باللغة، أصيب ملك بريطانيا وقائد جيشها في فلسطين بجرح في المعركة واسم هذا الملك ريتشارد الملقب بقلب الأسد لشجاعته فسمع بذلك قائد المسلمين الأعلى الملك صلاح الدين الأيوبي رحمة الله عليه وهو الذي وقعت هزيمة الأعداء على يده فردوا على أعقابهم خاسرين فبعث له طبيبه الخاص فعالجه إلى أن شفي.

**أولئـــك آبـــائي فجـــئني بمثلـــهم إذا جمعتنـــــا جريـــــر المجـــــامع**

ومليحـــة شــــهدت لهـــا ضــــراتها        والفضـــل مـــا شـــهدت بـــه الأعـــداء

فقس هذه المعاملة النبيلة بما فعله الخلفاء الغربيون بإخوانهم الألمانيين إخوانهم في الدين والوطن بعد أن ظفروا بهم فإنهم حاكموا رؤساءهم الذين لم يبادروا إلى قتل أنفسهم كما فعل هتلر ركوبلز فحاكموهم محاكمة الذئب للحملات كما قال قيس بن الملوح يخاطب معشوقته.

وكنـــت كـــذئب الســـوء إذ قـــال مـــرة        لـــي بهـــم رعـــت والـــذئب نمرتـــان مرمـــل

ألســـت الـــتي مـــن غـــير شـــيء شـــتمتني        فقالـــت متـــى ذا؟ قـــال ذا عـــام أول

فقالـــت ولـــدت العـــام بـــل رمـــت كذبـــة        فهـــاك فكلـــني لا يهنيـــك مأكـــل

سموهم مجرم الحرب وحكموا عليهم لا بقانون متفق عليه قبل الحرب بل بشريعة الغاب وقتلوهم واحدا بعد واحد شر قتلة وقد حكم قبلهم هتلر معظم بلدان أوربا فلم يقتل أحدا لا يهوديا ولا نصرانيا، ومن الأدلة على ذلك بلوم اليهودي الفرنسي الذي كان رئيسا معظما في فرنسة حبسه هتلر خمس سنين ثم رده سليما إلى بلده فرنسة ولا ينبئك مثل خبير، فخذ حديث شاهد عينان ودع الدعايات الكاذبة.

بعد تلك الثورة نجوت بنفسي إلى المغرب بعد ما تجنست بالجنسية العراقية فلما وصلت إلى المغرب وصرت أستاذا في الجامعة بمساعدة العلامة العبقرى فريد عصره نسيج وحده الأستاذ عبد الله كنون فخر علماء المغرب في العصر الحاضر بارك الله في حياته فوجدت الإلحاد التقليدي الجاهل قد غزا المغرب فدعاني رئيس لجنة الإشراف على مجلة دعوة الحق الأستاذ العلامة المجاهد الوطني محمد الطنجى إلى تحرير مقالات في الرد على دعاة الإلحاد فنشرت أربعاً وعشرين مقالة ضمنتها كتابة لرئيس المجلس العلمي الأمريكي كرسي مورسين مع تعليقات إضافية وتوضيحات وافية فلم يستطع أحد منهم أن يعارض تلك المقالات ثم جاءت مقالة في مجلة لبنانية لرني الحبشي وهو أستاذ في الجامعة الأمريكية سماها العوائق النفسانية للتخطيط وزعم فيها أن السبب الوحيد الذي قعد بالعرب عن التقدم والرقي هو الاعتقاد بفكرة وجود الله فندبتني اللجنة المذكورة إلى الرد عليه فرددت عليه بست عشر مقالة آتت على بنيانه من القواعد فخر عليه السقف من فوقه وألقم حجرا فسكت

عن النباح إلى الأبد وكنت أظن أنه لم يقرء تلك المقالات إلى أن كتب إلى المجاهد الكبير محمد على طاهر الفلسطيني الصحفي الكبير نزيل القاهرة سابقا ونزيل بيروت بعد ذلك وبعث إلى قطعة من صحيفة بيرونية يومية تشتمل على مقال رد به أحد الأساتذة من إخوانه النصارى على رني الحبشي في خصومة وقعت بينهما جاء في ذلك المقال مخاطبة لرني الحبشي يقول له فيه وأن عندك ذرة من الشرف وقليلا من الحياء لم تعد إلى مجادلة أحد بعد ما رد عليك أستاذ جامعي بست عشرة مقالة ولم تستطع أن تجيبه ولو بكلمة، فعلمت حينئذ أن رني الحبشي وغيره من أساتذة الجامعة الأمريكية ببيروت قد قرؤوا تلك المقالات وقد أشار على بعض الأخوان المحبين للعلم والدين أن أجمع تلك المقالات في كتاب واحد يشتمل على السلسلتين، سلسلة دواء الشاكين وسلسلة نقد العوائق النفسانية للتخطيط فأجبته إلى ما التمس وجمعت المقالات الأربعين في كتاب واحد فجاء بحمد الله قنبلة ذرية أعظم من قنبلة هيروشيما على رؤوس الملحدين في أمريكا وأوروبا وعددهم قليل كما ستري ذلك معززاً بالبراهين القاطعة وعلى رؤوس مقلديهم وعددهم وجهلهم كثير في البلاد العربية، وقد أطلع على هذا الكتاب المحسن الكبير السلفي الحنيف الحاج مصطفي بن هاشم الودغيري نائب رئيس جمعية الدعوة إلى الله من سكان الدار البيضاء فسألني عن نشره فأخبرته أن سعادة الملحق الثقافي للسفارة السعودية السيد محمد بن إبراهيم بن عبد السلام أطلع عليه قبل عدة أشهر فالتمس مني نسخة فسلمت له النسخة الأولى فسلمها إلى معالي وزير المعارف بالمملكة السعودية الدكتور عبد العزيز الخويطر فطالع الكتاب وأعجب به فكتب إلى مجلس الوزراء السعودي يطلب طبعه ونشره فقال الحاج مصطفي أن المغرب أحوج إلى هذا الكتاب من المملكة العربية السعودية تبرع بطبعه على نفقته، وهذا من توفيق الله له ومن شهامته وغيرته وجهاده في نشر العلم النافع، فهذه حسنة يخلدها له التاريخ في صفحاته جيلا بعد جيل وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

**أملاه الدكتور محمد تقي الدين الهلالي بالدار البيضاء**
**في ٢٢ من شعبان سنة ١٣٩٠ من هجرة النبي الأكرم**
**صلي الله عليه وآله وصحبه وسلم**

## التعريف بكتاب علمي قيم

دعاني رئيس تحرير مجلة دعوة الحق إلى كتابة مقالات تنشر فيها مما يناسب الغرض الذي أنشئت لأجله وهو الثقافة العامة، وقد رأيت وسمعت أن بعض الشبان وبعض المتصابين من الكهول يشتكون من داء الشك في العقائد الإسلامية والتشريع المحمدي الأغر.

وبالطبع ينتهز هذه الفرصة أبالسة التشكيك والتضليل من المستعمرين الروحيين في خارج البلاد ووكلائهم في داخلها، فرأيت أن الكلام في هذا الموضوع من المهم المتعين، وإن كان أئمتنا أهل الحديث – نضر الله وجوههم في الدنيا والآخرة – قد نهوا عن الخوض في علم الكلام والجدل دون أن تدعو إلى ذلك ضرورة مقاومة المفسدين أو تثبيت عقيدة المؤمنين فعند ذلك تتعين المقاومة ولا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، قال تعالى في سورة البقرة في الحزب الثالث باصطلاح المغاربة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وروى أحمد بن حنبل رحمه الله عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار**». وسأسوق بإذن الله من البراهين القاطعة التي تضطر كل عاقل يطلب الحق إلى الاعتقاد الراسخ لوجود الله سبحانه وأنه الخالق البارئ لكل شيء في العوالم العلوية والسفلية والمهيمن عليه والمدبر لجميع شؤونه وحده بلا شريك ولا ظهير ولا معين.

ألف العالم الفلكي الأمريكي الطائر الصيت كريس مورسن كتاباً نفيساً باللغة الإنجليزية، وقد ترجم هذا الكتاب باللغة العربية مصدرا بمقدمة لشيخ الأزهر السابق وسماه المترجم (**العلم يدعو للإيمان**) إلا أن الترجمة في بعض المواضع غامضة لا يتبين معناها وليست موجودة عندي الآن، وإنما اعتمد في ما انتزعه من البراهين العلمية على النص الإنجليزي وبالله التوفيق.

بدأ هذا المؤلف الحكيم كتابه بمثل ضربه فقال: «افترض أنك أخذت عشرة أفلس وكتبت على كل واحد رقما مبتدئا من واحد إلى عشرة، ثم وضعت الأفلس العشرة في كيس ثم هززت الكيس هزاً عنيفاً حتى اختلط الأفلس بعضها ببعض، ثم أردت أن تخرج تلك

الأفلس على أن تصادف يدك عند إدخالها الكيس في المرة الأولى الفلس المرقوم بواحد وفي المرة الثانية الفلس المرقوم برقم اثنين وفي الثالثة الفلس المرقوم برقم ثلاثة وهكذا إلى آخرها على الترتيب. فكم يكون حظك في النجاح في المرة الأولى أن تصادف الفلس المرقوم برقم واحد وفي المرة الثانية الفلس المرقوم برقم اثنين على التوالي يكون واحد في المائة، فإن أردت أن تدخل يدك في الكيس ثلاث مرات متوالية وتصادف في المرة الأولى الفلس المرقوم برقم واحد وفي المرة الثانية الفلس المرقوم برقم اثنين وفي المرة الثالثة الفلس المرقوم برقم ثلاثة فإن حظك من النجاح يكون واحد في الألف، وإن أردت أن تصادف الأول والثاني والثالث والرابع على التوالي فإن حظك من النجاح يكون واحداً من عشرة آلاف وقس على ذلك إلى العاشر فإن حظك من النجاح أن تصادف يدك الفلس المرقوم برقم واحد إلى الفلس المرقوم برقم عشرة على التوالي يبلغ رقما لا يتصوره العقل وهو احد من عشرة ملايين».

والغرض من ضرب هذا المثل السهل إدراكه أن نبين مقدار استحالة قول من يزعم أن هذا العالم تم خلقه وتدبيره بالمصادفة، فإن هناك شروطاً لازمة لوجود الحياة على أرضنا هذه، وهذه الشروط لا يمكن أبدا من الوجهة الحسابية أن توجد كلها بالنسب المطلوبة بالمصادفة المجردة على أي أرض في أي زمن، لذلك يتحتم أن يكون وراء الطبيعة كائن عالم مدبر، إذا علمت ذلك وهو حق تعلم يقينا أن خلق هذا العالم مقصود ومقدر قبل وجوده تقديرا دقيقا، إذن فالغرض من تأليف هذا الكتاب الإشارة إلى شيء من نظام هذا الكون العجيب.

دعنا الآن نختبر الحقائق المدهشة، زعم علماء الفلك أن نجما عظيماً مر بقرب شمسنا ودنا منها دنوا كبيرا بحيث وقع فيها ارتجاج واضطراب عظيم فانشقت وانفصلت عنها قطع كبيرة وكل قطعة اتخذت لها فلكا تدور فيه وكان ذلك منذ ما يقرب من بليونين من السنين، ثم أن إحدى تلك الكتل التي انفصلت عن الشمس هي هذه الأرض التي نعيش فيها.

قال كاتب هذا المقال قد يستأنس بعض الناس لإثبات هذه النظرية بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ الآية.

ونحن لا نريد أن نتعرض لهذا الاستئناس بنفي ولا إثبات لأن ذلك يتطلب بحثا دقيقا وأناة وصبرا ومقالا منفردا، ولكن نريد أن نبين للمغرورين من الشاكين والمغررين من المشككين أن مثل هذه النظريات التي يحاول علماء الفلك أن يحلوا بها المشكلات الكونية هي أضعف من أن يعتمد عليها في نفي وجود الباري جل وعلا وإبداعه للكائنات وتدبيره لشؤونها بغاية الإحكام والإتقان، كما قال تعالى في سورة السجدة: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾،وقال تعالى في سورة النمل: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ وقد انتقدت طائفة من علماء الفلك هذه النظرية ولم يقبلوها.

وهناك نظريات أخرى في تكوين الأرض ليست أقوى ولا أبعث على الطمأنينة من النظرية السالفة وذلك يدل على قلة ما وصل إليه علم الإنسان من أسرار خلق السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

ثم نعود إلى الكلام على هذه الأرض التي خلقنا الله فيها وأمرنا بالنظر والتفكر فيها، فقال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾. قال العلماء أن هذه الأرض صغيرة الحجم بالنسبة إلى غيرها فهي من هذه الوجهة ليست من الأجرام الفلكية المهمة، ومع ذلك قام الدليل على أنها أهم كوكب نعرفه.

ولنفرض أن الأرض مؤلفة من العناصر الموجودة في الشمس لا غير، فهذه العناصر موزعة في الأرض كل واحد منها له نسبة مئوية وهذه الأجزاء التي خبرناها على وجه الأرض توزيعها في غاية الدقة والإتقان، يدل العالم به أن وراءه مدبرا عالما قديراً منزها عن الوهم والنقص، ثم إن حجمها نفسه قد روعي فيه مقدار معلوم لا يمكن أن يزيد ذرة ولا أن ينقصها، فسرعة دورانها في فلكها حول الشمس مقدرة تقديرا في غاية الدقة، ودورانها حول محورها مقدر كذلك ومحدد بحيث لو وقع فيه اختلاف بثانية واحدة فقط في مدة مائة سنة لانقلب الحساب الفلكي كله وتغيرت حدوده.

ويرافقها كوكب يعرف بالقمر، وحركاته مقدرة بدقة وله دورة محدودة تبتدئ وتنتهي في ثماني عشرة سنة وثلاثة أرباع السنة، ولو كان حجم الأرض أكبر مما هو عليه، أو أصغر، أو كانت سرعتها على غير ما هي عليه لكانت المسافة التي بينها وبين الشمس أبعد أو أقرب، وهذه الحالة تؤثر تأثيرا بليغا في جميع أنواع الحياة التي على وجه الأرض ومنها حياة الإنسان.

قلنا إن اختلاف سرعتها في دورانها يؤثر في بعد المسافة أو قربها وفي كلتا الحالتين من القرب والبعد لا يمكن أبدا وجود الحياة على وجه الأرض على الوجه الذي نعرفه، والأرض من بين جميع الكواكب السيارة، وحسب ما نعلمه حتى الآن هي الكوكب الوحيد الذي بسبب علاقته بالشمس صار في الإمكان وجود هذه الحياة التي نحياها فيه.

قال كاتب المقال: «قال العلماء: إن العناصر التي تتألف منها الأرض موزعة بمقادير دقيقة لا تزيد ذرة ولا تنقصها»، فمن الذي قدرها قبل خلقها وعلم أنها لا تصلح إلا كذلك، ثم خلقها وأنشأها على وفق علمه وحفظ تلك المقادير محدودة بالحد الذي حده والنظام الذي أبدعه أليس هو الله رب العالمين القائل في سورة الذاريات: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾، وقال تعالى في سورة النازعات: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾.

ومن الذي جعل حجم الأرض على ما هو عليه وعلم أنه لو زاد على هذا القدر لما أمكن وجود الحياة على ظهر الأرض ولبطل خلقها وإنشاؤها، أليس هو الله رب العالمين؟

ومن الذي جعل الأرض تدور حول الشمس في مدة سنة وتدور على محورها في أربع وعشرين ساعة، ولو زادت ثانية واحدة وهو جزء من ستين جزءا من الدقيقة في مدة مائة سنة لاختل نظامها، أيمكن أن يوجد هذا كله علي سبيل المصادفة بلا علم ولا تدبير ولا هيمنة؟ كل من له أدني مسكة من العقل والإنصاف يعلم يقيناً أن وراء ذلك الصنع العجيب مدبرا عليما حكيما فتبارك الله أحسن الخالقين.

ومن الذي جعل هذا القمر يرافق الأرض دائرا حولها بحساب دقيق معلوم في منازله وفي المقادير االتي تظهر منه هلالا فقمرا منير فبدرا تاما ثم يتناقص حتى يختفي ثم يعود هلالا مرة أخرى، أليس هو القائل في سورة يس: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝ لَا

ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾، أليس هو القائل: ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾.



## لا يستحق العبادة إلا الله، وويل لمن عبد غيره

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

العبادة غاية الحب في غاية التذلل، ولا يستحقها إلا الله عز وجل لأنه الخالق الرازق الذي تفضل علينا بنعمة الإيجاد والإمداد، ولها أعمال وأقوال تدل عليها، فأعظمها الدعاء وهو طلب جلب النفع أو دفع الضر، ومنها الاستغاثة والاستعانة والتوكل في ما لا يقدر عليه إلا الله كإنزال المطر وشفاء المريض وكشف سائر الأضرار إذ هو الذي مهد لنا الأرض وجعلها فراشا صالحة لأن نسكن فيها ونسير في مناكبها في برها وبحرها وجوها وجعل السماء سقفا محيطا بنا حافظا لنا وأنزل المطر من السماء فأخرج به لنا من أنواع الثمرات ما لا يأتي عليه الحصر ولا يحده وصف.

والآن ننظر ماذا في السماوات والأرض من الأسرار والعجائب والحكم لنزداد علما ومعرفة وتعظيما للواحد الأحد.

قال علماء الفلك أنه إلى حد الآن لم يتحقق عندهم أن الحياة بأي نوع من أنواعها موجودة في أي جرم من الأجرام السابحة في الفضاء ما عدا هذه الأرض التى نعيش فيها، قالوا أن عطارد لا يمكن وجود الحياة فيه لأنه لا يواجه الشمس منه إلا جانب واحد من جانبيه، وهذا الجانب لابد أن يكون صحراء حامية كالأتون، وهو الفرن الذي يصنع فيه الخزف، والجهة الأخرى جامدة شديدة الزمهرير ولا يوجد فيه هواء، وإن وجد شيء منه فإنه غير مستقر بل هو في عصف مستمر يندفع من جانب إلى جانب.

وأما الزهرة فإنه يحيط بها ضباب وبخار وجوها ثخين لا يصلح للحياة بأي شكل من أشكالها.

أما المريخ فهو الكوكب الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه حياة كأرضنا، أما في بدايتها أو في أول ظهورها وتميزها، لكن الحياة في المريخ إن كانت موجودة فلابد أن تعتمد على غاز آخر غير الأكسجين والهيدروجين، لأن هذين يظهر أنهما لا يوجدان فيه، ووجهه غير صالح للثبات على الوجه الذي نعرفه.

أما القمر فلا يمكن أن يمسك الهواء وهو الآن غير صالح لأن يكون مسكوناً، لأن ليله شديد البرد إلى حد يستحيل أن يعيش فيه حيوان أو نبات، وأما نهاره الطويل فهو في غاية الحر.

وأما الأجرام السماوية الأخرى فهي بعيدة عن الشمس فلا يمكن أن توجد فيها الحياة بأي شكل من أشكالها فتبين حسبما نعلم أن الحياة لا توجد إلا في أرضنا، ولم تكن في أول خلقها صالحة لوجود الحياة فيها فقد مضت عليها أطوار استغرقت بليونين أو ثلاثة من السنين قبل أن تكون صالحة وملائمة لوجود الحياة حياة النبات والحيوان ثم توجت بإيجاد الإنسان الذي هو السيد المتصرف فيها بإذن الله، والأرض تدور على محورها مرة في كل أربع وعشرين ساعة أو بمقدار ألف ميل في كل ساعة، فلنفرض أنها تدور على محورها بسرعة مائة ميل في الساعة، فحينئذ تكون أيامنا ولياليناأطول مما هي عليه عشرات المرات، فشمس الصيف الحامية تحرق جميع النباتات وفي ليالي الشتاء الطويلة يجمد كل شيء وتكون الحياة مستحيلة.

أقول للشاكين وأساتذتهم المشككين ماذا تقولون في هذه الدقة في دوران الأرض على محورها بالقدر الذي يصلح لحياة الحيوان والنبات لا أكثر ولا أقل. ألا ترون وراء هذا النظام الدقيق علما وقدرة وتدبيرا مقصودا محكما؟ أتظنون أن هذا كله وقع على سبيل المصادفة فأين تذهبون؟.

والشمس التي هي مصدر جميع الحياة، تبلغ الحرارة على وجهها اثني عشر ألف درجة فارنهايت، وأرضنا بعيدة من الشمس التي هي نار حامية بعداً كافياً بالقدر الذي تعطينا فيه الحرارة الكافية لحياتنا لا أكثر ولا أقل، إنه لنظام عجيب، ومع مضي الملايين من السنين لم تختلف حرارتها إلا قليلا ولذلك بقيت الحياة مستمرة، لو تغير مقياس الحرارة على وجه الأرض حتى بلغ معدله خمسين درجة لمدة سنة لمات كل نبات على وجه الأرض ولأحترق الإنسان أو جمد، وتدور الأرض حول الشمس بسرعة ثمانية عشر ميلا في كل ثانية، ولو أن سرعة دورانها كانت ستة أميال أو أربعين ميلا في كل ثانية لبعدنا كثيرا جداً من الشمس أو لقربنا منها كثيرا وحينئذ لا يمكن أن تكون حياتنا على الشكل التي هي عليه الآن.

فمن الذي جعل دوران الأرض حول الشمس ثمانية عشر ميلا في الثانية، وقدر ذلك عالما به وجعله على القدر الذي تصلح عليه حياة الحيوان والنبات لا يزيد ثانية ولا ينقصها، أليس هو العليم القدير.

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾.

والنجوم تختلف في الحجم كما نعلم، فمنها الكبير إلى حد أنه لو كان في موضع شمسنا لكانت أرضنا داخلة في جوفه بعيدة عن سطحه ملايين الملايين من الأميال، والنجوم وهي شموس تختلف في إشعاعها فبعضها ترسل أشعة قاتلة لا تصيب شيئا حياً من حيوان أو نبات إلا أهلكته، بل لا يمكن وجود الحياة معها، وبعضها تعطى أشعة ضعيفة أقل من أشعة شمسنا بكثير جدا فلا تمكن الحياة معها.

ولو أن شمسنا ترسل نصف الأشعة التى ترسلها الآن فقط لجمدنا من شدة البرد، ولو أنها ترسل أشعتها خمسين في المائة زيادة على ما ترسله الآن لصرنا رماداً منذ بعيد هذا إذا أمكن وجودنا بالمرة على شكل ذرة الحياة الأولى التي تسمي عند علماء الحياة بروتوبلاسما، فالأشعة التي ترسلها شمسنا موافقة بالضبط لما تحتاج إليه حياتنا لا تزيد ذرة ولا تنقصها، وهي واحدة من بين ملايين الشموس التي لا تصلح لحياتنا.

أقول فمن الذي جعل أشعة هذه الشمس مطابقة لما تستلزمه حياتنا لا زيادة ولا نقص، أليس هو العليم الخبير؟ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾.

وقد بعجت الأرض في إحدي زواياها عند الدرجة الثالثة والعشرين، وهذا هو الذي نشأت منه فصول السنة الأربعة، ولولا ذلك لكان القطبان في غلس دائم، والغلس هو اختلاط النور بالظلام كما يكون الأمر بعد طلوع الفجر، وحينئذ لا تصل أشعة الشمس إلى القطبين أصلا، وفي هذه الحال تنشأ جبال هائلة من الثلوج والمياه الجامدة وتؤثر في البحور والمحيطات فتضطرب وينشأ عن ذلك ضرر عظيم لسكان الأرض.

أقول وفي ذلك برهان ساطع على أن الله قدر الأرض قبل خلقها، ثم خلقها طبقاً لتقديره وجعلها على نظام دقيق صالح لحياة العباد على أحسن حال فتبارك الله أحسن الخالقين.

**وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد**

فماذا يقول الشاك وماذا يقول المشكك في هذه الأدلة القاطعة؟ أيتجرأ أن يدعي أن ذلك كله وقع على سبيل المصادفة رمية من غير رام؟ إن تجرأ على هذه الدعوى يكون قد خرج عن دائرة العقل والإنصاف واتصف بالوقاحة والمكابرة فلا يقيم العقلاء له وزنا.

والقمر يبعد عن الأرض بمائتين وأربعين ألف ميل ومع ذلك فإن المد الذي يقع في البحار مرتين في كل يوم يذكرنا بتأثيره في الأرض، ويبلغ ارتفاع الماء في المحيطات بسبب المد ستين قدما في بعض الأماكن.

وللمريخ قمر صغير لا يبعد عنه إلا ستة آلاف ميل، ولو أن قمرنا كان قريبا من أرضنا بأن كانت المسافة بينهما خمسين ميلا فقط بدلا من المسافة الحاضرة لكان المد شديداً هائلاً بحيث يغرق جميع الأراضي المنخفضة في القارات كلها، بل تبلغ قوته إلى أن يزيل الجبال ويكسحها من أماكنها، وحينئذ يتوقع أن يغمر الماء الأرض كلها فلا يظهر شيء من القارات، ويحدث المد في الهواء عواصف هائلة كل يوم، وفي هذه الحال لا يمكن وجود الحياة إلا في قعر البحار المحيطة.

أقول فمن الذي جعل القمر بعيدا من الأرض بالقدر الذي ينفع ولا يضر، فإن المد الذي يحدثه القمر في البحار ينفع الناس، فلولاه ما أمكن دخول البواخر الكبيرة من خليج البصرة إلى شط العرب وهو النهر المتألف من دجلة والفرات فلا تصل البواخر إلى عبادان ولا المحمرة ولا البصرة، وبيان ذلك أن ماء النهر لا يكفي لدخول البواخر الكبيرة وسيرها فإذا جاء المد دفع ماء النهر إلى الوراء فامتلأ النهر وأمكن سير البواخر فيه، فإذا جاءت البواخر في وقت الجزر تنتظر وقت المد لتدخل إلى المراسي المذكورة، وكذلك تفعل إذا أرادت الخروج منها، وليست فائدة المد منحصرة في ما ذكر فإن سقي المزارع في ناحية البصرة يتوقف على المد، فكل مزرعة أو جنة يريد صاحبها سقيها فما عليه إلا أن يفتح مدخل الماء من النهر أو من أحد فروعه قبل وقت المد فإذا جاء المد دخل الماء فسقيت المزرعة أو الجنة بالقدر الذي يريده صاحبها فإذا أراد صرف الماء وقطعه عنها فما عليه إلا أن يسد الشعب الذي يدخل منه الماء، وهناك فوائد أخرى في المد صرفنا النظر عن ذكرها فسبحان الخلاق العليم.

ولو أن القارات زالت لغمر ماء البحار الأرض كلها وصار عمقه نحو ميل ونصف وانعدمت الحياة إلا في قعر البحار المحيطة كما تقدم، وبناء على القوانين الفلكية المعترف بها يرى علماء الفلك أن المد الذي يحدثه القمر في البحار يدفع القمر نفسه ليبعد عن الأرض، وفي الوقت نفسه يؤثر بطئا في دوران الأرض من أقل من ست ساعات إلى أربع وعشرين ساعة في اليوم، فالقمر الذي هو الآن سمير للعشاق سيبقي مستمرا على نظامه البديع بإذن الله لمدة بليون من السنين، وأولئك الفلكيون أنفسهم يعتقدون أيضاً طبقا للقوانين الفلكية نفسها أنه سيرجع في يوم من الأيام إلى الأرض وينفطر حين يدنو من الأرض جدا وتبيد الأرض وأهلها ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أقول فمن الذي أحدث ذلك التفاعل المفيد بين الأرض وابنها الوحيد القمر لمصلحة العباد، وسيحفظه كذلك إلى يوم الميعاد، ويومئذ تنفطر السماء وينشق القمر وتكور الشمس وتنكدر النجوم وتسير الجبال ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

يقول علماء الفلك أن مادة الأرض قد اقتطعت من الشمس على شكل خليط من العناصر الغازية تبلغ حرارته اثني عشر ألف درجة وألقيت في الفضاء الذي لا نهاية له، من ذلك تطورت الأرض حتى صار لها نظام شمسي دقيق، وكل طور من تلك الأطوار جاء مترتبا على ما قبله بتقدير وتطبيق في غاية الإحكام ومنتهي الكمال لا يقع فيه اختلاف ولو في بليون سنة.

أقول هذا كلام علماء الفلك وهو واضح في الدلالة على الخالق العليم القدير الذي أحسن كل شيء خلقه فتبارك الله رب العالمين.



## أنواع الغاز الذي نتنفس به

من المعلوم أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش لحظة بلا تنفس الهواء اللازم لحياته، ولذلك نرى العمال الذين يشتغلون في باطن الأرض كعمال المناجم يتزودون بالمقدار الكافي من الهواء النقي لتنفسهم وحياتهم، ونرى المتسلقين لقمم الجبال الشواهق كجبال هملايا في الهند أيضاً يأخذون معهم المقدار الكافي من الهواء للتنفس، لأن الهواء الصالح للتنفس يقل بالتدريج كلما ارتفع الإنسان في الجو حتى ينعدم بالمرة، وهذا هو الذي يعسر على الإنسان والحيوان الانفصال عن الأرض زيادة على ما يسمي بالجاذبية وهو انجذاب كل ثقيل في جو الأرض أو فوقها، الانجذاب هو طلبه للقرار وهو مركز الأرض أي وسطها، فلو ألقيت حجرا من أعلى الجو لأنطلق بسرعة طالباً لمركز الأرض، فإن لم يجد مانعا استمر هابطا حتى يبلغ مركز الأرض ويقف فلا يزيد ذرة ولو لم يجد مانعا، فلو ألقينا حجرًا من جهة الشرق وحجراً آخر من جهة الغرب ولم يجدا مانعاً لنزلا حتى يجتمعا في مركز الأرض، ولو جعلنا بدل الحجرين إنسانين لاجتمعت أقدامهما في المركز إذا لم يمنعهما مانع، هذا ما قاله الإمام ابن تيمية في كتاب الرسالة العرشية، وجميع العلماء من المسلمين وغيرهم متفقون على هذا.

وكم سمعنا بعملة يحفرون بئراً في الأرض التي يقل الماء فيها حتى إذا وصلوا إلى مسافة بعيدة في أسفل الأرض أصابهم إغماء ثم موت على الفور، وحفار الآبار يعرفون ذلك بالتجربة فإذا اضطروا إلى إنزال العملة إلى مسافة بعيدة من الأرض يربطون في أوساطهم حبالا حتى إذا أحس أحدهم بالإغماء يصيح فيجذبه رفقاؤه ويرفعونه إلى وجه الأرض فيستنشق الهواء النقي ويرجع إليه وعيه، والعمال لا يعرفون سبب ذلك فيظنون أنه من البئر ويقولون فلان نفخت عليه البئر فمات، والحقيقة أن البئر لم تنفخ عليه، وإنما وصل إلى موضع لا يوجد فيه الهواء اللازم لتنفسه وحياته، وكم سمعنا بفرد أو جماعة ناموا في بيت فيه فحم في مجمر لم يتم إحتراقه وسدوا عليهم باب البيت فأصبحوا أمواتا، فما هو سبب موتهم؟ الجواب سهل فإن الكاربون الذي ينبعث من الفحم يأكل الهواء الذي في البيت حتى ينقضي بالتدريج فلا يجد النائمون هواء يتنفسونه فيموتون، وهذا كله يدلنا على

أن الهواء ضروري لحياة الإنسان والحيوان البري كضرورة الماء للحيوان البحري، والآن دعنا نتخذ الهواء الذي تتوقف عليه حياتنا برهانا جديدا على النظام والتدبير البديع الذي يقوم عليه هذا العالم العجيب، أعلم أن الهواء المحيط بالأرض يتألف من عناصر، وهي: الأكسجين والنتروجين والأركون والنيون والسنون والأكربتون، ويحتوى على بخار الماء ونحو ثلاثة أجزاء من عشرة آلاف من أكسيد الكاربون، ثم إن الأنواع القليلة المقدار من الغاز توصل إلى العين اللون الأحمر والأزرق والأخضر، والأركون الذي يوجد منه في الهواء تسعة من عشرة أجزاء من واحد في المائة يعطينا الضوء الكهربائي اللامع الذي لم يزل في تقدم مطرد يزيد في ازدهار المدنية ويستعمل في كل مكان.

والنتروجين الذي يوجد منه تقريبا ثمانية وسبعون في المائة في الهواء، والأكسجين الذي هو على العموم أحد وعشرون في المائة، فالهواء بمجموعه يضغط على الأرض تقريبا بقدر خمسة عشر رطلا على كل أنش[1] مربع على مستوى سطح البحر، والأكسجين الذي يوجد في الجو هو أحد أجزاء هذه المواد يحدث ضغطاً بقدر ثلاثة أرطال لكل أنش مربع، وكل ما بقي من الأكسجين هو محصور في قشرة الأرض ويشكل ثمانية من عشرة من جميع المياه التي في الأرض.

ثم إن الأكسجين تتوقف عليه حياة كل حي على وجه الأرض من إنسان وحيوان، ولا يمكن الحصول عليه إلا في الجو، والآن تعرض لنا مسألة مهمة جداً وهي كيف وجد من هذا العنصر المهم المقدار الكافي بالضبط لحياة الإنسان والحيوان لا أكثر ولا أقل.؟ فلو كان مقدار الأكسجين مثلا خمسين في المائة أو أكثر بدل أحد وعشرين لصارت كل مادة في الأرض قابلة للاشتعال على غاية الاستعداد للالتهاب لأدني ومضة من البرق فإذا أصابت شرارة شجرة التهمت النار جميع أشجار الغابة وما حولها، ولو نقص مقدار الأكسجين إلى حد عشرة في المائة أو أقل لضعفت الحياة على وجه الأرض وسارت نحو الفناء: فمن الذي ركب الهواء من تلك العناصر وجعل من كل عنصر أجزاء محدودة في غاية الدقة لو زاد شيء منها أو نقص مثقال ذرة لفسد الكون واختل نظامه؟ وهل في وسع عاقل يطلع على

---

( ١ ) الأنش: هو مقياس إنجليزي، في القدم ١٢ أنشا، والقدم: ثلث الياردة التي تساوي ٩٠سنتيما.

ذلك أن يدعي أن هذا الكون وليد المصادفة والاتفاق رمية من غير رام؟.

وقد قيل إن الإنسان إذا تنفس يشبه الأتون المتقد، وهذا القول له نصيب من الحقيقة، فإن الإنسان في كل نفس يقذف مقدار من الكاربون ويأخذ مقدارا من الأكسجين، وكل شيء حي من إنسان وحيوان كذلك.

والأكسجين زيادة على ذلك شرط جوهري للحياة لتأثيره على العناصر الأخرى في الدم وفي غيره من أجزاء الجسم التي بدونها لا توجد الحياة.

ومن جهة أخرى قد علم يقينا أن حياة جميع النبات تتوقف على مقدار من ذرات أكسيد الكاربون الموجودة في الهواء التي نتنفسها، فالأوراق للأشجار بمنزلة الرئتين للإنسان فالنبات بعكس الحيوان يأخذ الكربون ويعطي الأكسجين الذي نتنفسه، فالنبات يغذي نفسه بإذن الله وينتج زيادة على ذلك ما يكفي لغذاء كل حي على وجه الأرض، وفي الوقت نفسه يخرج الأكسجين الذي نتنفسه، والذي بدونه تنقضي الحياة في خمس دقائق، فيجب أن نعرف مقدار هذه النعمة التي تتوقف حياتنا عليها. فجميع النبات من شجر ونجم وأعشاب وغير ذلك من أنواع الزرع تتوقف حياته على الكاربون والماء، فالحيوان يعطي حامض أكسيد الكاربون، والنبات يعطي الأكسجين، ولولا هذا التبادل الواقع بينهما لاستهلك الحيوان الناطق والأعجم جميع ما في الأرض من الأكسجين، وحينئذ تكون القاضية، أو يستهلك النبات جميع ما في الأرض من الكاربون فيهلك، وأيهما هلك أولا تبعه الآخر.

وقد اكتشف أخيرا أن حامض أكسيد الكاربون بمقدار قليل أيضا لابد منه لحياة أكثر الحيوان وكذلك النبات يحتاج إلى قليل من الأكسجين.

وينبغي لنا أن نذكر الهيدروجين ونضيفه إلى ضروريات حياتنا، فمع أننا لا نتنفس هذا العنصر، لا نستطيع العيش بدونه لأن الماء الذي تتوقف عليه حياتنا لا يوجد بدون هيدروجين، فالأكسجين والهيدروجين وحامض أكسيد الكاربون كل على انفراد ومجتمعات بنسب مختلفة تشكل عنصرا حيويا لوجود أنواع الحياة الثلاثة: حياة الإنسان، وحياة الحيوان، وحياة النبات. وهذه العناصر هي الأساس الذي ترتكز عليه الحياة ولا يمكن أبدا ولو بقدر واحد من ملايين أن توجد هذه العناصر كلها بمقاديرها المحدودة جداً في غاية الدقة في وقت واحد على كوكب واحد وهو أرضنا التي نعيش فيها بالقدر الذي تحتاجه الحياة. إن العلم

لا يضع تعليقات على الحقائق وإنما يقتصر على كشفها، وإذا زعمنا أن وجود تلك العناصر بالتفصيل السابق، وتوقف الحياة عليها، كل ذلك وقع على سبيل المصادفة، نكون قد أنكرنا الضروريات الحسابية، كما لو قلنا أن الواحد ليس نصف الاثنين. فماذا يقول الشاكون وأساتذتهم المشككون في هذه البراهين القاطعة، والأنوار الساطعة، التي أتت بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم، كما قال الله تعالى في سورة النحل: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ماذا يقول المعلمون المجهلون الذين يفسدون فطرة الصبيان الصافية، وينجسون عقولهم الطاهرة، بزعمهم أن السبب في اعتقاد الإنسان وجود الله تعالى هو الخوف والجهل بنواميس الطبيعة، فقد زعموا أن الإنسان الأول كان يخاف من كل شيء يحدث في العالم كالبرق والصواعق والحرائق التي تحدث في الغابات والخسوف والكسوف وجلجلة الرعد والفيضان الذي يحدث بكثرة الأمطار وغير ذلك، فأخذ يتخيل أن هناك كائنا منفردا أو متعددا يحدث تلك الأمور إذا غضب، فأخذ الإنسان يتملق له بتقريب القرابين، من ذبائح وغيرها خوفا من أن يصيبه بتلك الحوادث المهلكة، وقد زعم هؤلاء أن هذا العصر عصر العلم قد كشف أسباب تلك الحوادث، ورفع سلطان الخوف عن الإنسان، وحرر عقله من الأوهام، فلم تبق به حاجة إلى اعتقاد وجود الله والخضوع لعظمته والتلذذ بمعرفته، وتكميل النفس بطاعته. ماذا يقولون إذا رأوا أن العلم هو الذي كشف الغطاء عن تلبيسهم وحيرتهم، وأقام البرهان القاطع وأوجد العلم الضروري بأن لهذا العالم خالقا مبدعا، مدبرا عالما حكيما، متصفا بجميع صفات الكمال التي لا يدرك كنهها. قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ صدق الله العظيم. إن الله لم يخلق هذا الكون البديع الذي هو في غاية الإحكام عبثاً وباطلا بلا حكمة ولا غاية، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾.

**نتروجين**

يقال إن النتروجين عنصر غير قوي وهو غاز بطيء التأثير، وهذا الغاز مهم جدا، لأنه يعمل على تلطيف الأكسجين حتى يكون ملائماً أحسن الملاءمة للإنسان والحيوان، كما قلنا من قبل في الأكسجين نقول الآن أن المقدار الموجود من نتروجين والتأثير الذي يحدثه هو القدر المطلوب لا أقل ولا أكثر. يمكن أن نقول: إن الإنسان قد واءم وهيأ نفسه لقبول أحد وعشرين في المائة من الأكسجين في الهواء وذلك صحيح.

ولكن هنالك حقيقة وهي أن ذلك القدر هو الذي يحتاجه الإنسان بالضبط وهو أفضل شيء لحياته يزيدنا يقينا وإيمانًا بدقة النظام الكوني وإتقان تقديره وتدبيره، ومن العجيب أن نجد أن التوزيع الذي وقع في الأكسجين يعود إلى عاملين اثنين: الأول أن الأرض لم تستوعبه تشربا، ولو استوعبته لصار جزءا من قشرة الأرض أو من المحيطات، والثاني أن المقدار الباقي منه طليقاً هو بالضبط القدر الذي يستطيع مجموع النتروجين تلطيفه، ولو كان النتروجين أكثر أو أقل مما هو عليه ما استطاع الإنسان أن يتطور في خلقته، ويصل إلى الحال التي هو عليها، وهذا أمر يسترعي النظر، وبالجملة فهو جزء من الهواء ضروري لحياة الحيوان والنبات.

أضف إلى ذلك أن النتروجين هو أحد الأجزاء التي يتألف منها الغذاء الذي نتقوت به، وبدونه يموت الإنسان جوعا، فإن كل شيء من النبات الذي يخرج الغذاء الذي يعيش به الإنسان والحيوان، وتخصب به الأرض وبدونه لا يوجد ثمر ولا بقل ولا حبوب. والطريق الذي يدخل فيه النتروجين في النبات يكون على شكل بكتريا وهي مخلوقات حية في غاية الصغر لا ترى إلا بالمجهر تكون قواما للنبات حتى إذا مات ذلك النبات تبقي تلك المخلوقات في الأرض لتكون قواما لنباتات أخرى تخلفها، وهناك طريق آخر يصل به النتروجين إلى الأرض وهو أن الرعد حين يحدث في الجو ويلمع البرق يكون فيه مقدار صغير من الأكسجين مع النتروجين فيحمل المطر إلى الأرض ذلك المركب الذي تتم به حياتها ويكمل النفع بخيراتها. وما أحسن قوله تعالى في سورة ق: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾،

وتسهيلا لفهم هذه الآيات نشير إلى معناها فنقول: والأرض مددناها أي بسطناها وهيأناها حتى صارت صالحة لسكني الإنسان والحيوان، وأنبتنا فيها من كل صنف جميل يسر الناظر، ويستمتع به الإنسان والحيوان ويكون مددا لهما وقوة، فعلنا ذلك تعليما وتذكيرا لكل إنسان مؤمن مستمسك بحبل الله مسلم أمره إليه، لأنه هو الذي ينتفع بما يراه من عجائب صنع الله، ونزلنا من السماء أي من أعالي الجو ماء مباركاً طهورا فيه حياة ونفع للإنسان والحيوان، فأنبتنا به جنات أي بساتين وهي التي يسمي المغاربة أحداها جنانا والحقيقة أن هذا جمع جنة وتسمي الجنة أيضا حديقة قال تعالى في سورة النمل: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ وحب الحصيد: هو الحب الذي يؤخذ مما يحصد كالبر والشعير وغيرهما من أنواع الحب، والنخل باسقات لها طلع نضيد أي: طويلات مرتفعات، والطلع: ثمرها أول ما يبدو والنضيد المنضدد المرتب أحسن ترتيب، فعل الله ذلك رزقا للعباد رزقهم إياه وأنعم به عليهم ليشكروه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئا قال تعالى: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي: أرضا ميتة كما قال تعالى في سورة يس: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ شبه الله الأرض في حال يبسها وعدم نزول المطر عليها بالجسد الميت الذي لا روح فيه ولا حركة له، وشبهها بعد نزول المطر عليها بالجسد الحي المتصرف في شؤونه المزاول للأعمال النافعة. ثم شبه إحياء الأرض بإحياء الأموات وبعثهم وحشرهم يوم القيامة لينالوا جزاءهم على أعمالهم في الحياة الدنيا، وقد تكرر هذا المعني في القرآن العظيم، وكل ما شرحه علماء الفلك من أحوال العناصر التي يتألف منها الكون ومنها النتروجين الذي كان آخر ما أشرنا إليه في هذا المقال وبينا أن وجوده بالقدر الذي هو عليه ضروري لغذاء الإنسان والحيوان كل ذلك موجود في القرآن الكريم يجده من تدبره ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾.

## ما هي الحياة؟

تحت هذه الترجمة كتب العالم الفلكي كريسي مورسن فصلا رائعاً أجاب به عن هذا السؤال الخطير الذي شغل أذهان الحكماء وأطال فكرة العلماء.

وسألخص كلامه بعد أن أذكر شيئا من الآيات البينات التي جاءت منوهة بشأن الحياة، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، أي كنتم في العدم فأخرجكم إلى الوجود، ثم يميتكم بعد انقضاء آجالكم ثم إليه ترجعون ليجزيكم بأعمالكم، فواهب هذه الحياة يجب أن يشكر ولا يجوز أن يكفر به. ومن كفر به فقد سفه نفسه ولم ينتفع بعقله، قال تعالى في سورة الحج:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ صدق الله العظيم، إن الإنسان لكفور يجحد نعمة الله ويتبع هواه إلا من رحم ربك، وقال تعالى في سورة الملك: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴾ وهب الله عباده الحياة ليختبرهم وهو أعلم بهم ليتبين فضل المحسن فيجازي على إحسانه بأحسن منه، وتظهر إساءة المسيء فيعاقب على إساءته بمثلها.

والآن ندرس مع المؤلف حقائق هذه الحياة الباهرة ونطلع على أسرارها المحيرة، قال المؤلف أن الحياة أمر عجيب لقد غزت أعمال البحار المحيطة وقمم الجبال الشاهقة ورمال الصحاري القاحلة وكتل الجليد الضخمة التي هي كالجبال وقاومت الزلازل الهائلة التي غيرت وجه الأرض مراراً، واستمرت في ذلك كله قوية نامية لا يقف في طريقها شيء تقاوم الأخطار والعوائق لا تعرف الإحجام فضلا عن الانهزام، لم تزل في تقدم منذ نشأت تذلل جميع العقبات من جليد وطوفان وأعاصير في ملايين السنين، لقد أتي الطوفان على القارات فأكتسحها وألقاها في البحر فكان تراب الأراضي القديمة كأنه كفن يغطي قعر البحر المحيط ومع ذلك بقيت الحياة مستمرة.

إن الحياة تستعمل ذرات الأرض وتتبع القوانين الكونية وتظهر في شكل عجائب جديدة لكنها تترك خلفها كلما تقدمت في أطوارها آثارا تدل عليها، فالفحم والزيت الأرضي والغاز كلها أدلة تشهد بنشاط العالم القديم وبالقوة التي أخذتها الحياة من الشمس واستخرجها الإنسان في شكل نار، فهذه القوة تفوق وتفضل غيرها من الفوائد لأنها هي

التي رفعت شأن الإنسان وفضلته على الحيوان، فبسبب النار استطاع الإنسان أن يتخذ لنفسه مستقرا وأن يحصل على جميع مقومات الحضارة كل ذلك وقع لأن الحياة استطاعت أن تحافظ على القوة المأخوذة من الشمس.

لقد استولت الحياة وسيطرت على أحوال البحار والأرض والجو، ثم تقدمت إلى الأمام فظهرت في شكل نبات وحيوان من الأميبا (وهو حيوان صغير لا يرى إلا بالمجهر متكون من خلية واحدة) من الأميبا إلى الحوت والحشرات وذوات اللبن والطير السابحات في الهواء، لقد سيطرت الحياة على العناصر فحللت مركباتها ثم أعادت تركيبها بنسب جديدة، ثم انحدرت إلى المكاريب والخلايا (وهي الأجزاء التي لا تتجزأ من الأحياء) سواء في ذلك الحيوان والنبات، إن الحياة تنتج مخلوقات على أطوار مختلفة لكل طور شكل معلوم ولا تزال تلك المخلوقات يتعاقب عليها الموت والحياة لمدة أجيال لا يأتي عليها الحصر، إن الحياة تسير على خطة مرسومة في تطورها ونتاجها محافظة على قوامها بإيجاد ما تحتاج إليه مما يضمن بقاءها تغذي نفسها بنفسها، ومع ذلك تحافظ على جميع أنواعها ببقاء كل نوع مرغوب في بقائه بميزان مقدر مضبوط، ولنضرب لذلك مثلا الجراد لو لم يدخل تحت ذلك الميزان المضبوط لأكل في سنين قليلة كل شيء أخضر على وجه الأرض من النبات وحينئذ يموت كل حيوان في البر ولا يبقي إلا حيوان البحر، إن الحياة قالب عام يحتوى على أشكال كل شيء حي فيه شكل، كل ورقة في كل شجرة ولون كل زهرة في كل نبات وكذلك ألوان الثمار، وألوان ريش الأطيار، إن الحياة أستاذ موسيقي علم كل طائر كيف يغني ألحان حبه وعلم كل حشرة كيف تخاطب غيرها من الحشرات بنغمات وأصوات لا يأتي عليها الحصر، تسمع هذه الأصوات في وقت الربيع، ومن هذه الأصوات الموسيقية نقيق الضفادع وصوت الدجاجة الأم الذي تخاطب به فراريجها وزئير الأسد وأصوات سائر الوحوش بل سائر أنواع الحيوان ثم أصوات الناس واختلافها، أقول وهنا يجد بنا أن نذكر قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ ففي اختلاف ألوان الناس واختلاف لغاتهم آيات تدل على عظمة الخالق سبحانه، وما يعقلها إلا العالمون، وكذلك اختلاف أصواتهم فقد زود البارئ سبحانه كل شخص من ذكر وأنثى صغير وكبير بصوت خاص كما ميز وجهه بشكل خاص يعرف به ويميزه عن غيره.

ثم نعود إلى كلام المؤلف قال: إن الحياة قد أعطت الإنسان وحده القدرة على تركيب الأصوات بالنفخ في القصب أو القرن أو تحريك أوتار العود فتحدث بذلك أنغام وأصوات لا يأتي عليها الحصر تتألف من الأدوار الموسيقية التي تخلب الألباب، وكل ذلك من ثمرات الحياة ونظمها العجيبة — إن الحياة مهندس ماهر لأنها وضعت تصميم ساقي الجدجد (وهو حيوان يكون في الزرع يشبه الجرادة في خلقته) له أربع قوائم صغار وله قائمتان طويلتان نصفهما مخروطي صاعد والنصف الآخر كالمنشار نازل يلتقيان بمفصل يستعين بهما على الوثب، ووضعت تصميم العضلات والمفاصيل والقلب الذي لا يزال يوالي ضرباته المنتظمة ونظام الأعصاب الكهربائي لكل حيوان، والنظام الكامل للدورة الدموية لكل شيء حي، ووضعت تصميم شجرة دندليون ذات الأوراق التي هي كالأسنان والأزهار الصفر الرائقة وجعلت لها بزرا مختلف الألوان وساقا وعروقا حمرا تحتوى على عصير لبني اللون مر الطعم، إن الحياة تصنع أوراق الأزهار وتجبر الحشرات أن تحمل اللقاح من العضو المذكر إلى العضو المؤنث من الأزهار، إن الحياة أستاذ كيميائي تعطي الفواكه والثمار طعومها المختلفة وتعطي التوابل ما فيها من الحرافات المختلفة وتعطي الورود وسائر الأزهار روائحها العطرية، إن الحياة تهب الحباحب (وهي دويبة تطير بالليل كأنها شرارة) ضوءاً بارداً يظهر به في الليل لتزدوج ذكوره بإناثه، أن كيمياء الحياة عالية رفيعة لأنها لا تقتصر على جعل أشعة الشمس تعمل على تبديل الماء وحامض الكاربون عودا فسكرا، بل في عملها ذلك تستخلص الأكسجين ليكون حياة للحيوان بتنفسه إياه.

إن الحياة لمؤرخ عظيم لأنها كتبت تاريخها صفحة فصفحة في أثناء العصور تاركة سجلها في الصخور، ذلك السجل المنقوش الذي ينتظر فقط ترجمانا ماهرا ليترجمه ترجمة صحيحة، إن الحياة تعطي المخلوقات الفرح والغبطة لحياتها، فترى الخروف يقفز ويثب دون أن يعرف لماذا يفعل ذلك، إن الحياة تصبغ خد الصبي بحمرة لامعة وتجعل في عينيه بريقا وتجعل على شفتيه ابتساما وضحكا، نعم إن الحياة هي التي تبتسم، أما الطبيعة فلا تعرف الابتسام أبداً.

إن الحياة تحافظ على المخلوقات فتزودهم بالغذاء الوافر فتغذي الطائر وهو في البيضة غذاء كافيا وتعد كثيرا من الصغار أن يكتسبوا معيشتهم فور ولادتهم وتغذي صغارًا آخرين بواسطة عطف الأمهات وحنانهن الطبيعي بقصد أو بدون قصد. إن الحياة تنتج الحياة

فتعطى اللبن غذاء للمولود على قدر حاجته وكأنها ترى هذه الحاجة قبل حدوثها فتهيئ لها ما تتطلبه، إن الحياة أوجدت حب الأم لأولادها وحب الرجل لبيته الذي يئويه، ولوطنه الذي يحيا لأجله ويقاتل إلى أن يموت لأجله، إن الحياة تحافظ على نفسها بيقظة وحذر، فتعطي بعض المخلوقات ألوانا لتعينها على الاختفاء عن عيون أعدائها، وتعطي بعض المخلوقات سوقا صالحة للجري السريع محافظة على حياتها وتسلح بعض المخلوقات بالقرون الحادة وبعضها بالمخالب لتدافع عن نفسها وتعطي بعض المخلوقات سمعا يفوق سمع أعدائها أو بصرا يفوق بصر أعدائها أو شما قويا تعرف به الخطر قبل وقوعه فتنجو بنفسها، وتعطي بعض المخلوقات أجنحة تحلق بها في أعالي الجو كلما رأت خطرا يهددها.

فأنت ترى هذه الوسائل بعضها صالح للهجوم والدفاع وبعضها صالح للدفاع فقط، وفي كل ذلك حكم بالغة وأسرار عظيمة. إن الحياة تزود بعض الحشرات الضعيفة بوسائل اختفاء تؤمنها من كل خوف، أما المادة فإنها لم تعمل قط أكثر من الإذعان لأحكام قوانينها فالذرات على اختلاف أنواعها مطيعة لما تمليه النسب الكيميائية، وقوة الجاذبية وتأثير درجات الحرارة والنبضات الكهربائية بدون الحياة يكون وجه الأرض صحراء قاحلة ليس فيها بقعة خضراء لا يختلف بعض أجزائها عن بعض وإن وجد فيها ماء فوجوده وعدمه سواء لأنه لا فائدة من وجوده، بدون الحياة تكون المادة عديمة الحركة ميتة.

**أما من أين جاءت الحياة؟ وإلى أين تذهب؟ فإن العلم لا يجيب عن هذا السؤال.**

وهناك سؤال آخر وهو ما هي الحياة؟ إلى الآن لم يستطع أحد أن يجيب عن هذا السؤال لأن الحياة لا يمكن أن توزن ولا أن تقاس فلا حجم لها ولا مساحة.

إن الحياة لها قوة تستطيع بها أن تجعل عروق النبات تشق الصخرة الصماء، إن الحياة تصنع شجرة عظيمة وتمسكها غير متأثرة بالجاذبية الأرضية لمدة ألف سنة أو أكثر، إنها ترفع أطنانا من الماء من الأرض كل يوم وتصنع أوراق الأشجار والثمار، إن أقدم شيء من الأشياء المتصفة بالحياة هو شجرة، هذه الشجرة عاشت خمسة آلاف سنة، وهذه المدة إنما هي لحظة من الأبد، إن الحياة تحسب حسابا لكل حركة تصدر من كل شيء حي، وكل هذه القوة غالبا تأتي بواسطة أشعة الشمس.

إن الحياة لا تستطيع أن تبقي في المادة المحصورة في حدود ضيقة، فالحر الشديد والبرد الشديد كل منهما يبيد أحوال المادة التي تتوقف عليها الحياة، إن الحياة تعلن وجودها فوق هذه الأرض حين تكون الأحوال ملائمة لها فقط.

وسينقضي نشاطها حين يقع أي تغير ملحوظ في أحوال المادة، غير أن الأحوال الحاضرة اليوم قد وجدت منذ ثلاثمائة مليون سنة على الأقل، إن الحياة هي وحدها مصدر الشعور وهي وحدها تمكن الإنسان من معرفة أفعال الله التي لا يزال أنصاف عميان عنها غافلين ولكننا نعرف أنها كلها خير، إن الحياة آلة تخدم أغراض العناية الربانية.

**تعليقات على كلام المؤلف**

**الأولى:** إذا كانت الزلازل والأعاصير والطوفان قد غيرت وجه الأرض وجعلت عاليها سافلها وبرها بحرها وبالعكس، وبقيت الحياة مع ذلك سائرة في طريقها الذي رسمه لها الخالق البارئ سبحانه نعلم من ذلك أن أفعال الله لا تتقيد بالعادات بل تخرقها لأن الله هو الذي أجرى تلك العادات بعد أن لم تكن جارية فأجهل الجاهلين هو الذي يقيد قدرة الله بما جرت به العادة.

**الثانية:** ذكر المصنف أن النار بقيت في أجزاء الأرض بعد انفصالها عن الشمس، وخص الإنسان باقتباسها وإظهار أسرارها وبذلك صار سيدا وانقادت له المخلوقات وصارت طوع أمره يتصرف فيها كيف يشاء بإذن الله، وقد امتن الله على عباده بأن هداهم لإيقاد النار واستخراجها قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾، وقال تعالى في سورة يس استدلالا على قدرته على إحياء العظام وهي رميم: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾.

وقالت العرب في أمثالها: (في كل شجرة نار، واستمجد المرخ، والعفار) وهما: نوعان من الشجر تستخرج من حطبهما بسهولة وقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ فيه آية عظيمة للمستبصرين فإن المقوين هم المسافرون وهم في حاجة إلى النار يستضيئون بها ويعرفون ما حولهم من عدو وسبع ضار ودواب سامة وحشرات مؤذية فيتقون شرها، ومن استمتاع المسافرين بالنار أنهم يهيئون بها طعامهم ويتدفئون بها في وقت البرد، أما في هذا الزمان فقد اتسع مجال الاستمتاع فصارت النار للمسافرين وسيلة هي أهم وسائل السفر،

فالمركب الذي يحمله ويحمل أمتعته زيادة على البضائع والرسائل لا يسير إلا بالنار سواء أكان سفره في البر أم في البحر أم في الجو لا يسير إلا بالنار، والاتصال بين المسافرين والمقيمين بالهاتف والرسائل البرقية والراديو لا يكون إلا بالنار، ودفاع المسافر عن نفسه كيفما كانت الوسيلة التي يسافر بها لا يكون إلا بالنار، وعلى ذلك يقول: إن النار قد صارت كل شيء بالنسبة إلى المسافر في هذا الزمان، وذلك يدلنا دلالة واضحة على أن القرآن لم ينزل لعصر محدود ولا لجيل أو أجيال محدودة، وإنما نزل ليكون منهاجا دينيا ودنيويا مدنيا وعسكريا ضامنا لسعادة الشعوب كلها وأمنها وسلامها ورخائها وازدهارها في كل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

**التعليقة الثالثة:** قال المصنف: إن الحياة تسير على خطة مرسومة، أقول: من رسم هذه الخطة وقدرها ودبرها وسيرها على حسب تقديره بدون اختلال ولا اختلاف؟ أليس هو الله رب العالمين؟ فأين تذهبون يا خفافيش المادة الميتة؟ ألم يأن لكم أن تؤمنوا بالخالق البارئ المصور وأنتم تشاهدون آياته في كل ذرة من ذرات هذا العالم العجيب.

**وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد**

من ذا الذي وضع ذلك القانون العظيم لذلك المخلوق، الضعيف منفردا، القوى مجتمعا، قوة تحتاج إلى تعاون دول عديدة بطائراتها وأدويتها السامة وجهود أطبائها وعلمائها ورجالها العسكريين.

ومع ذلك كله تعجز هذه الدول مجتمعة أن تقضى على جميع أرجال الجراد وتتقي ضرره، وإنما تستطيع أن تكف بعض شره، ولولا ذلك القانون الرباني لما استطاعت جميع دول العالم مجتمعة أن تقاوم هذا الجند العظيم وتتغلب عليه ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

## من أين جاءت الحياة؟ وأين تذهب؟

**نورد** في هذا الموضوع آراء علماء هذا الشأن ثم نعلق عليها بما يفتح الله به من الاستنتاج: إن سر ابتداء الحياة مشكلة وقف عندها العلماء متحيرين لفقدهم البرهان القاطع، لكن هناك حجج كثيرة لكنها ناقصة وغامضة، وعلى ذلك يجدر بنا أن نعرض لها بالبحث من الوجهة العلمية، أن أصل ابتداء الحياة عجيب لذلك جاءت نتائج بحوث العلماء فيه مختلفة متباينة بعيدة عن الإدراك حتى أن أكابرهم وقفوا أمام هذه المعضلة مدهوشين، وذلك أن العالم من حيث هو عالم لا يستطيع أن يصدق خوارق العادة، ولكن من حيث هو إنسان عاقل يري بنتيجة بحثه وبحوث غيره من العلماء الباحثين من غلس الحياة أي الوقت الذي كانت فيه الحياة بين الوجود والعدم، لم ينكشف وجودها بعد انكشافا تاما، (شبهت الحياة بالغلس وهو ابتداء ظهور نور الفجر حين تكون المرئيات محتجبة بالظلام، لا يظهر منها إلا أشباحها ظهورا ممزوجا بالشك) كانت الحياة حينئذ أدق من أن تدرك بالمجهر، يعلم أولئك الباحثون كلهم أن جميع الأشياء المتصفة بالحياة لأن قد تطورت من خلية ميكروسكوبية واحدة، ومعني ميكروسكوبية أنها لا ترى بالعين المجردة وإنما ترى بالمجهر وهو الميكروسكوب ويظهر أن هذه الخلية قد أعطيت قوة لا يكاد العقل يتصورها، فإنها تنمو نموا مطابقا لشكل الحي الذي يراد تكوينه منها، إن الحياة في كل مكان على وجه الأرض، والعلم يعترف بأن الواقع لا يمكن أن يكون غير ذلك، وقد اختلفوا في تعليل ذلك، فبعضهم يعتقد أن الحياة حادث كيميائي نشأ عن الماء والزمان، وآخرون يرون النظام في كل مجموعة واسعة من مجموعات الأشياء المتصفة بالحياة وهي تشق طريقها إلى الأمام آتية من ذلك المصدر نفسه إلى النهاية المقدرة لها، سواء أكانت حلزونا (وهو ببوش باللغة المغربية) أو صائرة إنسانا، لا تعود إلى عبور الهوة التي عبرتها من قبل أبدا، أقول أريد أن أقف هنا لاستنباط الحجج مما تقدم فأقول إذا تقرر بإجماع علماء الحياة أن حياة كل حي أصلها خلية واحدة سواء أكان ذلك صحيحا في الواقع أم لا، ثم وقع تطور كل مجموعة من أنواع الحيوان التي لا تعد ولا تحصى، من تلك الخلية الواحدة التي لا ترى إلا بالمجهر إلى نهايتها سواء أقدر لها أن تصير بعد نهاية نموها حلزونا أو إنسانا أو غير ذلك، فمن الذي

وضع لكل مجموعة منهاجا خاصا يسير عليه لا يتعداه مثقال ذرة؟ أليس هو الله رب العالمين؟ أليست هذه حجة قاهرة لكل عاقل مفكر يسمع نداء عقله ويترك التقليد جانبا ولا يخدع نفسه؟ هذه الحجة القاهرة هي البرهان القاطع على فساد الفرض أن خلق أنواع الحيوان من الأميبا إلى الفيل والقرش، وهو حوت عظيم جدا، على اختلاف أشكالها وصفاتها واتحاد مصدرها كلها وليدة مصادفة بلا علم سابق، ولا تدبير مرافق، ولا عناية مهيمنة؟ إن رضيت عقولكم بمثل هذا فنشهدكم أن عقولنا لن ترضي به، بل لا تفهمه أبدا فاعتقدوه وحدكم، ولكن حذار أن تكذبوا على العلم وتقولوا أنه قادكم إلى ذلك فقد رأيتم أن العلم من ذلك برئ براءة العقل المفكر منه.

ثم نعود إلى كلام المؤلف، قال: دعونا نتقدم الآن إلى البحث في الموضوع بشعور ملؤه الاحترام دون أن نتقيد بالحدود الدينية الضيقة ولا بحدود الباحثين العلمية الجامدة، لنعرف ما هو سبب الحياة ومصدرها ونتصور الحقيقة التي يجب الاعتراف بها، وعند ذلك نحكم علي القضية الموضوعة أمامنا حكما تاما، وحينئذ يمكننا أن نعلم هل أنا وأنت كل منا ليس إلا مجموعة من ذرات المادة اجتمعت على سبيل المصادفة والاتفاق وتولدت من المركبات الكيميائية الماء والزمان أم الحقيقة غير ذلك؟.

انظر في النتيجة إلى هذا الشيء الوحيد الذي هو أهم من الأرض نفسها، بل من العالم بأسره، بل من كل شيء غيره إلا إذا كان هناك بارئ عالم خلقه وأخرجه إلى الوجود، هذا الشيء هو قطرة من (البروتوبلازما) ذرة هي أصل الحيوان والنبات، تشتمل على الأكسجين والهيدروجين والكربون والنتروجين شفافة لزجة، قادرة على الحركة، تجذب القوة من الشمس، إنها منذ الآن قادرة على استعمال ضوء الشمس تكسر حامض الكربون في الهواء وتفرق بين الذرات فتأخذ الهيدروجين من الماء وتنتج الكربون ذرات، وبذلك تصنع غذاءها بنفسها، وهذا العمل من أشد التراكيب الكيميائية استعصاء وعنادا.

أقول: أين المتبجحون بحرية الفكر والعصرية الرامين غيرهم إذا كان مثقفا بالجمود والرجعية وإن كان غير مثقف بالجهل مطلقا أو بالجهل بالعلوم العصرية؟ هل عندهم حل لهذه المعضلة غير ما رآه المؤلف ويراه معه جميع المؤمنين بما وراء المادة على أي دين كانوا؟ أما اللباس الأوروبي والجلوس في الحانات ودور اللهو والميسر وهجر المساجد والرطانة

باللغات الأعجمية لغة الاستعمار والاستعباد التي تذكر بالذل والتبعية والخنوع وهجر لغة القرآن والعز والسيادة وما أشبه ذلك من أنواع السفاهة فإنه سهل لا يحتاج إلى عناء وهو من صفات القردة التي يتنزه عنها الإنسان الحقيقي.

نعود إلى كلام المؤلف قال في صفة الذرة التي نشأ منها الإنسان والحيوان والنبات: هذه القطيرات الشفافة التي هي في الدقة كالهباء أو كإحدى ذرات البخار المتصاعد من الماء الذي يغلي تشتمل على جرثومة الحياة كلها وعندها القوة والقدرة على توزيع الحياة على كل شيء حي، كبيرا كان أم صغيراً، وتجعل ذلك المخلوق متناسبا مع بيئته في كل مكان يمكن أن توجد فيه الحياة من قعر المحيط إلى أعالي الجو، فالزمان والبيئة هيئا كل شيء حي لملاءمة الأحوال المختلفة التي لا نهاية لها ولما تطورت هذه الأشياء الحية إلى أفرادها تنازلت عن بعض قابليتها للامتداد لتصير إلى ما خصص لها من شكل وتثبت فيه، فاقدة القوة التي ترجع بها إلى الوراء، ولكنها ربحت عوضا عن تلك القوة أحسن منها، وهو النظام المطابق لأحوال تكوين المخلوق الذي يراد تكوينه منها.

نعم إن قوة هذه القطيرة من البروتوبلازما وما احتوت عليه كانت ولا تزال أعظم من جميع النبات الذي يكسو وجه الأرض وأعظم من جميع الحيوان الذي يتنفس نفس الحياة، لأن الحياة كلها جاءت منها، وبدونها لم يوجد شيء حي وكل ما ذكرناه أعلاه يسير مع العلم خطوة بخطوة، ولكن العلم متردد في أن يخطو الخطوة الأخيرة ويضيف ما يلي: إن الإنسان جاء من هذا الطريق إلى الأرض مولودًا أنجبه العالم الذي هو ينبوع الحياة، سيدا على جميع الحيوان الأعجم، مصنوعا من المادة، مركبا من أجزاء عديدة، له دماغ مهيأ بالقصد ومقدر له أن يتلقي قبسة من العقل الأعلى، وتلك القبسة هي التي نسميها النفس.

وبعد ذكر ما تقدم قال المصنف: يجب أن نبدأ من الأرض لما كانت كلها صحراء ليس فيها إلا ما بقي بعد برودتها من الجلامد، لما حسر الماء عن الأرض وانكشفت ووقعت الفيوض الجافة من أنواع الطوفان التي لا يأتي عليها الوصف، سبب ذلك انفلاق الصخور الضخام التي كانت تغطي وجه الأرض، فنشأت عنها صخور ثانوية ورمال وأنواع من الأحجار. وهنا أطال المؤلف القول في وصف أجزاء الأرض في أول ظهورها مما لا يهمنا تفصيله، ثم قال يمكن أن تكون البحوث التي أجريت في الأرض قد أفضت إلى انكشاف

سر وجود الحياة على الأرض ويمكن أن يكون سرها لا يزال لغزا غير محلول، زعم بعضهم أن أصل الحياة جرثومة جاءت على شكل ذرة من كوكب آخر ووصلت سالمة إلى الأرض لم تصب بتلف بعدما بقيت سابحة في الفضاء أمدا طويلا لا يدرك له حد، وذلك غير صحيح لأن مثل هذه الجرثومة لا يمكن أن تعيش مع شدة البرد في الفضاء الذي هو في درجة الصفر، ولو عاشت لقتلتها الأشعة الكونية الشديدة الإحراق فإن عاشت مع ذلك كله فلعلها وجدت في قعر البحر المحيط هو المكان اللائق بها حيث الأحوال كانت ملائمة لنشأتها، وبصرف النظر عن ذلك كله نرجع إلى الوراء إلى حيث بدأنا، فنقول: كيف كان بدء الحياة في ذلك الكوكب الذي جاءت منه الحياة؟ ثم نقف موقف المنع فنقول: لا البيئة بالغة ما بلغت في الملاءمة للحياة ولا التراكيب الكيميائية أو الطبيعية الواقعة على سبيل المصادفة، تستطيع أن تخرج الحياة إلى الوجود.

**قال كاتب هذا المقال وقد وصلنا إلى الحد المناسب لينشر في هذا الجزء من دعوة الحق فموعدنا الجزء التالي إن شاء الله.**

## كيف نشأت الحياة؟ وكيف تطورت؟

**ثم قال المصنف:** وبقطع النظر عن هذه المسألة، وهي ما هو أصل الحيوان؟ وهي في الحقيقة مشكلة علمية قد اقترح بعضهم أن هباءة، ذرة عظيمة القدر، لكنها صغيرة الحجم حتى أنه لا يستطيع أحد أن يلمحها ولو لمحا غير واضح بأي مجهر، وهو الميكروسكوب، هذه الذرة الصغيرة هي التي فرقت ما كان مجتمعا متحدا، وجمعت ما كان متفرقا متباينا، فظهرت الحياة بمظهرها المدهش.

**وتقريبا للفهم نقول:** انظر إلى الأميبا، وهي حيوان صغير لا يرى إلا بالمجهر، وقد تطورت تطورا تاما وهي متركبة مما لا يحصي من ملايين الذرات، كاملة الصنع على أحسن نظام، والأميبات مخلوقات ذات خلية واحدة ولعل مساحة حجم الواحدة منها لا تزيد عن جزء من مائة من البوصة، والأميبا توجد في جميع مياه الدنيا، وهي تطلب غذاءها بعزم واجتهاد، كم يجب أن يكون الحيوان كبيرا في الحجم قبل أن نعترف بأن له رغبة وعزما؟ الحجم لا اعتبار له، فإن الذرة في الإتقان والكمال تساوي المجموعة الشمسية بأسرها، وإذا ضربنا مثلا الأميبا فلسنا نقصد أن هذا المخلوق الحي هو الخلية المنفردة الأولى التي هي ينبوع الحياة، تقدم شرح معني كلمة (بروتوبلازم) ونريد هنا زيادة في بيان أحوالها فنقول: إنها قطيرة بين السوائل والجوامد، وعبرت عنها المعاجم الأعجمية بنصف سائلة، وهي في غاية الدقة، حتى أنها لا ترى بالعين المجردة لزجة شفافة، منها تكون المخلوق الحي الأول، ومنها نشأ جميع الحيوان والنبات، وكان نمو كل فرد منهما ونشأته بانقسامه في داخله إلى قسمين، وكل من القسمين انقسم إلى قسمين، فكانت أربعة أقسام واستمر الانقسام والنمو إلى أن بلغ كل فرد المقدر له، وهذا عين ما تفعله الخلايا اليوم في كل مخلوق حي، وكل خلية بعد الانقسام الأول تشتمل في داخلها على قوة ينتج منها مخلوق كامل من الأفراد، والخلايا باقية لا تتغير ولا تنتهي إلا في حال وقوع حادثة تصادفها، أو عند بلوغها نهاية الأحوال المقدرة لها، وهذه الخلايا هي التي تشكل جميع أجسام الحيوان والنبات اليوم، وعلى هذا يكون عمل هذه الخلايا نسخة طبق الأصل من عمل أسلافهن الأوليات، فنحن من حيث كوننا أناسي (جمع إنسان) جمهوريات منظمة أحسن تنظيم مؤلفة من بلايين على بلايين من أمثال تلك

الخلايا، وكل خلية بمنزلة مواطن من تلك الجمهورية يؤدي واجبه من الخدمة العامة بإخلاص تام وإتقان، وبعكس ذلك تكون الذرة من الجماد.

**أقول:** فما رأي المشككين في اتحاد هذه المجموعات من الذرات التي تعد بملايين على ملايين في اتحادها الذي لا يتطرق إليه التفكك، وتضامنها الذي لا يعتريه تخاذل، وتعاونها الذي لا يشوبه ملل، أيمكن أن يكون ذلك كله على سبيل المصادفة، بغير علم سابق ولا تدبير مرافق؟.

**ثم قال المصنف:** ولكننا نستطيع أن نشير إلى مثال وقع من قبل ذلك بزمان بعيد في ابتداء الحياة على وجه الأرض، وهو مهم وعجيب جداً. خلية تعطي قوة مدهشة تستعمل بها ضوء الشمس فتكسر به مركبا كيميائيا وتصنع غذاءها بنفسها وغذاء لأخواتها من الخلايا. والذرة الأصلية تحضر غذاء تعيش به بناتها من الذرات، ثم تكون الذرات البنات حيوانا، على حين تصير الذرة الأم نباتا، وأولاد ذلك النبات المتولدات منه تكون بعد غذاء لكل شيء حي في وقتنا هذا، فهل يستطيع أحد أن يفسر هذه الحقيقة، وهي أن بعض الخلايا تصير حيوانا وبعضها نباتا إن كل ذلك وقع بالمصادفة؟ وهنا في هذا التقسيم تعرف سر التوازن العجيب الواقع بين النبات والحيوان بل بين حياة النبات والحيوان قد أسس من قبل على أساس مقدر معلوم. وإذا رجعنا إلى الوراء إلى قصة حامض أكسيد الكربون، نجد أن هذا التقسيم كان بلا ريب أحد الأصول الجوهرية التي أسست عليها الحياة نفسها، فلو كانت الحياة كلها حيوانا لكان الآن قد استهلك جميع الأكسجين، ولو كانت الحياة كلها نباتا، لكان الآن استهلك جميع أكسيد الكربون وفي كلتا الحالتين كلاهما يموت. ما أعجب أمر الحيوان والنبات كليهما في تطورهما من الكائنات البروتوبلازمية ذكورا وإناثا إن كل نوع لم يزل يتكرر تركيبه وبذلك بقي مستمرا مع المحافظة على خصائصه العامة، ونحن نرقب بمجهرنا الحاضر تفاصيل القوة المجبرة في الطبيعة والكيمياء والنتائج المترتبة عليها التي تزيد الأمر وضوحاً، وغرضنا هو تسهيل فهم ما وصل إليه العلم على أولئك الذين لم يتمرنوا على المسائل العلمية تمرنا خاصا.

**ويمكن أن نبين ذلك على الوجه التالي:** من الواضح أن المجموعات من الخلايا تنمو باتصال بعضها ببعض بالانقسام مثني ثم رباع ثم مئات ثم آلافا ثم ملايين، وكل خلية منها

تدعي لتنجز نصيبها من العمل، ومتى تم توزيع الأعمال المختلفة يبدأ الشروع في العمل عند الجميع فطائفة من الخلايا تكون مشتغلة بإحضار الغذاء وطائفة أخرى تشتغل بهضمه، وكل جزء من الجسم المراد تكوينه يتألف من كثير من الخلايا، فبعضها يؤلف غلافا غليظاً واقيا يكون قشرة لشجرة، وطائفة أخرى تشتغل بنقل الغذاء من مكان إلى مكان في المخلوق الحي المراد إنشاؤه، وأخيرا نجد تلك الخلايا جادة في تشكيل خشب الجذع إن كان المخلوق شجرة أو العظام إن كان المخلوق دابة أو المحار إن كان المخلوق بحريا من ذوات المحار أو الغلاف الصلب إن كان الحيوان رخوا لينا كالحلزون مثلا (وهي المسمي باللغة المغربية ببوش) إلى أن يتم تكوين ذلك الجسم المراد خلقه. ففي بعض الحيوان تكون الأجزاء الصلبة في المخلوق الحي خارجه محيطة به، وتارة تكون داخله عظاما يقوم عليها جسمه، وكل الأشياء المتصفة بالحياة تتخلق من خلية بسيطة واحدة، وهذه الخلية تجبر نسلها على أداء الواجبات طبقا للخطة المرسومة لخلق ذلك الحيوان بلا خلاف، كما فعلت الخلية الأولى الأصلية سواء أكان ذلك الحيوان سيصير سلحفاة أو أرنباً.

وهنا يعرض لنا سؤال، وهو هل الخلايا ذات إدراك أم لا؟ وسواء منحت الخلايا قوة تمييز، كيفما كانت، أو قوة تفكير، فلا مناص لنا من الاعتراف بأن الخلايا قد فطرت على أن تغير طبيعتها وتتفق مع ما يتطلبه خلق الكائن الذي يراد بها أن تكون جزءا منه، وكل خلية نتجت في أي مخلوق حي يجب أن تهيئ نفسها لتكون جزءًا من لحمه أو أن تضحي بنفسها لتكون جزءًا من الإهاب الذي سيزول سريعا، أو تهيئ نفسها لتكون جزءا من قشرة السن الزجاجية أو تكون جزءا من المادة الشفافة السائلة في العين أو جزءًا من الأنف أو الأذن، وكل خلية يجب أن تهيئ نفسها من حيث الشكل أو أي صورة خاصة أخرى تلزم لأداء عملها المخصوص لها، مثلا إحدى الخلايا يجب أن تكون جزءا من الأذن اليمني، وأخرى يجب أن تكون جزءا من الأذن اليسرى، وبعض الخلايا الزجاجية التي لا تختلف عن غيرها من الوجهة الكيميائية تعكس أشعة الضوء إلى اليسار. ويظهر أنه يوجد مثل هذا الميل في الخلايا فهي تتجه إلى المكان المعين لها بالضبط أن تكون جزءا منا في الأذن اليمني أو اليسرى، واعلم أن أذنيك متقابلتان على التضاد إحداهما مع الأخرى وتجويفهما متقابل، فمتى تم خلقهما تكونان من التشابه بحيث لا تستطيع أن تميز بينهما، وأن مئات الألوف من الخلايا

مسوقة لتعمل العمل المضبوط في الوقت المضبوط في المكان المضبوط، ولعمري إنها مطيعة لما تؤمر به.

إن الحياة مندفعة إلى الأمام، بانية مرممة، منشئة الجديد والأحسن بقوة لا تقاوم ولا توجد في الجماد، فهل نشأ ذلك عن قوة عاقلة أو إلهام أو حدث بدون شيء؟.

يمكنك أن تجيب عن هذا السؤال بنفسك. ولكن يمكنك الآن أن تقول إنك لم تبين لنا في هذا الفصل كيف بدأت الحياة، يعني كيف جاءت إلى هذه الأرض؟ فأقول إني لا أدري، والذي اعتقده أنها جاءت بأمر من الله تعالى وأنها ليست مادية.

انتهي كلام العالم الفلكي كريسى مورسن في هذا الفصل المهم، وهو غني عن التعليق، فعسي أن يكون نافعا للشاكين المتحيرين الذين يستهدون الله تعالى، وقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم**»، وأما المشككون الذي لا يريدون أن يستعملوا عقولهم ولا أن يهتدوا فتكون هذه الحجج صواعق مرسلة عليهم تأتي بنيانهم من القواعد فيخر عليهم سقف البيت الذي بنوه من الأباطيل والأوهام. قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾، وقبل أن أختم هذا المقال الخاص بهذا الجزء من المجلة أذكر ما خطر ببالي من كتاب الله تعالى مما يدل على ما ذكره العالم الفلكي فأقول: قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، وقال تعالى في سورة غافر: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

## ما هو أصل الإنسان؟

تحت هذه الترجمة عقد المؤلف فصلا أورد فيه آراء علماء هذا الشأن، وهي متناقضة متضاربة، سأترجمها كما هي وأنا برئ من عهدتها، والإطلاع عليها مفيد، يدلنا على أن ما يتبجح به المقلدون للأجانب من أنهم علموا حقيقة أصل الإنسان وأنه متطور عن القرد وقد وجدوا جميع الحلقات والأطوار إلا حلقة واحدة هي الأخيرة التي تفصل بين القرد والإنسان، وبعضهم يزعم أن هذه الحلقة المفقودة وجدت في أمريكا، فتم لهم ما يريدون من الاتصال بنسب القردة، كل ذلك مبني على شفا جرف هار، قال المؤلف هناك طرق عديدة للنظر في أصل الإنسان، وأن امتحان هذه الطرق سيسبب اضطرابا عند كثير من الذين اعتقدوا آراء ثابتة في هذه القضية.

**فالرأي الأول:** أن الإنسان ارتقي إلى ما هو عليه بعد أن مر بسلسلة من التطور والنشوء عن الذرة الأصلية التي هي أصل الحياة، وعلى هذا الأصل تنبني نظرية النشوء بأسرها.

**والرأي الثاني:** هو أن الله سبحانه خلق الحياة على وجه الأرض بحكمته ثم خلق الإنسان على ما هو — أي الإنسان — عليه في الكمال.

**الرأي الثالث:** هو أن العناية الربانية أوجدت الحياة بجميع أطوارها بسلسلة من الخلق.

**الرأي الرابع:** أن الحياة وصلت في نهاية تطورها إلى الإنسان كانت نتيجة على سبيل المصادفة لمزيج من المواد الكيميائية مع الماء، ويمكن أن يقال أن الله خلق الإنسان من عناصر الأرض الأصلية، ثم وهبه الحياة وتدرج حتى بلغ في نهاية تطوره إلى أن أعطي دماغا يفكر به، فصار بذلك سيدا حاكما على جميع الأشياء المتصفة بالحياة وعلى كثير من أنواع الجماد، وأي ذلك كان، نرى من الواضح أن الإنسان لا يمكن أن يكون قد حصل على كمال إنسانيته منذ ابتداء الحياة، ولكنه تطور حتى بلغ إلى درجة الكمال في نهاية تطوره، ولم يظهر الإنسان حتى كانت جميع الأشياء المتصفة بالحياة غير صالحة أن يوجد فيها نظام ميكانيكي في غاية التعقيد كالدماغ البشري، وإذا قدرنا أن الإنسان قد وجد في أول ظهور الحياة يمكن أن يكون قد مضي على وجوده ٤٠٠ مليون سنة أو أكثر من ذلك بكثير، وإذا قبلنا النظرية الثانية وهي أن الإنسان وجد نتيجة للمشيئة الإلهية، فإننا لا نستطيع أن نقدر الزمان الذي

مضي علي وجوده، وعلى النظرية الثالثة لابد أن يكون قد مر على وجوده كثير من ملايين السنين، وحسب استقراء العلماء وتتبعهم لتاريخ الإنسان لا يمكن أن يقل زمن وجوده عن مليون من السنين، أما قبل ذلك فإن تطور الإنسان إلى أن وصل إلى حاله الحاضر بقطع النظر عن نوع الحيوان الذي تطور منه بلغ في القدم إلى حد يعجز العقل البشري عن تقديره.

نقف هنا وقفة قصيرة للتأمل في هذه الآراء والتخمينات التي تبدو عليها الحيرة والعجز والجهل، وقد ذابت أمام النقد العلمي كل التبجحات التي يتشبع بها أذناب المستعمرين ومقلدوهم بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير، ورجع العلم بحقيقة خلق الإنسان وزمان خلقه إلى خالقه الحكيم العليم.

ثم نعود إلى كلام المؤلف قال عقب ما تقدم أن في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي في نيويورك فرسا يرجع إلى زمن قديم له ثلاث أصابع صغير الجسم، يرى العلماء أنه كان سريع الجري بلا شك وهو فرس يقينا لكن تطوره إلى أن بلغ شكل الفرس الجميل الذي نراه في الوقت الحاضر يركض على ما نسميه حوافر نشأ عن ذلك الفرس القديم ذي الأصابع الثلاث واستغرق تطوره ملايين السنين.

ولنتخذ تطور الحصان دليلا نقيس به الوقت الذي استغرقه تطور الإنسان حتى صارت له يدان وعينان ودماغ مفكر فصار خلقا سويا ثم ارتقي إلى حاله التي هو عليها، ثم نعود فنقيس التقلبات التي مر بها هذا المخلوق الصغير الأعزل من كل سلاح يدافع به عن نفسه، فهو وإن كان قادرا على التنقل والحركة عرضة للخطر الآتي من كل حيوان مفترس ومن كل حيوان زاحف سام كالثعابين والحيات والعقارب، كما هو عرضة لمصادمة الأجسام الصلبة والحادة التي تحدث له الجروح والأمراض، ومع ذلك عليه أن يحافظ على صغاره العاجزين زمانا طويلاً، هو زمان طفولتهم وعجزهم، وذلك أن صغار الإنسان يولدون عاجزين ويأتون متتابعين، وبذلك يكون على الوالدين واجب العناية بعدة أطفال في وقت واحد، يحتاجون إلى الاهتمام الدائم بغذائهم وحمايتهم، وبذلك يتضاعف العجب من بقاء الإنسان على تعاقب الأزمنة، فإنه عاش في عصور مختلفة متقلبة أحوالها كالعصر الجليدي وغيره من الأطوار والأحوال التي كانت حياة الإنسان فيها معرضة للأخطار لا واقي لها

ولا ملجأ إلا لطف الله، وهذا صحيح بلا ريب بالنسبة إلى سائر الحيوان وهو من عجائب العناية الربانية أن الحيوان أمكن بقاؤه بعد أن مر بتلك الأحوال والأهوال، ومن جهة أخرى يرى علماء الحيوان أن أنواعا منه لا تعد ولا تحصى قد انقرضت وخلفها غيرها ولكن بقيت آثارها شاهدة على وجودها فيما مضي:

**تلـــك آثارنــــا تـــدل علينـــا ــــــ فـــانظروا بعـــدنا إلى الآثـــار**

ومن شواهد تلك الأنواع عظام الحيوان المعروف بالديناصور التي استدل بها علماء طبقات الأرض على أن أنواعا من الحيوان مضت وانقضت ولم يقدر لها البقاء فأخنى عليها الدهر ولم يبق لها ذكر إلا في كتب علم طبقات الأرض، وكذلك كان مصير ملايين من أنواع الحشرات والحيتان والطير وكثير من الأنواع الأخرى، وقد كان في الزمان الماضي نوع من الحمام يسمي بالحمام المسافر، ويرجح أنه كان أكثر عددا من البشر، لكنه انقرض وأصبح كأمس الدابر، وكذلك الطائر المسمي بالبطريق الذي كان يعيش في بحر الشمال ونوع الحمام المعروف بالدودو.

إن علماء الآثار عند بحثهم في تطور الإنسان استدلوا بقوة الدماغ الذي أودع في جمجمته على تفوقه وقالوا إن هذا الدماغ هو مفتاح سر تقدمه، ولم تزل أجناس البشر يفضل بعضها بعضا فيبقي الفاضل وينقرض المفضول، ويظهر أن الجنس الأبيض في الوقت الحاضر هو الذي يتربع على القمة، فهل يجيء الزمان بالنوع الفاضل المتفوق على إنسان هذا الزمان (سوبرمان) ثم يتناسل ويتغلب على إنسان هذا الزمان حتى ينقرض من على وجه الأرض ويخلفه فيها ذلك الإنسان الفاضل؟ قد لوحظ أن في جماجم الأطفال غضروفا يفرق بينها، وبذلك يتاح للدماغ أن يزداد نموا، ويمكن أن يستمر ذلك في زمان شبابهم، إن الإنسان في حاجة إلى مثل هذه القوة، ولكن إن حدث ذلك فستصير أدمغة البشر صلبة قبل الأوان بقليل، ويحسن بنا أن لا نسد عقولنا عن إدراك الحقيقة متى ظهرت.

**تعليقات:**

١- غاية ما وجده المصنف ومن قبله من علماء هذا الشأن حصان قديم له ثلاث أصابع في يديه بدل الحافر فاستدل بذلك على تطور أنواع الحيوان ونشوءها وارتقائها وبقاء

الأفضل وانقراض غيره وقاس الإنسان على ذلك الفرس، وإن لم يوجد هيكل عظمي للإنسان له حافر بدل الأصابع، والذي يخيل إلي أنه كان ينبغي أن يكون الأمر بالعكس، لأن اليد ذات الأصابع الثلاث أفضل من اليد ذات الحافر، إلا أن يقال أن أحوال المعيشة بالنسبة إلى الخيل في الزمان السحيق كانت تحوجها إلى وجود الأصابع لتتناول بها ما تحتاج إليه من غذاء وغيره بخلاف الخيل في هذا الزمان فإنها ترعى الكلأ بأفواهها أو تعلق برؤوسها المخالي مملوءة بالشعير النظيف إن كانت من الجياد المطهمة التي كان يركبها الملوك والأمراء وذوو الجد والثري قبل أن توجد السيارات، أو كانت معدة للسباق من خيل الرهان التي يتفرج علي سباقها الجماهير ويقامر عليها المقامرون، وإذا كان الحصان قد تطور من اليد ذات الأصابع إلى الحافر الأصم فمم تطور الإنسان؟ أيكون قد تطور بالعكس من الحافر إلى اليد؟ ما أحوجنا إلى معرفة الجواب؟ ولكن الجواب عن هذا السؤال ليس من الهنات الهينات تنقطع دونه لا أعناق الإبل فقط بل أعناق الصواريخ والأقمار والطائرات فسبحان الذي لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو الخلاق العليم.

٢- ذكر المصنف في تقدير الزمان الذي مر على تطور الإنسان ثلاثة آراء أحدها أربعمائة مليون سنة، وثانيها مليون سنة على الأقل، وثالثها لا أدري والله أعلم بالصواب.

٣- ما هو الجنس الأبيض أنا لا أعرف معني هذا اللفظ، ولعله من الأسرار التي لا يحيط بها علما إلا الأوربيون في أمريكا والأوربيون في أوربا والذين حازوا قصب السبق في معرفة هذا المعني هم المستعمرون من هولانديين، وبريطانيين مستوطنين في جنوب أفريقية، يضربون ويحبسون ويقتلون أهل البلاد المالكين لها ملكا شرعيا من قبل أن يعرف التاريخ. وقد تذكرت الآن حكاية اتحف بها القراء تتعلق بهذا المعني، كنت جالسا اشتغل مع الأستاذ الدكتور (باول كالي) في مكتبه بترجمة كتاب البلدان في الجغرافية العالمية تأليف محمد بن الفقيه البغدادي المتوفي في أواخر القرن الثالث الهجري كان ذلك في المعهد الشرقي في جامعة بون سنة ١٩٣٧ فجاءته امرأة ألمانية وقالت له أنها عثرت في جامعة بو آمنة من مدينة فاس على تاريخ للقوط الذين غزوا أسبانية والمغرب مكتوبا على رق غزال وما منعها من اقتنائه إلا قلة المال، ثم قالت له أن هذا التاريخ لم تقع عليه عين شخص أبيض قبلها، فإن كانت الجامعة مستعدة أن تزودها بنفقات السفر فإنها متأهبة لتسافر مرة أخرى إلى فاس وتشتري

ذلك الكتاب على نفقة الجامعة، فقال لها أن هذا الرجل، - وأشار إلي - مغربي، وهو يعرف فاس، فأخبرتني باللغة الإنجليزية بما أخبرته به باللغة الألمانية، ولم أكن أعرفها إذ ذاك، فقلت لها لا توجد في فاس جامعة بهذا الاسم، فهل تعنين المدرسة العنانية؟ فقالت نعم فقلت للأستاذ كالي لا حاجة إلى سفر هذه المرأة، يمكننا أن نعلم الخبر اليقين بالمكاتبة، فكتبت إلى الأمير شكيب رحمه الله وكتب هو إلى أحد أصدقائه بفاس فأخبره أن لا وجود لمثل هذا الكتاب، وقلت للأستاذ كالي أن هذه المرأة محتالة كاذبة بدليل قولها لم تقع عليه عين شخص أبيض قبلها، مع أن أهل فاس الأصليين كلهم بيض، فقال لي إنما هو اصطلاح يجري على ألسنة الأوروبيين، وإنما قال ذلك تلطفا لقطع النزاع، وإلا فإنه كان يعتقد هو أيضا أن أهل المغرب لا يوجد فيهم شخص أبيض، ثم جاء محمد بن عبد الجليل الفاسي المتنصر من باريس إلى بون فأخذته إلى الأستاذ كالي وأخبره أنه مغربي من مدينة فاس، فلما رأي عليه ثياب الرهبان وقد سمي نفسه يوحنا ظن أنه فرنسي استوطن فاسا، فلم أقدر على إقناعه، ثم عزم الأستاذ الدكتور كرن على زيارة المغرب ليدرس فن البناء المغربي وطلب مني توصية إلى صديق يرشده في المغرب، فكتبت له توصية إلى الأستاذ السيد أحمد سكيرج فقام بإرشاده خير قيام وكان من أهل المروءة والشهامة، فلما رجع الأستاذ كرن إلى بون، قلت للأستاذ كالي أسأله عن لون أهل المغرب وخصوصا أهل فاس، فسأله وقص عليه قصة المرأة فضحك وقال ذلك حديث خرافة، ليس في فاس ولا في المغرب أعني سكانه الأصليين سواد، ثم قال الأستاذ كرن: وأزيدك على ذلك أني كنت ألفت كتابا في خصائص الجنس الشمالي في أوربا، وما كنت أظن أني أجد في المغرب شخصا واحدا تنطبق عليه تلك الخصائص، فلما وصلت إلى المغرب وجدت خلقا كثيرا من الناس لا يختلفون في جماجمهم وسائر ملامحهم عن سكان شمالي أوربا، وقد عزمت أن آخذ أجازة أخرى من الجامعة فأسافر إلى المغرب لأدرس الأجسام البشرية المطابقة لأجسام أهل الشمال تكملة لهذا الكتاب.

ولا ينبغي أن يظن ظان أن ذلك الجهد الذي بذلته في إقناع الأستاذ كالي أن أهل المغرب بيض الألوان أو سمر اعتقادا مني أن اللون الأبيض أو الأسمر أفضل من الأسود. معاذ الله! قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين. وإنما أردت أن أثبت له أن أهل أوربة يجهلون كل شيء

من أحوال أهل أفريقية مع أنها أقرب القارات إلى بلادهم فإن الذي وقف على سطح من بيوت طنجة يري مدينة طريفة وقلعة جبل طارق بوضوح، وهما من القارة الأوربية، ولو كان هذا الجهل خاصا بعامتهم لهان الأمر، ولكنه عام حتى في أساتذة الجامعة.

ثم نقول ما معني الجنس الأبيض؟ وما هي الطوائف من البشر التي ينطبق عليها أنها من الجنس الأبيض؟ وما هي علامتها التي تميزها عن غيرها؟ أهي لون؟ أهي ذكاء؟ أهي علم؟ أهي أخلاق؟ نرجع جواب هذه الأسئلة إلى الجزء التالي لأن هذا المقال قد بلغ حده، فموعدنا الجزء التالي إن شاء الله.

## التعليق

### الجنس الأبيض

جاء في كتاب (ليس الإنسان مهملا، لكريسى مورسن) أن الإنسان يمكن أن يترقي باتساع دماغه وسمو فكره وحينئذ تتحقق فكرة المدنية الفاضلة التي ذكرها الفيلسوف المغربي أبو باجة في بعض تآليفه. ثم قال إن الجنس الأبيض متفوق في الوقت الحاضر، ولعله يلمح بذلك إلى أن الإنسان الكامل (سوبرمان) قد يكون من الجنس الأبيض ويكون هو الصالح للبقاء وتنقرض الأجناس الأخرى كالصينيين واليابانيين والأندونيسيين والهنديين السمر والحمر والأفريقيين السود، ويبقي الإشكال في الأمم المتصفة بالبياض وليست أوربية ولا أمريكية كالأتراك، والفرس، وأكثر العرب، والجراكسة، والبلوجستانية، بل وبعض الأوربيين المتصفين بالسمرة في جنوب أوربا، لا يعرف مصيرهم ليقصر عليهم تطبيقا لقانون بقاء الأصلح أم يشفع لهم إخوانهم ويكون الحكم للغالب.

فإذا كان الأمر كذلك فما المانع من دخول الأمم المتصفة بالبياض وهي غير أوربية ولا أمريكية فإن كان سر الترقي كامنا في اللون وحده فلا فرق بين أبيض وأبيض، وإن كان السر كامنا في كونهم أوربيين كيفما كان لونهم فلماذا لم يتفوقوا في الزمان الغابر حين ازدهرت المدنية الصينية، والهندية، والأشورية، والبابلية، والقبطية، والفينقية، وأخيرا العربية، وفي كل ذلك كان الأوربيون يغطون في نومهم ويتخبطون في أوحال جهلهم وتوحشهم وأين كانت أدمغتهم الراقية المخلوقة من نور؟ وكيف طرأ عليها التبدل بعد مضي تلك الأحقاب والأزمان المتطاولة؟ فهل نزل عليها وحي خصها الله به دون سائر الخلق؟ وهل احتقار الأجناس الأخرى كالأسيويين والأفريقيين وهنود أمريكا واختطاف الزنوج من ديارهم وجلبهم إلى أمريكا ومعاملتهم معاملة الحيوان الأعجم والاستعمار وما أدراك ما الاستعمار قتل الشعوب الآمنة في عقر ديارها واستعبادها واغتصاب أموالها وتسخيرها في خدمة اللص المستعمر، وتطبيق التمييز العنصري كذلك من وحي هذه الأدمغة العبقرية؟ وما أحسن ما قال الشاعر:

| | |
|---|---|
| **إذا لم تخـــش عاقبـــة الليـــالي** | **ولم تســتح فاصـــنع مـــا تشـــاء** |
| **فـــلا والله مـــا في الـــدين خـــير** | **ولا في الـــدنيا إذا ذهـــب الحيـــاء** |

وهذه الفكرة الكاذبة الخاطئة مستولية على عقول الأوروبيين، عالمهم وجاهلهم وذكيهم وغبيهم وسادتهم وسوقتهم، حتى إن العالم الشهير المؤلف كارل بروكلمان تورط فيها، فنقل من ترجمة تاريخ الهند للعالم الفيلسوف الكبير أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني لمترجمه مارتين هارتمان أكاذيب اخترعها هذا الأخير منها أن البيروني كان مسلما في الظاهر فقط ولم يكن مسلما في الباطن لأن علمه وعقله أجل من أن يقبل الإسلام، ومنها أنه كان شيعياً في أول الأمر فلما اجتمع بالسلطان محمود الغزنوي صار سنيا ومنها أنه كان فارسيا متعصبا لدولة الساسانيين التي قضى عليها العرب، وكان يبغض العرب، ويحتقر علومهم، وهنا زاد الناقل كارل بروكلمان (بحق) انتهي كلامهما بنصه وفصه مترجما بحروفه، وقد نقلت كلام هارتمان بنصه الإنجليزي، وكلام بروكلمان بنصه الألماني، ورددت عليه في رسالتي التي قدمتها في جامعة برلين، وأحرزت بها لقب دكتور في الفلسفة على حد تعبير الأوربيين وفي الأدب على حد اصطلاح العرب. وقد ناقش هذه الرسالة عشرة من علماء جامعة برلين أحدهم أستاذي المرشد رشارد هارتمان فوافقوا بالإجماع على ردي لتلك الترهات التي اخترعها مارتين هارتمان واستحسنها بروكلمان وسود بها صحائف كتابه (تاريخ الأدب العربي) وزاد عليها تلك الكلمة الإجرامية وهي قوله (بحق)، اقترف ذلك تزلفا لحزب هتلر الناشئ، وزعم بروكلمان أن البيروني كان يفتخر بآريته، يعني لأنه فارسي فهو يتصل بالنسب الآري الذي يعتز به هتلر وحزبه، وكان بزعمه يبغض العرب ويحتقر علومهم (بحق) لأنهم ساميون، ولم يكن في إمكاني حينئذ أن أرد عليه في هذا الزعم الأخير لأني كنت في عاصمة البلاد الألمانية في حكم هتلر الذي يدعي له مضلله روزنبرك، أن البشر ينقسمون إلى قسمين: قسم آري وهو الأعلى الكامل الذي أنشأ المدنية، واكتشف المكتشفات واخترع المخترعات، وأنشأ العلوم وحملها بجدارة واستحقاق، وهو الذي يستحق أن يسود ويقود، وقسم غير آري بضد ذلك غير صالح لإنشاء المدنية والعلم ولا لحملهما، وحقه أن يستعمر، ويجب على الجنس الآري أن يسخره ويقوم بتغذيته والمحافظة على صحته والعدل بين أفراده ووضع مناهج العمل له.

وكان العلماء الألمانيون يكفرون بهذا الرأي ويستهجنونه، ولما اشتد وطأة الحكم الهتليري ما كان أحد يستطيع أن يجهر بمعارضته، كما أنه لم يتنزل أحد من العلماء لإظهار الموافقة

عليه إلا النادر، ومن هذا النادر بروكلمان.

وكان الأستاذ باولكالي قد اقترح على ترجمة مقدمة كتاب الجماهير في الجواهر للبيروني مع التعليق عليها ليكون ذلك موضوعا لرسالة امتحان شهادة الدكتوراه التحريري فترجمت المقدمة وعلقت عليها، ولما فر الأستاذ باولكالي من حكومة هتلر إلى بريطانية في أول سنة ١٩٣٩ انتقلت من جامعة بون إلى جامعة برلين وأتممت دراستي على يد الأستاذ رشارد هارتمان، لم أجد في تلك المقدمة شيئا أولي بالتعليق من تلك المفتريات التي اختلقها عدو الإسلام والعرب مارتين هارتمان وأقرها وزاد فيها بروكلمان فتجردت لردها وقضيت عليها بالبراهين القاطعة من كلام البيروني نفسه في تأليفه، فغضب على بروكلمان لأنه ظن أن الجو خلا له فأخذ يبيض ويصفر، وينقر ما شاء أن ينقر وحسب أن المسلمين والعرب نائمون في غفلة عن مكايده، ومكايد أستاذه الذي نقل عنه ذلك الهراء ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ولهما الويل مما يصفان ويحق للعلماء الألمانيين العشرة الذين ناقشوا رسالتي وحكموا لي على أشهر مؤلف في هذا العصر من المستشرقين لا في ألمانية وحدها بل في سائر البلاد الأوروبية يحق لهم أن يفخروا بحرية الفكر ونصر الحق بقطع النظر عن قائله وهو طالب عربي غريب، ولا مجال هنا لتفصيل ذلك الرد لطوله، ولكني أذكر عبارة شاذة فاذة قالها البيروني في كتابه الصيدنة الذي ألفه في شرح مفردات الأدوية، وقد قال فيه، إن الصواب في هذه الكلمة هو الصيدنة بالنون لا باللام كما هو مشهور، والكلمة التي قالها البيروني في تفضيل اللغة العربية على اللغة الفارسية هي قوله: «أنا لا أحسن اللغة العربية ولا الفارسية، ولكن الهجو بالعربية خير لي من المدح بالفارسية» يعني أنه يفضل أن يهجى بالعربية على أن يمدح بالفارسية، وهذه غاية المبالغة في حب العرب ولغتهم حبا يزيد على حب العرب أنفسهم للغتهم، وخصوصا في هذا الزمان الذي طغى فيه الاستعمار الروحي بله المادي ولاسيما في هذا الوطن المغربي المنكوب الذي تري أبناءه يتراطنون بلغة الاستعمار فيما بينهم بدون ضرورة، شيء يدمي القلوب ويشمت الأعداء ويسوء الأصدقاء، قبل شهرين كنت راجعا من فاس إلى مكناس بعد إلقاء درس الوعظ في جامع الأندلس، فبينما أنا في أثناء الطريق إذا بجماعة من رجال الدرك قد استوقفت السيارات وأخذت تجري عليها امتحانا دقيقا، فمنها شقي وسعيد، فبعض السيارات نجحت

في الامتحان فسمحوا لها باستئناف السير وبعضها عثر جدها فرسبت وبقيت محبوسة تنتظر العقاب، وكانت سيارتي من الناجحات فاستأنفنا السير في ذلك الليل البهيم، فلم يمض إلا قليل حتى اعترضت طريقنا جماعة أخرى من رجال الدرك، وأرادوا إجراء الامتحان مرة أخرى فأخبرناهم أن السيارة قد امتحنت بفحص أوراقها وأدواتها قبل عشر دقائق فنجحت، فلم يقبلوا وأصروا على إعادة الامتحان فأعادوه فظهر لهم أن الضوء الأحمر الخلفي الذي يعطي الإشارة للسيارات الآتية من الوراء متوقف فقالوا أصلحوه أو ادفعوا ألف فرنك غرامة نقدا أو نسجل عليكم قضية مخالفة، فقلت لهم: سجلوا وكان أحدهم يتكلم مع صاحبه فأراد أن يودعه فقال له بالعجمية: (بون نوي).

وكنت مغتاظاً عليه فوجدت فرصة للكلام فقلت له: لغة الاستعمار حلوة لذيذة لا تستطيعون أن تفطموا أنفسكم عنها؟ فقال لي: كيف كيف؟ يعني أن الكلام بالعربية والفرنسية سواء. فقلت له: هذا مسخ ودناءة وخزي وعار، وهل يوجد على وجه الأرض شخص عنده شرف وذرة من الوطنية يسوى بين لغة قومه ولغة الاستعمار. فقال لي: إن هذه اللغة الرسمية عندنا في عملنا.

فقلت له: إن كلمة الوداع ليست من الأعمال الرسمية، ألا يستطيع صاحبك أن يقول لك: أصبح بخير أو ليلة سعيدة، أو نحو ذلك؟ فلما عجز عن الدفاع، قال لي: من أنت؟ فقلت له: قد رأيت اسمي في أوراق السيارة وما حاجتك إلى معرفتي، اعمل بالقانون الذي عندك، فأصر على أن أخبره باسمي فأخبرته فاعتذر وقال: سامحني. وأخذ يصلح مع السائق ضوء السيارة. وإنما اغتظت عليه في أول الأمر لأنه بدأ الكلام بفظاظة وانتهت القضية بسلام. ورأيت أختين مغربيتين صغيرتين تحدث أحداهما الأخرى بالفرنسية.

وأما في الدوائر الحكومية فالعربية أجنبية، ولكن لابد لهذا الليل من آخر.

كنت أتكلم مع رئيس شركة التأمين على السيارات وهو فرنسي قح في الرباط فقال: إني نصحت أولادي فقلت لهم: إنكم ولدتم في المغرب ونشأتم في المغرب، ولن تستطيعوا أن تعيشوا إلا في المغرب، فتعلموا العربية فإنكم إن لم تفعلوا فسيذهب أحدكم إلى دار البريد بعد عشر سنين أو على الأكثر بعد خمس عشرة سنة، فلا يستطيع أن يقضي حاجته إلا بترجمان. فيا ليت المغاربة يفهمون هذه الحقيقة التي فهمها هذا الرجل الفرنسي البعيد النظر.

ورب قائل يقول لقد خرجت عن الموضوع أكثر من مرة وصيرت مقالك هذا كسفينة نوح في جمعها بين البشر وأنواع الحيوان فأقول في الجواب: إن الاستطراد عادة لازمة لي، لأن الحديث كما قيل ذو شجون وكثير من الناس يجدون في المقال المشتمل على فنون يرتبط بعضها ببعض من المتعة ما لا يجدونه في المقال المنسق المنحصر في لون واحد، والذي نعتقده وندين الله به أن البشر كلهم نوع واحد وإن اختلفت أجناسه، فإن العقل والتفكير الذي كرم الله به بني آدم لا يختلف باختلاف الألوان والأشكال وأن العلم والمدنية ليسا وقفا على جنس بعينه، إلا أن حب السيطرة والاستعباد يحمل الظالمين على التنكر لهذا المبدأ القويم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.



## غرائز الحيوان ودلائلها على فاطر السموات والأرض

**قال المؤلف كريسى مورسن:** إن تطور الإنسان قد بلغ في التقدم مرتبة عالية من الوجهة الطبيعية، ويظهر أنه لم يبق هنالك أمل في تطور جديد بالنسبة إلى تكون جسم الإنسان، أما تقدمه من الوجهة الصحية فمؤمل بسبب تحسن الغذاء وعجائب الطب والجراحة التي لا تزال في اطراد مستمر، وذلك يقتضي زيادة كمال وتطور في جسم الإنسان، ويستلزم ذلك زيادة تحسن في عقله وتفكيره، وهناك — أمل على الأقل في أن يزداد الإنسان قوة في الذهن ليعرف نفسه ويعبر عما أودعه الله فيه من حكم وأسرار، وبذلك يرتقي الإنسان ويتقدم في الكمال من الوجهتين المادية والعقلية من حيث الفرد ومن حيث الجنس — إن المدنية والأخلاق تسيران تارة إلى الأمام، وتارة إلى الوراء، إلا أن هناك دائما ربحا في الجملة وتطورا ملحوظا في تقدم الإنسان، ولكن عليه أن يسير إلى الأمام مسافات أبعد، ومن حسن الحظ أنه لا يظهر أن هناك حدا لإمكان تطور جديد وتحسن في دماغ الإنسان بمرور الزمن الذي هو المؤثر الأساسي.

لقد وهب الله الطير غريزة الاهتداء إلى الرجوع إلى أوكارها، فالعصفور المعروف بالربين الذي يعشش في أبواب بيوتنا، يذهب عند انقضاء فصل الخريف إلى البلدان الجنوبية فرارا من البرد وطلبا للدفء، ولكنه يرجع في زمان الربيع إلى عشه القديم، وفي شهر أيلول — شتنبر — نرى أسراب الطير معظمها تطير إلى الجنوب، وأحيانا كثيرة تطير فوق البحر مسافة ألف ميل ولا تضل طريقها أبدا، والحمام الزاجل إذا حمل في قفص إلى مكان بعيد قد يتحير أحيانا بكثرة الأصوات الطارئة عليه في سفره البعيد، ولكنه يحوم هنيهة ثم يأخذ طريقه مستقيمًا تقريبًا حتى يعود إلى وطنه، والنحلة لا تضل في عودتها إلى خليتها، ولا يصدها عن ذلك هبوب الرياح العواصف التي تحرك الأشجار وسائر النبات وتطمس أعلام طريقها، أما الإنسان فحاسة الاهتداء إلى العودة إلى وطنه ضعيفة فيه، ولكن الله وهبه عقلا استطاع به أن يصنع آلات الملاحة التي يهتدي بها في ظلمات البحر والجو فكان ذلك عوضا له عما فقده من تلك الغريزة التي منحها غيره، والحشرات الصغيرة لابد أن تكون لها عيون ميكروسكوبية أي مجهرية، ولكن إلى أي حد تبلغ هذه العيون في كمال الإبصار؟ لا ندري،

والنسور والبزاة لابد أن تكون لها عيون مجهرية أيضا لم يهبها الله الإنسان.

وفي هذا أيضا فاق الإنسان الحيوان بأدواته الميكانيكية، فبتلسكوبه يستطيع أن يبصر سديما بلغ في الدقة إلى حد أن البصر يحتاج إلى أن يضاعف مليونين من المرات ليقدر على رؤيته، والإنسان بميكروسكوبه يستطيع أن يرى ميكروبا لا يرى بالبصر المجرد، ويرى زيادة على ذلك مخلوقات صغيرة جدا سلطت على تلك الميكروبات تعضها.

ولو تركت الفرس وحدها فإنها تسير في الطريق في أشد الليالي ظلمة، وتستطيع أن ترى ولو في شيء من الإبهام اختلاف درجات الحرارة في الطريق وجانبيه بعينين متأثرتين تأثرًا خفيفا بالأشعة تحت الحمراء التي في الطريق، والبومة تستطيع أن ترى الفأرة الجميلة في نظرها حارة الجسم تجرى على العشب البارد في أشد الليالي ظلمة، ونحن نقلب الليل نهارًا بإحداث إشعاع تلك المجموعة التي نسميها بالضوء.

وهل تعلم أن إنسان عينك يلقي صورة على الشبكية، وحينئذ تعمل العضلات عملها فترتب الإنسان بطريقة آلية وتوجهه إلى بؤرة متقنة الوضع، وتتألف الشبكية من تسع طبقات ينفصل بعضها عن بعض، ومجموعها لا يزيد في الغلظ على قرطاس رقيق جدًا، والطبقة الأخيرة من الداخل تتألف من مادة تشبه الشعر أو الخيوط الرقيقة بعضها مخروطي الشكل، وعددها يبلغ ثلاثين مليونا من الخيوط غير المخروطية وثلاثة ملايين من المخروطية، وكلها قد ألفت ونظمت على غاية التناسب والتناسق والكمال بعضها مع بعض وكلها مع إنسان العين، ولكن كلها قد ولت ظهورها إلى إنسان العين وتوجهت إلى الداخل لا إلى الخارج، ولو استطعت أن تنظر من خلال الإنسان لرأيت عدوك مقلوبا أسفله أعلاه ويمينه شماله وذلك أمر يوقعك في ارتباك إذا حاولت أن تدافع عن نفسك.

وقد علم الله ما كان سيحدث لو لم يجعل تلك الأجزاء التي تتألف منها العين على ذلك الترتيب الخاص قبل أن تبصر العين بالفعل، ولذلك رتب الله سبحانه الإبصار بواسطة ملايين الأعصاب الدقيقة التي تشبه الخيوط وهي متصلة بالدماغ وهو نظام تتحير العقول في إتقانه وإحكامه، وقد رفع إدراكنا بواسطة ذلك من الحرارة إلى الضوء، ولذلك صارت العين شديدة الإحساس باللون، ونحن لذلك نرى صورة ملونة، للدنيا من الجانب الأيمن

إلى الأعلى وهو ترتيب بصري في غاية الإحكام والاحتياط، وطبقات إنسان العين التي تسمي بالعدسات تختلف في الكثافة.

وبذلك تجلب الأشعة إلى البؤرة، ولا يستطيع الإنسان أن يجد مثل ذلك في جنس واحد كالزجاج مثلا، وكل هذا النظام العجيب في العدسات من الخيوط غير المخروطية والمخروطية والأعصاب وغير ذلك، لابد أنها وجدت في وقت واحد، إذ قبل وجود كل واحد منها على الترتيب المذكور يكون الإبصار مستحيلا، فكيف استطاع كل عامل متحتم الوجود من تلك العوامل العديدة أن يعرف ما يحتاج إليه في خاصة نفسه، وما يحتاج إليه ليتفق مع العوامل الأخرى في العمل المشترك وينظم كل واحد نفسه مع شركائه ليتم العمل المطلوب وهو الإبصار.

**وهنا استأذن القارئ في التعليق على ما تقدمت ترجمته فأقول:** لعل هؤلاء السفهاء الذين يجحدون تصرف الله في ملكه وينسبون كل ما رأوا من عجائب صنعه إلى الطبيعة العمياء الصماء البكماء التي لا وجود لها إلا في مخيلاتهم يظنون أن خلق الحيوان ناطقة وصامتة إنما هو مثل صنع لعبة أو دمية تصنع فتجيئها الحياة بعجائبها ودقائقها من سمع وبصر وتفكير ودورة دموية وتنفس وهضم إلى غير ذلك بلا علم ولا تقدير ولا تدبير؟.

وقد أهاب الله بهم لو كانوا يسمعون أو يعقلون فقال جل من قائل في سورة الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ وقال تعالى في سورة الحج أيضا: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ هذه الآية تنطبق انطباقا تاماً على مطايا الاستعمار الروحي المادي، فإنهم يجادلون بغير علم وإذا سئلوا عن الدليل أحالوا السائل على مسيو فلان ومستر فلان من أسماء سادتهم المستعمرين وزعموا كذبا وبهتانا أن أئمة الاستعمارين الروحي والمادي تركوا الإيمان بالله فبلغوا ما بلغوا من الرقي فيجب علينا أن نترك الإيمان بالله لنصل إلى ما وصلوا إليه وفي كلامهم هذا من الخداع والبهتان ما لا يخفي على عاقل — أولا: أن أئمة الاستعمار لهم دينهم وعقيدتهم ولنا ديننا وعقيدتنا، فلو فرضنا أنهم تركوا دينهم ونجحوا بتركه فلا يلزم من ذلك أننا نحن أيضاً ننجح بترك ديننا،

ثانيًا: أنهم كذبوا في زعمهم أن أئمة الاستعمار تركوا دينهم، فهذه كنائسهم وإرسالياتهم ودعاتهم قد ملأوا بلادنا الأفريقية وملأوا البلاد الآسيوية وسائر القارات، وهم ينفقون على ذلك أموالا طائلة عزيزة عليهم يحبونها أكثر من أنفسهم فلماذا يفعلون ذلك إذا تركوا دينهم، ويفعلونه في بلادنا بعد ما فعلوه على أكمل وجه في بلادهم، وهذه الضاحية التي أسكن فيها من ضواحي مكناس تسمي المنزه فيها كنيسة يدير شئونها قسيس وهي مجهزة أحسن تجهيز قائمة بواجباتها، ولا يوجد في هذه الضاحية مسجد أصلاً مع أن عدد المسلمين من سكانها أكثر من عدد النصارى، وهم يشتكون لبقائهم بلا مسجد، ونحن نهيئ عريضة نوجهها إلى وزارة الأوقاف المحترمة لعلها تتلافى هذا التفريط الشائن وتبني لنا مسجدا يرفع ويذكر فيه اسم الله. ولولا كراهية الخروج عن الموضوع والإسهاب في الاستطراد لذكرت من شواهد عناية الشعوب الأوربية المفصلة بدينها ما يمسخ الله به كل مطية من مطايا الاستعمار قردا أو خنزيرا. ولقد صدق الله العظيم فإنهم يجادلون في الله بغير علم ويتبعون كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير، هذا بعد عذاب الدنيا كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾، ومن عذاب الحياة الدنيا الاستعمار الذي أذاقنا ولا يزال يذيقنا الأمرين بسبب تركنا الإسلام لا بسبب التمسك به كما تزعم مطايا الاستعمار، ولله الحجة البالغة ولكن أكثر الناس لا يعقلون.

## مملكة النحل وما أودع الله فيها من الأسرار الدالة على عظمته

**قال المؤلف متابعا كلامه في فصل غرائز الحيوان:** والحارة العادية التي نأكل عضلاتها تحتوى على «دوزينات» عدة من العيون الجميلة — الدوزينة اثنا عشر كما هو معلوم — وهذه العيون الجميلة شديدة الشبه بعيوننا، وهي تلمع لأن كل عين منها تشتمل على عدد لا يحصى من العاكسات الصغيرة التي يظن أنها تمكنها من رؤية الأشياء من اليمين إلى الأعلى. وهذه العاكسات لا وجود لها في عيون البشر، فهل خلق الله تلك العيون الكثيرة في المحارة لأنها ليس لها قوة دماغ الإنسان؟ ولما كان عدد العيون في الحيوان ما بين عينين اثنتين إلى آلاف العيون في المخلوق الواحد، كان على الطبيعة أن تلاقي مشقة عظيمة لا قبل لها بها في تطوير علم المرئيات، إلا إذا صحبها صنع الله الذي أتقن كل شيء. إن النحل التي يخرج من بطونها العسل لا ترى الأزهار الجميلة بالعين التي نراها بها نحن، لكنها تراها بالضوء الذي فوق البنفسجي وهو يجعلها في نظرها أجمل مما نراها نحن. إن بين أشعة التموجات البطيئة وبين اللوحة (الفوتوكرافية) التصويرية عوالم من الجمال والبهجة والإلهام التي قد بدأنا نقدرها حق قدرها ونسيطر عليها، فدعونا نؤمل أن نقدر في يوم من الأيام على الاستمتاع بعالم الضوء الواسع، بواسطة النبوغ في الاختراع، وها نحن منذ الآن نقدر أن ندرك تموجات الحرارة في كوكب بعيد عنا بمسافة عظيمة، ونقيس قوتها.

إن العاملات من النحل تصنع بيوتا مختلفة الحجم في القسم الذي يستعمل لتربية الصغار. وتصنع بيوتا صغيرة للعاملات، وتبني بيوتا أكبر لليعاسيب، وتعد بيوتا خاصة للملكات الحوامل، وتضع ملكة النحل بيضا ناقص التغذية في الخلايا المعدة للذكور، غير أنها تضع بيضا كامل التغذية في البيوت المخصصة للإناث العاملات والملكات المنتظرات، ثم إن العاملات اللاتي هن إناث قد انتظرن من زمان طويل الجيل الآتي واستعددن أيضا لإيجاد الغذاء للنحل الصغار بمضغ العسل، وتيسير هضمه، وإعداد النوع الآخر من الغذاء المسمى باللقح، ثم ينقطعن عن المضغ وتيسير الهضم في مرحلة معينة من تطور الذكور والإناث، ويقدمن لهن عندئذ العسل واللقح بلا مضغ ولا تيسير للهضم، والإناث اللاتي يعاملن بهذه المعاملة يصرن عاملات.

وأما الإناث اللاتي في بيوت الملكة فإن غذاءهن يستمر مضغه وتيسير هضمه قبل تقديمه لهن، وهذه الإناث التي تعامل بهذه المعاملة يصرن ملكات وهن وحدهن التي يضعن بيضا كامل التغذية، وتكرار النتاج هذا يستلزم بيوتا خاصة وبيضا خاصا، وإثراء عجيبا في تغيير الغذاء، وذلك يدل على التوقع وسبق العلم بأثر الغذاء، هذه التغيرات تنطبق بوجه خاص على حياة الجماعة ويظهر أنها ضرورية لوجودها، ولابد أن هذه المعرفة والمهارة قد تم اكتسابهما بعد ابتداء هذه الحياة الجماعية، وبذلك يظهر أن النحل قد فاقت الإنسان في معرفة تأثير الغذاء في أحوال خاصة.

**تعليق على ما تقدم:**

١- نسأل الماديين وأذنابهم وعباد المستعمرين من أوجد للمحارة هذه العيون الكثيرة؟ ومن الذي زودها بتلك المعاكسات التي لا وجود لها في عيون الناس؟ فهل الطبيعة العمياء البكماء الصماء هي التي علمت حاجة المحارة إلى تلك العاكسات فزودتها بها وعلمت أن الإنسان لا يحتاج إليها فلم تزوده بها؟ إذن فالطبيعة عليمة حكيمة قادرة مدبرة لها إرادة ومشيئة، فإن آمنتم بذلكم فكيف تجحدون خالقكم وهو الخلاق العليم العظيم الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، وإن لم تؤمنوا به، فأجيبوا عن السؤال الأول، ولن تستطيعوا له جوابا حتى يلتقي سهيل والثريا، وحتى تجيبوا عن جميع الأسئلة التي تحديناكم بها في المقالات التسع الماضية، وهيهات ليس أمامكم إلا أحد أمرين إما الرجوع إلى الحق والإيمان بالحق والندم على ما ضاع من أعمالكم في ظلمات الجهل وخبطكم خبط عشواء في ليلة ظلماء أو المكابرة والمغالطة والوقاحة.

**إذا رزق الفتي وجها وقاحا تقلب في الأمور كما يشاء**

٢- لقد أجاب المؤلف وهو من هو! رئيس المجمع العلمي في الولايات المتحدة. أجاب بقوله: فهل خلق الله تلك العيون الكثيرة في المحارة لأنها ليس لها قوة دماغ كالإنسان؟ الجواب نعم، فتبارك الله أحسن الخالقين.

**٣- ثم أشار المؤلف إلى أن الطبيعة لا تستطيع أن توجد لأنواع الحيوان تلك العيون** المتعددة من عينين اثنتين لكل مخلوق إلى عدة آلاف من العيون للمخلوق الواحد، وهذه

العيون تختلف في كل مخلوق على حسب ما يناسبه، إذا فالخالق البارئ المصور هو الذي فعل ذلك وأنف المادي وأذنابه راغم.

٤- ومن الذي علم حاجة النحل إلى عيون تنظر بما فوق البنفسجية لتبدو لها الأزهار، أجمل مما تبدو لنا، فتجذبها إلى أخذ مادة العسل منها لتخرج لنا عسلا لذيذا نستمتع بأكله، ونستشفي بخواصه، هل تقدر الطبيعة أن تعلم هذه الحاجة وتسدها فأين تذهبون؟.

٥- يقول المؤلف: «إن بين أشعة التموجات البطيئة وبين اللوحة الفوتوكرافية التصويرية عوالم من الجمال والبهجة والإلهام التي بدأنا نقدرها حق قدرها ونسيطر عليها، فدعونا نؤمل أن نقدر في يوم من الأيام على الاستمتاع بعالم الضوء الواسع بواسطة النبوغ في الاختراع. هكذا يعترف العلماء المحققون أنهم لا يزالون في بداية الإطلاع على عالم الضوء وعجائبه، ويؤملون أن يزدادوا علما ويتوصلوا إلى النتائج العظيمة بخلاف الطائشين الذين يصدرون أحكامهم جزافا، ويقنعون بأول بصيص ويزعمون أنهم أحاطوا بكل شيء علما وذلك هو الجهل المركب».

٦- إن تصرفات مملكة النحل، وإعداد العاملات منها من البيوت والتغذية لكل صنف ما يناسبه لا للموجود منها فقط، بل لما سيوجد لبرهان قاطع على تدبير رب العالمين وتصرفه في خلقه بحكمته البالغة، قد اعترف المؤلف أن تدبير هذه المخلوقات الملهمة لمملكتها يفوق تدبير البشر، وما أجمل قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.لا جرم أن تفوق النحل الضعيف على الإنسان في بعض النواحي سببه ذلك الوحي الرباني، ولذلك نوه الله به ممتنا على عباده، ومنبها لهم على كمال حكمته وعظيم قدرته ليعتبروا، وقد سميت السورة بسورة النحل لوجود هذه الآية فيها، وما يعقلها إلا العالمون.

**ثم قال المصنف:** والكلب بأنفه الذي لا يفتر عن السعي في استنباط المعلومات بما أوتي من قوة الشم يستطيع أن يعرف الحيوان بعد مروره بالمكان الذي هو فيه، ولم يستطع الإنسان حتى الآن أن يخترع آلة تقوي حاسة الشم عنده إلى أن يساوي هذه الحاسة عند الكلب، ونحن لا نكاد نعلم كيف نبتدئ في فحص امتدادها، وعلى ذلك نرى أن حاسة الشم

على ضعفها عند الإنسان قد تطورت إلى حد أنها تدرك أصغر الذرات المجهرية (الميكروسكوبية) وكيف نعرف أننا جميعا نتأثر تأثرا واحدا بشمنا رائحة بعينها؟ والحقيقة أننا لا نتأثر تأثراً واحداً، وكذلك الذوق فإنه يعطى كل واحد منا شعورا خاصا، والعجب أن اختلاف إحساساتنا هنا هو وراثي. وكل أنواع الحيوان تسمع الأصوات التي كثير منها خارج عن دائرة إدراكنا، وسبب ذلك دقة السمع عندنا بكثير، وقد توصل الإنسان بالوسائل التي اخترعها في هذا الزمان إلى أنه يستطيع أن يسمع حركة ذبابة وهي تمشي على مسافة أميال بعيدة منه، كما لو كانت تمشي على صماخ أذنه، وبمثل تلك الآلات يستطيع الإنسان أن يسجل وقع شعاع عالمي.

إن جزءاً من أذن الإنسان هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنية دقيقة، ولكنها معقدة، متدرجة بنظام دقيق في الحجم والشكل ويمكن أن يقال أن تلك الحنايا تشبه آلة موسيقية، ويبدو أنها قد نظمت تنظيما محكما، بحيث تدرك الأصوات، وتنقلها إلى الدماغ، بوجه محكم تنقل كل ضجيج أو صوت صغيرا كان أم كبيرا من صوت الرعد المجلجل إلى حفيف الشجر، وتنقل تلك الحنايا نغمات آلات الموسيقي الممتزجة، وأصواتها المختلفة مما يتضمنه الجوق الموسيقي. لو كان المراد خلق الأذن أن تحس خلاياها الأصوات بالقدر الذي يعيش معه الإنسان فقط، فلماذا امتد مداها إلى أن وصل إلى إرهاف السمع؟

لعل القوة الكامنة وراء هذه الخلايا، قد توقعت حاجة الإنسان الآتية في المستقبل إلى الاستمتاع بالاستماع العقلي، أم كان خلق تلك الخلايا علي وجه أفضل مما يحتاج إليه على سبيل المصادفة؟

**تعليق:**

بعد ما شرح المصنف تكوين الأذن العجيب وبين كيف تنتقل المسموعات منها إلى الدماغ ألقي سؤالاً على الماديين بطريقته اللطيفة أحرجهم فيه وشدد عليهم الخناق وهو قوله: فلو كان المراد عند (خلق) الأذن أن تحس خلاياها الأصوات، بالقدر الذي يعيش معه الإنسان فقط فلماذا امتد مداها إلى أن وصل إلى إرهاف السمع؟ ثم حصل الجواب في أمرين اثنين لا ثالث لهما أحدهما قوله: لعل القوة الكامنة وراء هذه الخلايا قد توقعت حاجة الإنسان الآتية في المستقبل إلى الاستمتاع بالاستماع العقلي. أشار في هذا

الجواب إلى أن الله العليم الخبير حين خلق سمع الإنسان لم يخلقه على القدر الذي يحتاج إليه ليعيش فقط، بل خلقه بقدر ما يحتاج إليه الإنسان في كل وقت لعلمه بتطور حياة الإنسان وتجدد حاجاته، وذلك يستلزم الاعتراف بعلم الله، بجميع أحوال البشر من أول خلقهم إلى فنائهم ويبطل مزاعم الماديين. والأمر الثاني أن يكون ذلك كله وقع على سبيل المصادفة بلا علم ولا تقدير ولا تدبير رمية من غير رام وقد علمت بطلان هذا القول فيما مضي من هذه المقالات.

**ثم قال المؤلف:** والصغير من الحوت المعروف بسلمون يقضي سنين في البحر ثم يرجع إلى نهره الخاص به، وأعجب من ذلك أنه يصعد جانب النهر الذي يصب فيه الجدول الذي ولد فيه، وقد تكون قوانين الولايات المتحدة الأمريكية التي على أحد جانبي النهر شديدة وقوانين الولاية التي على الجانب الآخر متساهلة ولكن هذه القوانين لا تسري إلا على الحوت الذي يمكن أن يقال أنه يخص الجانبين كليهما، فما الذي يجعل السمك يرجع إلى مكانه بالتدقيق التام؟ فلو نقل حوت من نوع السلمون إلى نهر آخر، وألقي فيه لأدرك في الحال أن ذلك النهر ليس نهره، ورجع بكل قواه شاقا طريقه إلى نهره الخاص به ولا يصده عن ذلك التيار المعاكس، وهناك مشكلة أشد استعصاء وصعوبة على الحل وهي قصة ثعابين البحر، فإن هذه المخلوقات العجيبة متى تم نموها ترحل من مختلف الحياض والأنهار؟ في كل مكان.

فإذا كانت في مياه أوربا مثلا تقطع آلاف الأميال في المحيط متجهة إلى الأعماق البعيدة المدى جنوب نهر برمودا وهنالك تضع بيضها وتموت، إن صغارها التي لا تملك أي وسيلة من معرفة أي شيء غير أنها وجدت نفسها في تيه من المياه، فإنها تتوجه راجعة لا تضل طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها. ثم يتوجه كل منها إلى النهر أو الحوض، أو البركة الذي جاء منه أصله، وبذلك يبقي كل بحر محتويا على ثعابينه، فيا عجبا كيف صاولت التيار وغالبت العواصف ومدود البحار، وهزمت الأمواج المتلاطمة في كل شاطئ! ثم بعد ذلك تنمو، فإذا بلغت منتهي نموها، يهيجها قانون خفي من أسرار الكون، فترجع لتتم رحلتها، فمن أين جاء هذا الدفع الموجه الذي ساقها؟ ولم يتفق قط أن ثعبانا أوروبيا من هذه الثعابين قد صيد في المياه الأمريكية، ولا صيد قط ثعبان أمريكي في المياه الأوروبية!

ومن عجائب صنع الله أن الثعبان الأوروبي يتأخر نموه سنة أو أكثر ليكون ذلك عوضا عن زيادة مسافة الرحلة التي يقطعها، فهل تملك الذرات التي يتألف منها الثعبان، قوة الاهتداء ومعرفة أماكن أمهاتها؟ وهل تركت تلك الأمهات لأبنائها وصية مكتوبة ومنهاجا مرسوما وأمرتها أن تنفذه؟ فلو أن جماعة من البشر هاجروا من أوربا إلى أمريكا وولدوا أولادهم وتركوا لهم وصايا مكتوبة وزودوهم بالخرائط اللازمة والإرشاد الكافي لشق عليهم بل تعذر عليهم أن يقرأوا تلك الوصايا، ويفهموا ما تضمنته فكيف بتنفيذها، فيجب على الماديين أن يحلوا هذه الألغاز قبل أن يخوضوا فيما لا علم لهم به. فسبحان الله الخلاق العليم.

**وفيها حجة دامغة للجاحدين**

اعترض على أحد الإخوان فقال إنك لا تحافظ على الاصطلاحات العلمية، فقلت له أذكر لي مثالا من ذلك فقال إنه لا يحضره ولا مثال واحد. فقلت له ينبغي أن تعلم أني لم أقصد بهذه المقالات بيان المسائل العلمية لذاتها فحسب، وإنما أردت استخلاص العبرة والاستدلال على تدبير الخالق الحكيم ثم إني مترجم فمن أراد أن يعترض على يجب عليه قبل ذلك أن يستحضر الأصل ويقابله بالترجمة ثم يعترض على ما يراه خطأ، على أني لا أحرص كثيرا على التدقيق في الترجمة بقدر ما أحرص على سهولة العبارة وتيسير فهمها للقراء، ثم إن الاصطلاحات العلمية الحديثة كلها ألفاظ أجنبية لا يمكننا أن نخطئ فيها ولكن يمكن أن نفسرها ونشرحها.

ثم قال المؤلف: يظهر أن الحيوان له قدرة على تبادل الشعور تقوم مقام اللغات عند الإنسان، فمن ذا الذي لم يلاحظ أن جمعا من السمك المعروف بمنو يتحرك كله دفعة واحدة في وقت واحد؟ ومن ذا الذي لم يراقب بإعجاب الطائر المعروف بالطيطوي يطير ويحوم في الجو حتى تجتمع عليه سائر الطير ذوات الصدور البيض في أشعة الشمس فتجتمع كلها في وقت واحد، فمتى أعطيت الأوامر وتلقيت لا يسمع صوت نقدر أن ندركه، ومع ذلك يطيع السرب كله الأوامر كأنه فرقة من جنود أمرها ضابطها بأمر فامتثلته، بعضنا لا يصدق بوجود تبادل الشعور بين أفراد الحيوان، وبعضنا يصدق به، ولكن لا أحد منا يستطيع أن يفسر الأسلوب الذي يتفاهم به السرب.

متى حملت الريح فراشة أنثي وأدخلتها إلى غرفتك من خلال النافذة، ترسل في الحين بإشارة خفية إلى الفراشة الذكر وبينهما مسافة بعيدة جداً فتتلقي الفراشة الذكر تلك الرسالة وترد جوابها، وإن أحدثت رائحة شديدة في معملك لتمنع تخاطبهما لم يجدك ذلك نفعا، فهل يوجد لذينك المخلوقين الضعيفين جهاز إرسال أي محطة إذاعة يتحادثان بها، أو تراها تهز الأثير فيتلقى هو الاهتزاز ويتفاهمان بذلك؟ وماذا نقول في أنثي الجنادب حين تحك ساقيها أو جناحيها في ليلة هادئة فيسمع ذلك رفيقها على مسافة نصف ميل، إنها تهز ستمائة طن من الهواء لتنادي رفيقها، والفراشة التي تعمل في عالم من عوالم الطبيعة تنادي رفيقها

في سكوت تام، وقبل أن يكتشف الراديو كان العلماء يظنون أن رائحة تنبعث من الفراشة الأنثى فيشمها الذكر ويفهم منها مراد الأنثى ولو كان هذا صحيحا أيضا لكان من خوارق العادة لأن الرائحة إذا انبعثت في الهواء تنبعث في جميع الجهات بهبوب الريح أو بدونه فيكون على الفراشة الذكر حين تصلها هباءة من الرائحة أن تميز من أي جهة جاءت فبقيت المشكلة بلا حل.

ونحن الآن نبذل جهدنا في توسيع علم الميكانيك لتتطور المواصلات وتتسع دائرتها، وسيأتي اليوم الذي يستطيع الشاب فيه أن ينادي محبوبته من مسافة بعيدة بدون استعمال وسائل ميكانيكية فترد له الجواب دون أن يحول بين تخاطبهما جدار ولا باب مغلق، إن التليفون والراديو من الآلات العجيبة تستطيع بهما أن تتحادث من مسافات بعيدة، ولكننا مقيدون بالسلك والمكان، وعلى هذا نرى أن الفراشة لا تزال متفوقة علينا، ولا يسعنا إلا أن نغبطها على ذلك حتى تستطيع أدمغتنا أن تخترع الراديو الفردي وحينئذ نتمكن من تبادل الأفكار على الوجه الأكمل، والنبات يحتال في استخدام أشياء لاستمرار وجوده دون رغبة من تلك الأشياء، فمن ذلك الحشرات التي تحمل اللقاح من زهرة إلى أخرى، والرياح، وكل شيء يطير أو يمشي ليوزع اللقاح، بل استطاع النبات أن يستخدم الإنسان وهو سيد هذه المخلوقات فصار الإنسان يحرث ويزرع، ويشذب كل ذلك بفعله خدمة للنبات لينمو وتتحسن حاله وعلى الإنسان أن يخزن الحب والثمار ويحفظها وإذا لم يفعل عوقب بالمجاعة، وانحطت المدنية، وعادت الأرض خرابا.

والطيور التي تؤخذ صغيرة من أعشاشها حين تكبر تصنع أعشاشا كأعشاش آبائها، وأمهاتها، وللعادات المتوارثة أصول بعيدة في ظلمات القدم، فهل هذه الأعمال نتيجة المصادفة أم نتيجة إعداد حكيم، إن في هذا لكفاية لإظهار العادات الوراثية التي نسميها بالغرائز، ولا نجد من بين أنواع الحيوان التي جابت الأرض طولا وعرضا مثل الإنسان في قوة التعليل، فهو وحده الذي نمي معرفته بالأرقام، فلو أن أحدي الحشرات عرفت عدد أرجلها لما أمكنها أن تعرف عدد أرجل اثنتين من نوعها لأن ذلك يتطلب التفكير وقوة التعليل.

وكثير من الحيوانات هي مثل سرطان البحر، الذي إذا فقد مخلبا، عرف أن جزءا من جسمه قد ضاع، بادر إلى تعويضه بإعادة تنشيط الخلايا وعوامل الوراثة، ومتى تم ذلك كفت الخلايا عن العمل لأنها تعرف بطريقة ما أن وقت الراحة قد جاء.

والحيوان المائي المعروف بكثير الأرجل إذا قطع نصفين يقدر أن يصلح نفسه بواسطة أحد النصفين، وإذا قطعت رأس دودة الطعم فإنها تسارع إلى صنع رأس بدله، ونحن نقدر أن نهيئ التئام الجروح ولكن متى يتمكن الجراحون إذا كانوا سيتمكنون أن يعرفوا كيف يحركون الخلايا لتصنع ذراعا جديدة أو لحماً أو عظماً أو أظفاراً أو أعصاباً، وهناك حقيقة مدهشة تلقي بعض الضوء على سر هذا الخلق من جديد: فإن الخلايا في المراحل الأولى من تطورها إن تفرقت تستطيع كل واحدة منها أن توجد حيواناً كاملاً، لذلك إذا انقسمت الخلية الأصلية إلى قسمين وتفرقا، استطاع كل نصف أن يتطور إلى حيوان كامل وربما يفسر ذلك التشابه الذي يكون بين التؤامين، ولكن يدل على أكثر من ذلك فإن كل خلية في البداية يمكن أن تكون حيوانا كاملا، وهذا ما يدلنا بلا شك على أن أحدنا موجود بأكمله في كل خلية ونسيج من جسمه، وهذه الطريقة العجيبة التي يمكن الإشارة إليها في سهولة وصدق في المزمور رقم ١٣٩ — ١٤/ ١٦ من مزامير داود.

يقول المزمور: «أمجدك لأني خلقت بشكل رائع عجيب، إن أعمالك عجيبة، وإن نفسي لتعلم ذلك حق العلم، إن أصلى لا يخفي عليك حين خلقتني في الخفاء من أدني أجزاء الأرض خلقتني في أحسن صورة، وكانت عيناك تريان أصلى قبل أن يتم خلقي، وفي كتابك كل أعضائي كانت مكتوبة واستمر تصويرها أن تتطور بها كل خلية إلى كائن حي مستقل قد وقعت بعد أن لم يكن هناك واحد منها».

ويمكننا أن نكتب صفحات في عجائب الشعور الذي لا يزال في الوقت الحاضر وراء إدراكنا، ولكن هذه الأمثلة كافية تماما لتدلنا على أنه لا يزال أمامنا كثير مما يجب أن نتعلمه.

وما دام الإنسان لم تتكون له حواس جديدة أو اختراع آلات ميكانيكية تساوي ما عند الحيوانات من القابلية فإن أمامه طريقا طويلا للتطور، إن كل قابلية توجد عند الحيوان ولا توجد عندنا هي تحد لذكائنا ونحن لا نزال ناقصي العلم إلى أن نجد جوابا لهذا التحدي إننا إلى الآن لا نستطيع أن نفهم الغريزة فهما تاماً، ولذلك لا نستطيع أن نضع أسسا على معرفة

ناقصة وإلى أن نملك كل حاسة ربحتها الكائنات الحية الأخرى، فإننا سنبقي عاجزين عن إدراك الارتباط الحقيقي الذي بين قوانين الطبيعة، وسنبقى باحثين فيما لا نهاية له بفهم جزئي، إن التطور الروحي للإنسان هو الآن في البداية، والقبس الإلهي قد بدا يسيطر في بطء على عقله المادي، وأخطاء الإنسان التي توصله إلى هلاك نفسه بيده، إنما هي مآسي طفولته، وزماننا إذا قيس بالأزل الماضي والأبد المستقبل، لا يزيد على دقة الساعة، لكن الروح التي فينا تتعلق بالأزل والأبد جميعا.

ونحن إذا فكرنا في الفضاء الذي لا يفتأ يمتد أمامنا، وفي الزمن الذي لا بداية له ولا نهاية، وفي القوة المقيدة والمحبوسة في الذرة، وفي الكون الذي لا حد له بعوالمه التي لا تحصى ونجومه التي لا تعد وفي الاهتزازات التي نسميها بالضوء والحرارة والكهرباء والمغناطيسية، وفي النشاط المستمر للنجوم، وفي الجاذبية وسيطرة القوانين الطبيعية على العالم، إذا فكرنا في ذلك كله أدركنا في الحقيقة أننا لا نعلم إلا قليلا، فكم يجب أن يتقدم الإنسان قبل أن يعلم حق العلم ويتيقن وجود الخالق الأعلى، ويحاول أن يرتفع إلى أعلى ما يستطيع بلوغه من الفهم، دون أن يحاول تفسير حكمة الله ومقاصده أو يحيط بكنه صفاته تعالى.

**تعليقات:**

١- إن تحرك سرب من السمك دفعة واحدة في لحظة واحدة لأمر عجيب فلو قدرنا أن جماعة من البشر أرادوا أن يفعلوا مثل ذلك لاحتاجوا إلى مفاوضات طويلة وإشارة واضحة يسمعها كل واحد منهم أو يبصرها كإطلاق عيار ناري مثلا أو إرسال ضوء قوي في الفضاء هذا إذا كانوا مستيقظين أو كانت عندهم ساعات دقيقة لا تخطئ كساعة بج بن التي يسمع ضرباتها إذاعة لندن فربما يتوفقون مع هذه الوسائل إلى التحرك دفعة واحدة في وقت واحد ومن المعلوم أن الحيتان ليست لها لغة كلغات البشر ولا آلات لضبط الوقت ولا إشارات، فماذا يقول المتفلسف الذي ينكر ما لا علم له به وما لم يفكر فيه ولا درسه إخلاداً منه إلى الراحة وإرضاء لسادته ذئاب الاستعمار.

يجب عليه أن يفسر لنا هذه الأسرار ويعاليا وليستعن بمن شاء من سادته إن كان صادقا، وهيهات هيهات لن يستطيع ذلك حتى يلتقي سهيل والثريا وحتى يصير الباطل حقا والكذب صدقا.

٢- الآية العظيمة في إعطاء قائد الطيطوي الأمر لسائر أفراد السرب دون أن يتكلم بلغة نفهمها ولا بلغة لا نفهمها، فماذا يقول الجاحدون في خطاب نملة سليمان لسائر النمل؟ هل يستطيعون بعد الإطلاع على هذه الحقائق أن يجحدوا تبادل الشعور بين أفراد الحيوان؟ لقد قال بعض الأوربيين المنصفين الأحرار إن أول كتاب ذكر فيه ما يدل على أن أفراد الحيوان لها وسيلة تتفاهم بها هو القرآن إذا جاء فيه في سورة النمل ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فإلي القرآن يرجع الفضل في إقبال العلماء على البحث في تفاهم أفراد الحيوان ومعيشتهم الاجتماعية وأنظمهم الدقيقة.

٣- أما قصة الفراشتين والجنادب: فقد علق عليهما المؤلف بما لا مزيد عليه، إن في ذلك لآيات للمؤمنين وقوارع مخجلة للجاحدين.



## تطور العقل

**قال المؤلف:** من أعجب العجب أنه لا يوجد في حياة الحيوان على كثرة أنواعه واختلافها ما يسجل له شيئا من العقل فليس له إلا الغرائز، فإذا جئنا إلى الإنسان نجد العقل خاصا به، فلم يوجد حيوان قط استطاع أن يرفع حجر أو يعد عشرة أو يفهم معني عشرة.

لقد أتيح لكثير من المخلوقات أن تظهر بغرائز وخواص بلغت فيها إلى درجة عالية من الذكاء، فمن ذلك أن الزنبور يصيد الجندب ويحفر له حفرة في الأرض، ويخزه في مكان معلوم من جسمه حتى يفقد وعيه ويعيش على شكل اللحم المحفوظ في علبة مثلا، ثم تضع أنثاه بيضا في المكان المناسب بالضبط، ولعلها لا تعرف أن بيضها حين يفقس يخرج أولادا يقتاتون من تلك الحشرة دون أن يقتلوها ولو قتلوها لكان ذلك خطرا عليهم، ولابد أن الزنابير فعلت ذلك وكررته من أول خلقها إلى يومنا هذا، ولولا ذلك لما بقي زنبور واحد على وجه الأرض، والعلم يقف حيران أمام هذا السر ولا يجد له تفسيرا، ومع ذلك لا يمكن أبدا أن يكون ذلك قد وقع على سبيل المصادفة، ثم تغطي أنثي الزنابير الحفرة التي تركت فيها أولادها وتنطلق مسرورة بأداء واجبها، ثم تموت، فلا هي ولا أحد من أسلافها الماضيات فكر في ذلك العمل ولا عرفت واحدة منهن ماذا يقع لأولادها، بل ولا عرفت أن سيكون لها أولاد، بل ولم تعرف أنها عاشت ولا أنها عملت عملا كفيلا بحفظ نوعها.

أما النحل والنمل فيظهر أنها تعرف كيف تنظم وتحكم جماعتها بنفسها، فإن لها جنودها وعمالها وعبيدها ويعاسيبها، ولو أنك التقطت قطعة من الكهرمان على شاطئ بحر البلطيق، لوجدتها تشتمل على نملة محبوسة منذ أزمنة طويلة تفوق العد، ولوجدتها نسخة طبق الأصل من النمل الموجود في هذا الزمان، فهل توقف التطور عن سيره في حق النمل حين وصل إلى النظام المناسب لبيئته في الطبيعة، أم كان ذهن النمل الصغير آلة أقل من أن يصل إلى غرض أعلى مما هو عليه؟ لاشك أن النملة من حيث هي حشرة اجتماعية قد تعلمت كثيرا، ويظهر أنها ارتقت إلى إدراك النظرية العجيبة وتطبيقها وهي (الخير الأكبر للعدد الأكبر) وتصل بذلك إلى النتيجة المنطقية كما فعل بعض أهل الهند الشرقية في الجيل الأخير، في بعض أنواع النمل تأتي العاملات منهن بالحب الصغير لتغذية غيرها من النمل إبان

فصل الشتاء، ويعمل النمل ما يعرف ببيت الطحن، وفي ذلك البيت يطحن النمل الذي أوتي أفكاكاً قوية خلقت بالقصد للطحن بتحضير الطعام لسكان تلك المستعمرة، هذا هو شغلهن الخاص وإذا جاء فصل الخريف وتم طحن الحبوب كلها تحقق المثل (الخير الأكبر للعدد الأكبر) وهذه القاعدة تستوجب حفظ الزاد من الطعام، ولما كان عدد النمل الطاحن سيكثر في الجيل الجديد فإن الجنود من النمل تقتل ذلك النمل الذي طحن الحب، ولعلها تجد في أنفسها مسوغاً لذلك القتل باعتقادها أن أولئك الطواحن المقتولات قد أخذن حظهن كاملا من الغذاء في وقت الطحن، يعني فبقاؤها يضيق الغذاء ويوقع البطالة في الجيل الآتي.

ثم إن بعض أنواع النمل بسبب الغريزة أو بدافع التفكير. (اختر منهما ما تشاء) يزرع الفطر وهو ما يسميه المغاربة (الفكاع) ويعمل منه مزارع تسمي حدائق الفطر ويصيد أنواعا معينة من الأرق ويسمي اليرق، وبالإنجليزية (كتربيلر) والدود الذي يسمي بالإنجليزية (قمل الشجر) هذه المخلوقات هي ما يدعي بقر النمل أو معز النمل لأن النمل يستخرج منها شيئا مائعا يشبه العسل يتغذى به. ومن شأن النمل أن يأسر أعداءه ويتخذهم عبيدا، وبعض النمل حين يعمل أعشاشه يقطع أوراق الشجر على حجم معين، وفي حين يضع بعض العملة من النمل الأطراف في مكانها تستخدم صغارها التي لا تزال في طور اليرق وهي قادرة على أن تغزل الحرير، وتجعله خيوطا لتخيط به تلك الأوراق بعضها مع بعض، وقد تحرم صغار النمل أنفسها من عمل بيت تستقر فيه بسبب ذلك الشغل الذي يعود بالخير على الجماعة إيثاراً منها لمصلحة الجماعة على مصلحتها الخاصة.

فكيف تقدر ذرات المادة وهباءاتها التي يتألف منها جسم النملة أن تقوم بهذه الأعمال المعقدة؟ فلابد أن يكون هنالك خالق عالم قدير يدبر ذلك وغيره. والإنسان وحده هو الذي أوتي عقلا تطور إلى حد أنه يقدر به أن يفكر تفكيرا عاليا عظيما. فالغريزة تشبه نغمة واحدة من نغمات الشبابة المعروفة بالناي، وهي نغمة جميلة، ولكنها محدودة، على حين نرى العقل البشري يشتمل على جميع النغمات التي تحتوى عليها كل الآلات الموسيقية التي يتألف منها الجوق الذي يسمي (أوركسترا) والإنسان هو الذي يقدر أن يؤلف تلك النغمات ويخرج من مجموعها للعالم معزوفات «سمفونيات» موزونة كاملة من الفكر تقارب المعجزة. ولم تخرج العناية الربانية مخلوقا حيا من الصخور الطبيعية الأولى: مخلوقا له عقل مرن

مثل عقل الإنسان. إذا صار ذلك معلوما فنحن نقدر أن ندرك قابلية الإنسان أن يتلقي قبسا من رب العالمين يجعله سيدا في الأرض، عجيبا في مزاياه خالدا فيما قدره الله له.

إن التطور لابد له حسب القوانين الكيميائية والطبيعية أن يقصر أقصى حدوده على أعظم ما يمكن من مناسبة ما حوله، ولا يتجاوز ذلك، فجمال ريش طائر هو إظهار لجاذبية التزاوج بين الذكور والإناث، وبذلك يمكن تعليله، غير أن الطلاء الجميل ليس ضرورياً لوجود الإنسان، وإن كانت المرأة الجميلة موجودة، إن المادة من الذرات والصخور أو الماء يمكن أن تتحد، وإذا أعطيت الحياة يمكن أن تتطور إلى إنسان، ولكن هذه العناصر بعد أن تتم مناسبتها للبيئة الطبيعية، أيمكنها أن تسير إلى الأمام وتنتج أستاذا موسيقيا، يستطيع أن يكتب نغمات «نوتات» على القرطاس، ويسجل تناسبها الجميل ويصنع «بيانو» يستولى به على ألباب المستمعين ويسحرهم بنغماته، ثم يسجل معزوفاته على أقراص من البلاستيك تذاع في العالم بمحطة إذاعة بواسطة الأثير ولا تعرف الذرات من أمره شيئا غير أنها موجودة فيه؟.

إن بعض أنواع الحيوان تتعاون في شؤونها وتوحد جهودها فلا تصيد إلا في حال جماعات، فتجمع غذاءها وتخزنه للمستقبل، وتضاعف جهودها الفردية بالعمل المشترك، ولكنها مع ذلك تظهر أنها لا تتقدم ولا خطوة واحدة إلى الأمام. أما الإنسان فإنه ضاعف قوته الفردية ووحد جهوده حتى بني الأهرام ولم يقف عند ذلك الحد، بل اكتشف الآلة الرافعة، والبكرة المساعدة على رفع الأثقال بالحبال، والعجلة التي تسهل الجر، والنار، وراض الحيوان حتى عوده حمل الأثقال وغير ذلك من الأعمال، وأضاف إلي قوة الحيوان العجلات، فسهل عليه بذلك العمل وزاد في قدرته وسرعة سيره وقوى ظهره، وتغلب على قوة سقوط الماء فصرفه فيما ينفعه، واستخدم البخار والغاز والكهرباء، وانتقل من العمل باليد إلى اختراع الآلات الميكانيكية، وصار يسيطر عليها ويستخدمها في أغراضه فضاعف بذلك عمله وسهله على نفسه، وكل أولئك من بنات فكره ونور عقله.

ثم هو في تنقلاته من مكان إلى مكان قد اخترع آلة جعلته يسبق الظبي في سرعة عدوه، ثم صنع عربة وركب لها أجنحة فحلق بها في الجو وسبق طير السماء في سرعة الطيران، فهل وقع ذلك كله بتفاعل مادي على سبيل المصادفة؟ ويظهر أن الجمال ملازم لطبيعة

الكون في كل شيء، فمن ذلك جمال السحاب، وقوس قزح، والسماء الزرقاء، والبهجة الرائعة التي تعتري الإنسان حين يراقب النجوم، والقمر الطالع والشمس في وقت الغروب، وجمال الظهر وجلاله، كل ذلك يهز مشاعر الإنسان ويسحره.

**تعليقات:**

١- الزنبور حشرة صغيرة تشبه النحلة له لسع شديد ومن ذلك المسألة الزنبورية وهي مسألة يقال أن سيبويه اختلف مع الكسائي فقال الكسائي: بحضرة هارون الرشيد كنت أحسب أن العقرب أشد لسعا من الزنبور فإذا هو إياها، فقال سيبويه: أخطأت، الصواب أن تقول: فإذا هو هى. فقال الكسائي: لم أخطئ. فقال سيبويه: هؤلاء العرب بالباب يعني فصحاء البادية الذين لم يختلطوا بالعجم ولم تفسد لغتهم. فرضى بذلك الكسائي وبعث إلى العرب وأمرهم أن يصوبوا رأيه إذا سئلوا فاستجابوا له لعلو منزلته عند الرشيد وأولاده. فدعي العرب فجاءوا وخاف الكسائي أن يطلب منهم النطق بهذه الجملة فينطقوا بها على ما قال سيبويه وهو الصواب، فقال لهم اسمعوا كلامي وكلام سيبويه واحكموا فقال الكسائي: (كنت أحسب أن العقرب أشد لسعا من الزنبور فإذا هو إياها) وقال سيبويه: (فإذا هو هى) فقال العرب: الحق مع الكسائي، فحزن سيبويه ومات غما، والدليل على أن الحق مع سيبويه أن ضمير إياها من ضمائر النصب، والموضع يتطلب ضمير رفع لأنه موضع خبر المبتدأ. ثم نعود إلى المقصود بالذات فنقول: إن الزنبور حين يصيد الجندب الوثاب الذي يكون في الزرع ويجري له ذلك العمل الجراحي في مكان معين من جسمه بإبرته التي هي جزء من جسمه لم يدرس علم التشريح ولم يتمرن على الجراحة والعلاج في أي مستشفي فكيف عرف الموضع المناسب من جسم الجندب وكيف قدر على إجراء تلك الجراحة بلا تعلم ولا تمرين؟ وكيف عرف أن الجندب بسبب تلك الجراحة يبقي على قيد الحياة ولكنه لا يستطيع الفرار؟ وكيف عرف أن بيضه سيفقس بعد أن يصبح هو في خبر كان، وأن ذلك الجندب أفضل غذاء لأولاده بعد خروجهم من البيضة؟ وكيف عرف الأولاد أن لحم الجندب إنما يكون هنيئا مريئا إذا تغذوا به وهو حى؟ فإذا أكلوا لحمه وهو ميت يكون سما قاتلا؟ إن الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات يعجز كل العجز عن إدراك هذا السر فكيف بالعلم به أو القدرة عليه، ألا يدل ذلك دلالة قطعية على أن وراء هذا السر

مدبرا حكيما عليما يسر كل شيء لما خلق له عرف ذلك أم لم يعرفه فتبارك الله أحسن الخالقين.

٢- قول المؤلف: كما فعل بعض أهل الهند الشرقية لا أدري ما يريد به مع أنني أقمت في الهند سنين وجلت في ربعها من بمباي وكراتشي غربا إلى كلكته شرقا ولي في تلك البلاد تلاميذ وأصدقاء كثير، فالرجاء من كل قارئ يفهم ما يريد المؤلف بتلك العبارة وخصوصا صديقنا الأستاذ المودودى وصاحبه تلميذي البر محمد عاصم الحداد أن يكتب إلى مجلة دعوة الحق بما يوضح مراد المؤلف، وأما القاعدة الاجتماعية التي قال المصنف لعل النمل قد توصل إلى إدراكها وهي (الخير الأكبر للعدد الأكبر) فيدل على ذلك قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ وقول النبي ﷺ: «**يد الله مع الجماعة**». وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ إلى غير ذلك من النصوص.

٣- قال المؤلف بسبب الغريزة أو بدافع التفكير (اختر منهما ما تشاء) يعني أن تلك الأعمال التي يقوم بها النمل تحيرت الألباب في مصدرها ومنشئها، فإن قلنا أنها ناشئة عن غريزة حيوانية فإن عقولنا تستكثر ذلك وتستعظمه على الغرائز الحيوانية وإن قلنا أن ذلك ناشئ عن تفكير فالتفكير يقتضي وجود العقل، لذلك خير المصنف القارئ كتابه أن يختار أي الرأيين يريد، وهنا يجيء المثل العامي (خيره تحيره).

٤- كثيرا ما أجد المؤلفين من العرب في علم الحيوان والنبات قد اصطلحوا على ألفاظ يزعمون أنها عربية، ولا أجد لها أصلا في المعاجم العربية ولم يبقوها على لفظها الأعجمي، فاعدل عن الكلمة التي اصطلحوا عليها عمدا واكتفي بتفسير اللفظ الأعجمي إلى الحد الذي أظن معه أن القارئ يفهمه فيتوهم بعضهم أني لم أعرف تلك الكلمات المصطلح عليها. ومن ثم نشأ الاعتراض الذي أشرت إليه في الجزء الذي قبل هذا، وسبب هذا الارتباك والفوضي تقصير الأمة العربية دولا وجماعات في ضبط الأدب العربي واللغة العربية بوضع معاجم وافية شافية لجميع الألفاظ اللغوية والعلمية والأعلام بأنواعها فضلا عن موسوعة تجمع الآداب والعلوم العربية.



## لا يتجرأ العلم أن يجحد الخالق الأعلى

قال المؤلف: وإذا نظرت في المجهر ترى تحته أصغر حيوان وأصغر زهرة مزدانة بخطوط الجمال المحكم الصنع ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، والخطوط البلورية من العناصر والمركبات من ندفة الثلج الكبرى إلى أصغر شكل منها تراها متقنة الصنع بشكل مدهش، حتى أن الفنان مهما بلغ في فنه فليس في إمكانه أن يزيد عليها شيئا. وغاية ما يقدر عليه أن يحاكيها أو ينتزع منها خطوطا وأشكالا فيؤلفها ويجمعها في شكل واحد، فكل ورقة من كل شجرة سليمة تراها قد برزت في أحسن صورة من الكمال، وترى ظاهر كل نبات قد وضع على صورة بتصميم خاص لخطوطه في فن رائع، وترى الأزهار قد صورت في غاية اختيرت لها من الجمال والكمال، وألوانها قد وزعت بشكل عجيب.

إن الحيوان الكامل هو شيء جميل، وحركاته ممتلئة بالسهولة والفخامة، والوادي الأخضر والنهر، والأشجار الباسقة، وقمم الجبال المغطاة بالثلج، كل ذلك يحدث في النفس روعة وأثراً عظيماً، وإن في منظر كثبان الرمال الممتدة في الصحراء المنتشرة فيها لبهجة عظيمة.

وإن جلال تتابع أمواج المحيط وانكسارها على أرض الشاطئ، وتحليق الطير في الجو على البحر أو على شاطئه أو في الغابة بألوانها الجميلة المختارة، كل ذلك يتحدى من له بصر يبصر به وعقل يعقل به ويقدر الأمور حق قدرها، وحركات الحيتان في سهولة ويسر وتموجات نبات البحر تحت الماء أسفل تملأ نفس الإنسان بمعني من الانسجام يستجيب لما يتطلع إليه ويشتاقه، والطبيعة إذا لم يغيرها التحريف والتشويه تظهر مستعدة لتثير فينا اسمي وأجل ما في نفوسنا من الشعور الباطن، وتوحي إلينا الإعجاب بصنع الخالق الأعلى الذي وهبنا هذه الهبة من الجمال، وهي نعمة لا يدركها إدراكا كاملاً إلا الإنسان وحده، والجمال هو الذي يرفع الإنسان وحده إلى مرتبة يكون فيها قريبا من خالقه.

ويظهر أن الغاية واحدة في جميع الأشياء من السنن الكونية الكبرى التي تسير العالم بإذن الله إلى الذرات التي تنبني عليها حياتنا، ولو لم يكن للتطور هدف غير إعداد مادة لتلقي الروح، لكان ذلك غرضا مدهشا في حد ذاته، وإذا كانت حقيقة الغاية مقبولة بالنسبة لجميع الأشياء، وصدقنا أن الإنسان هو أهم مظهر لتلك الغاية، فإن الاعتقاد العلمي بأن جسم

الإنسان وجهاز دماغه مادي يمكن أن يكون صحيحا تماما، فإن الذرات والهباءات في المخلوقات المتصفة بالحياة تعمل أشياء عجيبة وتصنع أجهزة مدهشة. لكن مثل هذه الأجهزة ستبقى عديمة الفائدة إلا إذا حركها العقل حركات مقصودة ذات غرض، إذن فهناك مدبر لهذا الكون لا يستطيع العلم أن يحيط بكنهه، ولا أن ينسبه إلى المادة، ولن يتجرأ العلم أن يقول إنه مادي بل هو الخالق الأعلى الذي لا سبيل إلى الإحاطة بعلمه.

**تعليقات:**

انتهى هذا الفصل من كلام المؤلف، وقبل أن ندخل في الفصل الثاني ينبغي لنا أن نعلق على ما ترجمناه تعليقا يزيده وضوحا وبياناً:

١- قوله: وإذا نظرت في المجهر ترى تحته أصغر حيوان وأصغر زهرة مزدانة بخطوط الجمال المحكم الصنع، الخ ... مقصود المؤلف بهذا الكلام أن العالم كله من أصغر حيوان لا يرى إلا بالمجهر إلى أكبر مخلوق كالشعري مثلا، كل ذلك متحد في إحكام الصنع وإتقانه لا ترى فيه اختلافا ولا تفاوتا ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ فوحدة الصنع تدل على وحدة الصانع، وفي الشاهد أمثلة كثيرة، ولله المثل الأعلى، فإذا رأيت كتابا قد خط بخط جميل متشابه في كمال الحسن متجانس في أشكال حروفه سواء أكانت في أول الكلمة أم في وسطها أم في أخرها لا ترى فيها اختلافا، ولا ينقص جمال بعضها عن بعض، تعلم يقينا أن الذي كتب الكتاب شخص واحد، وأنه بذل عنايته وقصد إلى تحسين الخط وتجويده حتى جاء آية باهرة في الجمال، وإذا رأيت صورة في غاية الجمال والتناسق تعرف أن مصورا واحدا هو الذي رسم خطوطها ثم أتمها، وهكذا يقال في حدائق الأزهار وفي الزرابي الجميلة الثمينة إلى غير ذلك من المصنوعات، قال تعالى في سورة الأنبياء مندداً بالمشركين الذين يأكلون خيره ويعبدون غيره (٢٠-٢٢): ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ، قوله سبحانه ينشرون، أي يحيون، ولا يستحق أن يعبد إلا من يحيي ويميت، وأما من يحيا ويموت فعبادته من أسفه السفاهات، وقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾ أي: لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله لاختل نظامهما وتباين وأعقبه الفساد. وقال تعالى في سورة المؤمنين (٩٠): ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ

إذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ قال في تفسير الجلالين: أي: لو كان معه إله ﴿ لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ أي انفرد به ومنع الآخر من الاستيلاء عليه ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ مغالبة كفعل ملوك الدنيا تنزيها له وقال تعالى في سورة فاطر (٤١): ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ يعني أن الله يحفظ السموات والأرض كل منهما يدور في فلكه بغاية الإحكام والإتقان، ولولا حفظه لزالت السموات والأرض من أفلاكها، ولو زالت لما أمسكها أحد غيره.

٢- قوله: والخطوط البلورية من العناصر والمركبات من ندفة الثلج الكبرى إلى أصغر شكل منها تراها متقنة الصنع بشكل مدهش، حتى إن الفنان مهما بلغ في فنه فليس في إمكانه أن يزيد عليها شيئا وغاية ما يقدر عليه أن يحاكيها أو ينتزع منها خطوطا وأشكالا فيؤلفها ويجمعها في شكل واحد، ومن هذا تعلم أن الفنانين مهما بلغوا في جمال فنهم وإحكامه وإتقانه إنما هم محاكون ومقلدون لصنع الله العزيز العليم، الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، قال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ۝ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة: ١٥٢).

٣- قوله: والجمال هو الذي يرفع الإنسان وحده إلى مرتبة يكون فيها قريبا من خالقه، يعني أن النظر في عجائب مخلوقات الله يرفع الإنسان وحده دون غيره من الخلائق إلى درجة المراقبة، فيكون قريبا من الله تعالى قرب منزلة ومكانة، ويقرب من هذا المعني ما ثبت في الصحيح عن حنظلة ﷺ: أنه لقي أبا بكر الصديق ﷺ فسلم عليه أبو بكر فرد عليه السلام ثم قال: كيف حالك يا حنظلة؟، فقال: نافق حنظلة، قال: وما ذاك؟ قال: نكون عند رسول الله يذكرنا بالجنة والنار حتى كانا رأي عين فإذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأموال فنسينا كثيرا، قال أبو بكر: وأنا أيضا أجد مثل ذلك، فانطلقا إلى النبي ﷺ فسلم عليه حنظلة فرد النبي السلام عليه ثم قال: كيف حالك يا حنظلة؟ فقال حنظلة: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله: وكيف ذاك؟ فقال: نكون عندك تذكرنا الجنة والنار حتى كانا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأموال فنسينا كثيرا، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي لصافحتكم الملائكة في طرقكم

وعلى فرشكم، ولكن ساعة وساعة، قوله: عافسنا الأزواج، المعافسة المصارعة،والمراد الاستمتاع بهن، وعطف الأموال على الأزواج من باب:

**علفتهـــا تبنـــا ومـــاء بـــاردا حتـــى شـــتت همالـــة عيناهـــا**

أي: علفتها تبنا وسقيتها ماء، وكذلك يقدر فعل في الحديث أي عافسنا الأزواج وخالطنا الأموال، وقوله: لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم، معناه أن المؤمن إذا ذكر الله خشع قلبه ولان وصعدت نفسه بالمراقبة إلى الملأ الأعلى حتى كأنه يشاهده، كما جاء في الحديث الآخر الذي رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ : «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» وهذه الحالة من المراقبة لا تدوم، لأنها لو دامت لعطلت مصالح الجسم وحاجاته، ولذلك قال النبي ﷺ ساعة وساعة: أي ساعة لأداء حقوق الجسد وساعة لأداء حقوق الروح، وليس الاشتغال بحقوق الجسد من النفاق كما توهم حنظلة ﷺ.

٤- وقوله: لو لم يكن للتطور هدف غير إعداد مادة لتلقي الروح، لكان ذلك غرضا مدهشاً في حد ذاته. يشير إلى أطوار خلق الإنسان حتى بلغ إلى ما هو عليه فاستحق التكريم بالعقل الذي جعله سيدا وحاكما على غيره من الحيوان والنبات والجمال على حسب رأيه ورأي من وافقه في التطور.

٥- قوله: وإذا كانت حقيقة الغاية مقبولة بالنسبة لجميع الأشياء الخ .... معناه يتلخص في ابتداء الخلق وتطوره حسبما يعترف به علماء المادة في حد ذاته أمر عجيب يدل على عظمة خالقه، ولكنه بدون عقل يدبر شؤونه تدبيرا مقصودا يكون عديم الجدوى.

وهذا العقل الذي وهبه الله الإنسان يدلنا دلالة قاطعة على أن لهذا الكون مدبرا حكيما عالما قديرا، ولن يتجرأ العلم أن يقول أن ذلك المدبر الحكيم مادة عمياء صماء لا علم لها ولا قصد ولا إرادة.

وقد وصلنا إلى الفصل العاشر من الكتاب وهو فصل وحدات الوراثة، فنقتصر على هذا القدر وموعدنا الجزء التالي بحول الله.

## وحدات الوراثة

**قال المصنف:** في كل خلية، ذكرا كانت أم أنثى توجد كروموزومات وجينات، فالكروموزومات تشكل النويات القاتمة اللون التي تحتوى على الجينات، والجينات هي العامل الرئيسي الحاسم فيما يكون عليه كل كائن حي أو إنسان، والسيتوبلازم هي المركبات الكيماوية العجيبة التي تحيط بهما معا، وهذه الجينات (وحدت الوراثة) هي المسئولة عن جميع المخلوقات البشرية على وجه الأرض اليوم، من حيث خصائصها الفردية والنفسية وألوانها وأجناسها، وقد بلغت هذه الجينات في الدقة بحيث لو جمعت ووضعت في مكان واحد لكانت أقل حجما من الكستبان، وهو ما يضعه الخياط في إصبعه ليدفع به الإبرة حتى لا تخرق إصبعه، وهذه الجينات الميكروسكوبية البالغة الغاية في الدقة هي المفاتيح المطلقة لخصائص جميع البشر والحيوان والنبات، والكستبان الذي يسع الخصائص الفردية لبليونين من المخلوقات البشرية، هو دون ريب موضع صغير جدا كما لا يخفي، ومع ذلك فهذه هي الحقيقة التي لا يتطرق إليها الشك، فهل هذه الجينات والسيتوبلازمات، تحبس كل الخصائص العادية الموروثة لهذا الجمع الكبير من الأسلاف، وتحفظ الخصائص النفسية لكل فرد منهم في مثل هذه المساحة الصغيرة؟ فما هو المحبوس هناك يا ترى؟ أهو كتاب تعليمات؟ أم مجموعة من الذرات؟ أم كل شيء ترك للحظ والمصادفة؟ إن الجنين وهو يخلص في تطوره التدريجي من النطفة (البروتوبلازم) إلى الشبه الجنسي، إنما يقص تاريخا مسجلا، قد حفظ وعبر عنه بالتنظيم الذري في الجنات والسيتوبلازم، حتى الأم التي غدت الجنين منذ أن حملت به ليس لها إلا تأثير قليل، لأن الجينات هي التي تقرر مشابهة الطفل لأمه ولأبيه، وليس هناك دليل على أن هذا الشبه تقرره البيئة السابقة للولادة، والتطور يتطلب مددا طويلة من الزمان لأجل أن يستقر أي تغيير يحدث. إنه عمل يقصد به بقاء الجنس وتشابهه، ولا يصل إلى درجة الكمال إلا بحلول الروح، وقد قدر ذلك ونظمه الخالق الأعلى وهو لا يغير سنته الكونية في هذا العمل ولا يتعجل فيه من أجل أن الإنسان لا يفهمه أو من أجل أن الإنسان خلق عجولا، والتطورات الجديدة تتوقف على الخصائص الموجودة والبيئة المناسبة. فالمصادفة ليس لها نصيب في التطور إلا من حيث الاختلافات التي

بين الوالدين، المحدودة بالفوارق التي تورث في تلك الحال. وأنت إذا بدأت بفراشة، تحصل على يسروع، واليسروع يأكل بنهمة، وينمو إلى أن يتكامل نموه، ثم يلف نفسه براحة في رداء بعضه من الحرير، ثم يصير شرنقة، ومعظم أنسجة الجسم تنحل إلى خلايا وتصير مزيجا، ولم يكتشف أي باحث محلل أن جزءا منها يختلف عن الآخر، ولا قدر أحد أن يفرق بين هذا المزيج. وفي الوقت المناسب تبحث كل خلية عن الجزء المناسب في الشرنقة لتتصل به، ثم تتحول الشرنقة إلى مخلوق جديد متصف بالحياة، له كل الأعضاء الطبيعية اللازمة للوجود، وله القدرة على أن ينتج من جديد نصف الطبيعة المعقدة ليعسوب جديد. وإذا حان الوقت تنفتح الشرنقة ويخرج إلى الدنيا مخلوق بديع يسمي (الفراشة) وأجنحتها اللطيفة مصنوعة من أنابيب تصب فيها دمها، وينتفخ الجناح ويصير أداة للطيران، وإذا طارت الفراشة في الهواء بألوانها اللامعة الجميلة. ترى تحت الميكروسكوب أن أجنحتها مغطاة بمادة تشبه الريش، وإن كل بقعة حمراء أو سمراء أو خضراء أو صفراء هي في المكان نفسه الذي كانت فيه الفراشة الأصلية. وأشكالها وعلاماتها مشابهة تمام المشابهة لأبويها من جميع الوجوه، تقريبا إلى حد ميكروسكوبي، فما هي قوة التوجيه هذه التي في الجينات، إنها تضبط الخلايا، والخلايا تطيعها مثل طاعة الجنود لرؤسائهم، والنتيجة تجيء صحيحة من حيث التفصيل العام كحل مشكلة حسابية، واللون يقال إنه ناشئ عن حقيقة، هي أن مواد معينة تتشرب جميع الأشعة من أطوال موجة معينة، تاركة الباقي لينعكس، وإن هذه الأشعة تنعكس بلون أحمر وأزرق وأصفر، أو بمزيج من هذه الألوان الرئيسية. فالكأس الحمراء لا تترك لونا ينفذ فيها إلا الأحمر وهكذا الألوان الأخرى. والموجات الحمر يمكن أن تجلب التغيرات الكيماوية العادية إلى الأفلام الفوتوغرافية، ومن ثم يجيء الضوء الياقوتي للكاميرا المظلمة. وموجات الضوء نسبيا كبيرة جداً، فإنها تجرى من ثلاثة وثلاثين ألفا إلى ستة وستين ألفا عن البوصة الواحدة، على حين تجرى الموجات الأخرى أو الأشعة من أميال للراديو إلى عشرة ملايين في البوصة الواحدة أو أكثر للأشعة فوق البنفسجية، ونحن لا نعلم ما سنكتشفه بعد. وماذا يصنع كل هذا مع الفراش والجينات؟ سننظر. هناك نوع من الفراش في البلدان الحارة له أجنحة مغطاة بقشرة مصنوع بعضها من غشاء شفاف في غاية الرقة. في طبقات في منتهي الدقة. وينفذ الضوء وينعكس بلون جميل أزرق كما تراه أحيانا بين ألوان عين الهرة.

ولو حدث تغير بمقدار جزء من عشرة آلاف جزء من البوصة، في غلظ غشاء الفراشة، لتغير ذلك اللون أو تلاشي تماماً، إن الجينات تنظم الأمور إلى حد أنه لا يحدث أي تغير لمدة عشرة آلاف جيل. وإذا نظرت إلى الزيت على الماء ترى أيضا ألوانا كثيرة مختلفة في الغلظ الميكروسكوبي، تلك هي العلامات والبقع التي نتجت في الفراشة. والآن حاول أن تضع شيئا من الزيت على الماء وراقبه ترى ذلك بعينك، ويمكن أن يغير الإنسان (الجينات) باستعمال الراديو والأشعة الأخرى، فيأتي ذلك بذباب ليست له أجنحة ونبات مشوه، وشواذ مدهشة عديدة، ويمكن أن يأتي يوم يستطيع العلماء فيه أن يعملوا على تحسين الطبيعة، وإلى أن يأتي ذلك اليوم يكتسب العلماء معرفة قيمة، تؤدي إلى تقدم علم الأحياء والطب والطبيعيات. وقد علم الآن أن الحياة كلها تأتي من خلية واحدة، وإنه لا يوجد دليل يثبت أي نتيجة أخرى وقد لوحظ أن جميع أصناف الكائنات الحية منفصل بعضها عن بعض بهوات بعيدة الغور لا يمكن اجتيازها. وكثير من الأجناس بعد انفصالها تفقد القدرة بسرعة على الاختلاط بالجنس الذي انفصلت منه. خذ مثلا ما تناسل من بين الحمار والحجر وهي الفرس الأنثى، يكون بغلا، ولا يمكن أن يكون للبغال جنس مستقل.

ثم أطال المؤلف الكلام في هذا المعني، وحاصله أن الحياة في بدايتها كانت نقطة صغيرة ثم أخذت تتسع وتنفصل إلى أجناس وألوان يختلف بعضها عن بعض اختلافا بينا، ولا يمكن لأحد من تلك الأجناس أن يرجع مرة أخرى إلى الوراء ليتصل من حيث انفصل ثم قال: والإنسان حيوان جاء في الطليعة، وهو في تكوينه الجسمي يشبه القردة. وليست مشابهته للقردة في الجسم بدليل على أن الإنسان متطور عن القرد، لا ولا أن تلك القردة ذرية منحطة من نسل الإنسان، ولا يستطيع أحد أن يدعي أن نوع السمك المعروف بالكد قد تطور من نوع السمك المعرف بالهدك، وإن كان كلا النوعين في ماء واحد، ويتغذيان بغذاء واحد، وعظامهما تقريبا متماثلة. وإنما يدل ذلك على أنهما في بداية الخلق والتكييف كانت هناك ضرورة متوازية لتكييف كل منهما. إن العلم يشير إلى أن إبهام الإنسان وقدرته على قبض الآلات والأسلحة وإمساكها بيده، هو مصدر تقدمه، ولكن إبهام القرد العاطلة التي لا نفع لها دليل قاطع، على أن إبهام الإنسان لا يمكن أن تكون قد جاءت من إبهام القرد الذي يعيش متسلقا للأشجار، لأن الطبيعة لا تعيد أبدا تيسير قد فقد. والفرس التي

تجرى الآن على حافر قد خصص غاية التخصيص للركض (وإن كان فيما مضي أصابع) لا يستطيع أبدا أن تستعيد تلك الأصابع المفقودة. على أنه لا حاجة بنا إلى أن نشغل أنفسنا أكثر مما ينبغي، بما وقع لأسلافنا منذ مليونين من الأجيال السالفة على الأقل. ومع ذلك يبدو لنا أن البحث عن الحلقة المفقودة سوف يتضح أنه من العبث.

**تعليقات:**

١- إن كلام المؤلف في الجينات وما إليها وبسطه الكلام في تكوين الفراشة وما يشتمل عليه من أسرار ونظام دقيق عجيب، يضطر كل عاقل يدين بالإنصاف ويدع اللجاج جانبا أن يؤمن بالخالق العلى القدير، ويتحير لبه في عظمته وإتقان خلقه وإحكام صنعه فينطلق لسانه بتسبيحه وتمجيده، ويخشع قلبه ويلين جلده ويطمئن بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب. ولا يخلو كلام المصنف من تعقيد يجعل إدراك معناه عسيرا. ولذلك سببان أحدهما: إنه يخوض في علوم وبحوث دقيقة تحتاج إلى دراسة واختصاص ولا يبلغ مداها ويعرف كنهها بالمطالعة وحدها. والثاني: وحقه أن يكون الأول ضيق اللغة العربية في هذا الزمان بسبب عجز أهلها وتقاعسهم عن النهوض بها إلى أن تبلغ مستوى اللغات المتقدمة في العصر الحاضر، فقد توقف نموها بتوقف تقدم أهلها منذ نحو ستمائة عام. وأنت إذا قرأت مثل هذه المباحث بلغة أوروبية يسهل عليك فهمها إلى حد بعيد وإن لم تكن من أهل الاختصاص، بخلاف ما إذا قرأتها بالعربية العصرية، فإذا انضم إلى ذلك قصور المترجم في إحدى اللغتين أو كلتيهما فهنالك الطامة الكبرى، ومع ذلك فما لا يدرك كله لا يترك كله ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾.

**إذا لم تكن إبل فمعزي ... كأن قرون جلتها العصي**
**فتملأ بيتنا اقطا وسمنا ... وحسبك من غني شبع وري**

٢- قوله: والإنسان في تكوينه الجسمي جاء في الطليعة الخ ... يقضي على ما بناه فراريج الأوربيين أعني مقلديهم من الآسيويين والأفريقيين الذين يتلقفون كل رأي يظهر من آرائهم بالتقديس والإجلال، ويسمونه علما وإن كان من النظريات التي لا يقصد بها قائلوها إلا التمهيد لحل المشكلات واستخراج المجهولات ولا يجزمون بها، فيأتي مقلدوهم

على العمياء ويتخذونها قضايا مسلمة ويقولون في تبجح وتعاظم أو (عظموت) - كما يسمى ذلك الأمير شكيب أرسلان رحمه الله - أثبت العلم كذا وكذا واكتشف العلماء كيت وكيت. فقد طالما تغنوا بأن الإنسان متطور عن القرد بلا شك ولا ريب، وأن العلماء في أمريكا وجدوا الحلقة المفقودة ... وهذا رئيس المجمع العلمي الأمريكي يصرح في ثقة واطمئنان، أن البحث عن الحلقة المفقودة أصبح من العبث، وأن مشابهة القرد للإنسان في تكوينه الجسمي لا تقتضي أبدا أن الإنسان متطور عن القرد أو بالعكس. ولو كانوا يعقلون لعلموا أن امتياز الإنسان وفضله وشرفه على القردة وسائر الحيوان لم يجئ من تشابه الأجسام أو تباينها، وإنما جاء من العقل الذي خص الله به البشر والنطق الذي ميزهم به، وقد شاهدت أنواع القردة في الهند، فمنها ما يزيد جسمه على جسم كثير من الرجال في الضخامة والقوة، ومنها صغار الأجسام، ومنها سود الوجوه كأنها الغربان، وكلها تخاف من الكلاب، وفي مدينة لكناو جسر عنده صنم تجتمع عنده القردة ليلا ونهارا لتنال من الصدقات والنذور التي تقدم لذلك الصنم، فإذا رأت خادما يحمل إناء مما يسمي «بالمطبقيات» وبالفارسية (سفرطاس) أي: طاسة السفر، وهي أوان متصل بعضها ببعض لها علاقة يحمل فيها الطعام، تهجم القردة على ذلك الخادم وتنتزع منه ما في يده، فإذا كان متسلحا بعصا لا تتجرأ عليه وإن كانت تعد بالعشرات، مع أنه واحدا منها أقوى جسما من ذلك الخادم لو كان عنده عقل يعرف به كيف يستغل قوته. ولقد صدق الله العظيم في قوله ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾.



## كذب المعتقدين بالنشوء والارتقاء ونظرية داروين

إن الحيوان المتولد من جنسين مختلفين يبدو في الظاهر كأنه مخلوق جديد تطور عن قصد، كالكلاب السلوقية، والكلاب البكينية والكلاب البوكية. وكلها كلاب. وإذا اعتني بتربيتها تبقي على صفاتها المكتسبة وإذا لم يعتن بتربيتها تعود إلى حالتها الطبيعية وتفقد تلك الصفات التي اكتسبتها بالتربية وربما كانت في الأصل ذئابا. وإذا حوفظ على تكييفها تكييفا مطابقا للبيئة التي وجدت أنفسها فيها ولم تختلط بغيرها بالتوالد فإنها بمرور الزمن تشكل نوعا جديدا من الكلاب.

وقد ربي الحمام بقصد إحداث أنواع جديدة منه منذ ابتداء التاريخ تقريبا. ومن تلك الأنواع ذوات الأذناب التي تشبه المراوح، والحمام المعروف بالهزاز وقد تكون هناك فلتات أو شواذ، ولكن الجينات تنتظر في هدوء لتعيدها إلى نوعها الأول. ويمكنك أن تراها في طريقها إلى الرجوع إلى أصلها في أي شارع من شوارع المدن فتلحظ فيها العلامات المتشابهة والميل العام إلى الانسجام التام في اللون. ونحن نكره الحيوان الشاذ بطبعنا، فلو رأينا بقرة ذات خمس قوائم أو بقرة ذات رأسين لاشمأززنا من رؤيتها، ولكننا نعجب بالرجل الجميل إلا إذا كانت أخلاقه ذميمة، وكذلك نعجب بالمرأة الجميلة وأحب شيء إلى نفوسنا الأم المتفانية في حب الخير لأبنائها.

إن الجينات هي جزء من خلايا الوراثة، ولكن خلايا الوراثة لا تشارك في التكوين العام للجسم، ولكنها منعزلة ولا تشارك بأي وجه من الوجوه في الأعمال غير المهمة التي تقوم بها الكائنات الحية. وهذه الخلايا تحفظ المشابهة الكاملة الكائنة في الجنس، ويظهر أنها لا تتأثر بسلوك الوالدين، غير أن الأخلاق السيئة والأمراض والحوادث يمكن أن تعطيها مادة رديئة لتشتغل بها. إن الوالدين القويين قد يلدان أطفالا أقوياء، ولكن ذلك بسبب أنه كان لهم جدود أقوياء، إن الوالدين قد يعطيان ولدهما مكان طبعيا جيدا ليعيش فيه، وقد يهبانه مباءة لا تصلح أن تعيش فيها نفس خالدة. فالأبوة والأمومة أعظم مسؤولية يتحملها الإنسان.

إن لحى الرجال لا تنبت أقصر مما كانت بسبب أنهم يحلقونها، وقطط الجزيرة المعروفة بجزيرة الإنسان ليس لها أذناب، ولم يكن ذلك بسبب أن شخصا قد قطع ذنبي الهر والهرة

اللذين وجدا لأول مرة في تلك الجزيرة، لعل الجينة الخاصة بنمو الذنب كانت مفقودة في الأصل الأول لقطط تلك الجزيرة ومع هذه المصيبة نشأت القطط المتنسلة منه صحيحة بدون تلك الجينة.

إن البيئة قد تحدث تغيرات بطيئة في أنواع أعمال الجينة، فإن كانت تلك التغيرات صالحة استمرت تلك التعديلات، وإلا فإن المخلوق الذي أصابه التغير يزول لأنه غير صالح لملاقاة الأحوال. إن الكلب المكسيكي الذي لا شعر له قد ينشأ صحيحا في الأراضي الباردة المتجمدة، ولكن نسله قد يموت من شدة البرد. إن القائلين بنظرية التطور والنشوء والارتقاء لم يكونوا يعلمون شيئا من أخبار الجينات — وحدات الوراثة — ولذلك بقوا واقفين في المرحلة التي يبتدئ فيها التطور حقيقة، أعني عند الخلية، وهي الكيان الذي يحتوي على الجينات ويحملها.

كيف استطاعت هنة صغيرة تشتمل على بضعة ملايين من الذرات المجتمعة التي لا تري إلا بالمجهر وهي الجينة، كيف استطاعت أن تدبر تدبيرا مطلقا جميع الحياة التي على وجه الأرض. هذه القضية لا تزال أعظم أعجوبة من أعاجيب العالم.

**«أيهما وجدت قبل الأخرى الدجاجة أم البيضة؟»**

هذا لغز تعبت فيه الأفكار زمانا طويلا وقد حل الآن حلا نهائيا. والجواب هو: لا هذه ولا هذه، بل سبقتهما للوجود خلية أولية. والبيضة إنما هي غذاء للجنين، وهي تشتمل على الخلية المفردة التي التقت مع أليفها أي عشيرها. فمتي اتحدت الجينات التي في الخلية وانقسمت، فإن هذه الجينات والسيتوبلازم تجبر الآن على أن تنتج دجاجة تضع بيضة أخرى.

والمادة على هذا الشكل لا غرض لها، فليست لها غاية حتى في طاعتها للقانون، ولكن الحياة في كل مادة لها غرض محدود، كأن تنشئ شجرة أو كرمة عنب أو فيلا أو إنسانا باتفاق تام على خطة محدودة رسمتها الجينات.

إن الحياة ترغم على التناسل من أجل بقاء الجنس بدافع قوي حتى إن كل مخلوق يبذل أعظم تضحية لهذا الغرض ... ففي بعض أنواع الحيوان كذباب مايو مثلا يموت دفعة واحدة عدد من أفراد هذا النوع حين يتم عمله ، وهذه القوة القاهرة لا توجد حيث تفقد الحياة.

فمن أين نشأت هذه الدوافع المسيطرة ولماذا تستمر بعد نشأتها ملايين السنين؟ إنه قانون طبيعة الحياة، وهو في قوته مثل التركيبات الكيميائية المسيطرة، إنه يأتي من فوق، أي إرادة الله عز وجل.

إن الاختلافات الجوهرية الموجودة بين جميع المواد العنصرية لأم الجميع وهي الأرض، وبين كل ما فيه حياة هي أنه على حين جميع العناصر يمكن أن تتحد وتتبلور وتتغير في المظهر، لا يوجد أي تغير في الذرات ولا علاقة محسة، أي: مشعور بها بينها، بل بالعكس نرى الكائنات المتصفة بالحياة تنظم جميع العناصر في مجموعة من التراكيب الجديدة، كل في مجاله من العمل، تتنافس كلها في بذل الجهود لحفظ هذه الصلات الحية. وهذا التعاون الموروث النشيط مفقود تماما إلا حيث توجد الحياة. وإنه لم يقدر حق قدره مع إنه قانون عظيم لا يقل عن قانون الجاذبية، ولابد أن يكون قد جاء من المصدر نفسه الذي صدر منه قانون الجاذبية، إن مثل هذه القوانين لهي جزء ناشىء عن إرادة الله التي تسيطر على جميع العوالم وليس ناشئاً عن المصادفة.

لقد علمنا أن الجينات متفق على الاعتراف بأنها تنظيمات دقيقة أصغر من الذرات الميكروسكوبية في خلايا الوراثة في جميع الأشياء المتصفة بالحياة. وهي تحفظ التقدير، والسجل السلفي، والخواص اللازمة لكل شيء حي، وتتحكم بالتفصيل في الجذر والجذع والورقة والزهرة والثمرة من كل نبات تحكما تاماً في غاية الضبط كما تقرر الشكل، والقشور والشعر والأجنحة لكل حيوان ويشمل ذلك الإنسان. إذا سقط حبة من ثمرة البلوط على الأرض فالقشرة السمراء الخارجية تحفظها سالمة. فتتدحرج إلى حفرة من الأرض، وفي الربيع تستيقظ الجرثومة فتنشق القشرة ويظهر الغذاء من اللب الشبيه بالبيضة الذي كانت فيه الجينات مختفية، فترسل العروق في الأرض وإذا بشطء يخرج من الأرض في شكل نبتة ضئيلة وبعد سنين تصير شجرة، إن الجرثومة بما فيها من الجينات قد تضاعفت ملايين الملايين وكونت الجذع، والقشرة وكل ورقة وكل ثمرة كل ذلك مماثل تمام المماثلة لشجرة البلوط التي تولدت منها، وفي خلال مئات السنين بقي محفوظاً في ثمار البلوط التي لا تحصى تنظيم الذرات نفسه بغاية الضبط مطابق للنظام الذي نشأت منه أول شجرة بلوط منذ ملايين السنين الماضية.

لم تحمل قط شجرة بلوط ثمرا، ولم يلد حوت قط سمكة، ومزارع القمح المتموجة متماثلة في كل حبة من حبوبها، والحنطة هي الحنطة، والقانون يتحكم في التنظيم الذري بالجينات التي تقرر كل نوع من الحياة من بدايتها إلى نهايتها.

لقد قال هيكل: أعطني هواء ومواد كيميائية ووقتا، وأنا أصنع إنسانا، ولكنه أغفل وحدات الوراثة الجينات وأغفل الحياة نفسها، لقد كان عليه — لو استطاع! — أن يجد الذرات غير المرئية وينظمها ووحدات الوراثة (الجينات) ويمنحها الحياة! وحتى في هذه الحالة تكون النتيجة، بنسبة ملايين إلى واحد، ولو أنه نجح في ذلك لقال إن الأمر لم يكن مصادفة مجردة، ولكنه ثمرة عقله وإرادته!

حقا إن الله هو الذي يخلق المعجزات والخوارق وينشئها بطرق وأساليب تخفي على أذهان البشر.

**تعليقات:**

١ – قوله ... إن الحيوان المتولد من جنسين الخ ... يعبر المترجمون عن الحيوان المتولد من جنسين مختلفين كالخيل والحمير والذئاب والكلاب مثلا بالهجين، وقد تركت هذا التعبير عمدا لأن لا يفي بالمعني المطلوب ولا يطابق استعمال العرب لهذا اللفظ.

وحاصل كلام المؤلف كما تقدم أن الحيوان المتولد من جنسين لا يكون نوعا جديداً. ثم قال هنا ... إن الحيوان المتولد من جنسين إذا اعتني بتربيته يبقي محافظا على الصفات المكتسبة بالتربية. وإذا أهمل يرجع إلى طبيعته الأصلية. ثم يبين أن ذلك الحيوان الذي اكتسب تلك الصفات والمزايا إذا طال به الزمان مع المحافظة على صفاته المكتسبة قد يكون نوعا جديدا. ويظهر لي أن هذا الكلام راجع إلى الصفات المكتسبة، وإنها بمرور الزمان تصير ثابتة، لا إلى طبيعة التوالد والتطور فإن ذلك لا يمكن أن يتغير بالمصادفة أو بفعل خارجي كالسفاد الواقع بين جنسين. ألا ترى أن البغل لا نسل له ولن يكون له نسل ولو طال الزمان. أما أنواع الكلاب فهي جنس واحد والاختلاف بينها إنما هو في الطباع وهي تتغير بالتربية خصوصا إذا طال الزمان عليها. وبهذا يظهر اتفاق كلام المؤلف السابق واللاحق.

٢- قوله: إن قطط الجزيرة المعروفة بجزيرة الإنسان الخ ... أقول لعل السر في كون هذه الهرر قد خلقت بلا أذناب هو إظهار قدرة الله تعالى ومشيئته الشاملة لكل ما يقع في العالم ردا على الدهريين والطبيعيين الذين يزعمون أن الطبيعة المفترضة هي عمياء بكماء صماء مجبورة مقهورة جاهلة عاجزة هي التي تدبر أمور العالم. وإذا صح ما افترضه كريسى مورسن من أن الجنة التي تكون الذنب فقدت في تلك فليس فقدها واقعا على سبيل المصادفة، وإنما وقع بقصد وإرادة من الخالق الذي لا يضل ولا ينسى لحكمة عظيمة تظهر لقوم وتخفي علي آخرين.

٣- وقوله ... ولم يكن ذلك بسبب أن شخصا قد قطع ذنبي الهر والهرة الخ .. يدل على أن الإنسان عاجز عن تغيير خلق الله، ومثل ذلك الأعمى لا يكون أولاده عميا والأعرج لا يلد أولادا عرجاً.

٤- قوله ... إن القائلين بالنشوء والارتقاء لم يكونوا يعلمون من أخبار الجينات الخ ... أقول: أيها المؤمن اثبت على إيمانك بالله الواحد القهار ولا تكن من المذبذبين.

**كريشة في مهب الريح طائرة ... لا تستقر على حال من القلق**

لقد انتشرت نظرية داروين في العصر الماضي القريب أعظم انتشار وكفر بسببها كثير من الناس وكذبوا بآيات الله، وظنوا أنه جاءهم اليقين، وبدلوا عقيدتهم وخرجوا من النور إلى الظلمات. ثم تبين خطأ تلك النظرية وأنها إنما كانت في مرحلة من مراحل البحث وأن السفر بعدها لا يزال طويلا. وجاءت المرحلة التي بعدها فاكتشفت الخلايا والجنات وزيفت كثيرًا من آراء داروين غير الناضجة، وأقرت ما كان منها صحيحا، فاغتبط المؤمنون الذين ثبتوا على إيمانهم ولم يتركوا يقينهم لظن غيرهم. وما أحسن ما قال الإمام على بن أبى طالب عليه السلام.

**إذا المعضلات تصدين لي ... كشفت حقائقها بالنظر**

**ولست بإمعة في الرجال ... أسائل هذا وذا ما الخبر**

وعن ابن مسعود ﷺ أنه قال ... كنا في الجاهلية نسمي الرجل الذي يرى أناسا مدعوين إلى وليمة فيتبعهم إليها دون أن يكون مدعوا، كنا نسميه إمعة، وهو فيكم المحقب؟ دينه الرجال. قال كاتب هذا المقال ... يعني المقلد في العقائد الذي لا يستعمل عقله ولا علمه

ولا بصره بل يغمض عينيه ويضع يده في يد شخص آخر يقوده فيهوي في مهاوى الضلال.

٥- قوله: .... وإنه لم يقدر حق قدره مع أنه قانون عظيم لا يقل عن قانون الجاذبية الخ.
أقول: أظن أن السبب في ذلك هو التنافس على الحطام وحب السيطرة، فإن علماء الطبيعة لما رأوا رجال الكنيسة يحاربونهم ويكفرونهم ويضيقون عليهم الخناق ويحبون استغلال النفوذ الديني في الاستيلاء على الحكم أخذوا ينتقمون منهم بكل وسيلة. وبلغ بهم الأمر إلى أن أهملوا النظر في أسرار الحياة، لأن ذلك النظر سيوصلهم لا محالة إلى الإقرار بوجود الله وأنه الخالق الرازق العليم القدير الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض. وهذا يفضي بهم إلى الاعتراف برسالة الرسل فيستظهر عليهم رجال الدين. فلذلك قابلوا ظلما بظلم وإجحافاً بإجحاف وإهمالا بإهمال وخير الأمور الوسط وما عداه شطط.

٦- قوله: ... وهي تحفظ التقدير والسجل السلفي الخ. المراد بالسلفي هنا العائد إلى أسلافها من الجينات لا تختلف مع أسلافها في شيء وذلك من الأسرار الربانية التي تدل دلالة قاطعة لا ريب فيها على أن لهذا الكون مدبرا عليما حكيما قديرا.

٧- قوله: لم تحمل قط شجرة بلوط ثمرا الخ. هذا الثمر يترجم بالشاة بلوط وبالقسطل أبي فروة بعامية عرب الشرق، ومراد المصنف أن الهيئة التي حملت بها شجرة البلوط التي ولد بها الحوت أولاده والهيئة التي نمي بها الزرع إلى أن صار حبا هي مطابقة تمام المطابقة لأول شجرة بلوط خلقها الله ولأول حبة نبتت منذ بدء الخلق إلى يومنا، والحوت المذكور هنا هو نوع كبير جدا يكثر في بحر الشمال وهو الذي تسميه العرب (القريش).

٨- هيكل فيلسوف ألماني مشهور أفضي به البحث الناقص إلى أن زعم أن الحياة الإنسانية وغيرها هي نتيجة تركيب كيميائي اجتمع مع الماء وطال عليه الزمان. ومتى وجد الزمان الطويل الذي يعد بملايين السنين مع التراكيب الكيميائية والماء وجد الحيوان والنبات. ولم تكن الخلايا الذرية والسيتوبلازم والجنات قد عرفت. فرد عليه المصنف بقوله: هب أنك وجدت ما ذكرت فلن تستطيع أن تخلق ذبابة فضلا عما هو فوقها من الحيوان والإنسان. إذ يجب عليك قبل أن تتصدى لخلق الحيوان أن تجد الجنات وهي لا ترى بالبصر فكيف تجدها. وتجد الخلايا التي تتضمنها والسيتوبلازم لها ولن تجد ذلك أبدا، ولو وجدته لبقي عليك أن تهبها الحياة ولن تستطيع ذلك أبدا، ولو استطعته لكان نصيبك من النجاح بنسبة واحد من ملايين، فقد بنيت

فرضك على محال في محال، ظلمات بعضها فوق بعض.

وقـــل لمـــن يـــدعي بـــالعلم معرفـــة علمــت شــيئا وغابــت عنــك أشــياء

ثم قال مورسن لهيكل: ... وهب أنك قدرت على ذلك كله ونجحت النجاح التام في خلق الإنسان وما تتوقف عليه حياته من نبات وحيوان، افترض أن يقال لك أن هذا الخلق كان مصادفة، رمية من غير رام؟ لاشك أنك لا ترضي بذلك بل تقول بملء فمك أنه نتيجة عقلك وإرادتك، فكيف تجحد صنع الله الذي أوجد الأسباب والمسببات وخلق الأرض والسموات. وتقول: إن ذلك من المصادفات، بل قولك هذا من السخافات أو المغالطات.

فيـــا عجبـــا كيـــف يعصـــى الإلـــه أم كيـــف يجحـــد الجاحـــد

وفي كـــل شـــيء لـــه آيـــة تـــدل علـــى أنـــه الواحـــد

وقد انتهي الفصل العاشر من كتاب مورسن بانتهاء سنة المجلة، وموعدنا الجزء الأول من السنة الآتية إن شاء الله.



## أكبر معمل في العالم

قال الأستاذ كريسى مورسن رئيس المجمع العلمي الأمريكي سابقا في ابتداء الفصل: لقد ألفت كتبا في فيزولوجية الهضم، أي علم خواص أعضاء الهضم ولكن كل عام يمر علينا يجئ باكتشافات جديدة مدهشة تجعل هذا الموضوع جديدا على الدوام. وإذا فكرنا في الهضم من حيث هو عمل في معمل كيماوي، وفكرنا في الطعام الذي نتغذى به على أنه مواد أولية ينكشف لنا أن ذلك عمل عجيب لأنه يهضم كل شيء يؤكل ما عدا المعدة نفسها. أولا نحن نضع في هذا المعمل أنواعا مختلفة من الأغذية على أنها مادة أولية دون أن نحسب أي حساب لذلك المعمل ولا أن نفكر كيف يعالج هضمها بطريقة كيميائية بديعة. فنحن نأكل قطع اللحم والكرنب والحبوب والسمك المقلي وندفعها إلى أسفل بأي قدر من الماء ونضيف إليها الخمر والخبز والفول. وقد نضم إلى ذلك كبريتا وعسلا أسود، دواء نأخذه في زمان الربيع. ومن بين هذا الخليط تختار المعدة الأشياء المفيدة بتحليل كل صنف إلى أجزائه الكيميائية الدقيقة دون اعتبار للفضلات، ثم تركب الباقي فتجعله (بروتينات) جديدة، و(البروتين) مادة غذائية أولية توجد في البيض، واللبن، والجبن، وتتألف من الكربون والهيدروجين والأكسجين والنترجين وبعض الكبريت) وهذه المادة تصير غذاء للخلايا المختلفة. وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل مادة أخرى ضرورية، وتعتني بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية حتى يمكن استخراج الهرمونات بأن تكون جميع الضرورات اللازمة للحياة موجودة بمقادير منظمة معدة لمواجهة كل احتياج.

وهي تخزن الدهن والمواد الاحتياطية لتلافي كل حالة طارئة كالجوع القاتل، تفعل ذلك كله دون أن يشاركها الإنسان بتفكير أو رأي، ونحن نصب هذه المواد المختلفة التي لا تحصى في هذا المعمل الكيميائي بقطع النظر تقريبا عما نأكله ونشربه، معتمدين على ما نعتبره عملا سائراً من تلقاء نفسه ليحفظ علينا الحياة، وإذا تحللت هذه الأطعمة وجهزت من جديد تسلم باستمرار إلى كل خلية من الخلايا التي يتألف منها الجسم البشري وتعد بالبلايين وعددها في جسم الإنسان أكثر من عدد جميع البشر الذين يعيشون على وجه الأرض. ويجب أن يكون تقديم هذا الغذاء إلى كل خلية من المواد الغذائية إلا ما تحتاج إليه

بخصوصها ليتحول ذلك الغذاء إلى عظام وأظفار ولحم وشعر، وكذلك العيون والأسنان كل خلية منها تتلقي غذاء خاصا. فهذا معمل كيميائي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل أوجده الإنسان بذكائه. وهنا نظام للتوزيع أعظم من أي نظام عرفه العالم للنقل أو التوزيع، يسير هذا النظام في غاية الدقة والكمال. ومن الطفولة إلى أن يبلغ سن الإنسان خمسين سنة مثلا لا يصدر من هذا المعمل أي خطأ له بال مع أن المواد التي يعالجها يمكن أن تكون أكثر من مليون نوع من ذرات المادة، وإذا صارت قنوات التوزيع متكاسلة من طول الاستعمال نحس بضعف في قابلياتنا ثم تأتي الشيخوخة على أثره.

وحين تأخذ كل خلية حصتها من الغذاء المذكور فإنه لا يزال غذاء مجردا. ثم يصير عمل كل خلية منحصرا في الإحراق ومن ذلك تنشأ حرارة الجسم كله، وأنت لا تستطيع أن تحدث إحراقا بدون إيقاد. فلابد أن توقد النار أولاً، وكذلك الطبيعة بإذن الله تهيئ تركيبا كيميائياً يوقد نارا مضبوطة لأجل الأوكسجين والهيدروجين والكربون، في الغذاء في كل خلية وبذلك ينتج الدفء اللازم كما يكون في كل نار، والنتيجة هي بخار الماء، وثاني أوكسيد الكربون، والدم يحمل ثاني أوكسيد الكربون إلى الرئتين وهذا الشيء هو الذي يجعلك تستنشق بتنفسك نسيم الحياة. والشخص الواحد ينتج تقريبا في كل يوم رطلين (زهاء كيلوغرام) من ثاني أوكسيد الكربون ولكنه يتخلص منه بعمل عجيب، كل حيوان يهضم الطعام ويلزمه أن يحصل على المواد الكيميائية اللازمة لحياته الخاصة، حتى في التفاصيل الدقيقة تختلف المحتويات الكيميائية في الدم، تختلف في كل نوع مثلا. ولأجل ذلك يوجد عمل تشكيلي خاص لكل نوع، ففي حالة العدوى يغزو الجسم جيش من الجراثيم المعادية ولكن الجسم فيه أيضا جيش من الذرات المدافعة تنازل ذلك العدو المغير فتقاتله وتنتصر عليه في أكثر الأحيان فيسلم الجسم من الموت، ومثل هذه المعجزات المجتمعة لا يمكن أن توجد بأي حال من الأحوال إلا مع وجود الحياة، وكل ذلك يقع في نظام كامل، والنظام هو ضد المصادفة على خط مستقيم. فهل يدل ذلك على مدبر عليم حكيم؟ إن كان الأمر كذلك فهو ناشئ عن الحياة، وما هي الحياة.

**تعليقات:**

١- قوله: ولكن كل عام يمر علينا يجيء باكتشافات جديدة الخ. هذا شأن عقيدة الحق لا يزيدها مرور الزمان إلا اتضاحاً ورسوخاً وثباتاً ولا يزداد أهلها إلا تمسكا بها وارتباطًا. قال تعالى في سورة فصلت: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فكل من قرأ هذا الفصل وفهمه وأمعن في التفكير يرى حجة الله قائمة عليه في نفسه كما قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ فمن كابر بعد قراءة هذا الفصل وما تقدمه في وجود الله وإحاطة تدبيره وعلمه وقدرته، فإنه لا يحترم نفسه، إلا أن يكون إمعة غمراً عطل فكره وقلد غيره تقليد الأعمى لقائده، فمثل هذا لا كلام معه إنما هو كالأنعام، بل أضل سبيلا.

٢- قوله: مواد أولية. أي بسيطة لم تدخلها الصنعة والتركيب.

٣- قوله: ما عدا المعدة نفسها الخ. ذكرني قول طبيب الأمراض الباطنية في معهد طبي تابع لجامعة (بون) عاصمة ألمانيا الاتحادية في الوقت الحاضر. فقد أصابني التهاب في المعدة بسبب تبدل الجو والغذاء وشدة البرد في شتاء سنة ١٩٣٧ فقال لي ذلك الطبيب وهو يشرح أسباب الالتهاب أن في المعدة سائلا هو الذي يهضم الطعام. السائل يكون بمقدار محدود فإن نقص ساء الهضم. وإن زاد أحرق الطعام بسرعة فلا تستخرج منه المواد التي تعوض الجسم ما يفقده بالقدر الذي يحتاج إليه فتفرغ المعدة بسرعة غير معتادة فلا يجد ذلك السائل ما يهضم فيشرع في هضم المعدة نفسها فيحس المصاب بالألم والجوع فيأكل، ثم يهضم ما أكل بسرعة كما تقدم. ولذلك يحتاج المريض إلى أن يأكل في كل ساعتين سدس ما يتغذى به في اليوم. وإذا اشتد به المرض يحتاج إلى أن يأكل في كل ساعة من ساعات النهار، وإذا لم يعالج هذا الالتهاب علاجا ناجعاً تنشأ عنه قرحة المعدة أو قرحة المصير الاثني عشري وهي خطيرة، ولم استطع ملازمة الحمية بالدقة التي يتطلبها المرض، كذلك لم استطع الأكل في كل ساعتين لأني أظل طول النهار في الجامعة فأصبت بقرحة الاثني عشري وبقيت أقاسي الآلام والهزال والحرمان من الأغذية القوية كاللحم ما عدا الدجاج والخبز الطري والتمر والحوامض والموالح والتوابل أكثر من عشرين سنة. ولم ينصحني الأطباء الألمانيون بإجراء عمل جراحي ولكن طبيبا أسبانياً في مدريد نصح لي بذلك. وكذلك نصح لي طبيب إيطالي فلم أقبل نصيحتهما. ودخلت المستشفي في ألمانيا مرتين فلم أخرج منه بطائل.

ولما أراد الله الشفاء زرت الدكتور بن زارفن في الدار البيضاء لعلاج مرض آخر فلما أراد أن يكتب لي الدواء أخبرته بأن عندي قرحة الاثنى عشري مخافة أن يكتب دواء يزيد في ألمها فكتب لي دواء للقرحة أيضا فاستعملته فشفيت من ذلك الداء العضال. وبعثت به إلى مريض في ألمانيا الشرقية فشفي بعد ما أقام في المستشفي ببرلين شهراً كاملاً بلا طائل وخرج بورقة الحمية المحتوية على قائمة الأطعمة الممنوعة كما خرجت بها أنا قبله والحمد لله الذي لم ينزل داء إلا أنزل له دواء كما في الحديث. وإنما أثبت هذه القصة هنا على طولها رجاء أن ينفع الله بها بعض القراء. ومن شاء معرفة هذا الدواء فإني مستعد أن أنشر اسمه في صفحات هذه المجلة.

٤- قوله: كبريتا أو عسلا أسود، دواء نأخذه في زمن الربيع، هكذا جاء في الكتاب، وأنا لا أدري هل يعني المصنف دواء مرض بعينه أم يقصد دواء عاما ينفع جميع الناس.

٥- قوله: البليون بكسر الباء في أمريكا ألف مليون، وفي بريطانيا مليون مليون، ولما كان المؤلف أمريكيا يحمل كلامه على الاصطلاح الأمريكي. أقول ويذكرنا هذا المعني بقول الشاعر:

لـئن كـان جسـمك جسـما لطيفـا ففيـك انطـوي العـالم الأكـبر

٦- قوله: وإذا صارت قنوات التوزيع متكاسلة من طول الاستعمال. يريد المصنف إن ذلك التكاسل يكون بعد الخمسين فيشعر الإنسان بالضعف شعورا بينا وبعد ذلك يجيء الهرم، وما بعد الهرم إلا الفناء ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٧- قوله: ففي حالة العدوى الخ. أكثر الناس أو كلهم يظنون أن المكروبات لم تكتشف في زمان العرب، وإنما اكتشفت على يد أطباء أوربيين في العصور المتأخرة. وهذا خطأ كبير، سببه تأخر المسلمين والعرب وإهمالهم لتراث أسلافهم، فقد ألف لسان الدين بن الخطيب السلماني رسالة سماها (مقنعة السائل عن المرض الهائل) وصف فيها الطاعون الذي حدث في أواسط القرن الثامن الهجري بدأ في الصين واكتسح أسيا وأفريقيا وجزءا كبيرا من أوربا، قال: ومات بسببه سبعة أعشار سكان الأرض. وفي هذه الرسالة وصف ابن الخطيب المعركة التي تقع بين جراثيم المرض المغيرة على الجسم وبين جيش الذرات الساهرة على حراسة الجسم. وهذه الرسالة موجودة في مكتبة إسكوريال بأسبانيا، وقد أخذت صورة فوتوكرافية

لهذه الرسالة ونشرت ملخصا منها في الجزء الأول والثاني من مجلة لسان الدين التي أنشأتها في تطوان سنة ١٩٤٦. ولولا خوف الإطالة لنقلت هنا كلام ابن الخطيب بألفاظه.

٨- قوله: والنظام هو ضد المصادفة على خط مستقيم. فهل يدل ذلك على مدبر عليم حكيم؟ الجواب نعم وأهم دلالة لا تبقي أدني ريب في نفس المصنف المفكر السالم من التقليد والتبعية فمن ترك عقله جانبا وزعم أن ذلك كله وقع على سبيل المصادفة، فهو إما بليد الطبع أو مكابر.

## الموازين والضوابط

ما أعجب نظام الضوابط والموازين الذي منع أي حيوان، وإن بلغ من الضراوة والقوة وعظم الجسم والمكر كل مبلغ، من التحكم في أهل الأرض والسيطرة عليهم منذ عصر الحيوان القشري المتجمد، لكن الإنسان وحده قلب هذه الموازين الطبعية بنقله الأشجار وسائر النبات والحيوان من مكان إلى مكان، إلا إنه قد أدى ثمن تلك السيطرة وعوقب عقابا شديدا بسبب تطور الحيوان والحشرات والنبات وما نشأ عن ذلك من الآفات.

والحقيقة التالية مثال واضح يدل على أهمية تلك الضوابط وذلك التوازن بالنسبة لوجود الإنسان قبل سنين عديدة زرع نوع من التين الشوكي (الهندية) في أستراليا على شكل سياج (زرب) وقائي، ولا توجد في أستراليا حشرات مضادة لشجر التين الشوكي، فلذلك نمي بسرعة غريبة حتى غطي مساحة واسعة تساوي مساحة البلاد الإنكليزية كلها وضايق أهل المدن والقرى، واتلف مزارعهم، وحال بينهم وبين الزراعة، ولم يستطع أهل تلك البلاد أن يجدوا وسيلة لوقفه عن الانتشار، وأصبحت أستراليا في خطر من جراء جيش من الزرع الصامت يكتسحها، لا طاقة لها بدفعه. وعند ذلك أخذ علماء النبات يبحثون في جميع أنحاء الدنيا عن وسيلة تقاوم انتشاره، حتى عثروا في نهاية بحثهم على حشرة لا تعيش إلا على التين الشوكي، ولا تأكل شيئا آخر، وهي سريعة النمو والتكاثر وليس لها عدو يقاومها في أستراليا، فأخذت في أكل التين الشوكي حتى قضت عليه، ثم قل عددها ولم يبق منه إلا القدر الكافي لوقف ذلك النوع من النبات عند حده إلى الأبد.

وكذلك خلق الله الضوابط والموازين لوقف كل نوع من المخلوقات عند القدر الصالح حتى لا يطغي بعضها علي بعض.

لماذا لم تسيطر بعوضة الحمي الناقض (ملاريا) على أهل الأرض فتجعل أسلافنا عبر الأعصار والقرون يموتون بسببها أو يكتسبون مناعة؟ ومثل ذلك يقال في بعوضة الحمي الصفراء التي انتشرت شمالا في أحد الفصول حتى وصلت نيويورك، والبعوض كثير جدا في المناطق المتجمدة، ولماذا لم يتطور ذباب (تسي تسي) حتى يعيش في غير المناطق الحارة، وحينئذ يقضي على البشر ويمحوهم من الوجود؟ ، وهنا ينبغي لنا أن نذكر الطواعين

والأوبئة القتالة التي لم يكن للناس ما يحميهم أو يمنعهم منها إلى أمس القريب، ويذكر ما كان عليه الإنسان من الجهل التام بقواعد الوقاية الصحية، ليعلم أن بقاء الجنس البشري مع كثرة أعدائه أمر عجيب تتحير فيه الألباب هذه الحقائق العجيبة من أسرار الطبيعة تستحق الذكر والاعتبار، وإن كانت لا تكون بالضرورة برهاناً تاماً على وجود العناية الربانية من طريق مباشر، ولكنها تضاف إلى البراهين السابقة فتزيدها قوة ووضوحا.

إن الحشرات ليست لها رئتان كما للإنسان، وإنما تتنفس بواسطة أنابيب، فإذا نمت وكبرت أجسامها لا تنمو تلك الأنابيب بنمو الحشرات، فيتوقف نموها بسبب ذلك، فلا تجد حشرة تزيد في طولها على بضع بوصات (البوصة هي الانتش باللغة الإنكليزية، وقد تقدم وهي تساوي ثلاث سنتمترات إلا قليلا) ولا تطول أجنحتها إلا قليلا، وبسبب تكوينها الجسمي وطريقة تنفسها لم توجد قط حشرة ضخمة الجسم، وهذا الحد من نمو الحشرات منعها من الطغيان والسيطرة ووقفها عند حدها، ولولا وجود هذا القانون الطبعي ما أمكن وجود الإنسان فتصور الإنسان في أول أطواره يصادف زنبورا في حجم الأسد أو عنكبوتا مثل ذلك.

ولم يكتب إلا قليل من أنظمة أنواع الحيوان الكثيرة بتلك الأنظمة الفيزيولوجية العجيبة التي بدونها لا يمكن وجود حيوان ولا نبات أيضا، وإذا وجدا لم يكن استمرارهما، وتلك الحقائق بلغت من الأهمية غايتها حتى صار ذكرها واجبا حتما، لقد انتبه العالم إلى وجود هذه الحقيقة، وهي أن هناك أشياء كالفيتامينات، وكان الناس من قبل يجهلونها وعرفوا أن فقد هذه الفيتامينات يسبب أمراضا: نحو بلاكرا، وبربرز، وسكرفوي، وسائر الأمراض التي تعرف بأمراض سوء التغذية، ولابد أن الإنسان قد عاش ملايين السنين قبل أن يعرف هذه المواد التي هي ضرورية لاستمرار حياته، فإن الأسفار الطويلة في البحر بدون غذاء تام تفضي إلى مرض (سكرفوي) وقد اكتشف أن عصير الليمون دواء نافع لهذا المرض، وكان الملاحون في السفن الكبيرة في الزمن القديم يسمون عاصري الليمون، ولم يكن الملاحون الأقدمون يعرفون سبب مرض سكرفوي وهذا الدواء البسيط أكتشفه فاسكودي كاما لما كان ملاحوه يموتون في مدغشقر، غير أنه مضي قرن من الزمان أو أكثر قبل أن تكتشف العلاقات بين الليمون وبين اختفاء مرض سكرفوي، وقد زال هذا المرض الفتاك وانقطع

عن المسافرين في البحار بسبب ما ذكرنا، انقضي قرن آخر أو أكثر قبل أن يعرف الإنسان قيمة الفيتامينات التي توجد في الليمون، ولكنه لم يكن يعرف حينئذ ما تشتمل عليه هذه الفاكهة، كذلك عاش ملايين السنين أيضا قبل أن يعرف وظائف المعامل الكميائية الصغيرة المعروفة بالغدد الصم، التي تمده بالتركيبات الكيميائية التي هي جد ضرورية له، وهي تصنعها وتسيطر على حركاته وأعماله، أضف إلى ذلك أن تلك المواد التي هي جد ضرورية له، وهي تصنعها وتسيطر على حركاته وأعماله، أضف إلى ذلك أن تلك المواد التي بلغت من القوة أن جزءا من بليون منها يحدث آثاراً بعيدة المدى، هي منطقة، ينظم كل منها غيره ويحفظ توازنه، وقد علم يقينا أن هذه الإفرازات المعقدة إذا اختل توازنها حدث اختلال عقلي وجسمي في غاية الخطورة، ولو عمت هذه المصيبة لاضمحلت المدنية وانحط الجنس البشري إلى حالة الحيوان الأعجم، هذا إن أمكن بقاؤه، على أننا لو اعتمدنا على هذه الضوابط والموازين وحدها التي بدونها لا يمكن وجود الحياة كما نعهدها لواجهنا بقاء الإنسان بمسألة حسابية تستحق قدرا كبيرا من الاهتمام عند المدافعين عن عقيدة المصادفة.

**تعقيبات:**

١- تعجب المصنف من التوازن الذي جعله الله بين أجناس المخلوقات بسبب التضاد الذي فطرت عليه حتى لا يطغي بعضها على بعض ويستمر بقاء كل منها بالقدر الذي يصلح به نظام الحياة وعمارة الأرض، وكل ذلك سخره الله للإنسان فهو السيد الحاكم المتصرف المستغل المستمتع، وقد جاء في كتاب الله من التنبيه على هذه القاعدة ما فيه عبرة لأولى الألباب المنصفين الأحرار، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ، وقال تعالى في سورة الحج: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾. الصوامع: معابد الرهبان والراهبات التي انقطعوا فيها إلى العبادة، وتركوا أمور الدنيا يريدون بذلك التقرب إلى الله والبعد عن فتنة الدنيا حسب اعتقادهم كما قال تعالى في سورة الحديد: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ ، وقد أمر النبي ﷺ المسلمين إذا وقع بينهم وبين النصارى قتال أن يحترموا الرهبان والراهبات ولا يتعرضوا لهم بسوء إلا إذا اشتركوا في القتال. والبيع: جمع بيعة وهي في الأصل الكنيسة التي بنيت قبتها على شكل بيضة، لأن البيعة باللغة السريانية هي البيضة،

قلبوا الضاد عينا كما فعلوا ذلك في ضاد الأرض فقالوا: (ارعا) ومن المعلوم عند من يعرف اللغة السامية أن الضاد تصعب على السريانيين والعبرانيين فيقبلونها ويبدلونها بحرف آخر، ثم عم لفظ البيعة كل كنيسة للنصارى، والصلوات جمع صلاة ، وهي معبد اليهود ويسمي في اللغة العبرانية المستعملة إلى اليوم (بيت تفلا) أي بيت الصلاة، والمساجد معابد المسلمين وقد جاء الإسلام باحترام هذه المعابد وسلط على كل ظالم مقاوما يردعه ويرده عن غيه وما أحسن قول الشاعر:

**ومـــا مـــن يـــد إلا يـــد الله فوقهـــا ولا ظـــالم إلا ســـيبلي بظـــالم**

هذا فيما بين البشر وكذلك أنواع الحيوان يأكل بعضها بعضا، ولا ينقرض أي نوع من الأنواع المفيدة الصالحة للبقاء، وإذا انقرض يخلفه نوع أجود منه وقد يقع التصاول بين النبات والحيوان فيكون أحدهما غذاء للآخر، والأكثر أن يكون النبات هو المأكول.

٢- قوله: لكن الإنسان وحده قلب هذه الموازين الطبيعية ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ وإنما ساد الإنسان وتحكم في نواصي غيره من الحيوان وإن بلغ الغاية في القوة وضخامة الجسم بالعقل والتفكير والنطق الذي فضله الله به.

٣- في قصة شجر التين الشوكي ويسمي عند المغاربة (بالهندية) وعند بعضهم (بكرموس النصارى) والكرموس بالمغربية هو التين، ويسمي في بلاد الشام (بالصبير) ، ويسمي في الحجاز (بالبرشوم وبابن برشوم) وله أسماء أخرى عند شعوب أخرى، ومن العجيب أن المغاربة ينسبونه إلى الهند، مع أنه لا يوجد في بلاد الهند ولا يعرف، في هذه القصة عبرة تدل على تسليط بعض المخلوقات على بعض حفظا لبقاء كل نوع منها، وكنت أتحدث مع أحد العلماء المفكرين فقال لي: إن الاستهلاك لا ينقص النوع المستهلك، بل يزيده ويوفره، إذ على قدر الاستهلاك تكون العناية والعمل على تكثير ما يستهلك من حيوان ومزروعات وغيرها، ففي كل يوم تذبح ألاف من الغنم والبقر في كل بلاد يستحل أهلها أكل اللحم ولا ينقص ذلك الغنم والبقر بل يزيدها أقول وهذا نظر صحيح لأن بلاد الهند واسعة الأرجاء يعد أهلها بمئات الملايين ومساحتها واسعة جدًا، وأهلها لا يأكلون اللحم إلا المسلمين والنصارى ، وعددهم قليل خصوصا بعد انفصال الباكستان عن الهند، فلم يبق في الهند من

المسلمين إلا أربعون مليونا وعدد النصارى بضعة ملايين فلو كان الاستهلاك ينقص الغنم والبقر لكانت بلاد الهند أكثر البلاد غنما وبقرا والواقع أن الغنم قليلة، ونوع الضأن منها لحمه رديء حتى أن الأغنياء هناك لا يضحون إلا بالمعز أو بالبقر إن أمكنهم، لأن ذبح البقرة في البلاد التي يكون سكانها خليطا من المسلمين والهناديك يكلف ثمنا غاليا تزهق فيه أرواح وتقع حروب أهلية لأجل ذبح بقرة واحدة والمقصود هنا الاستدلال على أن الاستهلاك لا ينقص الجنس المستهلك.

٤- قوله: على أنا لو اعتمدنا على هذه الضوابط والموازنات وحدها ... الخ، يريد المصنف أن يوضح أنه مع استحالة بقاء الإنسان والحيوان والنبات بدون تلك الضوابط وذلك التوازن فهي غير كافية وحدها لحياته وبقائه على ما هو عليه ، بل لابد من وجود العناية الربانية التي تتكفل بوجوده واستمراره إلى ما شاء الله، ويحتاج القائلون بأن العالم وجد بالمصادفة وهو يسير بالمصادفة إلى الجواب عن مشاكل حسابية عسيرة لا قبل لهم بها، وقد تقدم في هذه المقالات السبع عشرة من قيام الحجج عليهم وإقامة البراهين الخانقة شيء كثير فله يقنع المصنف فضلا عن جله وبالله التوفيق.

### الزمان

الكلام في الزمان وما أودع الله فيه من الأسرار، هو الفصل الثالث عشر من كتاب (ليس الإنسان مهملا) قال مؤلفه: إن العلم التام بوجود الزمان خاص بحياة الحيوان، والإنسان وحده هو الذي يقيسه ويوزعه. والعناصر التي تتألف منها الأشياء كلها من النادر أن تتغير على مر الزمان، وقد تتألف العناصر الكيميائية أو تفترق، غير أن الزمان وإن كان ضروريا لإنجاز تغير كيميائي، فلا أهمية له بالنسبة للذرات، ومع ذلك نرى عصا من الديناميت تتحول من مادة صلبة إلى غاز في جزء من خمسة وعشرين ألف جزء من الثانية، ولكن الذرات لا تتغير.

يمكن أن يرتفع جبل من مكانه ثم يتفتت ويصير هباء منثورا، ولكن الذرة المحبوسة في قلبه لا تنتظر بقلق الوقت الذي تتحلل فيه الصخرة لتخرج من سجنها وتصير حرة، ولو أن الكتروناتها تدور كالمغزل في أفلاكها على الدوام. إن كامرتك تلتقط الصورة في جزء من مائة جزء من مائة جزء من الثانية باهتزاز قدره ألف وثمانمائة ميل في الأثير الفضائي لإحداث التغير الكيميائي، وهكذا تسجل الأفلام بالألوان كل ما في المنظر من جمال، فالذرات تهتز ويعاد تنظيمها ولكنها لا تتغير.

ويظهر أن الأشياء الحية تقيس الزمن، غير أن الجمادات الخالية من الحياة هي التي تسجله، إن مياه الأنهار الجليدية التي سالت بعد ما ذابت في العصر الجليدي قد تركت طبقات من الصلصال تدل على كل سنة مضت على حدتها، وتخبر ولو بطريق غير دقيق على مراتب درجات الحرارة التي كانت سائدة في ذلك الزمان، وكذلك الطبقات الكلسية التي تتكون في سقوف الكهوف والطبقات التي تعلو أرضها من الرواسب بأشكال مخروطية تفعل مثل ذلك لمائة ألف سنة وأكثر، ولكنها لا تدري ماذا صنعت.

إن الراديوم والرصاص تتغير نسبهما في الصخور الصم فتخبر ببليون من السنين منذ استقرار الأرض، ولا تفكر في الماضي أصلا، ولا تستطيع الكائنات الحية أن تدرك كنه الزمان، لأن الحياة لها غايتها والفرد وجوده ينتهي وينقضي قبل انقضائها ، وليس هنالك كائن حي في حالته الطبيعية يستطيع أن يقيس الزمان في وعي وانتباه، ولكن الزمان يأتي

على جميع الكائنات الحية ويسود تقلباتها وأعمالها من الولادة إلى الوفاة.

وقد انكشف أن هناك شيئا يسمي الزمان البيولوجى (أي الخاص بعلم الأحياء) ويظهر أن الزمان بالنسبة للصبيان يسير ببطء، أما بالنسبة للطاعنين في السن فيظهر أنه يجرى بسرعة عظيمة. وهذه الظاهرة المعروفة قد وجد أنها مرتكزة على دورة حياة الخلايا، ويمكن أن يعبر عن ذلك بأيسر طريق فيقال، إن خلايا كل مخلوق حي تتطور بسرعة في ابتداء الحياة، ثم تأخذ في البطء كل ما دنت من نهايتها، وإذا تكلمنا على ذلك من وجهة علم الأحياء نقول: إن كثرة حوادث الخلايا التي تقع في الطفولة تجعل الطفل يشعر بطول الزمان كالمسجون على حين أن بطء عمل الخلايا في الكبير، يشعر المسن أن الزمان يجري بسرعة، ويظهر أن دورة الحياة لا علاقة لها بالزمان المطلق الذي نقيسه بحركات الأجرام السماوية، فالمكروب يتوالد ويتكاثر في ساعة واحدة، أما الإنسان فلا يتناسل إلا في سنين عديدة، وذبابة مايو لا تستطيع أن تقيس الزمان تحت الماء، لكن كل جيل من نسلها يعيش في حياة سعيدة تحت الشمس، هل يمكن أن يكون العلماء على صواب في قولهم، إننا إذا صرنا إلى دار الخلود سنقيس الزمان بالحوادث ، لا بالفلك؟.

والأسماك في البحر لها وقتها الذي تضع فيه بيضها، ولكنها في ذلك إنما تطيع قانون الطبيعة، ولا تعرف لماذا تفعل ذلك، والزرع والحصاد لهما وقتهما، وقد تحصد مساحات شاسعات من الزرع، أي يحين وقت حصادها في يوم واحد، أما الأشجار فلا تثمر إلا بعد مضي سنين عديدة على غرسها، وحلقاتها السنوية تسجل أعمارها.

وقد وجد أن بعض الصراصير تصر مرات معلومة طبقا لدرجات الحرارة، وقد أحصيت مرات صريرها بدقة، فوجد أنها تسجل درجات الحرارة مع فرق درجتين، وقد روقب صرصور لمدة ثمانية عشر يوما فوجد أنه يبدأ أغنية حبه أو فرحه كل يوم قبل الساعة الأصلية بخمس دقائق، وهناك نوع من البط في قناة بأوربا يجيء بانتظام إلى جسر لأجل الغذاء كل يوم في ساعة معينة ويضرب جرسا قد أعد له، والطير لها وقتها الذي تطير فيه من الشمال إلى الجنوب، وكل فرد منها يلتحق بسربه في الوقت المعلوم، ثم تطير كل سنة في يوم يكاد يكون محددا معلوما. وذباب مايو يخرج من البحيرات فيطير طيران العرس، وتسقط منه ملايين ميتة في الشوارع في اليوم نفسه.

والجراد البالغ من العمر سبع عشرة سنة في (نيوانكلاند) يعيش في غيران تحت الأرض، حيث يقيم في الظلام مع تغير قليل في الحرارة، ويظهر بملايين في شهر مايو من سنته السابعة عشرة، وقد يتخلف بعض المتعثر منه عن سائره بالطبع، ولكن أكثره يتم نموه في تلك السنوات المظلمة، ويضبط يوم ظهوره بدون سابقة ترشده إلى ذلك.

ودودة البوصة تدب بانتظام عظيم من مكان إلى آخر، ولو استطاعت أن تعد لأمكنها أن تقيس الوقت والمسافة بعدد قفزاتها، ولكن لا حاجة بها إلى أن تقيسهما، فلا تضحك من قفزتها ، لأننا معشر البشر نقيس المسافة بالقدم (وإنما نسبت إلى البوصة لأن كل قفزة من قفزاتها بقدر بوصة).

كل حي على العموم يراقب الزمان ويسجله بالعمل، ولكنه لا يبدي دليلا على توقيت واع، ويظهر أن الفصول الأربعة، ودرجة الحرارة، والنهار والليل، والمد الفائض، كلها ضوابط لاطراد الحياة، وقد أوجد التطور عادات لقياس الوقت بغير شعور، وهي تعمل بطريقة أوتوماتيكية كنبضات القلب والهضم، وكثير من الناس يعتاد أن يستيقظ في ساعة بعينها، فيستيقظ في ذلك الوقت بالضبط بدون ساعة منبهة، وسواء أنام في الوقت المعتاد أم بعده، لابد أن يستيقظ في ذلك الوقت. وقد أضاف الإنسان الزمان إلى المادة التي لا زمان لها، والزمان لا يمكن وزنه ولا تحليله، فهو بالنسبة إلينا يتعلق بهذه الأرض وحدها، ومقاييسنا للزمان يمكن أن لا يكون لها تعلق بالعالم في مجموعة، ولكن الزمان يملي علينا دوافع بدون شعور منا، وقد بلغت هذه الدوافع في القوة إلى حد أنها تتحكم في كل كائن حي، والإنسان من حيث هو حيوان ليس له شعور خاص بالزمان، ولكنه يستطيع أن يضبط إلى حد محدود أثر الزمان في دوافعه، فالإنسان البدائي لا يستطيع أن يخبركم كم عاش من الزمان إلا بمقارنة الحوادث، فالإعداد بالنسبة إليه تدل على قليل أو كثير لا يميز بينهما، أما الإنسان العصري فقد ينسي مثلا أيام ذكرياته السنوية، ولكن زوجته لا تنساها، فهل المرأة مرتقية أكثر من الرجل أم تطالع التقاويم خفية؟ لا هو ولا هى يستطيعان أن يحددا اليوم الرابع والعشرين من مايو بعد سبع عشرة سنة كما يفعل الجراد في الظلام.

**تعليقات:**

١- قوله: إن الزمان لا أهمية له بالنسبة إلى العناصر، وهي الذرات التي تتألف منها الأشياء، هذا مبني على رأي الفلاسفة وغيرهم من العلماء الذين يقولون، إن المادة لا تفني، وإنما تتحلل لتتركب من جديد وتكون شيئا آخر، وكان أبو العلاء المعري على هذا الرأي، وقد صرح بذلك في قصيدته الدالية التي يقول فيها:

**صاح هذي قبورنا تملأ الأر ض فأين القبور من عهد عاد**

**خفف الوطء ما أظن أديم الأر ض إلا من هذه الأجساد**

**وقبيح بنا وإن قدم العهـ ـد هوان الآباء والأجداد**

وتسمي المادة التي أشار إليها المصنف عند فلاسفة العرب، الهيولى. فكل مركب عندهم إذا تحلل يعود إلى هيولاه. فالذي يتغير، إنما هو المركبات بصورها وأشكالها، وأما الهيولي فلا تتغير أبدا.

٢- ضرب المصنف المثل بعصا الديناميت، وبين أن عصا الديناميت إذا انفجرت تتحلل وتعود إلى عناصرها الأولى في لحظة قصيرة جدا لا تزيد على جزء من خمسة وعشرين ألفا من الثانية التي هي جزء من ستين جزءاً من الدقيقة. فتعلق الزمان بتعلق المادة وانتقالها من التصلب إلى الهباء، إنما بين الجزء الذي يقع فيه التحول من شكل العصا وتصلبها إلى حالة الهباء، والزمان لم يؤثر شيئا في ذلك التحول، وإنما هو ظرف له. وقد يقال في بادئ الرأي، إن الزمان فيما يظهر يؤثر في أجسام الحيوان، إذ بمروره تفني تلك الأجسام وتتحلل، قال الشاعر العربي:

**أفني الشباب تقلب الشمس**

**وطلوعها بيضاء صافية**

**وغروبها صفراء كالورس**

فنسب الشاعر إفناء الأجسام إلى الزمان، ولكن علماء اللغة يجعلون هذا من المجاز العقلي، وهو إسناد الفعل أو ما شابهه إلى غير ما هو له، لأن تقلب الشمس ليس هو الذي أفني الشباب في الحقيقة، وكلام شعراء العرب في هذا المعني كثير.

٣- ثم ضرب المثل بالجبل والذرات التي تتألف منها الصخور، وأخبر أنها لا تشعر بسجن في وقت تركيبها في صخرتها ولا بحرية في وقت تفتت الجبل. والكتروناتها تدور في أفلاكها كما تدور الأجرام السماوية. فالزمان عندها سواء في وقت التركيب وفي وقت التحلل.

٤- ثم ضرب المثل بالتقاط آلة التصوير للصور في لحظة قصيرة بالاهتزاز الذي يحدث تفاعلا كيميائياً معروف القدر تسجل به المناظر بألوانها وجمالها دون أن يؤثر ذلك على الذرات.

٥- قوله: ويظهر أن الأشياء الحية تقيس الزمان الخ يريد بذلك أن الحيوان العاقل وغير العاقل هو الذي يهتم بالزمان ويقيسه بالعصور، فالقرون، فالسنين، فالأيام، فالساعات، فالدقائق، فالثواني، وهلم جرا، ولكنه يستعين بالجماد على قياس الزمان، ثم مثل لذلك بالأنهار التي كانت جامدة في العصر الجليدي ثم ذابت بعد ذلك وتركت طبقات من الصلصال تدل على السنين الماضية، فقد استعان الإنسان على معرفة الزمان بالجماد، وكذلك يقال فيما ذكر بعده من طبقات الكلس التي في سقوف الكهوف وما يعلو أرضها من الرواسب.

٦- قوله: ولا تستطيع الكائنات الحية أن تدرك كنه الزمان الخ. أمر واضح، لأن الزمان محيط بالكائنات الحية، فيه تنشأ وفيه تفني، فلا يمكن أن تحيط به علما، وإذا كانت الكائنات الحية حتى أشرفها وهو الإنسان عاجزة عن إدراك كنه الزمان، فكيف تستطيع أن تدرك كنه صفات خالق الزمان ومجريه، العالم بأوله وأخره؟ وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾. ثم سأل المصنف عن إمكان صحة الرأي القائل: إننا معشر البشر إذا انتقلنا إلى الدار الباقية نقيس الزمان بالحوادث، لا بحركات أجرام الفلك. والجواب عن هذا السؤال (طارت به في الجو عنقاء مغرب) ، فمن ذا الذي يستطيع أن يجزم بالنفي أو الإيجاب، وهو بعد في سجن الحياة؟ . والتفكير في هذه المسألة من النهم الذي يصيب العلماء. وما أصدق الخبر القائل: منهومان لا يشبعان، طالب علم وطالب مال.

٧- قوله: وقد تحصد مساحات شاسعة الخ. يقال أحصد الزرع إذا حان وقت حصاده.

٨- قوله: ومقاييسنا للزمان يمكن أن لا يكون لها تعلق بالعالم في مجموعة الخ. بيان ذلك، أننا نقيس الزمان على حسب طلوع الشمس وغروبها، وبعبارة أدق حسب دوران الأرض. فإذا كانت الكواكب الأخرى كالمريخ مثلا مأهولة بمخلوقين عاقلين، يقيسون زمانهم، فإن قياسهم للزمان يخالف قياسنا، هذا مع أن المريخ إذا قابلناه بالشعري نجده قريبا منا. وإذا كان في الكواكب التي تدور حول الشعري عقلاء يقيسون الزمان، فلابد أن يكون قياسهم مخالفا لقياس سكان المريخ، وإذا كان الزمان مرتبطا بالشمس بالنسبة إلينا وإلى كل من يستضيء بها في سائر الكواكب السيارة، إن كانوا موجودين فقبل وجود الشمس كان الزمان معدوما، وبعد عدمها سيكون كذلك. وكل ذلك يبرهن على نقصان علم الإنسان وضيق معرفته، وصدق الله إذ يقول: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾.

٩- قوله: لا هو ولا هي يستطيعان أن يحددا اليوم الرابع والعشرين من مايو بعد سبع عشرة سنة كما يفعل الجراد في الظلام، تقدم في المقالات السابقة أن الله الذي خلق فسوي وقدر فهدي قد وهب بعض أنواع الحيوان من الغرائز والإلهام ما يعجز عنه الإنسان العاقل، فسبحان الذي أتقن كل شيء خلقه.

**قال المصنف في الفصل نفسه:**

إن الإنسان الأول كان يحب الزمان كالإيقاع، كالضرب المنظم على طبل. وقد رفعه التوقيت في رقصه فوق مستوى الغريزة، والانسجام التام في النغمات الموسيقية يوصلنا إلى التلذذ العجيب الذي يهز مشاعرنا بالقطع الموسيقية المتناسقة في النغمات والأصوات التي يقوم بها الجوق (الأوركسترا). إن الاهتزازات الموجودة في وحدة النغم في لحظات من الوقت، لا تعتبر موسيقي إلا عند الإنسان وحده.

وقد جاءت المدنية للإنسان بضرورة الضبط والتدقيق في قياس الزمان وتسجيله، وكذلك الفصول المتتالية التي يدل عليها ظهور الشمس في أقصى الشمال وجنوب خط الاستواء أدت إلى تكوين دوائر برويد وبناء الأهرام، وغير ذلك من علامات الوقت في العالم. وكان ظهور الشمس أو ظلها فوق هذه الأشياء عند علامة معينة سرا مكتوماً عند القسيس فهو الذي يخبر بعدد الأيام التي تحسب حتى يجيء وقت الغرس، أو فيضان النيل. أما الآن فإن التقاويم، وإن لم تبلغ الكمال تعلق في كل بيت، وبها نميز الأيام ونعرف الأوقات.

وفوق ذلك صرنا نسجل الساعات والدقائق والثواني، بل نسجل جزءا من الألف من الثانية، وكلما تقدمنا في ضبط الوقت زادت حاجتنا إلى معرفة الكيمياء، والطبيعيات، والمعادن، ودرجات الحرارة، وعلم الفلك، ومن أهم ما يجب علينا تعلمه، الرياضيات، ونحن نحسب جدول زمان الكواكب والأقمار والمذنبات ونعتمد على معرفتنا بالوقت فيما يحدث في حركاتها في المستقبل، ونحدد الساعة والدقيقة لكسوف الشمس وخسوف القمر، في الماضي والحاضر. ونحن نعرف سرعة الضوء ونحددها بالثانية ونعرف طبائع الأجرام السماوية التي يظهر لنا انتظامها من سيرها المتواصل الدقيق البديع في الآماد الطويلة.

إن التطور قد بلغ بالموجودات الحية إلى الاتفاق التقريبي مع بيئتها، إلا أنه من الجهة النظرية على الأقل لا يمكن أن يزيد على ذلك، وتقدم الإنسان فيما وراء ضروريات الحياة قد خرج به عن الحدود التي يظهر لنا أن التطور الطبعي وضعها على حدة، وإن الإنسان باقترابه من المعرفة التامة بالزمان ليقترب أيضا من المعرفة بقوانين العالم الأبدية ، وبذلك كله يقترب من معرفة الخالق سبحانه.

وإذا لم توجد في بعض نواحي العالم مخلوقات عاقلة، فإن الإنسان وحده يختص بمعرفة الزمان، وسيطرته على معرفة الزمان تدنيه من شيء هو أعظم من المادة.

فمن أين تجيء هذه الوثبة العظيمة التي يثبها الإنسان بعيدا عن الفوضى، وعن جميع التركيبات المادية، وعن جميع المخلوقات الحية الأخرى؟ لابد أن تجيء من شيء أعلى وأجل، ولن تجيء من المصادفة.

**التصور الكامل**

دعنا نترك العلم مليا من الزمان ونرجع إلى تصورنا.

يمكن أن نقدر أن جميع الحيوانات ترى الحقائق والحوادث، والأشياء المادية، كما هي، وإن رد الفعل العقلي عندها مباشر. فرد الفعل عندها يظهر في سعيها في تحصيل قوتها، وفي هربها من أعدائها، وفي اختفائها عند خوفها من الخطر، وفي طلبها للراحة في مكان تأمن فيه. ومن الممكن أن بعض أنواع الحيوان المتقدمة، كالكلاب مثلا تحلم في نومها، والحلم بالطبع نوع من التصور، لا يستطيع الحالم أن يسيطر عليه.

إن التصور من أعظم المقدرات والكفاءة العقلية التي وهبها الإنسان، فبالتصور يستطيع الإنسان فورا أن يسافر حيث يشاء، والخطيب يستطيع أن يرحل بالمستمعين له إلى أي أفق يريد، فإذا وصف في تصويره لمستمعيه إحدى جزائر المرجان من بلاد الهند الشرقية، يرى بتخيله تلك الجزيرة. ومستمعوه أيضا يرون بعقولهم سلسلة صخور مرجانية تحيط بها ويرون الشاطئ المرجاني، ويرون تغيرات لون المحيط، والسماء التي تظلها، والريح تعبث بسعف النخيل، وجزيرة في الوسط مكسوة حلة جميلة من نبات الأراضي الحارة، ويمكنه أن يصف لهم ماء البحيرة الصافي الأزرق كزرقة السماء، وجلاء المرآة، وإذا صار به الفكر إلى أبعد من ذلك، يرى المستمعون له أعماق تلك البحيرة، ويمكن ذلك الخطيب أن ينقل المستمعين له من ذلك المنظر الاستوائي فورا إلى نهر جليدي بجريانه البطيء وألوانه من أزرق وأخضر وأبيض، ويسترعي أفكارهم إلى جبل قد توج الثلج قمته يظهر مرتفعاً وراء ذلك النهر ساطعاً بأشعة الشمس في لون وردي بهي.

وإذا كنت تستمع إلى ذلك الخطيب يمكن أن يحملك إلى كوكب بعيد، ويكاد يحمل إلى أذنيك تصادم العناصر المتطايرة، ويكاد يشعرك ويريك فيض الضوء والحرارة، وهما يسرعان لإعطاء الدفء والحياة وإيصالهما إلى الأرض، وليري سكان الأرض صورة رائعة البهاء للهلال يشرق نوره في ظلمة غابة خضراء.

ويقدر ذلك الخطيب أن يصور لذهنك ليس فقط ما يحيط بك، بل الصورة نفسها التي تتخيلها لزوجتك وأولادك في حركاتهم وأعمالهم في تلك اللحظة. وهنا يعوزك التصور، فيعتريه النقص وتكون الصورة الحقيقية بلا شك ليست هي التي تخيلتها، بل غيرها.

وقوة التصور هذه في الطفل ينبوع سعادة عظيمة فهو يستعملها كما يشاء في اللعب، وإذا أردت أن تعرف ذلك فلاحظ الأطفال في لعبهم لترى ما يعتقدون في أنفسهم فالصبي الذي يحمل على كتفه بندقية من الخشب، قد يعتقد اعتقادا تاما أنه جندي حقيقة.

إن التعليم والتجربة والبيئة والمهارة، كل هذه قد تصير الخيال قطعة فنية رائعة من الطراز الأعلى، سواء أكانت قطعة من الموسيقي السيمفونية، أم لوحة رسم، أم آلة ميكانيكية دقيقة الصنع، والآراء إنما هي بنات التصور فهي حينئذ أساس العبقرية. وأعظم نتائج العقل الإنساني، كالاختراعات، والآلات الميكانيكية، واستنباط أفكارنا الرائع في الرياضيات العليا، هو التحقيق النهائي لآراء ناشئة عن التصور.

**توضيحات وتعليقات**

١- قوله: وكان ظهور الشمس الخ. لا شك أن العلم كله، سواء أكان علم معاش أو علم دين أو أدب وفلسفة كان محتكرا عند رجال المعابد والكنائس في الزمان القديم. وبذلك تنحصر السيطرة في الحكام والسحرة والكهان، ويبقي سائر الناس عبيدا لهم مسخرين لخدمتهم بسبب جهلهم، فإذا كان الفلاح لا يكتب ولا يحسب ولا يقرأ يكون مضطرا في شؤون زراعته وصحته ودينه إلى الساحر أو الكاهن، فهو الذي يعين له أوقات المزروعات وأوقات حصادها، وأوقات غرس الأشجار وإيراقها فإزهارها فإثمارها، وهو الذي يعالجه إذا مرض مرضا حقيقيا أو وهمياً بالرقي والتمائم ويحصنه من عين المعيان وأذى الإنس والجان. وهذا الساحر أو الكاهن يفرض على الفلاح والعامل أن لا يعمل شيئا حتى يستشيره فيخبره بعواقب الأمور. ويوهمه أن كل حركة يتحركها بدون إرشاده

هي حركة طائشة توقعه في الهلكة، وهؤلاء الكهان يحرمون التعلم والمعرفة على رعاياهم ، لأنهم يعلمون أن كل من تعلم من هؤلاء المساكين يتحرر عقله وفكره ويخرج من السجن والأسر، وفي ذلك القضاء المبرم على سلطان الطبقة الحاكمة بأمرها، وهي الحكام والسحرة ومن في معناهم من المنجمين والمتظاهرين بالدين لنيل مئاربهم الخسيسة. وأعظم محرر للعقول وداع إلى التسوية بين جميع البشر وجعل العلم مشاعا بين جميع الناس وجعل الدين لله والحكم لله والسيادة له وحده لا شريك له، هو محمد رسول الله الذي جاء بالعلم والنور والهدى لجميع البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم، قال الله تعالى في سورة سبأ (٢٨): ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال وهو يعدد الخصائص التي خصه الله بها: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال، قال النبي ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» رواه البخاري ومسلم. نفهم من هذا الحديث أموراً، أحدها أن الشيء الذي بعث الله به محمداً ﷺ هو الهدى والعلم، فالهدى الإرشاد، والعلم قسمان، علم دين وهو عقائد وعبادات ومعاملات تدخل تحت أحكام الشريعة وأخلاق وآداب تسمو بالإنسان إلى الكمال، وعلم معاش وهو كل ما يرفع شأن الإنسان ويحسن معيشته، وأنواعه كثيرة، وقد يعارض بعض الناس في داخل الإسلام وخارجه، في دخول هذا القسم الثاني في مسمي العلم الذي جاء به الرسول، ولو تأملوا لوجدوا أنفسهم مخطئين، فقد أخذ النبي ﷺ بعض علوم الحرب عن سلمان الفارسي لما أشار عليه بحفر الخندق فحفره هو وأصحابه وعمل فيه بيده، وأمر الناس بالتداوي فقال تداووا يا عباد الله، فإن الله ما أنزل داء إلا أنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله. وهو يتضمن الحث على تعلم الطب، وكان عليه السلام هو نفسه طبيبا، يصف الأدوية والحمية للمرضى، وأمر بتعلم الرمي وركوب الخيل وقال من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا، وقال تعالى

في حق داود: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ وهم النبي ﷺ بالنهي عن المغايلة، وهي مباشرة المرأة المرضع مخافة أن تحمل فيتضرر رضيعها، فلما علم أن أهل فارس والروم لا ينهون عن ذلك ترك النهي، وفي ذلك حث لأمته على تعلم علوم الصحة، إلى غير ذلك من الأدلة التي لا تحصى، وثانيها تشبيهه عليه الصلاة والسلام العلم الذي جاء به بالمطر والناس بأنواع الأرض فمن كان منهم عالما ومعلما فهو كالأرض التي تنبت ما ينفع الناس من ثمرات وحبوب ومراع مخصبة والحياض التي تمسك الماء على الناس لشربهم وسقيهم. وشبه الجاهلين المعرضين عن التعلم بالأراضي الصلبة التي لا تمسك ماء ولا تنبت نباتا، وأخبر أن الجاهلين المحرومين الذين لا خير فيهم هم الذين لا يتعلمون ولا يعلمون ولا يهتمون بالعلم، وثالثها حصره الخير في من تفقه وعلم وعلم. وقد جاء ذلك صريحاً في حديث، والعالم والمتعلم شريكان في الخير ولا خير في سائر الناس، وأمر أمته بطلب العلم ولو في الصين، فحطم بذلك القيود التي كانت تحول بين العامة وبين العلم، ومن درس التاريخ العالمي بإمعان وتبصر وكان سالما من العصبية علم يقينا أن أعظم رجل حارب احتكار العلم ونظام الطبقات هو محمد رسول الله ﷺ ومن دواعي الأسف أن المنتسبين إلى الإسلام بعد ما تركوا القرآن والسنة رجعوا إلى الجاهلية وصاروا يحتكرون العلم والمعرفة وراجت سوق الكهانة والسحر والأكل بالدين بينهم، فقد أخبرني رجل في فاس أن زوجته أصيبت بمرض لازمها بضع سنين فذهب إلى إمام جامع كبير فشكي له ذلك فأمره بذبح دجاجة حمراء وطبخ لحمها بلا ملح ودفنه تحت شجرة عينها له خارج باب الفتوح، ففعل الرجل ما أمره به، وطبعا بقيت امرأته مريضة كما كانت، فانظر إلى هذه الجناية العظيمة التي ارتكبها هذا الإمام، وما أكثر أمثاله، ففيها تضييع الطعام، وإفساد العقيدة بإيقاع الناس في عبادة الجن، وصرف هذا الرجل المسكين عن الصراط السوي الذي أمر به رسول الله ﷺ وهو التداوي.

وشكي إلى رجل مغربي أن زوجته لا تلد مع أنها موافقة له، وهو يحبها حبا جما ولا يستطيع أن يكدرها، إلا أنه مضي عليها عنده عشرون عاما ولم تحمل، قال: وقد طفت على أضرحة الأولياء في جميع أنحاء المغرب فما جاء الله بشيء، هذا لفظه، فقلت له: إنك لم تقصد الله تعالى، ولو قصدته ما خيبك، وعلى ذلك فقد بقي لك ولي لم تقصده بعد، فقال لي: لا

يستطيع أحد أن يذكر لي وليا لم أقصده في المغرب كله، فقلت له: أنا أذكر لك واحداً، فقال: وما هو؟ فقلت: طبيب النساء خسوس الأسباني، وليس بعيدًا منك إنه في طنجة. فقال لي: الله يا فقيه، تسمي هذا ولي الله؟ فقلت: أنا ما سميت ولي الله، وإنما سميته وليا فقط، وهو الذي ينفعك الله على يده، لأنه طبيب، وقد أمرنا نبينا ﷺ بإتيان الأطباء لعلاج الأمراض، ولم يأمرنا نبينا بإتيان الأضرحة والالتجاء إلى أصحاب القبور، وقد أخبر علماء الصحة أنهم بعد الاستقراء التام، لم يجدوا امرأة ولدت عاقرا من بطن أمها، قالوا: فالعقم إنما يطرأ على المرأة بسبب الأمراض والعاهات، بخلاف الرجال، فإن منهم من يولد عقيما، فالتمس مني عنوان الطبيب المذكور فكتبته له، فذهب إليه فعالج زوجته فحملت، وسافرت أنا إلى العراق فلما رجعت في صيف سنة (١٩٥٩) وزرت تلك المدينة جاءني الرجل المذكور ومعه صبي ابن بضع عشرة سنة فقال لي: هذا ولدي الذي رزقني الله بسبب إرشادك وسلم على الغلام، فقلت له: يا بني، إن والدك جني عليك بطلبه الأولاد من الأموات وتركه الطريق الصحيح وهو العلاج. ولو أن والدك قصد الطبيب من أول الأمر لكان عمرك الآن بضعا وثلاثين سنة ولكان لك إخوة وأخوات، فضحك أبوه والحاضرون، وهذا الداء الفتاك وهو طلب الحاجات من السحرة والكهان وأصحاب القبور لا يزال يفتك بهذا الشعب لكثرة سببه وهو الجهل، فتذهب أديانهم وعقولهم وأعراضهم وأموالهم، وذلك هو الخسران المبين، ولا يزال الدجاجلة يسرحون ويمرحون، ويبتزون الأموال، ويعيشون عيشة الترف بالشعوذة والدجل، وأنواع الحيل، ولا منقذ لهم من هذا الشقاء إلا الله ثم العلم النافع، ولا يمكن أن يوجد هذا العلم النافع إلا بالرجوع إلى رفع راية القرآن وما جاء به محمد رسول الله ﷺ من البيان ويسير ذلك جنبا إلى جنب مع علم اللغات والعلوم العصرية التي لا يقوم دين ولا دنيا إلا بها، ومن طلب علم الدين وسار في طلبه على صراط مستقيم فإن علوم الدنيا تأتيه مطيعة منقادة وتخطب وده، بخلاف من عكس فإن أمره ينعكس وينتكس، وإذا شيك فلن ينتقش، كما في الحديث، ومعناه إذا أصابته شوكة فلن يقدر على إخراجها بمنقاش.

٢- قوله: وإذا لم توجد في بعض نواحي العالم الخ. يشير بذلك إلى احتمال وجود خلق عاقلين في بعض الكواكب كالمريخ مثلا، وما يعلم جنود ربك إلا هو. وقد استطاع الإنسان

اليوم أن يخترق هذا الغلاف الجوي الذي خلقه الله ليحفظ به الأرض وما عليها من التلاشي والاضمحلال، والإنسان الآن يطمع في أكثر من ذلك، وهو الاتصال بالكواكب الأخرى، ولا يعلم ما يأتي به الغد إلا الله.

## إبداع الخالق شامل لكل شيء

ثم قال المصنف مباشرة: ولكن التصور على كل حال يصادف دائماً عوائق من بيئته المادية، فهو لذلك لا يبلغ إلا درجة قليلة من الحقيقة حتى تحققه الملاحظة أو التجارب أو الاكتشاف، وحتى في أذهاننا المادية، لا يقيم التصور اعتبارا لفكرة الزمن أو المسافة، فهو يبلغ فورا هدفه، سواء أكان ذلك الهدف كوكبا في السماء أم ولدك الذي في حجرك، ولابد لنا أن نصل إلى نتيجة، هي أن قوة التصور، متصلة بالقوة الروحانية، فإن كان هناك خلود للروح فهناك أيضاً خلود للتصور.

وكلما أدرك الفلاسفة ذلك العنصر إلا على من طبيعة الإنسان، وهو نشاط روحه، واجهتهم صعاب لا تعرض لمن هو أقل منهم تفكيرا.

فهم إن قالوا بخلود الروح، وجدوا من الصعوبة بمكان أن يحددوا مكان هذه الروح الخالدة، فالشخص العادي يتصور أن الجنة مكان، ويفكر فيها على أنها مادية فيها شوارع مرصوفة بالذهب وأبواب مصنوعة من اللؤلؤ، وإذا كانت غاية الروح بعد انطلاقها هي الجنة، فمن الطبيعي أن يسأل المرء (أين الجنة؟ وكم تبعد عنا) أما الفيلسوف الذي له نفس يقظة فلابد أن يخطر بباله أن الجنة ليست مكانا كما يتصوره البشر، ولكنها أجل بكثير من أن ندركها بعقولنا القاصرة، ومثل ذلك يقال في الخلود الذي لا نهاية له. والحقيقة أننا قد نضطر لفقدنا التجارب البشرية التي ترشدنا، أن نحسب أن الجنة يمكن أن تكون الفضاء نفسه.

ومن الطبيعي أن كل إنسان يكره ويخاف أن يكون ساكنا في الفضاء وحده، وقد يخطر ببال العالم حقيقة: هي إذا أرادت روحه أن تصل إلى مكان في الفضاء سواء أكان في جزيرة من جزائر المرجان، أم في سديم بعيد المدى، فإن المسافة التي يجب أن تقطعها، سواء أكانت قصيرة أم طويلة، تحتاج إلى زمان، فإن أمكن أن يكون سفره على شعاع من أشعة الضوء، فلابد أن يستغرق ألف سنة ضوئية ليصل إلى شمس قريبة نسبيا من شمسنا، ومن أجل ذلك نقول: إن الإنسان المقيد تقييداً شديداً بصلاته المادية البشرية بالبوصات والأميال وسنوات الضوء والزمان، يخيل له أنه لا يعقل أن توجد سعادة في الفضاء الأبيض الذي لا حد له،

ولا في الأبد الذي لا نهاية له.

وهنا يجيء إيحاء التصور الكامل، أننا على الأرض مرتبطون بكل شيء مادي وموثقون بكل تلك المقاييس التي تقدمت الإشارة إليها، وكيفما كان الأمر يجب أن نذكر أن تصورنا، كما تقدم، يتغلب فورا على المسافة وينقلنا إلى أي مكان، ويأتينا بالإلهام الذي يدنينا من الحقيقة، ويفتح أذهاننا لأنواع من الجمال تفوق الواقع، والآراء التي تتولد عن الأفكار يمكن أن تصبح حقائق مادية يدركها غيرنا، كما قد يحلم المهندس المعماري، ونضرب لذلك مثلا، الأهرام وتاج محل، أو ناطحة سحاب حديثة، وإذا صح أن الروح التي أصبحت خالدة، لا ترى إلا الحقيقة، فإن الروح تبصر الأشياء فورا بواسطة التصور الذي بلغ الكمال، والأفكار هي حقائق روحية خالدة، سواء تجسمت في شكل تمثال، أم تحدث بها أصحابها على أنها حقائق تحدث ثورة في الفكر البشري.

والعالم بأحوال الأرض (الجيولوجي) قد يتتبع بتصوره الروحي طبقات الأرض حتى يصل إلى جوفها الذي بلغ حد الذوبان من الحرارة، وما يراه هو العلاقة المحققة بين كل طبقة من الأرض وبين قشرتها، وقد تجلس روح الإنسان مطمئنة على شاطئ جزيرة من جزائر المرجان وأمواج البحر المتلاطمة تغني لها، وبتصورها الكامل يمكن أن تلاحظ الغازات المنحدرة من الشمس البعيدة، وقد يطوى الزمان فيراها من بداياتها السديمية ويتتبع تطورها حتى تبرد وتصير غير مرئية.

ولو أن روحا خالدة تستطيع أن ترى الأشياء كما هي، فإنها تستطيع أن تكتسب جميع الحواس الدقيقة المختلفة المتفرقة في جميع أنواع المخلوقات الحية، وبذلك تستطيع أن تدخل في ميادين جديدة عجيبة من المعرفة والخبرة والشعور، وحينئذ ترى — إن شاءت — الذرات وهي تكون نفسها جزيئات، والجزئيات وهي تبيد الجراثيم المغيرة، وربما تستمتع بموسيقي جديدة تتولد من اهتزاز الأثير غير المحدود من آلاف نغماتها المتجاوبة، وهناك ألوان هي أجمل وأزهي من أن تقدر على رؤيتها العيون البشرية، وهي تنتظر تطور مقدرتنا على الإدراك الذي يستوعبها، وهنالك أفراح لا نهاية لها تنتظر روح الإنسان بعد أن تتحرر من الجسد.

ولا ندري إلى أي حد تنتهي قوة التصور الكامل للإنسان إن أدرك ذلك في الحياة الأخرى، ولا يمكن أن نبحث هاهنا في القيود التى سوف تحمي حقنا المقدس في العزلة الفردية، وإنما نعطى هنا فكرة مجردة، كما لا يمكن أن نصف الجنة التي يتمناها كل فرد، ولكن يمكننا على الأقل أن ندعي أن هناك أجوبة عن مثل هذه المسائل التي يسأل عنها الناس.

إن الروح الخالدة التي لا يستطيع الزمن أن يمنعها، تستطيع أن ترى أحبابها وتضمهم إلى صدرها، ولما كان تصورها قد تكامل الآن تستطيع النفس إن ترى على الحقيقة الحق الأعظم، وهو الخالق سبحانه والجنة حيث أراد هو سبحانه أن تكون.

دعنا نعتقد أن تصورنا سوف يتكامل وأن نعلم علم اليقين أن الصم سوف يسمعون أصوات الجمال وراء أحلام البشر، وأن البكم سوف يتكلمون بكل لغة، وأن العمى سوف يبصرون كل عجيبة من عجائب خلق الله.

وهكذا يستطيع الإنسان بمقدرته الروحانية أن يدرك العظمة الربانية، وبتطوره الروحاني يزداد دنوا من معرفة جلال الله وقدرته ومجده.

**تعليقات:**

١- قوله: لا يقيم التصور اعتبارا لفكرة الزمن الخ ... جاء في الخبر أن على بن أبى طالب كان يضع رجله في الركاب ويقرأ القرآن كله قبل أن تستقر الرجل الأخرى في الركاب الآخر، وقد استشكل هذا بعضهم وأراد آخرون أن يجعلوه من باب خوارق العادات فلم يصب أحد منهما شاكله الصواب، وإنما ذلك من أسرار التصور، فكل حافظ للقرآن حفظا جيدا يستطيع أن يمر بفكره على القرآن من أوله إلى آخره في لحظة بواسطة التصور الذهني، ولو سألته عن كلمة كزيد مثلا أهي موجودة في القرآن أم لا لاستعرض القرآن أمام تصوره في لمحة واحدة وأجابك بنعم، أن هذا الاسم موجود في القرآن في سورة الأحزاب، في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا ﴾ أما الذي لا يحفظ القرآن فلا يمكن أن يجيب عن هذا السؤال حتى يقرأ القرآن من أوله إلى آخره ولا يتم له ذلك إلا في أيام كثيرة، وكذلك إذا كان ضعيف الحفظ، ولما كنت في جامعة بون مدرسا وطالبا سنة ١٩٣٦ اقترح رئيس القسم الشرقي في الجامعة الأستاذ باول كالي أن أترجم معه كتاب البلدان

في الجغرافية العالمية لمحمد ابن الفقيه البغدادي المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري فأخذنا في الترجمة وقال لي أتحفظ القرآن قلت: نعم، قال: إذا جاء شيء من القرآن في أثناء الكتاب فأخبرني به.

فصرت كلما ذكر المصنف شيئا من آيات القرآن أخبره به فيقول: هل تستطيع أن تجد ذلك في المصحف إذا جئتك به، فأقول: نعم، فآخذ المصحف وأوقفه على الآية في الحين فيقهقه ضاحكاً إعجاباً واستغراباً، ومن كلام الحافظ ابن حجر العسقلانى في شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية قوله: لقد جعل الله الأحاديث كلها لابن تيمية نصب عينيه يأخذ منها ما يشاء ويدع منها ما يشاء، وقال فيه أيضاً: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث. فقوة التصور وسعة الخيال من أسرار الروح العجيبة كما قال المؤلف، وتقدم قوله، إنما يراه النائم في منامه راجع إلى التصور والخيال واستمرار التفكر في قوت النوم، إلا أن سلطان الروح عند النوم يكون أقوى منه في اليقظة، فلذلك تتجسد الخيالات والأفكار وترى ببصر البصيرة، وليس كل ما يراه النائم من بنات فكره، فهناك أمور يلقيها الله تعالى إليه ويريه إياها لا حيلة له في إدراكها بالفكر، ومنها الأمور المغيبة التي يراها النائم فتقع كما يراها، وهذا شيء محقق ثابت متواتر عند الناس لا يمترى فيه إلا المادي الجاهل الذي انحصر علمه فيما يدرك بالحواس الخمس كالعجموات، وقد قسم النبي ﷺ الرؤيا إلى ثلاثة أقسام: تبشير، وهو من الله سبحانه، وتحزين، وهو من الشيطان، والقسم الثالث، ما يحدث الإنسان به نفسه في اليقظة، هذا معني حديث رواه أبو داود في سننه، وقوله، ما يحدث الإنسان به نفسه في اليقظة، هو الذي عبر عنه المؤلف باستمرار الفكر في حالة النوم، ولكن لا ينحصر ما يراه الإنسان في منامه في أفكاره، بل هناك أمور أخرى يريه الله إياها تبشيرا أو إنذاراً، وأمور يلقيها الشيطان تخويفا وتحزينا، وفتنة وإضلالا، وقد علمنا النبي ﷺ وهو طبيب القلوب والأرواح علاجا ناجعا يقينا شر الأحلام ويعرفنا بما ينفعنا من رؤيا المنام، فمن ذلك الحديث المتقدم الذكر، ومنه أنه عليه السلام قال: إذا رأى أحدكم ما يكره فلينفث عن يساره ثلاثا ثم يقول: اللهم إني أعوذ بك من شر ما رأيت أن يضرني في ديني ودنياي، ولا **يقص ما رأي على أحد فإنه لا يضره، وأمرنا إذا رأينا رؤيا صالحة أن لا نقصها على جاهل** أو مبغض لنا، والحكمة في ذلك والله أعلم، أن الجاهل يفسرها ويخطىء في تفسيرها فيضر

من حيث أراد أن ينفع، وأما المبغض فإنه يؤولها تأويلا سيئا على عمد ليسوءنا ويحزننا، فإذا سمعنا منه ذلك توقعنا شرا وصرنا نرتقبه حتى إذا أصابنا شيء من مصائب الدنيا، وهي كثيرة، قلنا هذا هو الذي أخبرنا به فلان، على أن توقع الشر في حد ذاته شر كبير، ومن أجل ذلك نهانا رسول الله ﷺ عن إتيان الكهان والعرافين، ففي الحديث «**من أتي عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»، وفي حديث آخر: «**لم تقبل له صلاة أربعين يوما**»، وقال النبي ﷺ : «**ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن، أو تكهن له**»، وقال رسول الله ﷺ: «**الطيرة شرك**»، والطيرة هي التشاؤم برؤية الأشخاص أو بعض أنواع الحيوان كالغراب والكلب الأسود أو بما يسمعه الإنسان من الكلام، أو بالأيام والشهور وغير ذلك مما هو كثير ومشهور، يفتك بعقول الشعوب التي فشا فيها الجهل، ومن ذلك ما سمعته من أهل تطوان أن كثيرا من جهالهم لا يشترون مكنسة في شهر صفر ويعتقدون أن من أدخلها بيته في ذلك الشهر تكنس أهله وماله، وأخبرني البشير بن محمد وهو أغني رجل في مدينة المشرية بالجزائر أن له عبدا أسود تركه له أبوه وهو مشئوم جدا في اعتقاده كلما رآه في الصباح وكان أول من رآه من أهل بيته تصيبه مصيبة في ذلك اليوم، قال فإنا لذلك إذا قمت من النوم صباحاً أخرج مغمض العينين ولا افتحهما إلا إذا سمعت صوتا غير صوته فإن سمعته هو لم أفتح عيني حتى لا ألقي غيره فافتحهما عليه، ثم بعد ذلك لا تضرني رؤيته إذا رأيته، ولا يتسع المقام لذكر ما يقع للناس من هذا القبيل، ولا نجاة للناس من شرور الأوهام والخيالات والوساوس إلا بمعرفة سنة النبي والتمسك بها، ثم ذكرت الآن حكاية ترجح عندي ذكرها ولو أفضت إلى التطويل والملل لما فيها من الفائدة لبعض القراء على الأقل، توجد ناحية في بغداد اسمها الوزيرية فيها السفارة المغربية وغيرها من السفارات، ويقال إنها أرض مغضوبة ومشؤمة، بني فيها أحد أخواننا قصرا أنفق على بنائه مالا كثيرا ثم انتقل إليه هو ووالداه وأخوته وأهل بيته فأصيب بالأمراض وغيرها من المصائب وتشاءموا بسكناهم في الوزيرية فجاءني وشكي إلى ذلك، فقلت له: هذا من الوساوس والطيرة وهي شرك وعلمته دعاء علمنا إياه رسول الله ﷺ وأمرنا أن ندعو به إذا وقع في أنفسنا شيء من التطير وهو: «**اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**». فتعلمه وعلمه أهل بيته وصاروا يدعون به، فبعد شهرين جاءني وأخبرني أنهم

استقروا واطمأنوا وشفاهم الله وذهب ما كانوا يجدون في أنفسهم.

٢- قوله في الروح والجنة الخ ... قال الله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وما أضل المفكرين إلا أنهم يقيسون كل ما لا يعلمونه على ما يعلمونه كأن العلم منحصر في ما وصلوا إليه: ولو وصف شخص الكهرباء وأعمالها والإذاعة فضلا عن القنابل الذرية والصواريخ والأقمار الصناعية التي تسبح في الفضاء الخارجي، بل مركبات الفضاء التي يدور بها الراكب على الكرة الأرضية فيرى الشمس في شروقها وغروبها في كل تسعين دقيقة، لو أخبر بذلك شخص قبل هذا الزمن لرجمه الناس بالحجارة أو أدخلوه إلى مستشفي الأمراض العقلية، مع أن هذه الأمور وقعت في عالمنا هذا.

**وقل لمن يدعي بالعلم معرفة ... علمت شيئا وغابت عنك أشياء**

والتكذيب سهل لأنه جهل، ومن كان مرتبطا بالأرض والشمس لا يستطيع أن يفكر إلا تفكيرا موثقا مقيدا بالمكان والزمان، كيف يستطيع أن يحكم بجهله على عالم آخر ليس مقيدا بما يقيد به هو، لا جرم أن من فعل ذلك سد على نفسه باب العلم والمعرفة وبقي مسجونا في ظلمات جهلة.

٣- قوله الأهرام وتاج محل وناطحة سحاب حديثة: الأهرام من آثار الفراعنة، وقد عجز من بعدهم من الدول عن هدمها فكيف ببنائها، وتاج محل قصر من آثار ملوك المغول في الهند بلغ الغاية في الجمال الفني والإتقان يزوره الناس من البلدان البعيدة، وناطحة سحاب القصور العصرية الشاخة في أمريكا.

### المصادفة لا علاقة لها البتة بإيجاد العالم

إن نظرة فيما تقدم مصحوبة بالإمعان توضح للقارئ، وتؤكد له ملاءمة الطبيعة للإنسان، على أن انعدام تلك الملاءمة يجعل الحياة مستحيلة، وكذلك المسائل الأخرى التي انجر البحث إليها تؤكد تلك الحقائق البارزة في الطبيعة وتدل على أن منهاجًا محكمًا قد وضع لتقدم الإنسان، ويرى أدلة قوية تدل على هذا التدبير المقصود وراء كل شيء، إن الحقيقة المدهشة الماثلة للعيان، وهي أن الإنسان قد عاش على رغم التقلبات التي مر بها في ملايين سني تطوره تتحدث عن نفسها، لقد علمنا يقينا أن العالم موضوع في مكانه المناسب له، وأن قشرة الأرض قد رتبت إلى غاية عشرة أقدام، وأن المحيط لو كان أعمق مما هو عليه بضعة أقدام لما وجدنا أوكسجينا ولا نباتا. ووجدنا أن الأرض تدور مرة في كل أربع وعشرين ساعة، وأن هذا الدوران لو تأخر لما أمكن وجود الحياة، ولو زادت سرعة دوران الأرض حول الشمس أو نقصت لتغير تاريخ الحياة، هذا إذا وجدت حياة بالمرة، ووجدنا أن الشمس هي الوحيدة من بين آلاف الشموس. التي جعلت حياتنا على الأرض ممكنة. ووجدنا أن حجمها وكثافتها ودرجة حرارتها وطبيعة أشعتها يجب أن تكون كلها مناسبة، وقد كانت، ووجدنا أن الغازات التي في الهواء قد رتب بعضها على بعض، وأن أي تغير في ترتيبها، ولو كان طفيفا، يكون فيه الهلاك المحتم، هذا قليل من كثير من العوامل الطبيعية قد نبهنا القارئ إليه.

وإذا نظرنا إلى حجم الأرض، ومكانها في الفضاء وإحكام نظامها، يظهر لنا أن اعتبار ذلك النظام واقعا على سبيل المصادفة يكون نصيبه من الإمكان واحدًا من مليون، ونصيب جميع الأنظمة العالمية في إمكان الوقوع على سبيل المصادفة أقل من نسبة واحد إلى بلايين، فوجود هذه النتيجة الحتمية، وهي أن موافقة الطبيعة للإنسان هي أعجب بكثير من موافقة الإنسان للطبيعة، إن نظرة دقيقة في عجائب الطبيعة تقيم البرهان على أن هذه العجائب وهذا النظام البديع، كل ذلك ناشئ عن قصد وتقدير حكيم وتدبير عظيم، وبذلك نعلم أن منهاجاً دقيقا ينفذ بتفاصيله بأمر الخالق الأعلى. وقد يستطيع الإنسان أن يرى في هذا المنهاج سلسلة من الحوادث في تطور الكائنات الحية حتى انتهت في نتيجتها إلى منح الحياة للحيوان،

وتطوره إلى الإنسان، ولم يزل الإنسان في جميع الأزمنة يسير وزمام سيره في يد العناية الربانية، فدعنا نعتقد إذن أن العناية الربانية بإرشادها وهدايتها تحيط بالإنسان في جميع أطواره، وقد تطور المنهاج إلى مباءة قادرة أن تحافظ على مخلوق جسمي يشتمل على عقل واعٍ.

ولما كانت عقولنا محدودة، لم يكن في إمكاننا أن ندرك ما هو غير محدود، ولذلك لا نقدر إلا أن نؤمن بوجود الخالق المحيط بكل شيء، الذي خلق كل شيء وشمل إبداعه الذرات والكواكب والشموس والسدم (جمع سديم) والزمان والمكان هما عنصران في هذا الإدراك. إن محاولة إدراك حقيقة كنه الباري جل جلاله لتحير أذكى الأذكياء، وكذلك لا يمكننا أن نعتقد أن الإنسان هو الغرض الوحيد أو النهائي، ولكن يمكننا أن نرى أن الإنسان أعجب مظهر لهذا الغرض، على أننا لسنا مضطرين أن نفهم ذلك كله حتى نتقدم كثيراً وزيادة المعرفة تشير إلى تلك النهاية، إننا نقرب من إدراك عالم المجهول الشاسع، حين نتحقق أن المادة كلها صارت من الوجهة العلمية مظهراً لوحدة عالمية، هي في حقيقتها كهربائية، لكننا نعلم يقينا أن المصادفة لا علاقة لها البتة بإيجاد العالم، لأن هذا العالم العظيم واقع تحت حكم قانون دقيق.

إن ارتقاء الإنسان إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده، هو خطوة من أجل أن تتم عن طريق التطور المادي، من دون قصد إنشائي وتدبير حكيم، وإذا قبل تحقيق القصد، فإن الإنسان قد يكون جهازاً، ولكن من يدير هذا الجهاز؟ لأنه بدون أن يدار لا فائدة فيه، والعلم لا يعلل من يتولي إدارته، كما أن العلم لا يقول أنه مادي.

إننا قد بلغنا من التقدم إلى درجة تجعلنا نرى أن الله وهب الإنسان قبسا من علمه، ومن ذلك القبس وفي معناه يمكننا أن نفهم أن الله خلق الإنسان على صورته، ولا يزال الإنسان من الوجهة الخلقية في طفولته، وقد بدا يشعر بهذا الشيء الذي يسميه روحا، وهو يرقي في تدريج وبطء ليتحقق هذه الهبة، ويشعر بغريزته أنها خالدة، وإذا كان هذا الفهم صحيحا، ويظهر لنا أن البرهان المنطقي الذي يبينه لا يمكن دحضه، فإن هذه الكرة الأرضية الصغيرة التي هي لنا، وربما كان لنا غيرها أيضا، تكتسب عظمة لم يحلم بها أحد من قبل. وعلى قدر ما نعلمه، نرى أن عالمنا الصغير قد تولد منه أول جهاز مادي أضيف إليه قبس من نور الله،

وهذا يرفع الإنسان من دركة الغريزة الحيوانية إلى درجة القدرة على التفكير، الذي يمكنه من إدراك عظمة هذا الكون في اشتباكاته. ويشعر شعوراً لا يخلو من غموض بعظمة الخالق الأعلى ظاهرة في أفعاله.

**تعليقات وإيضاح**

١- قوله: وإن المحيط لو كان أعمق... الخ: هذا برهان من جنس ما تقدم، على أن هذا العالم صادر عن قصد ومنهاج وتدبير في غاية الدقة والإحكام، وهذا هو الذي عبر عنه الكتاب والسنة بكتابة الله تعالى للأشياء في الأزل وأشير إليه بقول النبي ﷺ : «جفت الأقلام وطويت الصحف»، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾. والجاهلون يظنون أن العالم وجد بطريق المصادفة بلا علم سابق ولا تدبير ولا منهاج، وهذه الحقائق تكذبهم وتبطل زعمهم، وهي مبنية على طرق حسابية دقيقة لا محل فيها للمصادفة، فمن يزعم أن هذه المخلوقات المحكمة الصنع من الشعري إلى أدنى ذرة قد وجدت بالمصادفة يكون أجهل ممن يعتقد أن شخصا أعمى يقود طائرة فيها ركاب ويسير في الطريق المرسوم له وينزل في المطارات المعينة له ويودع ركابا ويستقبل آخرين ثم يستأنف سفره إلى أن يبلغ غايته، وقوله: لما وجدنا أوكسجينا ولا نباتا: يستلزم انعدام الحياة كلها، ومثل هذا يقال فيما بعده من الحقائق، فهل يستطيع المرتدون تقليدا وتوهما أن يبطلوها؟ لن يستطيعوا ذلك أبدا، فليرجعوا إلى الإسلام فقد ظهرت معجزاته في الآفاق، وأشرقت أنواره أيما إشراق، فإن لم يرجعوا فأبعدهم الله:

**إذا ذهب الحمار بأم عمرو ... فلا رجعت ولا رجع الحمار**

٢- قوله: يكون نصيبه من الإمكان واحدا من مليون: يعني أن احتمال وقوعه يساوي واحداً من مليون، فتسعمائة ألف وتسعة وتسعون ألفا وتسعمائة وتسعة وتسعون كلها في جانب عدم الإمكان، وواحد فقط في جانب توهم الإمكان، ولا عاقل يرجح واحدا على ذلك العدد العظيم، وقد تكرر هذا المعنى في هذه المقالات وضربت فيه الأمثال فاقرأها بإمعان وتفكير من أولها تجد الثلج واليقين الذي لا يتطرق إليه الشك بأن الله خالق كل شيء ومدبره.

٣- قوله: حتى انتهت في نتيجتها إلى منح الحياة للحيوان وتطوره إلى إنسان: يشير بذلك إلى مذهب النشوء والارتقاء، ونحن لا نقول به، وإنما نقول بما جاء في كتاب الله، وهو أن الله خلق الإنسان ابتداء في أحسن صورة وكرمه بالعقل الذي جعله سيداً حاكماً مطاعاً يتصرف في غيره من المخلوقات كالحيوان والنبات والمعادن وسائر المواد الكونية، ولم يتطور عن الحيوان الأعجم، فإن الحيوان لا يصير إنساناً، ولكن الإنسان قد يصير حيواناً عندما يتبع هواه ويترك عقله، ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾. هذا مع احترامنا لرأي المصنف، على أن هذه القضية لا تزال غامضة من الوجهة العلمية ولا تتجاوز الفرض والحدس والتخمين.

٤- قوله: ولما كانت عقولنا محدودة ... الخ. هذا كلام في غاية الحكمة والتحقيق، تقدمت الإشارة إليه في المقالات السابقة، ومما يوضحه أن الإنسان مرتبط بالأرض وهي مكانه وأمه، وبالشمس ومنها بإذن الله حياته ومنها زمانه، فهو مقيد بالزمان والمكان، فكيف يستطيع أن يدرك ما لا يتقيد بزمن ولا مكان من المخلوقات، فضلا عن إدراك حقيقة خالق الزمان والمكان. فالمحدود المقيد، معرفته محدودة مقيدة.

٥- قوله: وكذلك لا يمكننا أن نعتقد أن الإنسان هو الغرض الوحيد أو النهائي .. الخ: صدق. لقد صرح القرآن الكريم بما يدل على ذلك قال تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾.

٦- قوله: إن الله خلق الإنسان على صورته: جاء في الحديث الصحيح «**إن الله خلق آدم على صورته**» ، وأحسن ما قيل فيه ما أشار إليه المصنف وهو أن الله أهله لحمل الأمانة بأن وهبه العقل والسمع والبصر وأعطاه العلم الذي به فضله على كثير ممن خلق تفضيلا، إلا أن علم الله ليس له أول ولا آخر ولا يعزب عنه مثقال ذرة ولا يعتريه النسيان، وهو كسائر صفاته غير مخلوق وعلم الإنسان مخلوق.

٧- قوله: ولا يزال الإنسان من الوجهة الخلقية في طفولته .. الخ: لاشك عند المسلمين أن الأنبياء والرسل هم أكمل البشر علما وعملاً وأخلاقاً ، ولكنهم لا يحيطون بعلم الله، وإنما يعلمون ما علمهم، فينبغي أن يحمل كلام المصنف على المعلومات الكونية

التي لا تتوقف عليها سعادة البشر، ولما ضعف إيمان الإنسان وطغت عليه المادة العمياء الصماء تفضل الله عليه بأن كشف له من السنن الكونية والآيات ما يهديه به إلى توحيده وتسبيحه وتمجيده والتمسك بدينه. كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية.

٨- قوله: وربما كان لها غيرها أيضا: يشير إلى ما يطمع فيه علماء الكون في هذا الزمان من الوصول إلى الكواكب والاستمتاع بها والله واسع عليم.

٩- قوله: أول جهاز ... الخ: يريد به الإنسان لأنه مركب من جسد وروح.



## المصادفة

قال المصنف في الفصل السادس عشر: إن القول بالمصادفة ظاهرة الشذوذ لا يقبله العقل ولا يخضع لأي طريق من طرق الحساب، لكن مع كوننا مدهوشين لمفاجآتها، لا نشك أنها خاضعة لقانون صارم لا يتخلف أبدا، وقد تقدم في أول الكتاب مثل وضع عشرة أفلس في كيس مرقومة بأرقام من واحد إلى عشرة، وأنك إذا وضعتها وهززته حتى اختلط بعضها ببعض ثم أدخلت يدك آملا أن تقع على رقم واحد تكون فرصة نجاحك واحدا من عشرة، أي عشرة في المائة، وإذا نجحت ثم أدخلت يدك مرة أخرى مؤملاً أن تقع على رقم اثنين يكون حظك من النجاح واحدا من مائة، وهكذا فلا تصل إلى العاشر حتى يكون حظك من النجاح واحدا من بلايين تفوق الحصر، والآن أضرب لك مثلاً آخر، افرض أن عندك كيساً يحتوى مائة قطعة من الرخام، تسع وتسعون منها سود، وواحدة بيضاء، هز الكيس هزاً عنيفاً ثم أخرج واحدة، فحظك من النجاح أن تقع يدك لأول مرة على القطعة البيضاء يكون واحداً من مائة، ولو فرضنا أنك نجحت ثم رددت القطعة البيضاء إلى الكيس وهززته مرة أخرى حتى اختلطت القطع ثم أدخلت يدك مؤملا أن تقع على القطعة البيضاء للمرة الثانية على التوالي، فإن حظك من النجاح يكون واحدًا من عشرة آلاف، وإذا أدخلت يدك للمرة الثالثة يكون حظك من النجاح ثلاث مرات على التوالي واحداً من مليون، ثم جرب مرة أخرى أو مرتين فإن حظك من النجاح يرتقي إلى الحساب الفلكي، يعني إلى بلايين لا نهاية لها.

وبذلك ترى أن نتائج المصادفة مضبوطة بقانون دقيق، كما أن الواحد نصف الاثنين، والاثنين نصف الأربعة.

ثم ضرب المصنف مثلاً آخر ببطاقات اللعب يشبه ما تقدم، وحاصله أنك إذا خلطت بطاقات اللعب وأدخل كل لاعب يده في وعائها وأخرج البطاقات التي تنوبه على سبيل المصادفة فإن ذلك يكون مستحيلاً لم يحدث قط منذ اخترعت هذه اللعبة.

ثم ضرب المصنف مثلاً آخر برجل ماهر في اللعب احضر طفلاً صغيراً لا يعرف هذه اللعبة ولعب معه وبعد أربع وثلاثين حركة صدرت من الطفل كما لو كان لاعباً ماهراً

وغلب والطفل ذلك اللاعب لكان ذلك في غاية الاستحالة والبطلان.

وأكرر القول: إن قصدي بهذا المبحث في المصادفة أن أقيم البرهان الذي لا ريب فيه وأن استرعي انتباه القارئ بطريقة علمية واضحة إلى أن جميع مقومات الحياة لا يمكن البتة أن توجد على كوكب واحد في وقت واحد بالمصادفة المجردة.

وتوضيح ذلك أن نقول: إن حجم الأرض ومسافة بعدها من الشمس، ودرجة حرارة الشمس، وأشعتها الباعثة للحياة، وغلظ قشرة الأرض ومقدار الماء، ومقدار ثاني أوكسيد الكربون وحجم النتروجين ووجود الإنسان وبقاءه على قيد الحياة، كل ذلك يدل على وجود القصد والتدبير والنظام الدقيق المضاد للفوضى وأن ذلك مضبوط بقوانين حسابية لا محل فيها للمصادفة ولا يمكن احتمالها، ولو مرة في بليون مرة، وإذا اعترفنا ولابد لنا من الاعتراف، فهل يعقل أن نؤمن ولو في مرة من بليون مرة مع ما أوتينا من عقل ونصدق أن وجودنا ووجود سوانا في هذا العالم الفسيح المحكم الصنع حدث على سبيل المصادفة.

لقد وجدنا أن تسعمائة وتسعة وتسعين وتسعمائة وتسع وتسعين وتسعمائة وتسعة وتسعين ٩٩٩,٩٩٩,٩٩٩ ثلاث مرات في مقابلة واحدة ضد الاعتقاد بأن جميع الأشياء وجدت على سبيل المصادفة، والعلم لا ينكر هذه الحقائق كما بيناها: وعلماء الحساب يعترفون بأن هذه الأرقام صحيحة، والآن تقابلنا مقاومة عنيفة عنيدة من قوم أصروا على أفكار استقرت عندهم.

لقد كانوا اليونانيون القدماء يعرفون أن الأرض كروية الشكل، ولكن مدة ألفي سنة قد مضت قبل أن يؤمن الناس بهذه الحقيقة ويصدقوها.

إن كل فكر جديد لابد أن يلقي إنكاراً وسخرية وذما، ولكن الحق يعيش ويرسخ وإن جحد الجاحدون.

لقد انتهت المخاصمة ورفعت القضية إليكم أيها الحكام ونحن في انتظار ما تحكمون به واثقين مطمئنين بإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

**تعليقات:**

١- قوله: وأكرر القول أن قصدي بهذا المبحث في المصادفة الخ .. أقول: هذا الفصل هو خلاصة فصول الكتاب كلها، ومن قرأ هذه المقالات بإمعان وفهمها يصير الإيمان بالله أنه

الخالق البارئ المدبر لشؤون هذا الكون عنده معلوماً بالضرورة ولا يشك فيه أبداً، إلا إذا عمي وصم وترك عقله جانباً وجحد ما يعلم أنه حق فهذا يخادع نفسه ويكذب حسه فلا يستحق الخطاب لأنه من شرار الدواب ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ وقد حثنا الله سبحانه على النظر في كتابه العزيز في غير ما آية، وتقدمت الإشارة إلى بعض ذلك ونعيد شيئاً منه فنقول على سبيل التنبيه، قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ ، وأمثال هذه الآيات الداعية إلى النظر وأعمال الفكر الموصل يقينا إلى الحقيقة، وهي الإيمان بالله على طريقة الراسخين في العلم الموقنين كثيرة، أما من امتنع من النظر واستعمال العقل الذي هو من أعظم النعم، بل هو أعظمها لأنه الموصل إلى المعرفة التي هي طريق السعادة فلا حيلة فيه فنذره يعمه ويتخبط في ضلاله، وأكثر الكافرين في هذا الزمان عموما وخصوصا في البلاد الإسلامية، إنما كفروا تقليدا لمن ظنوا أنه بلغ درجة العصمة في أوج المعرفة، فمثلهم كمثل القرد مع النجار حين أراد محاكاته في نشر الخشبة فدخل ذنبه في شقها وانطبقت عليه وبقي محبوساً حتى جاء النجار فضربه ضربا شديداً فكان ما لقي من النجار أشد عليه مما لقيه من انطباق الخشبة على ذنبه، ومن الغريب أنك تراهم يندّدون بالمستعمرين ويصفونهم بالخداع والقسوة والإمعان في التوحش ثم يقلدونهم تقليدا أعمى في رذائلهم ولا يقلدونهم في فضائلهم، فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور، فلا المقلد بالكسر ولا المقلد بالفتح يستطيع أن يجيب عن شيء من البراهين العقلية بله النقلية التي أودعناها هذه المقالات، فهما بين أمرين: الجهل أو الجحود، فليختر أحدهما وما فيهما خير لمختار، فقد ثبت بالبراهين التي لا تقبل الريب أن الحياة إنما وجدت على وجه الأرض بالعناية الربانية والقدرة الكاملة والعلم والحكمة التامة التي تحيرت فيها عقول المخلوقين وعنت لها وجوه الباحثين والمفكرين، وظهر أن دعوى المصادفة حديث خرافة، وجهل وسخافة، كطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

٢- قوله: ولا يمكن احتمالها ولو مرة في بليون مرة: حجة قاطعة يسلمها كل ذي عقل بإعجاب واطمئنان، وقد تقدم تفصيل ذلك في تضاعيف هذا الكتاب الذي هو غذاء للألباب.

٣- قوله: لقد كان اليونانيون القدماء يعرفون أن الأرض كروية الشكل، ولكن مدة ألفي سنة قد مضت قبل أن يؤمن الناس بهذه الحقيقة ويصدقوها، أقول: هذا في أمريكا بلاد المصنف وفي أوروبا، أما في بلادنا فلا يزال خلق كبير لا يصدقون بذلك، وبعض من يدعي علم الدين يزعم أن القرآن مصرح بأن الأرض ليست كرة جهلا منهم، لا بما أدركه العلماء اليونانيون منذ ألفي سنة فقط، بل بما حققه علماء الإسلام منذ ألف سنة، نذكر منهم الشيرازي والغزالي وابن رشد وابن تيمية وابن القيم، وقد حدثت لي في هذه المسألة قصة طريفة اتحف بها القراء كنت في سنة ١٣٤٦ مراقبا للمدرسين في المسجد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام، فزار المدينة الشيخ عبد الله بن بليهد ونزل في ضيافة الحكومة في دار مجاورة للمسجد النبوي، وهو إذ ذاك رئيس القضاة في البلاد السعودية، فذهبت لزيارته وكان معي رفيقي وصديقي القديم الأستاذ الشيخ محمد بن عبد الرازق المصري أصلا، الحجازي مهاجرا وسكني، وهو من خيرة العلماء السلفيين، وكان في ذلك الوقت خطيبا في المسجد النبوي ومشاركا لي في المراقبة، فلما جلسنا في مجلسه دعا لنا بالقهوة التي تشرب بلا سكر، وهي تحية كل زائر في بلاد العرب، ثم سأل عن حالنا فأجبناه بخير وشكرنا ملاطفته، ثم قال لنا: أريد أن أسألكما عما يعتقده أهل الأمصار، يعني أهل المدن الكبرى في البلاد الإسلامية من زعمهم أن الأرض كرة، وأنتما قد خالطتماهم فما هي شبهتهم في هذه الدعوى، فقلنا له: إنهم يستدلون بأدلة عديدة أقواها عندهم اختلاف الليل والنهار، فإن الشمس كل وقت تطلع على قوم وتغيب عن آخرين، وإذا كانت غائبة في بلد فهي طالعة في بلد آخر، وهذا أمر مشاهد ومعلوم، ومن أدلتهم أن المسافر في البحر يرى نفسه دائما في دائرة وإذا رأي سفينة من بعيد فأول ما يشاهد منها رؤوس الصواري، ثم يشاهد مداخنها، ثم تنكشف كلها، وحتى في البر، أول ما يشاهده المسافر من المدينة رؤوس المنارات والأبراج. قالوا: ولو كانت الأرض كلها على شكل بساط لظهرت الشمس لأهل الأرض كلهم في وقت واحد وغابت عنهم في وقت واحد، ومن أدلتهم على ذلك أننا لا نرى من الشمس والقمر

والكواكب إلا نصف دائرة، فلابد أن النصف الآخر وراء نصف الكرة الأخرى، ونشاهد كل طالع كأنه خارج من الأرض، وكل غارب كأنه داخل فيها، ولم نرد أن نقول له إن كثيرا من الناس قد داروا حول الأرض فتوجهوا إلى الشرق واستمروا على ذلك حتى رجعوا إلى بلدهم من جهة الغرب لعلمنا أن عقله لا يتحمل ذلك أبدا، ومع ذلك غضب علينا غضبا شديدا، وقال لنا: أتركا هذه العقيدة فإنها فاسدة وباطلة وإن أصحابها زنادقة لا يريدون بها إلا أن ينكروا استواء الله على عرشه ثم يجحدون وجوده، فقلنا له: نحن لم نقل ذلك إننا نعتقد هذه العقيدة، وإنما سألتنا عن أدلة القائلين بها فأخبرناك، فقال: بلى إنكما تعتقدانها، فعلمنا حينئذ أن المدرسين قد اشتكوا إليه وأخبروه بما دار بيننا وبينهم من بحث في ذلك، وحينئذ رمقتنا أبصار الحاضرين باحتقار وازدراء وأخذوا يسخرون منا ويقول بعضهم لبعض: ما أسفه القائلين بهذه العقيدة وأضعف عقولهم، لو كانت الأرض كرة كما يزعمون لكانت رؤوسنا إلى أسفل وأرجلنا إلى فوق، ولماذا لا تسقط هذه الجبال والأحجار والصخور، ولماذا لا تنصب البحار في الهواء وما أشبه ذلك، فسكتنا ولم يبق لنا قول وأذعنا لصولة الجهال، وكان ذلك في رمضان، فطلب منا الشيخ أن نفطر معه كل يوم، أما أنا فلم أعد إليه، وأما صاحبي فكان يتردد عليه، غير أني قرأت الرسالة العرشية لشيخ الإسلام ابن تيمية التي أقام فيها الدليل والبرهان القاطع على كروية الأرض وجميع الأجرام السماوية، ومما قاله فيها: إن جهات الأرض كلها فوق وليس فيها تحت، وإنما التحت هو بطن الأرض أي مركزها ووسطها، قال: فلو ألقيت حجرا بالمشرق وحجرا بالمغرب فنزلا في الأرض ولم يجدا مانعا لاجتمع الحجران في وسط الأرض، ولو جعلت بدل الحجرين إنسانين لالتقت أقدامهما في المركز، فخططت على ذلك بخطوط حمر، وبعثت الكتاب إليه فازداد غضبا وقال لمن حضر عنده: ألا تعجبون من الهلالى يريد أن يعرفني بما في كتب شيخ الإسلام، وأنا لم أزل أدرسها منذ طفولتي وأكاد أحفظها عن ظهر قلب، إن كلام شيخ الإسلام عال لا يستطيع الهلالي أن يفهمه، ثم أخذت أطالع كتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم، فوجدته قد صرح بأن الأرض كرة وعلل ذلك باختلاف الليل والنهار فبعثت إليه الكتاب مع رفيقي الشيخ محمد بن عبد الرازق، فلما قرأ كلام ابن القيم فكر طويلا ثم قال له: أما الجهة التي نحن فيها فهي سطح نشاهده بالعيان، فإذا كانت الجهة الأخرى كرة فلا أدرى،

وبعد ذلك لقيت الشيخ محمد بن عبد اللطيف وهو كبير علماء آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب في ذلك الزمان، فقال لي قد بلغني ما جري بينك وبين ابن بليهد وهو مخطئ فيما زعم فتحت يدي ثلاث رسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية كلها تشهد بكروية الأرض، وإنما قلت لك هذا لكيلا تظن أن جميع علماء المملكة السعودية يرون رأي ابن بليهد في هذه القضية، وهذا الشيخ أعني ابن بليهد كان آية في الأدب العربي وعلوم الدين وكان طاعنا في السن، ولكنه يستحضر كلما قرأه بألفاظه غالبا، فيقول مثلا قال المؤلف الفلاني في الكتاب الفلاني في الصفحة الفلانية ما نصه ويمليه من حفظه، أما ما عدا ذلك فلم يكن له به علم، ورأيت رجلا آخر يشبهه في علم الأدب وحفظ نصوصه، وهو السيد عبد الله بن سعيد السلوى فكان لا يسمع بحادثة إلا تمثل بأبيات وأمثال للعرب متعددة، وأخبرني أن والده ألزمه أن يحفظ كتاب نفح الطيب وهو أربعة من المجلدات ، فقال فحفظته، والسيد عبد الله بن سعيد السلوى هو أول وطني في المغرب وأول مقاوم للاستعمار حين كان المغاربة في غمرة ساهين وكان جمهورهم يعتقد أن مقاومة الفرنسيين كمقاومة البشر للعفاريت أو الأقزام للعمالقة، وقد جاهر بمقاومته فنفاه ليوطي من بلده سلا إلى وجدة، وفيها كنت أتردد عليه وكان يسر بلقائي، وإذا أبطات عليه يرسل في طلبي فرحمة الله عليه. وفي يوم من الأيام قال لي قاضي القضاة بشر السيد عبد الله بن سعيد بأني تحدثت في قضيته مع المراقب المدني فوعدني بأنه سيسعي في إصدار العفو عنه فما عليه إلا أن يكتب كتابا إلى المرشال اليوطي يطلب فيه العفو. فذهبت إليه وأخبرته بذلك فتبسم وقال لي قل له : إني أتأسف عليك أن ترضي بمثل هذا لنفسك أو لأحد من المواطنين. ماذا أقول في هذا الكتاب؟. أأقول إني مذنب التمس العفو من أجنبي مغتصب لا حق له في الاستيلاء على وطننا ولا في الحكم فيه. فضلا عن أن يكون له حق في نفي لأني أبيت الخضوع والتملق للمستعمر الظالم فاليوطي هو الذي يجب عليه أن يطلب العفو مني لأنه أعتدى على واغتصب أرضي ثم نفاني من بلدي». قال ولقد كتبت احتجاجا إلى رئيس جمهوريتهم في كراس وبعثته في البريد فلم يتركوه يصل إليه ولن اخضع لعدو مغتصب أبدا. وعلمت بعد ذلك أن اليوطي زار وجدة ومر بباب داره فأشير عليه أن يخرج إليه فأبي:

**ذي المعـــالي فليعلـــون مـــن تعـــالى     هكـــــذا هكـــــذا وإلا فـــــلا لا**

## خاتمة في مقابلة ما جاء في التوراة

## من صفة خلق السموات والأرض بما وصل إليه علم الباحثين

تحت مجمل هذه الترجمة عقد العالم الأمريكي كريسى مورسن الفصل الأخير من كتابه «ليس الإنسان مهملاً» وذكر في هذا الفصل مقابلة بين ما جاء في الفصل الأول من نص التكوين في صفة خلق السموات والأرض، وبين ما وصل إليه علم الباحثين، فظهر له أن ما في التوراة من ذلك مطابق لنتائج البحث العلمي غاية المطابقة، ولما كان المسلم مؤمنا بجميع ما أنزل الله من الكتب وطالب حق وحكمة حيث ما وقع عليها التقطها، رأيت أن أعرض ترجمة هذا الفصل الأخير من كتاب مورسن كما عرضت الفصول السابقة وأعلق عليه بما يفتح الله به كما فعلت فيما سبقه.

قال المصنف المذكور: يحتوى الفصل الأول من سفر التكوين على حكاية بدء الخلق على حقيقتها وكل ما اكتسبه الإنسان من العلم والمعرفة لم يستطع أن يغير شيئا من حاصل تلك الحكاية منذ كتبت إلى الآن، وهذا القول سيحمل العالم على ابتسامة تدل على عدم اهتمام، وتحمل المؤمن الصادق على الرضا والاطمئنان والاختلافات التي وقعت بين ما في التوراة وما وصل إليه العلم إنما هي في تفاصيل لا يعبئون بها، والآن دعنا نفحص الحقائق كما جاءت في ذلك الفصل المهم من التوراة.

(في البدء خلق الله السموات والأرض، وكانت الأرض غير مدحوة وخالية) ، هذا يدل على ما كانت عليه الأرض قبل دحوها (المراد بالدحو، البسط والإعداد لسكني الإنسان والحيوان).

(وكانت الظلمة على وجه الغمر) معني ذلك كما يراه العالم الفلكي: أن معظم البحور المحيطة كان في الجو على شكل سحاب كثيف لا يمكن أن يخترقه الضوء ليصل إلى الأرض.

(وقال الله ليكن نور فكان نور) ، شرحه: انقشعت السحب وتلاشت، وبردت الأرض، ونتج عن دوران الأرض وجود الليل والنهار.

(وقال الله ليكن رقيع في وسط المياه) شرحه: ومن بين المياه التي كانت تغطى وجه الأرض كله، ارتفعت القارات وظهرت الأرض اليابسة، ونشأ الهواء فوق الأرض.

(وقال الله لتخرجن الأرض نباتا، عشبا يحصل منه بزر) شرحه: لاحظ أن النبات ذكر قبل حياة الحيوان.

(وخلق الله نورين عظيمين، وخلق الكواكب أيضا) ، شرحه: وصارت الشمس والقمر من خلال السحب، ولما انقشعت السحب انقشاعا تاما، ظهرت الكواكب (أيضا).

(وقال الله لتخرج المياه دوأب متحركة حية كثيرة وطيرا تطير فوق الأرض في جو السماء) شرحه : كل الحياة المتحركة أصلها من الماء.

(وقال الله لتخرج الأرض المخلوقات الحية أنواعًا بهائم وزواحف ودواب الأرض) شرحه: وجد الحيوان على وجه الأرض بعد أن صارت البحار مأهولة.

(وقال الله نخلق الإنسان على صورتنا ونعطيه الحكم على جميع الحيوان. وبارك عليهم وقال لهم تناسلوا وأكثروا) شرحه: كل هذا وقع وصار الحكم للإنسان.

(قد أعطيتكم كل بقل أخضر قوتا لكم) شرحه: هذا كلام مدهش في علم الأحياء، إذا اعتبرنا الوقت الذي كتب فيه، وهو صحيح ومطابق لما اكتشفه العلم تمام المطابقة، وما جاء منه في العشب الأخضر لم تثبت صحته من الوجهة العلمية إلا بعد اكتشاف (الكلوروفيل) وثبتت الحقيقة القائلة إن الحياة كلها متوقفة على النبات الأخضر.

وإذا كان الأمر كذلك فلا ينبغي أن نتخاصم على التفاصيل التي نشأت عن الترجمة وعما أدخله الإنسان، وعلى السؤال في كيفية خلق الله للعالم، أو على الزمان الذي استغرقه ذلك الخلق، إن الحقائق التي تقدم ذكرها قد عبرت الأزمنة الطوال حتى وصلتنا وهي حقائق لاشك فيها.

يمكن أن نضع نظرية تبين أن جميع الأشياء المتصفة بالحياة تطورت من خلية أصلية. غير أن العلم يقف هناك. ويمكننا أن نتفق مع المفكرين العظام الذين أدت مباحثهم وجهودهم إلى أن أعطونا صورة حقيقية للوقائع الطبيعية في الحياة المادية. ولكن لسنا مضطرين إلى أن نقف حيث وقفوا. لأنهم لم يستطيعوا بعد أن يروا يد الله عاملة لذلك فإن العالم (الواقف عند المادة لا يستطيع أن يثبت كما لا يستطيع أن ينفي وجود الروح أو جود الخالق الأعلى. ولكنه يشعر في قرارة نفسه بقوة الفكر والذاكرة والآراء التي تصدر عن ذلك الشيء الذي نسميه بالنفس. وهو يعلم يقينا أن إلهامه لم يأت من المادة، وليس للمباحث العلمية حق ولا

مطالبة بإصدار الحكم النهائي حتى تستطيع تلك المباحث أن تقول الكلمة الأخيرة في ختام البحث الذي لا معقب له.

**تعليقات:**

١- لقد اعترف هذا العالم الكبير المتضلع في علوم الطبيعة والهيئة وغيرها من العلوم الكونية، إن ما أنزله الله على نبيه موسى من صفة خلق السموات والأرض مطابق لما وصل إليه علم الباحثين في العصور المتطاولة إلى يومنا هذا، ثم شرح نصوص التوراة وأوضح تلك المطابقة أيما إيضاح. فالله الذي خلق هذا العالم، هو الذي أنزل الكتب على رسله وأخبرهم بأسرار خلقه، فلا غرابة عند المؤمن الصادق ولا مفاجأة في أن يرى العلوم الكونية تنزل عن كبريائها وتمد يد المصافحة بغاية الاحترام لعلوم الوحي، وقد سبق الفيلسوف العربي الإمام ابن رشد إلى سلوك هذا الطريق الذي سلكه بعده مورسن بنحو تسعمائة سنة، فألف كتابا أقام فيه البرهان على مطابقة الحكمة للشريعة، ومن شاء أن يطلع على ذلك فليقرأ المقالات التي ينشرها الآن الأستاذ عبد اللطيف ملين على صفحات هذه المجلة تحت الترجمة التالية (نظرية ابن رشد، في التوفيق بين الشريعة والفلسفة) والكتاب الذي ألفه ابن رشد في هذا الموضوع منشور ومطبوع يمكن الوقوف عليه. وهذا موضع خلاف بينه وبين أبي حامد الغزالي جرت بينهما فيه معركة جدلية خلفت وراءها بحوثا قيمة في كتابيهما: تهافت الفلاسفة وتهافت التهافت.

وقد جاء في كتاب الله القرآن الكريم الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات في بدء الخلق ما أنزله على عبده موسى، قال تعالى في سورة فصلت: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

وقال تعالى في سورة النازعات: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾.

٢- قوله: غير مدحوة. جاء في سورة النازعات: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ وفي سورة «والشمس وضحاها»: ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ ويقال في صفة الجاهل: ليس يعرف ما طحاها، وما دحاها وطحاها معناهما بسطها ومهدها بجعلها صالحة لسكنى الناس والحيوان الأعجم، وقد كان (....)[1] متقدما على زمان دحوها كما صرحت به الآية، وكذلك يقول علماء الهيئة فيما يفترضونه للكشف عن خلق الأرض، فقد قالوا: إن الأرض انفصلت عن الشمس، وكانت حرارتها عند ذلك اثني عشر ألف درجة مئوية، وبقيت ملايين من السنين لا يعلم قدرها إلا الله قبل أن تبرد، ثم بقيت بعد ما بردت زمانا طويلا قبل أن تدحى وتمهد أي تبسط، ثم بعد الدحو أخرج الله منها ماءها وأنبت مرعاها، وبعد ذلك خلق الحيوان والإنسان ليستمتع بما أنبتته الأرض كل من عليها من إنسان وحيوان، وهذا ما نطقت به الآية، وليس من قصدنا أن نخضع آيات القرآن لنظريات العلماء، لأن القرآن متبوع غير تابع، ولأنه لا يتبدل ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بخلاف نظريات العلماء، ولكن لما كان الاتفاق بين الآيات وبين ما وصل إليه بحثهم ظاهرا نبهنا عليه.

٣- قوله: ولكن لسنا مضطرين إلى أن نقف حيث وقفوا ... الخ. هذا كلام يجب أن نتلقاه بما يستحقه من العناية والاهتمام، لأن ضعاف العقول المقلدين للعلماء الأوربيين سنوا لأنفسهم سنة بليدة جامدة، وهي أنهم كلما سمعوا قضية علمية عرضوها على ما تلقفوه من أولئك الباحثين، فإن ظهر لهم أنها موافقة له قبلوها، وإن لم يجدوها فيما تلقفوه نبذوها وحاربوها، فيقال لهم، لو كان يعقلون، أنتم لم تحيطوا علما بجميع نتائج الباحثين، والباحثون لم يدعوا قط أنهم أحاطوا بكل شيء علما وأنهم وصلوا إلى نهايته، وفي المثل إذا اتسع علم المرء قل إنكاره، وقيل لأحد المعاندين المعارضين، هل أحطت بالعلم كله؟ أو أحاط أستاذك به؟، فقال: لا. ثم قيل له: هل احطتما بنصفه، فقال: لا. فقيل له: هذا اعتراف منك بأنك وأستاذك لم تؤتيا من العلم إلا قليلا فكيف جزمت بنفي هذه القضية، وأنت لا تعرف من العلم إلا قليلا، فهلا جعلتها من القسم الذي لا تعلمه، وهو الأكثر باعترافك فسقط

---

(١) غير واضح في الأصل.

في يده. وهنا ظهر لي أن استطرد – كما هي عادتي – وأذكر حكاية لا تخلو من طرافة وعبرة مع شيء من الشبه بما تقدم، وذلك أني كنت في مدينة بمباي بالهند سنة ١٣٤٣ للهجرة، وكنت قاصدا الرجوع إلى المغرب على طريق بغداد فدمشق فمصر، فذهبت بجواز سفري إلى السفير البريطاني ليمنحني سمة الدخول إلى العراق، فأخبرت أن ذلك ممنوع، والسبب في ذلك أن الدولة التركية كانت تطالب بلواء الموصل لتضمه إلى أراضيها، وكانت دولة الانتداب وهي بريطانية تمانع في ذلك، فلذلك منعت دخول الأجانب إلى بلاد العراق، فلما يئست من ذلك عزمت على التوجه إلى مصر رأسا، وكان غرضي من زيارة العراق لقاء رجلين اثنين من العلماء السلفيين، أحدهما الشيخ محمد بن أمين الشنقيطى في الزبير بناحية البصرة، والثاني السيد محمود شكرى الألوسى في بغداد، وكنت جالسا في مبيع كتب الشيخ شرف الدين الكتبى فدخل شاب في نحو الثانية والعشرين يرتدي ثيابا هندية، ولكنها فاخرة جداً بعدما ترك سيارته عند الباب، وكانت السيارات في ذلك الزمن عزيزة لا يقتنيها إلا أهل الثروة الكبرى فقام الحاضرون جميعا لاستقباله، وكنت أطالع كتابا فلم أتحرك من مكاني ولم أعبأ بمجيئه، وتلك عادتي مع الأغنياء الذين لا استفيد شيئا من غناهم، وقد شذذت في ذلك عن القاعدة التي أشار إليها ابن دريد في مقصورته بقوله في وصف الناس:

**عبيـــد ذي المـــال وإن لم يطعمـــوا ... مـــن مالـــه في جرعـــة تشـفي الصـدى**

وقال غيره:

**رأيـــت النـــاس قـــد مـــالوا ... إلى مـــن عنـــده مـــال**
**رأيـــت النـــاس قـــد ذهبـــوا ... إلى مـــن عنـــده ذهـــب**
**رأيـــت النـــاس منفضـــة ... إلى مـــن عنـــده فضـــة**
**ومـــن مـــا عنـــده فضـــة ... فعنـــه النـــاس منفضـــة**

وأقوال الأدباء في هذا كثيرة لا أطيل على القارئ بها، لأني أخشي أن ينفذ صبره، ثم جلس الفتى والحاضرون يتنافسون في التقرب إليه والدنو منه ويعرضون عليه ما طبع حديثا من الكتب، ثم توجه إلى الشيخ شرف الدين وكان يعلمه النحو وسأله عن قوله تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾ لماذا نصب الوصف مع أن الموصوف مرفوع؟، فقال الشيخ

شرف الدين: إن هذا الأستاذ المغربي هو أعلم مني بالنحو وأشار إلي، فالتفت ذلك السرى إلي وقال لي: أنت من المغرب؟ قلت: نعم. فقال لي ما تقول في هذه المسألة؟ فقلت: يجوز في حمالة الرفع على النعت والنصب على الذم بفعل مضمر وبهما قرئ في السبع فدعا بالبيضاوي وقرأ إعرابه لتلك الكلمة فوجده مطابقا لما قلت له فأعجبه ذلك، واستمر يسألني عن مسائل مختلفة في علم الأدب وأجيبه وبقي على ذلك نحو ساعتين ثم انصرف، وأخذ معه الشيخ شرف الدين ليوصله إلى بيته في السيارة، وفي أثناء الطريق سأله عني فأخبره بما عزمت عليه من زيارة العراق وتعذر ذلك علي، فقال له أنا آخذه بلا جواز فإن شاء أن يبقي عندي استفيد من علمه أجعل له راتبا طيبا وأكرم مثواه، وإن أراد أن يسافر إلى أي بلد سهلت له ذلك، فجاء الشيخ شرف الدين وأخبرني بذلك وسألني هل أقبل ذلك أم لا؟ فقلت له لا ينبغي لك أن تشك في ذلك، فلو لم يكن فيه إلا دخول العراق الذي منعتني منه السفارة البريطانية لقبلته شاكراً، ثم بعد ذلك كنت أسير في شوارع بمباي ومعي شاب من نجد، فمر ذلك الفتى وهو الشيخ مصطفي آل إبراهيم أطال الله بقاءه وأدام ارتقاءه فوقف سيارته ونزل منها وجاء فسلم علي وسأل عن الحال، وقال لي هل بلغك الشيخ شرف الدين؟ فقلت: بلغني وقبلت شاكرا، فقال لي بعد شهر من هذا اليوم نسافر إن شاء الله، فلما انصرف قال لي رفيقي: هذا أمر عجيب كيف نزل الشيخ مصطفى آل إبراهيم من سيارته وجاء ماشيا حتى سلم عليك؟، ونحن هنا عندنا الشيخ عبد الرحمن القصيبى لو مر بسيارته ووقفها ودعا أحد علمائنا لجاءه فرحا مسرورا إلى السيارة ولم يحوجه إلى النزول، فقلت له: إني لم أخضع له حين لقيته واحترمت نفسي وعلمي فاحترمني:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... ففي صالح الأعمال نفسك فأجعل

وذلك من توفيق الله سبحانه، ولما وصل الأجل المحدد اجتمعت به فقال لي: إن معي في جواز السفر سبعة من الخدم وسأسميك باسم أحدهم وابعثه هو في سفينة شراعية من سفن التجارة، فإذا سألك مفتش الجواز عند الصعود إلى الباخرة عن اسمك فقل له: اسمى حسن الحنيان، فقلت له أرجو أن تعفيني من هذا فإني لا أكذب فضحك ضحكا كثيرا على طبعا وقال لي أنت عربي تريد أن تسافر إلى بلد عربي، والإنكليز أجانب لا حق لهم في التصرف في شؤون البلاد العربية، فماذا يضيرك إذا كذبت على المفتش الإنكليزي لتتوصل إلى حقك

والحرب خدعة، فقلت لا أستطيع فضحك مرة أخرى وقال لي هل تستطيع السكوت؟، فقلت نعم بلا شك، فقال لي إذا سألك المفتش فاسكت فصعد هو سلم الباخرة وصعدت خلفه والخدم الستة خلفي، فلما استوينا على ظهرها رأيت رجلا إنكليزياً يستلم أجوزة السفر فقدم له الشيخ مصطفى جوازه فنظر إلى أسماء الخدم، وقال لي: ما اسمك؟ فسكت فأجاب هو: هذا حسن الحنيان وذهبنا وتركنا الخدام الآخرين يجيبون عن أنفسهم، وكان السفر على نفقته طبعا، وبعد العصر دعاني إلى مكانه في الباخرة وسألني هل تستطيع أن تقول شعرا؟ فقلت نعم، وأنشدته بعض ما حضرني من نظمي، فاقترح على تشطير قصيدة شوقي التي يقول في مطلعها:

**خـــدعوها بقـــولهم حســـناء   والخـــواني يغـــرهن الثنـــاء**

ولم أكن احفظها فكتبها لي فذهبت إلى مكاني من الباخرة وشطرتها تشطيرا أعجبه وأذكر هنا تشطير البيت الأول:

**خـــدعوها بقـــولهم حســـناء   وامتـــداح الكواعـــب اســـتهواء**

**فرنـــت للوصـــال بعـــد نفـــور   والغـــواني يغـــرهن الثنـــاء**

فلما وصلت إلى البيت التالي عجزت عن تشطيره لأني وجدته حلقة مفرغة لا يمكن فصل بعض أجزائه عن بعض، وهو قوله:

**نظـــرة فابتســـامة فســـلام   فكـــلام فموعـــد فلقـــاء**

ومع ذلك شطرته تشطيرا لم يعجبني. ولم أفهم معني هذا البيت حتى أقمت في أوربا زماناً فرأيت معناه يطبق بالفعل في كل مكان ... وعلمت حينئذ فقط علم اليقين أن شوقي أخذ معناه من الواقع الاجتماعي في أوربا حين كان يدرس فيها على أن شوقي من أشد المحافظين في شعره ونثره وأبعد الناس عن التقليد لأساليب الشعر الأوربي، إلا أنه اقتبس مما شاهده وقرأه من المعاني الشيء الكثير، وأما الألفاظ فإنه تجنب كلما يخدش وجه بلاغتها، وهذا شأن الفحول، وأري أن أمسك عنان القلم وأرجئ الباقي إلى التلاقي على صفحات دعوة الحق.



## شعور الإنسان من أول نشأته بوجود الله سبحانه وشمول ربوبيته

قال المؤلف: إن هناك حقيقة لا ريب فيها، وهي أن الإنسان في كل مكان وفي كل زمان منذ ابتداء خلقه إلى يومنا هذا، قد شعر بحافز يدعوه إلى أن يستعين بشيء يعتقد هو أنه أسمى منه وأجل وأعظم، يدلنا ذلك على أن الدين فطري فيه، ويجب أن يعترف العلم بذلك. وسواء أحس الإنسان في باطنه أن في الخارج صورة قادرة على الضر والنفع أم لا، فليس ذلك هو المهم. وإنما المهم أنه في قرارة نفسه يشعر بما يدفعه إلى الاعتراف بوجود الله العلي العظيم. ونحن الذين أوتينا معرفة العلم لا ينبغي لنا أن ننظر نظرة ازدراء إلى قلة علم الذين سبقونا في طلب معرفة الحق، أو الذين لا يعرفون الآن الحقيقة كما نعرفها نحن. بل ينبغي لنا أن نرتاح ونغتبط ونعجب عندما نرى أن البشر في جميع أنحاء العالم يطلبون معرفة الخالق الأعلى ويؤمنون به. أليست روح الإنسان هي التي تشعر باتصالها برب العالمين). أم نخاف أن نؤكد أن الحافز الديني الذي لا يوجد إلا في الإنسان هو جزء من الكائن الأعلى كسائر صفاته؟ إن وجود هذا الحافز لبرهان على قصد العناية الربانية، وكذلك عقل الإنسان المادي العجيب الذي يكمن في إحساسه.

إن الذرات والجزئيات التي يشتمل عليها جسم الإنسان ليس لها فكر البتة، وكذلك اتحاد العناصر لم يصدر عنه رأي قط، ولم يكن في إمكان أي قانون من قوانين الطبيعة أن يبني كنيسة. ولكن كائنات حية قد خلقت تبعا لحوافز معينة للحياة، وهذه الكائنات تشتمل على شيء تطيعه جزئيات المادة بدورها، وكل ما نراه من عجائب المدنية هو نتيجة ذلك، فما هو هذا الكائن الحي؟ أهو ذرات وجزئيات؟ نعم. وماذا غير ذلك؟ شيء لا يدرك باللمس، لأنه أعلى من المادة بكثير إلى حد أنه يسيطر على كل شيء، وهو مختلف جداً عن الشيء المادي الذي خلق منه العالم، حتى أنه لا يمكن أن يرى أو يوزن أو يقاس. وليس له فيما نعلم قوانين تحكمه. إن روح الإنسان (هي سيدة مصيره)، ولكنها تشعر باتصالها بالمصدر الأعلى لوجودها. وقد أصدرت للإنسان قانوناً للأخلاق لا يوجد عند أي حيوان آخر ولا حاجة له به. فإذا سمى أحد ذلك الوجود فضلة لتركيبات المادة، لأننا لا نعلم حقيقته بأنبوب الاختبار، كان ذلك دعوى خالية من البرهان. إنه موجود، ويبرهن على وجوده

بأعماله، وبما يبذله، وبسيطرته على المادة، وفوق ذلك كله، بقدرته على رفع الإنسان المادي من ضعف البشرية وضلالها إلى موافقة إرادة العلى الأعلى. هذه حقيقة مراد الله سبحانه. وفيها إيضاح للاشتياق الكامن في الإنسان، للاتصال بأشياء هي أعلى منه، وفيها كشف لأساس الداعي الديني في الإنسان. وذلك هو الدين.

والعلم يعترف ويشهد أتم شهادة بأن الإنسان تواق إلى أشياء أعلى منه، إلا أنه لا يهتم كثيراً باختلاف العقائد، وأن كان يرى أنها كلها طرق يقصد بها الوصول إلى معرفة الله. والذي يراه العلم ويعرفه جميع المفكرين، أن اعتقاد عموم البشر بوجود الله العلى الأعلى له قيمة عظيمة لا حد لها.

إن تقدم الإنسان من الوجهة الخلقية وشعوره بالواجب، إنما هما نتيجة الإيمان بالله والاعتقاد بالخلود. إن قوة التدين تصفي روح الإنسان وترفعه درجة بعد درجة حتى يصير من العارفين بالوجدان الواصلين إلى حضرة القدس. إن الإنسان مفطور على الاستعانة بالله والابتهال إليه، وكلما دعا الله ازداد منه قربا، إن الوقار، والكرم، والنبل، والخلق الحسن، والإلهام، وسائر الصفات المرضية عند الله، لا يصدر عنها شيء عند الإلحاد والتعطيل، لأنهما أي الإلحاد والتعطيل من الرعونات الناشئة عن غرور الفرد الذي يحمله على دعوى المشاركة في الربوبية. متى زال الإيمان بالله وصلت المدنية إلى الإفلاس، وحلت الفوضى محل النظام. وتلاشى كل قيد يكبح النفوس عن الإجرام، وعم الشر والفساد جميع العالم. فدعونا إذن نتمسك ونعتصم بالإيمان بالله العلى العظيم. وبمحبته، ونتمسك بالأخوة الإنسانية التي ترفع أنفسنا وتقربها من الله. وبذلك نطيع الله تعالى ونتبع مرضاته على بصيرة، ونتقبل تبعة إيماننا واعتقادنا من حيث كوننا خلقه، جديرين بعنايته ..

إن التقدم الخلقي ينمو ويسير ببطء، لكن بخطي ثابتة واطمئنان، يسير بالإنسان إلى تمام الإدراك لعلاقته بإخوانه في البشرية، ويضع المثل العليا التي ترتبط بها الإنسانية في النهاية.

إن وجود الإنسان على وجه الأرض بالنسبة إلى الأبد الذي لا نهاية له لا يستغرق إلا وقتا قصيرا جداً. وتقصيره عن بلوغ الكمال في الوقت الحاضر ليس إلا دورا من أدوار تطوره من تكوين مادي مجرد إلى ما يمكن أن يصير إليه في النهاية، وهو أن يكون روحاً طاهرة كاملة طيبة. وسيهبنا الله العلى العظيم الوقت الكافي. وفي أثناء تقدمنا إلى الأمام

ينبغي لنا أن نتوجه إلى الله بكل ما نستطيعه من التضرع والابتهال بإخلاص فنقول: اللهم اهدنا صراطك المستقيم وارفعنا إلى مستوى الأخوة الروحية الشاملة لجميع البشر. وهب لنا القدرة على التقدم في طريق الكمال الروحى ووفقنا لطاعتك، حتى نكون صالحين لتنفيذ مشيئتك فإنك لم تخلق الإنسان لتهمله.

**تعليقات:**

١- قوله: هو جزء من الكائن الأعلى الخ. قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ روى البخارى ومسلم من حديث عبادة بن الصامت، أن رسول الله ﷺ قال : «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» في هذا الحديث تفسير وبيان لقوله تعالى: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ لأنه سماه عبد الله ورسوله، فدل على أن روح عيسى مخلوقة كسائر الأرواح، وإنما أضافها الله تعالى إلى نفسه تشريفا وتكريما، فتعالى الله أن يحل في خلقه أو يحل فيه شيء من خلقه. ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ ﴾ ومن قرأ الأناجيل الأربعة، وكانت عين بصيرته مبصرة يجد فيها التصريح الذي لا لبس فيه بأن عيسى عبد الله ورسوله. ومن استراب في ذلك فالعرب بالباب، فإني مستعد أن أنقل له من ذلك ما يروي الغليل ويشفي العليل.

**وقد فعلت ذلك فألفت البراهين الإنجيلية فطبعت على نفقة الجامعة الإسلامية.**

٢- قوله: شيء أعلى من المادة، يريد المصنف بهذا الكلام أن يزيد ما أوضحه من قبل بيانا ويقيم الحجة بعد الحجة، والبرهان تلو البرهان على فساد مذهب الطبيعيين والماديين. وحاصل ذلك أن جسم الإنسان مكون تكويناً عجيباً من الذرات والجزئيات. وقد تقدم تفصيل القول فيها. ومع كل ما فيها أفرادا وتركيبا من الإبداع والإتقان. فإن الشيء الوحيد الذي تشرف به الإنسان وامتاز به عن الحيوان، لم يأت من تلك الذرات ولا الجزئيات، لا أفرادا ولا تركيبا. وهو أسمي وأجل من ذلك، ولا يستطيع عالم طبعي أو مادي أن يدعي أنه نتيجة لتفاعل تلك الذرات والجزئيات. وهذا الشيء هو الروح، وهو هبة من الخالق جل وعلا وأودعها أسرارا مدهشة ووهب لها الخلود وجعلها حجة على عباده، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

٣- قوله: وإن كان يرى أنها كلها طرق يقصد بها الوصول إلى معرفة الله، بيانه أن الغاية واحدة، وهي معرفة الله وتوحيده واستمداد العون منه ومراقبته والأنس به والاستغناء عن غيره، فتعاليم رسل الله ومن اتبعهم بإحسان لا تختلف إلا في العبادة، وأما الغاية فهي واحدة.

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير

٤- قوله: حتى يصير من العارفين بالوجدان. أقول، أول ما يبدأ به طالب معرفة الله، الاستدلال بالمخلوقات على الخالق، وقد نبه القرآن الكريم إلى ذلك في مواضع كثيرة، وقد تقدم بعضها، كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ ولا يزال الطالب يرتقي في معرفة الله بالاستدلال حتى تحصل له المعرفة الوجدانية الذوقية وتنزل في قلبه السكينة، وذلك هو الذي يعبر عنه العارفون بالوصول إلى الله.

٥- قوله: الذي يحمله على دعوى المشاركة في الربوبية، من التعاليم الفاسدة الموجودة عند فريق من الناس في هذا الزمان، إن الإنسان من حيث المجموع هو القوة العظمى التي لا نهاية لعظمتها، وليس وراء هذه القوة قوة أخرى، وأنه بذلك على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، ولا حاجة له أن يستمد العون والقوة إلا من نفسه. وهذا هو الذي أشار إليه المصنف بدعوى المشاركة في الربوبية، أقول، ومن هذا القبيل كان غرور فرعون ملك مصر، إذ قال أنا ربكم الأعلى. ومثله نمرود ملك العراق قال لإبراهيم في محاجته له، أنا أحيي وأميت. والعجب من هذا الفريق إذ يعطي كل هذه القوة الإنسان من حيث المجموع، فإنه يحتقره من حيث هو فرد كل الاحتقار، ولا يجعل له قيمة أصلا، وهذا في غاية التناقض. والحق أن خضوع الإنسان أمام عظمة الله واستمداد العون والقوة منه ليس حطًا من شأنه ولا ضعفاً ولا عجزاً، بل هو أعظم قوة ترفع الإنسان وتسير به إلى الأمام في طريق الرقي الكامل الحافظ لكرامة الإنسان فرداً أو جماعة.

٦- قوله: ونتمسك بالأخوة الإنسانية، الأخوة الإنسانية الكاملة هي أجل الغايات التي دعا إليها الأنبياء والصالحون من أتباعهم وكذلك فلاسفة الأخلاق، وهي أسمي الغايات الاجتماعية. قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ، فمحمد رسول الله أرسله الله رحمة لجميع الناس وهو القائل: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. فيجب على من أراد أتباعه والإقتداء به أن يكون رحمة للعالمين وبذلك تعم المحبة وتتحقق الأخوة والتعاون بين البشر ويتلاشى الشقاق والنزاع ويخسأ شيطان التعصب ويصير الناس إلى المدنية الفاضلة.

٧- بهذا المقال تتم ترجمة كتاب (ليس الإنسان مهملا) للعالم الكبير (كريسى مورسون) مع التعليقات التي فتح الله بها، وإني لأشكر إدارة مجلة دعوة الحق التي تفضلت بدعوتي إلى كتابة هذه المقالات، كما أرجو أن تخطو خطوة أخرى، فتجمع هذه المقالات، وتطبعها وتخرجها كتابا يمكن أن يكون هدية لقراء المجلة تعويضا عن الشهرين الذين تتوقف فيهما المجلة. فإني على يقين أن كثيراً من قراء مجلة دعوة الحق وغيرهم سيتلقون هذا الكتاب بغاية الارتياح وجزيل الشكر. وما ذلك على الهمم العالية بعزيز.

وكان ذلك في سادس رجب الحرام سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة وألف بمدينة مكناس المحروسة. وصلى الله وسلم على خير خلقه محمد وآله وصحبه.

## مُناقشات

## نقد مَقال العَوائق النفسانية للتخطيط

**الدكتور تقى الدين الهلالى**

وافتنا صحيفة «التخطيط التربوي في البلاد العربية» الصادرة في بيروت وفيها محاضرة للأستاذ ريني حبشي، مصوغة في شكل بحث تربوي حسب زعم صاحبها، ولكنها تحتاج إلى تقويم ما فيها من تنكر للمقدسات وادعاآت لا تقوم على أي أساس علمي، فأحلناها على الناقد الخبير السلفي المشارك الدكتور تقي الدين الهلالي ليتولى نقد المحاضرة، والرد على ما فيها من مهاترات فوافانا بسلسلة من مقالاته القيمة سننشرها تباعاً في مجلة: (دعوة الحق) معتذرين لحضرة الدكتور على عدم نشر طالعة مقاله الذي أطرى فيه القائمين على تحرير هذه المجلة.

**وإلى القارئ الكريم الحلقة الأولى من هذه السلسلة:**

أول ما ابدأ به حمد الله سبحانه على نعمة الإسلام، التي أكرمنا بها في زمان الغربة، غربة الدين والحق، كما قال الشاعر:

**وما غربة الإنسان من شقة النوى ... ولكنها والله من عدم الشكل**

فأقول مستعيناً بالله على رغم كل ختار كفور: سأقسم هذا النقد على قسمين، قسم علمي، وقسم قومي، على أني لا أتعرض لكل ما جاء في ذلك المقال، وإنما اقتصر على تلك العبارات الخبيثة التي أشار إليها وخط عليها الأستاذ المذكور.

العبارة الأولى، افتتح بها الكاتب مقاله وهي:

شرقنا العربي بحاجة إلى تطوير عام مخطط، ولكي ندرك ذلك، علينا أن نفهم ذواتنا ونتخطى العقبات التي تقف في سبيل هذا التطوير، أما طاقات الإنسان البناءة فهي ثلاث فئات:

١- الطاقات الغريزية التي تحصر الإنسان في إطار ذاته.

٢- الطاقات العقلية التي تفتح للإنسان الكون المنظور.

٣- طاقات الإيمان التي تقيم الصلة بين الإنسان وبين ما وراء المنظور.

**ومضى إلى أن قال:**

أما تطوير الإيمان بسيطرة الغريزة، فهو يجتاز أزمة عميقة في بلداننا العربية نتيجة العلم الذي بدأ يشرح بعض الظواهر الطبيعية الغامضة، والتي ساد الاعتقاد الخاطئ أنها وظيفة الله، إن الإيمان وليد الحرية، فهو يمكننا من فرض بعض الأدلة المنطقية على الفرد، ولكنه لا يمكننا أبدا فرض الإيمان. ولكن متى طغت الغرائز على خاصية الإيمان انقلبت هذه الميزة المساعدة للتخطيط إلى أنانية وعنصر تفريق يمكن تسميته تعصباً.

ثم مضى إلى أن قال: إن الإيمان بشخص بشري، أو بالله يستهدف صلب الكائن الذي يستحق هذا الإيمان، وما ينطوي عليه هذا الكائن من بساطة ووضوح.

فليس من عمل أكثر مباشرة من الإيمان، ثم مضى إلى أن قال: فالمتعالي بالنسبة للغريزة هو المجهول والمغلق، وكلما زاد خوف الغريزة من أمر، ازداد اعتقادها بأنه يستحق الإيمان.

ولذا يجتاز اليوم الإيمان بالله أزمة عميقة في بلداننا العربية. فبعد أن افترضنا أن فكرة الله يجب أن تشرح كل ما يبدو لنا غامضا ومغلقا في ظاهر الطبيعة، وبعد أن رأينا العلم الحديث يشرح بسهولة هذه الظواهر عينها، شاع الاعتقاد بأن ذلك إنما هو انتصار للعلم على الإيمان الديني، وأن الله لن يلبث أن يتقهقر يوما بعد يوم حتى ينبذ نهائياً.

وبما أننا نسبنا إلى الله وظيفة ليست له — الله ليس ظاهرة لا متناهية الصغر أو لا متناهية العظمة — أردنا أن نصلحه هو بإنكاره نهائياً بدلا من أن نصلح ذواتنا، وربما اعتقد البعض أنني أحيد كثيراً عن موضوعي، ولكن هل يظن أن من الصواب بالنسبة إلى حالتنا النفسانية وتربيتنا أن نقبل هذا التناقض الخاطئ بين العلم والدين، فنتعرض لفقدان قيم طالما كانت غالية على قلب شرقنا العربي.

أما الغريزة فتستثمر الإيمان كسلاح وتستعمله كخطة. فلا أكثر مغايرة للإيمان من التهديد، أو استعمال القوة، إلا أن الغريزة خوذة وترس لأهدافها الهجومية. ولذا يقوا الإيمان بيد الله، إنه أعزل يعرض نفسه على حريتنا، فتتخذ منه الغريزة خوذة وترسا لأهدافها الهجومية. ولذا يقسو الإيمان في السياسة ويتصلب، وبدلا من وسم الغريزة بروحانيته يتمثل هو بطابع الغريزة اللاعقلي. إن العاقبة التي تهمنا هنا هي أن الدين، إذا تجمد في انفعالات الغريزة والخرافات التي لا طائل تحتها يعطي الغريزة ذرائع — ذرائع

مقدسة — للبقاء في جمودها ولرفض كل تطور، عوض أن يكون خميرة تقدم.

وبدلا من أن يكون الله سبب تقدم لا متناه، يمسي علة جمود وركود لا حد لها. إن تربية مصابة بهذا الجرثوم لابد من أن تتجه إلى التعبد للماضي والتقليد، بدلا من أن تتطور وتتكيف مع تغير الحاجات في مجتمع سلك طريق التصنيع.

**انتهي ما أردنا نقله والرد عليه.**

١ – قوله: شرقنا العربي في حاجة إلى تطوير عام مخطط.

أقول نحن موافقون على أن الشرق العربي والمغرب العربي كذلك، وذلك ينتظم جميع العرب، إذ ليس العرب محصورين في الشرق، أقول نحن موافقون على حاجة إلى التطور ضمن مجدهم وحسبهم وتراثهم العظيم، وذلك كله يرتكز على الإسلام الذي هو مصدر حياتهم وعظمتهم، فإن العرب قبله لم يكونوا شيئاً مذكوراً، فلم تكن لهم مدينة محفوظة ممتدة ولا حضارة ولا علم ولا عز ولا دولة ولا اجتماع ولا تعاون ولا شريعة يجتمعون عليها وتنظم بها أحوالهم، بل كانوا عشائر متفرقة جاهلة همجية تعبد الأوثان وتئد البنات وتقتل أولادها للفقر أو خشية الفقر، ومن كان له منهم شيء من الحضارة كان ذلك تحت سيادة الفرس أو الروم، وسائرهم متوحشون يقتل بعضهم بعضا ويسبي بعضهم بعضا، فلما جاء الإسلام صاروا سادة أهل الأرض حكما وعلما وقوة وسلطانا، وتغلبوا بقوة الإيمان والأخلاق الكريمة على أكبر دولتين تجاورانهم الروم غربا، والفرس شرقاً، وسادوا العالم في مدة لا تتجاوز خمسا وعشرين سنة. وهذه الثورة السليمة الخلقية المحمدية المباركة عديمة النظير في التاريخ كله، قديمة وحديثة، لا ينازع في ذلك إلا مكابر متعسف يريد أن يستر الشمس بالغربال.

وبعد ما أعرضوا عن الإسلام فقدوا كل ما كان عندهم من عز ومجد وعظمة واجتماع وتعاون وسيادة ورقي، حتى صاروا عبيدا لمن كانوا تحت حكمهم. وهذا أيضا مسلم، يعرفه كل من يعرف شيئا من تاريخ العالم عامة، وتاريخهم خاصة، وإذا تسامحنا وتنز[1] إلى لغة هذا الكاتب، نقول، إن ذلك كان أعظم تطور عام مخطط. ولو استمر العرب على ذلك المنهاج لما

---

(١) كما بالأصل.

فقدوا شيئا من سعادتهم وسيادتهم وعظمتهم، والإسلام الذي كان سبب حياتهم، ثم كان تركه وبالا عليهم وتخلفا وانحطاطا هو وحده الكفيل باسترداد مجدهم وعظمتهم وقوتهم وسعادتهم، لا أعني الإسلام بشكله الحاضر، ولكني أعني الإسلام بالشكل الذي دعا إليه محمد رسول الله ﷺ، ونفخ به روح الحياة بإذن الله في العرب. والإسلام لا يتنافى مع التقدم في المدنية والحضارة والعلم والعدل. والدليل على ذلك ما أنشأه العرب وسائر المسلمين من مدنية وحضارة، وما خلفوه من علوم خالدة باقية يشع نورها في جميع المعمور من الأرض. وهي مقدمة عند العلماء المنصفين من جميع الأمم، أما التطور الذي معناه إنكار الماضي وإهماله والانسلاخ من القومية والعلم والدين، وإضاعة التراث العظيم، وتقمص تطور محدث مبني على غير أساس، أو على شفا جرف هار، فإنه ينهار بأهله في نار جهنم ويشقي أهله في حاضرهم ومستقبلهم. بل هو داء العرب الذي قعد بهم عن التقدم والرقي والسير في ركب الحضارة. والدين المبدل هو من أكبر العوائق عن كل تقدم وإصلاح واجتماع وتعاون. قلت إن بناء التطور على غير أساس التراث المجيد هو سبب تأخر العرب. برهان ذلك أن الدول العربية غير متمسكة بالشريعة الإسلامية كما كان أسلافها متمسكين بها علما وعملا وانقيادا وطاعة. فغالب ما حرمه الإسلام هو حلال في قوانينهم. وكل ذنب أوجب الإسلام العقاب عليه هو مباح في تلك القوانين، لا يخشى مرتكبه نكالا، يفعل جهاراً من غير خوف ولا وجل، حتى الردة عن الإسلام وسب مقدساته لا يخشى مرتكب ذلك مؤاخذة. ودليل ذلك صدور مجلة تشتمل على ما نقلناه أعلاه في بلد أغلب سكانها مسلمون، وطائفة منهم نصارى، والزنادقة منهم الذين لا يدينون لا بالإسلام ولا بالنصرانية قليلون جداً. فادعاء كاتب المقال المنقود، أن الإيمان بالله يعوق العرب ويمنعهم من التطور والتقدم، هو اختلاق من بنات غيره. وإذا ثبت أن الإسلام وحده هو سبب حياتهم وانتقالهم من الشقاء والجهل والفقر والتخاذل وغير ذلك من الأمراض الاجتماعية إلى أضدادها، وثبت أن أعراضهم عن الإسلام هو سبب انحطاطهم وبلوغهم إلى الدرك الأسفل من الضعف والتأخر، والتاريخ أصدق شاهد، فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. وإذا كان غير الإسلام من الأديان البعيدة عن العقل التي لا تمس حياة الإنسان الاجتماعية لا من قريب ولا من بعيد لم تمنع المتمسكين بها من بلوغ غايات الرقي والتقدم،

فكيف يمنع من ذلك الإسلام الذي هو نصير العقل والعلم والحرية والعدل والمساواة. وقد جرب العرب الإعراض عن الإسلام وشريعته عشرات السنين فلم يزدادوا إلا خبالا، فما يريد منهم هذا الكاتب؟ لا شك أن وراء الأكمة ما وراءها، فلعله يريد أن يدخلهم في إيمان جديد ودين جديد يزيدهم خبالا ووبالا فيحرم عليهم البقية الباقية من حرية الاعتقاد وحرية العمل وحرية التنقل وشيء من حرية القول ويجعلهم أنعاماً سائمة يرعاها ذئب مكشر أنيابه للافتراس، ولعمري، ما هو بناصح ولا أمين. وأنا أقول بعكس ذلك: جربوا أيها العرب الرجوع إلى طريقكم الأول، إلى المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، جربوا ولو سنة واحدة، تجدوا أنكم لا تسعدون اليوم إلا بما سعدتم به أمس.

٢- قوله: أما طاقات الإنسان البناءة فهي ثلاث فئات.

١- الطاقات الغريزية التي تحصر الإنسان في إطار ذاته.

٢- الطاقات العقلية التي تفتح للإنسان الكون المنظور.

٣- طاقات الإيمان التي تقيم الصلة بين الإنسان وبين ما وراء المنظور.

أقول: هذا التقسيم غير صحيح، فالإيمان ليس قسيما للغرائز والعقل، وإنما هو ثمرة العقل نفسه، إذا اجتمع معه الإلهام والتوفيق. فإن المدركات، تنقسم إلى قسمين: حسى، وهو ما يدرك هو أو مادته بالحس، ويدخل فيه الخيالي كقول الشاعر: وهو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن الصنوبري.

**وكــــأن محمـــــر الشقيـــــــق إذا تصـــوب أو تصــــعد**

**إعــــلام يــــاقوت نشـــــر ن علـــى رمـــاح مـــن زبرجــد**

فرايات الياقوت على رماح الزبرجد خيال لا وجود له في الخارج. والقسم الثاني: ما يدرك بالعقل، كالعلم والحياة، فإنهما لا يدركان بشيء من الحواس. ويدخل في العقل الوهمي، وهو أيضا غير مدرك بشيء من الحواس الخمس، مع أنه لو أدرك، لم يدرك إلا بها، كقول امرئي القيس:

**أيقــــتلني والمشـــــرفي مضــــاجعي ومســـــنونة زرق كأنيـــــاب أغـــــوال**

فإن الغيلان وأنيابها لا تدرك بالحواس الخمس، ولو أدركت، لم تدرك إلا بها. وهذا تقسيم صحيح للمدركات، وأنت ترى أن الإيمان ليس منها. أما كون الإيمان يعطي صاحبه

قوة لا يجدها بدونه فصحيح، وقد اعترف الكاتب بأن الموجودات قسمان، منظور وغير منظور، حيث قال: أما طاقات الإنسان البناءة فهي ثلاث فئات:

١- الطاقات الغريزية التي تحصر الإنسان في إطار ذاته.

٢- الطاقات العقلية التي تفتح للإنسان الكون المنظور.

٣- طاقات الإيمان التي تقيم الصلة بين الإنسان وبين ما وراء المنظور.

فماذا يعني هذا الكاتب بغير المنظور؟ وماذا يعني بطاقات الإيمان التي تقيم الصلة بين الإنسان وبين ما وراء المنظور؟. أليس الله سبحانه هو مما وراء المنظور، وأن طاقات الإيمان على حد تعبيره تقيم الصلة بين الإنسان وبين الله تعالى، وكذلك مما وراء المنظور، الجزاء الأخروي، وهو إثابة المحسن وعقاب المجرم. وتعبيره بالمنظور وغير المنظور فاسد، لأن المنظور هو واحد من المدركات بالحس، وبقيت أربع أشياء تحس ولا تنظر، وهي المسموعات والمشمومات، والمذوقات، والملموسات. ولكننا لسنا بصدد مؤاخذته على فساد العبارة، وإنما نؤاخذه الآن على فساد المعاني، ونؤخر انتقاد المباني إلى القسم الثاني. ونقول له إذا كنت ماديا لا تؤمن إلا بما يدرك بالحواس الخمس كالحيوان الأعجم، فما معنى الكون غير المنظور، على حد تعبيرك الفاسد، أو غير المحس، على حد التعبير الصحيح. وهناك نوع آخر من المدركات يدرك بالوجدان، كاللذة والألم، يضاف إلى الأقسام المتقدمة الذكر، ويري بعض العلماء أن للإنسان حاسة سادسة باطنة. وسينكر فيما بعد وجود الله تعالى، حيث يقول: ولذا يجتاز اليوم الإيمان بالله أزمة عميقة في بلداننا العربية. وحينئذ نورد عليه من البراهين القاطعة ما يحتم عليه الإيمان بالله، أو المكابرة والجحود المفضوح. وجحده لوجود الله في هذا الموضع ينقض ما تقدم من قوله «إن طاقات الإيمان تقيم الصلة بين الإنسان وبين ما وراء المنظور».

ومن المعلوم أن الغرائز يشترك فيها الحيوان الأعجم مع الحيوان الناطق. وقد فضل الله الإنسان وكرمه بالعقل كما قال تعالى في سورة الإسراء ٧٠ ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ولا تزال الغرائز في صراع ونزاع مع العقل، فمتى تغلبت الغرائز على العقل وسيطرت عليه التحق الإنسان بالحيوان الأعجم كما قال تعالى في سورة الأنفال ٢٢ ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ

لَا يَعْقِلُونَ﴾ صدق الله العظيم، إن الدواب الإنسانية التي تغلبت غرائزها على عقولها فلم يبق لها من الإنسانية إلا الصورة والشكل، شر من الدواب العجم التي لا عقل عندها يكبح جماح غرائزها ويهديها إلى الحق ويقيم لها البرهان عليه. ومتى تغلب العقل على الغرائز وسيطر عليها سار في طريق الكمال الإنساني حتى يصل الغاية القصوى، وهي العلم والمعرفة، وأول ما يدركه العقل بعد تغلبه على الغرائز التي يشترك فيها مع البهائم معرفة إن هذا العالم العجيب المتقن الصنع في دقة ونظام لا يكاد العقل يدرك كنهها، لابد له من صانع مبدع متصف بصفات عالية لا تشبه صفات المصنوع ولا يقبل العقل المتغلب على الغرائز دعوى المصادفة. وهي أن كل ما نرى وندرك بسائر حواسنا من أسرار هذا الكون وعجائب إحكام صنعه لم توضع له خطة سابقة ولا منهاج ولا تدبير، وإنما وجد على سبيل الاتفاق، وليس وراءه مدبر ولا موجد، وقد نشأ بلا علم ولا حكمة، حتى لو أراد العقل الحر الذي لم تستعبده الغرائز أن يجبر نفسه ويرغمها على قبول فكرة المصادفة، لم يقدر على ذلك أبدا، لأنه بعد تغلبه على الطباع الحيوانية يصل إلى درجة من العلم والإيمان لا يدخلها الريب أبداً، فكما أنه لا يعقل أن ضرب سبعة في سبعة ينتج أربعين أو خمسين بدلا من تسعة وأربعين، فكذلك لا يستطيع أن يتصور وجود صنعة محكمة في غاية الدقة توجد بلا صانع، وستأتي الأمثلة على ذلك في موضعها إن شاء الله.

٣- قوله: أما تطوير الإيمان بسيطرة الغريزة فهو يجتاز أزمة عميقة في بلداننا العربية، نتيجة العلم الذي بدأ يشرح بعض الظواهر الطبيعية الغامضة، والتي ساد الاعتقاد الخاطئ أنها وظيفة الله، الخ.

أقول: إنما تسيطر الغريزة على عقول الجاهلين أمثال هذا الكاتب الذي يهرف بما لا يعرف. ولو سألناه عن هذا الشيء الذي يجحده، وهو معرفة الله ورسالة رسله وما جاءوا به من النور والهدى ، هل تلقي في ذلك، ولو درساً واحداً، وهل أنعم النظر فيه وقتله بحثاً وتحقيقاً ليرد عليه رداً محكماً ويضع للنقط على الحروف كما يقولون، ويفصل القول تفصيلا، ويقيم البرهان على مدعاه، لوجدناه فارغا كالطبل يخوض فيما لا يعلم ويخبط خبط عشواء، في ليلة ظلماء.

**والدعاوى ما لم يقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء**

فقد ادعي في هذا المقال دعاوي كثيرة دون أن يقيم عليها برهاناً واحداً، وكأنه يظن أن العرب أطفال كلهم ليس فيهم عالم ولا حكيم ولا عاقل، حتى تروج عليهم خزعبلاته، إلا ساء ما سولت له نفسه، وأوهمه وسواسه.

**خــلا لــك الجــو فبيضــي واصــفري ونقـــري مـــا شـــئت أن تنقـــري**

**لابد من أخذك يوما فاحذري**

والشذاذ الملحدون من الأمريكيين والأوربيين يربأون بأنفسهم أن يقدموا على انتقاد دين عظيم دان به ألوف الملايين من الحكماء والعلماء في قرون متطاولة دون أن يدرسوا ذلك الدين درسا دقيقا ويستخرجوا منه المواضع التي يلبسون بها على قرائهم ويتخذونها شبهات لمدعياتهم. أما «رني الحبشي» فلم يكلف نفسه عناء الدرس والبحث والتحقيق، بل اقتحم البحر بلا فلك ولا آلة وقاية من الغرق، فغرق في بحر تتلاطم أمواجه، فلا (....)[1] له إذ عثر، لأنه تقليدا كفر.

وادعاؤه أن الإيمان يجتاز أزمة عميقة، الخ. تهويل وتضليل، فإن البلاد التي يرفع أهلها رايات العلم بحق من أوربا وأمريكا لا يزال أهلها متمسكين بدينهم، لا يتساهلون فيه أبداً، وقد جبتها في الصيف الماضي فقط من أسبانيا إلى الأراضي القطبية في أقصي شمالي نرويج، حيث لا تغيب الشمس لمدة ثلاثة أشهر فرأيت القوم في أيام الآحاد يعطلون الأعمال ويؤمون الكنائس صبيانا وشبانا وكهولا وشيوخاً، ذكورا وإناثاً، ولو أطلع مطلع في سجلات الأشخاص ومديريات النفوس وسجلات الكنائس، لما وجد من الخارجين على الكنيسة إلا عددا ضئيلاً جداً، لا يزيد على واحد إلى اثنين في المائة في الشعوب العظيمة التقدم في العلم والمدنية، كسويسرا وألمانية وبريطانية والشعوب السكندنافية. وهؤلاء الخارجون على الكنيسة ليسوا كلهم ملحدين، فأكثرهم اخرج منها مضطرا وحرم وطرد لمخالفته لبعض قوانينها كتزوج الكاثوليكية برجل بروتستانتي مثلا، أو الامتناع من دفع ضرائب الكنيسة امتناعا كليا ونحو ذلك. وتري في كل جامعة كلية اللاهوت تحتل أسمى مكان في الجامعة. وجميع الأساتذة يحضرون صلوات كنيستها في الاحتفالات المهمة.

---

( ١ ) غير واضح في الأصل.

ويتخرج في هذه الكليات كل سنة عدد كبير من الدكاترة فيتولون أعمالهم ووظائفهم في الكنائس والأعمال الدينية، ولا يبقي أحد منهم عاطلا، فإذا كانت الشعوب المتقدمة في العلم والحضارة قد تركت التدين والإيمان، كما يزعم هذا الداعية المضلل، فلماذا تؤسس المدارس الدينية من رياض الأطفال إلى الجامعة في تلك الشعوب الحرة الديمقراطية، ولا توجد مدرسة خالية من دروس الدين في ألمانيا، ولا تقبل الكنيسة أن يتولى تدريس الدين في المدارس إلا قسيس مجاز يقدر أن ينوب عن الكنيسة في مراقبة التعليم الديني في المدارس ويصلى بالتلاميذ كل يوم في قلب المدرسة ويلزمهم الحضور إلى الكنيسة في كل يوم أحد، ومن لم يحضر يعاقب، بل آل الأمر بهم في التمسك بدينهم إلى أن أجبروا الحكومة أن تهيئ للتلاميذ مدارس كافية على حسب اعتقادهم في البلدان التي تختلف عقيدة سكانها، بعضهم كاثوليكيون، وبعضهم بروتستانتيون، يجب على وزارة التعليم أن تهيئ نوعين من المدارس، للكاثوليكيين مدارسهم الخاصة بهم، وللبروتستانتيين مدارسهم الخاصة بهم. إذ لا يسمح أب كاثوليكي أن يتعلم أولاده في مدرسة بروتستانتية، ولا أب بروتستانتي أن يتعلم أبناؤه في مدرسة كاثوليكية، سواء أكانت ابتدائية أو ثانوية، وأمهات التلاميذ كذلك. وإذا وجدت قرية جميع سكانها على أحد المذهبين إلا نفرا قليلا لا يستحقون أن تبني لهم مدرسة يأمرهم آباؤهم وأمهاتهم أن يركبوا في القطار ويتوجهوا إلى مدرسة توافقهم في الدين.

ومن الأسباب التي حملت الكاثوليكيين في ألمانيا على الانضمام إلى اليهود في عداوة هتلر وحزبه توحيد التعليم الذي قامت به حكومة هتلر، ولم تقم به بقصد محاربة الدين، وإنما قامت به لغرض سياسي، وهو تربية الناشئين والناشئات على العقيدة الهتلرية، وهي الاشتراكية الوطنية، أو القومية، إذا أردنا الدقة في التعبير. وقد كان هتلر متمسكا بالدين، لم تصدر منه قط مضادة له، إلا أنه كان يكره بعض قوانين الكنيسة، ككنز الأموال والذخائر في الكنيسة وعدم إنفاقها في مصلحة الشعب، والتفرقة في مناهج التربية والتعليم، وكان ذلك كافيا لإيقاد نار العداوة والبغضاء في قلوب رجال الكنيسة الكاثوليكية وأتباعهم. ولو ذهبنا نورد البراهين على تمسك الأوربيين بدينهم، بل يبالغ في ذلك بعضهم إلى حد التعصب الممقوت، لطال بنا القول. فما بال هذا التمسك لم يضر الأوربيين شيئا، ولم يجعلهم متأخرين، واقتصر ضرره فقط على أهل الشرق العربي، مع تهاونهم للدين، ألم يجد

«رني الحبشي» الأعجمي الاسم، ولعله أعجمي المسمي أيضاً، لم يجد ما ينصح به العرب إلا أن يحضهم على ترك الإيمان بالله والتهور بالسب والشتم للمقدسات بلا علم ولا هدى، ولا كتاب منير. أرآهم كاملين في جميع العلوم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والخلقية، ولم ير فيهم نقصا إلا التمسك بالدين؟ أم هو أحد معاول الهدم والتخريب والفساد من المأجورين الذين يزيدون الخرق توسيعا، والطين بلة، أولئك عبيد أعداء العرب، بل عبيد الدينار والدرهم، ودعاة زيادة الفوضى والتفرق والشتات.

جمعني مجلس في بون في السنة الماضية، مع الأستاذ الدكتور أندري، أستاذ علم الحياة في إحدى الجامعات الألمانية المتقاعد، فقمت مع شخص يرافقني، فصلينا المغرب والعشاء قصرا وجمعا، فمنذ قمنا للصلاة وقف، وبقي واقفاً إلى أن أتممنا الصلاة، وهو في غاية التأثر والخشوع، فلما انصرفنا من الصلاة قال لي ما معناه بترجمة دقيقة (اعتراني خوف وإجلال عند مشاهدة صلاتكما، ثم قال لي، إني لست قسيسا، وما عرفت الله وآمنت به إيمانا كاملا راسخا إلا بدراستي لعلم الحيوان والنبات، ولا يزال هذا العالم حيا يرزق).

فأين «رني الحبشي» وسفسطته لباطله من كلام العلماء المحققين.

إن الإيمان بالله وآياته الباهرة التي تدل على عظمته وعلمه وحكمته، لا يجتاز أي أزمة عند أهل العلم والإيمان. ولكن الشرق العربي هو الذي في أزمة شديدة لن يجتازها ولن يخرج منها ما دام فيه أمثال هذا الكاتب الذين يزيدونه خبالا بخدمتهم لأعدائه الطامعين وبلبلتهم لأفكار أهله بتعميدهم نشر الفوضي الفكرية والفساد وتضليل العقول. وإذا فتشت تجدهم ممن دسهم أعداء العرب في صفوف العرب ليوسوسوا في صدورهم ويمنعوهم من التفكير الجدي في إصلاح التربية في بلادهم، وما أكثر هؤلاء المفسدين في بلاد العرب، فقد شقيت بهم البلاد وأهلها، فلسان حالها ينشد:

**زعم العواذل أنني في غمرة    صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي**

والغريزة لم تسيطر على أهل العلم والإيمان بالله وآياته، وإنما سيطرت على الدجاجلة المفسدين، فهم كالمكاريب تتبع الأمراض وتفتك بالجسم المريض حتى يجئ الطبيب بالدواء فيقضي عليها. فما هي الظواهر الطبيعية التي شرحها العلم وأنكرها الإيمان، اذكر لنا واحدة منها إن كنت صادقا.؟ فهل قال الإيمان أن الشمس تطلع من المشرق، فجاء العلم المزعوم

ووجد أنها تطلع من المغرب، أم قال الإيمان أن الموت حتم على الإنسان والحيوان، فجاء العلم المزعوم فمحا الموت وأثبت الخلود؟ أم قال الإيمان، إن الحيوان لابد له من الغذاء ومثله النبات، فجاء العلم المزعوم فأثبت أن الحيوان والنبات يعيشان بلا غذاء.

**يقولـــون أقـــوالا ولا يعلمونهـــا إذا قيـــل هـــاتوا حققـــوا لم يحققـــوا**

ونحن نتحدى هذا الكاتب أن يذكر لنا مثالا واحدا يؤيد ما ادعاه حتى نرد عليه بالتفصيل ونلقمه الأحجار. أما الدعاوى الفارغة المجملة المبهمة، فهي شأن المهوشين، ولا تضر أهل العلم والإيمان، كما لا تنفع أعداء العرب والإسلام. وقد مضت عشرات السنين على هذا الشرق العربي، والمهوشون، والمأجورون المجهولون يروجون أمثال هذا الهراء فلم يستطيعوا أن ينقضوا حقا ولا أن يثبتوا باطلا.

**كنـــاطح صـــخرة يومـــا ليوهنهـــا فلـــم يضـــرها وأوهـــي قرنـــه الوعـــل**

بفيك الجنادل، إن الله ليس بفكرة يفترضها مفترض، بل هو خالق السموات والأرض، فكل ما بدا فيهما فهو بعلمه وحكمته، وهو الذي خلقه وأوجده واتقن صنعه. وكذلك العقول التي انكشف بها ذلك السر هو خالقها ومدبرها ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾.

(يتبع)



## الإسلام لا يتضاد مع العلم أبداً

٣- قوله: أما تطوير الإيمان بسيطرة الغريزة فهو يجتاز أزمة عميقة في بلداننا العربية، نتيجة العلم الذي بدا يشرح بعض الظواهر الطبيعية الغامضة، والتي ساد الاعتقاد الخاطئ أنها وظيفة الله.

تقدم الرد على صدر هذه العبارات، وبقي عجزها، وهو قوله (والتي ساد الاعتقاد الخاطئ أنها وظيفة الله). هل هذا الكاتب لا يعرف اللغة العربية، ولا ندري هل يعرف اللغات العجمية أم لا، ويضاف إلى جهله باللغة العربية عدم الإخلاص في البحث والدرس وسوء القصد وإرادة الاستفزاز بإطلاق العبارات الخارجة عن الموضوع ليرضى بها من أشلاه للعض والنباح، وإلا فكيف يطلق على الله خالق السموات والأرض ومدبر شؤونهما، أن له وظيفة. قال الفيروزأبادي في القاموس: و(الوظيفة) كسفينة ما يقدر لك في اليوم من طعام أو رزق ونحوه والعهد والشرط. ج وظائف ووظف بضمتين. والتوظيف تعيين الوظيفة، انتهى. فكل موظف بالفتح له موظف بالكسر، وهو الذي يقدر له وظيفته، والله رب العالمين وخالقهم ورازقهم، وهو الذي يحيي ويميت بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، ويحكم ولا يحكم عليه. ولولا سوء القصد والجهل باللغة العربية لقال بدل تلك العبارة، لقد كشف العلم أموراً كان بعض الناس يظن أنها خاصة بالله لا يقدر عليها غيره، وذلك كالقضاء على بعض الأمراض المعدية، كالجدري وحصر الأوبئة في مكان معين، ثم القضاء عليها بالعلاج، والتزود بالهواء والطعام والآلات التي تصل بالمراسلة والمحادثة الخارج من جو الأرض بأهل الأرض. وهذه الأمور نفسها هي من فعل الله أيضا، لأنه هو الذي خلق العقول التي اخترعتها، وهو الذي وهب الحياة والقدرة للقائمين بها. وقد ظهرت أمور كثيرة، كالراديو والتلفزيون والطيران والمكالمات التليفونية، كان الناس يظنونها من خوارق العادات، ثم أصبحت عادية. ولا يوجد في الكتاب ولا في السنة ما يدل بأي نوع من أنواع الدلالة على أن تلك الأمور خارجة عن طاقة الإنسان. بل جاءت الإشارة الواضحة إليها في الكتاب العزيز في قوله تعالى في سورة النحل (٨): ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعني ويخلق ما لا تعلمون من المركوبات

كالطائرات والسفن الهوائية والبواخر المواخر للبحور والسيارات والقطر. ومما قد يذكره أمثال هذا المهوس، ما كان العامة يظنونه، من أن الأرض غير كروية وينسبونه للقرآن في قوله تعالى في سورة الغاشية (٢٠): ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ هذا لا يعتقده إلا العامة. أما العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، والغزالي، وابن رشد، والنيسابوري، فقد صرحوا وأقاموا الحجج على أن الأرض كرة. وقد يذكر بعض المهوسين، اكتشاف دوران الأرض على نفسها وحول الشمس، ولم يتعرض له القرآن بنفي البتة، بل أشار إليه في قوله تعالى في سورة يس بعد ذكر الأرض والشمس والقمر: ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٤٠). أما ما صرح القرآن بأنه خاص بالله تعالى كخلق السموات والأرض بإنسانها وحيوانها ونباتها وما أودع في ذلك من الأسرار ودقة الصنع والتدبير الذي يستحيل عند كل من كانت له ذرة من العقل أن يكون وليد المصادفة والاتفاق. قال الله تعالى في سورة الحج في الرد على المشركين (٧٣): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ هذا هو التحدي المخزي، فهل وجد في هذه القرون الطوال منذ نزول هذه الآية إلى الآن من استطاع أن يخلق ذبابا فضلا عن غيره. وقال تعالى في سورة الأنبياء (٣٥): ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ ﴾ فهل استطاع العلم المزعوم أن يخلد أحدا من الناس أو من الحيوان أو من النبات. وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ ، وقال تعالى في آخر سورة لقمان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية:

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، ولا يجليها لوقتها إلا هو، وكذلك إنزال الغيث، لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثي أو شقيا أو سعيدا، علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا في دنياها وأخراها. وما تدرى نفس بأي أرض

تموت في بلدها أم في غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك. وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الآية. وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب.

أخرج البخاري بسنده إلى ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ : «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير**».

فهل يستطيع العلم المزعوم أن يعلم شيئا من هذه الخمس؟ لعل قائلا يقول، إن الناس في هذه الأيام يعرفون أن المطر سينزل غدا أو لا ينزل، وأن السماء ستكون مصحية أو غائمة. فأقول: إن هذا العلم مكتسب بآلات وأمارات، ولو سألنا العالم الفلكي عن وقت نزول المطر بعد شهر من يومنا الحاضر لا يستطيع أن يجيب بشيء. إذن لا يعلم متى ينزل المطر إلا الله، وعلمه لا يحتاج إلى آلات ولا أمارات، فهو يعلم متى ينزل المطر، والمقدار الذي ينزل من المطر بعد عشرة آلاف سنة، بل علم سبحانه أوقات نزول المطر ومقاديره قبل أن تخلق الأرض إلى أن تفني. وسيقول قائل، إن الطبيب يعرف ما في بطن الحامل أذكر أم أنثي، والجواب عن هذا كالذي قبله، إنما يعلم ذلك بالأشعة أو بأمارات، ولو سألناه عن طفلة في العاشرة من عمرها، ماذا ستلد من الأولاد، بعدما تبلغ وتتزوج لما وجد جواباً. وهكذا يقال في كل أمر أخبر الله سبحانه أنه استأثر بعلمه أو بخلقه في كتابه العزيز أو على لسان نبيه الكريم ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ وأظن هذا القدر كاف لتكذيب دعوى الحبشي المدعي أنه عربي، ولا تعترف به الحبشة ولا العرب، لأن الحبشة نصارى، والعرب أكثرهم مسلمون، وقليل منهم نصارى، ولا يستطيع أن يصرفهم عن دينهم الدساسون المجهولون، فهم يضربون في حديد بارد.

٤- قوله: إن الإيمان بشخص بشري، أو بالله، يستهدف صلب الكائن الذي يستحق هذا الإيمان. الخ

هذا كلام ركيك فاسد لا طائل تحته. وقد انحط في الركاكة والتعمية إلى حد لا يستحق أن يقرأ ولا أن يجاب عنه، وعلى ذلك نجاريه فنقول، ما معني الإيمان بشخص بشري؟، هل معناه أن يعتقد فيه أنه الله كما يدل عليه قوله، يستهدف صلب الكائن، فكأنه يعرض بعقيدة

النصارى في الأقانيم الثلاثة، وعقيدة الصلب والفداء. فإن كان الأمر كذلك نترك الجواب عنه للمسيحيين، لأننا معشر المسلمين لا نعتقد في البشر كلهم، إلا أنهم مخلوقون لله ومفتقرون إليه، والله غني عنهم، ليس له ند، ولا كفؤ ولا شبيه ولا نظير، ولا نعتقد صلبا ولا فداء.

٥- قوله: فالمتعالي بالنسبة للغريزة هو المجهول والمغلق. وكلما زاد خوف الغريزة من أمر، ازداد اعتقادها بأنه يستحق الإيمان.

قوله، فالمتعالي بالنسبة للغريزة هو المجهول والمغلق، كلام فاسد لا معنى له، لأن المتعالي صفة لا يتعين موصوفها، فإن أراد به اسم الله تعالى، فإن من أسمائه المتعالي، فإنه ليس مجهولا إلا عند الجهال أمثاله، ومن عرفه حجة على من لم يعرفه. وإذا كان يجهله، فكيف يحكم عليه، فإن الحكم علي الشيء فرع تصوره. فهو وصف شيئا بالتعالي، ولم يعين الموصوف، ثم حكم عليه بأنه مجهول ومغلق. والصفة في اللغة العربية وفي غيرها تدل على أمرين، على عين متصفة بصفة. فمن السخافة تصور شيء، وصفته بالتعالي. ثم الحكم عليه بأنه مجهول، وما معنى الإغلاق هنا، إنما يتصف بالإغلاق الباب، والمعنى الغامض، ولعله يريد هنا المعنى الأخير، فإن كان الأمر كذلك. ففكره هو المغلق، وتعالى الله وتنزه عن أن يكون مجهولا أو مغلقا، وقد عرفه أهل السموات وأهل الأرض وشهدوا بربوبيته وكماله المطلق وهيمنته وقيوميته. ولماذا أبهم وهرب إلى الصفة، ولم يقل الإله أو الله كما صرح بذلك فيما بعد بغاية الوقاحة والنذالة. وليس ذلك من شأن الباحثين، لأن الشتم والسفاهة سلاح الدساسين. وأي علاقة للغريزة بالاعتقاد، فإن الاعتقاد خاص بالعقلاء، والغريزة مشتركة بين الناطق والناهق، ولكن من فقد نصيبه من العقل وغلبت عليه الغريزة كالبهائم ينسب كل شيء إليها.

أما قوله: وكلما ازداد خوف الغريزة من أمر، الخ. تقدم أن الغريزة لا شأن لها بالاعتقاد، وإنما الاعتقاد يكون بالعقل، والمعتقد هو الإنسان. وصحيح أن الإنسان إذا خاف من أمر آمن به وعبده فعباد الأوثان والأصنام يعتقدون أن لتلك الأوثان والأصنام أرواحاً متلبسة بها تضر وتنفع وتقضي حاجات من يخضع لها ويذبح لها ويطوف بها ويهتف بأسمائها إذا حزبه أمر، فهم يخافونها ويرجونها، ولكن المؤمنين بالله ليسوا كذلك، فإنهم آمنوا بالله بعد

ما نظروا في خلق السموات والأرض ورأوا كل شيء من المخلوقات يدل دلالة واضحة قاطعة على خالقه.

**وفي كـــل شـــيء لـــه آيـــة تـــدل علـــى أنـــه الواحـــد**

قال تعالى في سورة آل عمران ١٩٠ – ١٩١ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ . وسأفصل القول فيما بعد في الأدلة والبراهين القطعية التي تدل على وجود الخالق وربوبيته وعلمه وحكمته وتدبيره لمملكته العظيمة بحول الله وحسن عونه.

٦- ثم قال: فبعد أن افترضنا أن فكرة الله يجب أن تشرح كل ما يبدو لنا غامضا ومغلقا في ظواهر الطبيعة، وبعد أن رأينا العلم الحديث يشرح هذه الظواهر عينها، شاع الاعتقاد بأن ذلك إنما هو انتصار للعلم على الإيمان الديني.

هذا الكاتب ليس من أهل العلم ولا من أهل الدين، فهو جاهل بهما جميعا. ولو كان من طلاب المعرفة لعرف واعترف بأن الإنسان لا يزال في غاية الجهل بنفسه وبما حوله من حيوان ونبات وجماد، ولم ينكشف له من أسرار ذلك إلا شيء ضئيل جدا. فما يعلمه بالنسبة إلى ما يجهله كنقطة في بحر، فهو لا يعلم على الحقيقة والتدقيق مستقر العقل والإدراك الذي فضل به الإنسان على الحيوان الأعجم. والإدراك أنواع، فأين يستقر كل نوع منها، كالحفظ والنسيان والذكر والذهول والتفكير، وأين خزانة المعلومات من جسمه. وأين تستقر الحياة، وما هي الحياة؟. وأين يكون عقله حين ينام؟ وهل هناك عقلان، عقل باطن وعقل ظاهر، وهذه الأمور التي يراها في المنام بأي قوة يراها.؟ ثم إن العلم بأمراض الإنسان وعلاجها لا يزال ضئيلا، والمجهول منه أكثر من المعلوم، والمعلوم منه يقينا أقل من ذلك. ثم ما هي جاذبية الأرض التي تؤلف بين أجزائها، وتجذب إليها كل ما هو في الغلاف الهوائي المحيط بها، وأين هي هذه الجاذبية؟. ومن ادعي العلم بكل شيء فهو جاهل بكل شيء. ثم إن العلم والإيمان بالله متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، إذ لا يمكن أن يعرف الإنسان دقائق المصنوعات وأسرارها وعجائبها ويشتد إعجابه بها. وهو يجهل الصانع جهلا تاماً، بل ينكر وجوده.

٧- ثم قال - فض فوه - وعاش من يجفوه - ما نصه بالحرف: وأن الله لن يلبث أن يتقهقر يوما بعد يوم حتى ينبذ نهائياً. وبما أننا نسبنا إلى الله وظيفة ليست له. الله ليس ظاهرة لا متناهية الصغر، أو متناهية العظمة. أردنا أن نصلحه هو بإنكاره نهائياً، بدلا من أن نصلح ذواتنا. انتهى هذيانه.

**البراهين العقلية التي تضطر كل عاقل أن يؤمن بالله:**

قبل أن أبدأ في سرد البراهين أريد أن أنقل كلاما لبعض العلماء المعاصرين الناصحين لأمتهم الذين هم سرج هداية وهداة إلى الحق. قال الأستاذ محمود صالح الفلكي في مقدمة كتابه (العلم يدعو للإيمان) ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم .. قد يبدو غريبا أن رجلا درس العلوم الاقتصادية والمالية وشغل منصب وكيل وزارة المالية والاقتصاد، ومركز نائب المحافظ لصندوق النقد الدولي بواشنطون. والآن هو سفير مصر في باريس، يعمد إلى ترجمة كتاب كهذا الكتاب، يتكلم في الفلك والجيولوجيا والطبيعة والكيمياء والطب وعلم الوراثة، ومثل ذلك من العلوم، التي لا تمت إلى عمل المترجم، ولا إلى دراسته، بسبب من الأسباب.

ولكن الواقع أني حين قرأت هذا الكتاب أثناء إقامتي في أمريكا - ضمن ما قرأته من كتب في موضوعات شتى - قد أعجبتني الغاية السامية التي توخاها المؤلف الكبير من تأليفه، ألا وهي إثبات وجود الله ووحدانيته بأدلة من العلم المادي الحديث.

وكان العهد بدعاة الإلحاد أن يحتجوا لدعوتهم بأدلة يحسبونها علمية، حتى لقد ظن البعض أن العلم والإيمان نقيضان لا يجتمعان. بل ألف أحد العلماء الغربيين، وهو جوليان هكسلي، كتابا في ذلك سماه (الإنسان يقوم وحده) (Man Stands Alone) زعم فيه أن العلم ينكر وجود الله. ولكن ها هو ذا عالم من أكبر العلماء الأمريكيين، وقد شغل حينا مركز رئيس المجتمع العلمي في أمريكا، قد تصدى له ورد عليه، وبين له وللناس جميعا أن العلم الحديث يثبت وجود الله وينتهي إلى الإيمان به وبوحدانيته بما لا يحتمل الشك أو الجدل. وقد سمي كتابه (الإنسان لا يقوم وحده) (Man doest not stand alone) أثبت فيه بمختلف العلوم أن الله بارئ الكون وهو خالق كل شيء.

لذلك وحده عنيت بترجمة هذا الكتاب لعله ينتشر بين قراء العربية كما انتشر في أمريكا حيث كان له أثر كبير في صد موجة الإلحاد وتثبيت قوة اليقين.

وقد وجدت كثيرا من آيات القرآن الكريم تؤيد ما ذهب إليه المؤلف فوضعتها في مواضعها من فصول الكتاب. والله الهادي إلى أقوم سبيل.

**التعريف بمؤلف كتاب: الإنسان لا يقوم وحده**

وضع العلامة الأمريكي كريسى موريسون هذا الكتاب للقارئ العادي، سواء أكان شابا أم شيخا، رجلا أم امرأة، وبينما يعالج مسائل علمية جديدة، تراه يطلعك على غرائب في الكون ما كانت تخطر لك ببال.

وهو كتاب علمي قبل كل شيء، إذ يعالج مسائل تختص بالفلك والجيولوجيا والطبيعة والكيميا والطب وعلم الأحياء ونحوها. ولكنه بسط هذه المسائل العلمية لدرجة تقربها إلى ذهن كل قارئ. ومن عجب أن يستوعبها كلها في هذا الحيز الصغير، وأن يعرضها بشكل جذاب.

أما ما كشفه المؤلف في هذا الكتاب من حقائق جدير بأن يثير خيال الإنسان، غير أن النتائج التي انتهي إليها هي ثمرة (تكييف) الإنسان، كي يلائم الطبيعة بشكل ظاهر، كما هي ثمرة تكييف الطبيعة لتلائم الإنسان بشكل خفي ادعى إلى الدهشة. ولا ريب أن هذا الكتاب سيكون موضع التقدير من جميع المفكرين الذين يروقهم أن يجمعوا التأمل والتفكير إلى الإيمان والدين.

وقد برهن المؤلف بالبراهين القاطعة على أن عجائب علاقات الإنسان بالطبيعة، ووجود الحياة نفسها، تتوقف كلها على وجود الخالق سبحانه وتعالى، وعلى وجود قصد من خلق الكون، ويتمثل هذا القصد في إعداد روح الإنسان للخلود.

وهذه الغاية التي توخاها المؤلف هي غاية جليلة بلا ريب، ولا تعارض بينها وبين الأديان على اختلافها، بل إنها على العكس تؤيدها، إذ تثبت الإيمان بالله الذي هو أساس كل دين. ومن ثم يروق هذا الكتاب العالم العصري، والعالم الديني، والواعظ، ويرضي المتدين، كما يقنع الذي بنفسه شك.

ولا ريب أن الموضوع الذي عالجه هذا الكتاب هو موضوع اليوم، فقد انتشرت فكرة الإلحاد في كثير من البلدان، وزعم الملحدون أنهم ينكرون الإيمان على أساس من العلم، ولكن ها هو ذا عالم كبير يؤيد الإيمان ببراهين من أحدث العلوم.

هذا والعلامة كريسى موريسون، هو الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك، ورئيس المعهد الأمريكي لمدينة نيويورك، وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة، وزميل في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي، وعضو مدى الحياة للمعهد الملكي لبريطانيا العظمى.

وقد قرظت هذا الكتاب صحف ومجلات أمريكية عدة. ومن ذلك ما نشرته مجلة (هارتفورد كورانت) ضمن مقال طويل، إذ قالت:

إن المؤلف الذي هو رئيس سابق لأكاديمية العلوم في نيويورك، قد اشتق الوقائع من مختلف العلوم، وجمعها معا في هذا الكتاب الذي يفتح الأذهان ويضيئها بشكل يدعو إلى العجب، مثله في ذلك مثل صانع الساعة الدقيقة الجميلة، إذ يبحث عن عجلة صغيرة أو ترس هنا وهناك ويضم أداة دقيقة إلى مسمار، حتى يتم صنع تلك الساعة.

وقد استعان المؤلف بأمثلة من علم الفلك والجيولوجيا وعلم الحشرات وعلم النبات وعلم الأحياء وعلم الطبيعة وعلم النفس والفلسفة. وقد جمع هذه المادة بعناية بالغة، وعرضها بدقة وبراعة. واشتق من هذه العلوم المختلفة المتشابكة، حقائق عجيبة مرتبطا بعضها ببعض في انسجام كامل بشكل يؤدي بالضرورة إلى إيمان كل إنسان مفكر سليم الفكر بوجود الله.

إن بعض المؤمنين يؤمنون على أساس الشعور، والبعض الآخر على أساس تعاليم يحفظونها دون تفكير، ولا يصلح هذا الأساس ولا ذاك، وإنما يصلح الإيمان القائم على العقل، ليقي الإنسان في هذا العصر الذري المدهش.

**ومن كلام الشيخ أحمد حسن الباقوري في الإعجاب بالمؤلف المذكور:**

وبعد، فهذا المؤلف ثمرة عقل كبير ناضج ... عقل وسع ثقافة العصر وأحاط بالكثير من دقائقها، حتى صار صاحبه رئيسا للمجمع العلمي بأمريكا، وذلك منصب لا يرقي إليه إلا العباقرة الأفذاذ من العلماء.

وغاية المؤلف من هذا البحث، الوصول إلى الله عن طريق العقل وما يتكشف له بالعلم والمعرفة من أسرار الكون وعجائبه. فكلما تكشفت له حقيقة من الحقائق هتف من أعماقه، سبحان الخالق المبدع، اعترافا منه بأن الإنسان وما سخر له العلم والمعرفة من وسائل القوة والاقتدار، أضعف من أن يبلغ من أسرار هذا العالم شيئاً مذكوراً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ لم يكن المؤلف عالمًا وحسب ولكنه أيضا شاعرا، كلما تناول عقله حقيقة من الحقائق أشرق قلبه بها، فسرت في كيانه هزة الإكبار والإجلال لخالق الكون ومبدعه، وتلك هي دعوة الفطرة السليمة إلى الله وطريقها إليه. ومن هنا كان هذا البحث جديرا بأن ينظر فيه المسلم بعين الاعتبار، وأن يجعل من مباحثه دروسا نافعة يرى من خلالها قدرة الله وعظمته، فيقوى يقينه ويزداد إيمانه.

**كلام الدكتور أحمد زكى مدير جامعة القاهرة سابقا في التعريف بهذا المؤلف:**

في الاشتغال بمطالب العيش، والاغتمار في غمرة الحياة، ينسي الناس أن يفكروا فيتساءلون: من الغاية في هذا الوجود؟ وما اشتغال بعيش، وما اغتمار حياة؟ وقد ينتبه الناس من غفلة، أو يستيقظون من نومة، إذ أصابهم مرض، أو أصابهم عجز، أو نابتهم نائبة. وشر النوائب عندهم الموت، ينزل بقريب أو ينزل بحبيب. ففي هذه الفترات السوداء، البارقة في سوادها، يتوقف الناس يستخبرون، من أين جئنا، وإلى أين المصير؟ ولكنها فترات لا تطول. فحوافز العيش تعود فتحفز ويشتد حفزها، والحياة تعود تهتف بحاجاتها ويشتد هتافها. والإنسان منا يلبي جبرا لا اختيارا، ويتركز على يومه، وينسي أمسه الذي كان، وينسي يومه الذي سوف يكون، إلا من حيث ما يطعم، ويلبس، ويلذ، ومن حيث ينعم أو يشقي بالحياة.

ولكن مع كل هذا، فمن تحت صخب النهار، ومن بين الأصوات الصارخة في معركة العيش، يحس الإنسان منا صوتا خافتا يحاول دائما أن يصل إلى الآذان. وهو يصل إليها عندما يتعب القائم فيحتاج إلى القعود، وعندما يجهد الجاهد فيتصبب عرقا، فيأوي إلى ركن هادئ يجفف عن وجهه عرقه الصبيب. أو هو يصل إليه في هداة من الليل، وهو قاعد في العراء، يرعى أشياء هذه الأرض، ويرعى على الأكثر أشياء هذه السماء.

وهو إذ يرعى هذه السماء، يرعى أشياءها، يرعى نجومها. يزداد هذا الصوت الخافت في آذانه ثم يزداد، حتى يصير صراخاً. هذه السماء ما هي؟ وهذه النجوم ما أعدادها وما أبعادها؟ وما فتات من النور مبعثر في هذه القبة البلقاء، بعثرة الرمال في الصحراء؟ وكيف تحور هذه القبة وكيف تدور؟ وما شروق لها وما غروب؟ وما نسق وأنساق تجري عليها ومواعيد تضربها فلا تختلف أبدا؟.

ويأخذ ينعم النظر رافعاً بصره، وهو إذ يملأ بالذي يراه عينا، يملأ به فكرا ويملأ به قلبا. وعندئذ يرى تلك الصور وهي تجري في أزمة يجمعها آخر الأمر زمام واحد، ويرد تلك المعاني، وهي مختلفة كاختلاف ألوان الطيف من أحمر وأصفر وأزرق، ثم تجتمع كما يجتمع الطيف، فيكون منه لون أبيض واحد، ويرد كل هذه المعاني، ويرد كل هذه الصور وكل هذه المباني، إلى يد صناع واحدة، تحركها إرادة عاقلة منسقة هادية واحدة، فتلك يد الله، وتلك إرادة الله.

على هذا جرى الأقدمون واهتدوا إلى كشف حقيقة الله. وما أعسره كشفا كان، عند قوم، لأنه كشف مخلوق تستر وراء مخلوقاته، وما أيسره كشفا كان، عند أقوام، لأنها مخلوقات عجيبة رائعة، ما أسرع ما رقت فنفذ إليها الفكر الإنساني العاقل، فشفت عما وراءها. وكان الفكر أحد أعاجيبها.

ثم جرى الزمان فجاء العلم، أشرق على الناس العلم الحديث منذ ثلاثة قرون. وهو بعد ما بلغ الضحى.

وكشف العلم عن عجيب ما صنع الصانع. كشفه في النبات، وهو صنوف لا عداد لها، وكشفه في الحيوان، وهو أجناس لا حصر لها. وكشفه في الإنسان، أسمي حيوان. وكشف عن أنساق واحدة في كل هذه الصنوف والأجناس جميعا. وكشف عن قوى في كلها تعمل واحدة، على اختلاف في درجات، ولكن على اتحاد في غاية، وهدي، وهدي المنطق، وهدت الفطرة، إلى أن صاحب هذه الأنساق لابد واحد، ومجرى هذه القوى لتعمل على هذه الأساليب الواحدة، لابد واحد. ونسق العلم ما بين الأرض الجامدة وما عليها من أحياء. ونسق ما بين الأرض، جامدها والحي، وبين هذه الشمس وذاك القمر، وأثبت أن المعدن واحد، والأصل واحد، وأثبت أن الذي صمم عين الإنسان بعدستها ومائها، وما وراء الماء

من شبكة تلقي عليها الصور، هو هو لابد الذي صمم هذه الشمس وأخرج منها تلك الأشعة ووجهها إلى الأرض. فهذه العين تكون عبثاً لولا هذا الضياء.

وجاء العلم، وجاء العلماء بألف ألف دليل على وحدة الأرض، وما عليها، ووحدة السماء. ومن هذه الوحدة درج الناس والعلماء إلى وحدة رب هذه الأرض ورب السماء.

ومع هذا بقيت في العلماء بقية تقول بالخلق والتخلق طبعا، وتنكر وجود الله. ومن هذه البقية العالم الإنجليزي، جوليان هكسلي فكتب في ذلك كتابا أسماه (الإنسان يقوم وحده) (Stands Alone) وهو في ذلك يسير على درب سار عليه جده من قديم. فجده توماس هكسلي ١٨٢٥ – ١٨٩٥، صاحب دارون وناصره في القرن الماضي.

وظهر هذا الكتاب لهذا العالم فانبري له عالم آخر، فكتب كتابه هذا، الذي بين يدينا، وأسماه (إن الإنسان لا يقوم وحده) (Man does not stand alone) أراد بذلك أن يقول أنه يقوم في هذه الدنيا ومعه الله.

والكتاب يعدد، في إيجاز جميل، هذه الأنساق التي تجمع بين الخلائق جميعا، وبين الحي والحي،وبين الحي والجامد. وعبر حدود الأرض، واتجه إلى السماء، بربط ما بينها وبين الحياة على هذه الأرض. وهو يدلل من صفات هذا الشيء وهذا الشيء، على أن صانعها لابد واحد، فهما كالمفتاح وقفله اتساقا، لا يمكن أن يكون ابتدعهما ودبرهما إلا عقل مبتدع مدبر واحد.

فالكتاب عون على الإيمان الذي عماده الفكر والفطنة، كبير. اهـ.

**قال محمد تقى الدين:** فتأمل أيها القارئ النبيل في كلام هؤلاء الجهابذة الذين هم أقطاب الأدب العربي والأوربي معا كيف أقاموا البراهين القاطعة على مقام الربوبية الأعلى وحاجة المخلوق إلى خالقه المتعالي. وسيرد عليك في المقالات الآتية بحول الله وقوته ما يثلج صدرك، ويملأ قلبك يقينا وإيمانا، فتغمرك سعادة المؤمنين، وتنقشع عنك سحائب الغافلين. وأين هؤلاء الفحول من ذلك الكويتب المجهول (ريني الحبشي) هيان بن بيان، وضل بن صل.

**وابن اللبون إذا ما لز في قرن      لم يستطع صولة البزل القناعيس**

**وموعدنا المقال التالي، بحول الله وقوته.**



## انتقاد وجوابه

قبل أن ابدأ هذه الحلقة أريد أن أجيب عن اعتراض تقدم به إلى مشافهة نفر من طلبة الجامعة، وينحصر انتقادهم في أمرين: أحدهما ما قرؤوه في المقال الأول من الكلمات الجافية الخشنة الموجهة إلى المدعو رينى الحبشي. والثاني قالوا كيف تحتج بالقرآن والحديث على خصمك، وهو لا يؤمن بهما، فأجبتهما عن الأول بأن الجفاء والشتم والبذاء كانت ابتداء من الحبشي، ولم تكن موجهة إلى، ولا إلى أبي، ولا إلى شخص أحترمه، بل كانت موجهة إلى خالق السموات والأرض الذي أعبده ويعبده جميع المؤمنين به فلو أن شاتمًا شتمني فأجبته بشتم مثل شتمه لرأيتم أنني معذور ولم تعتبوا علي، بل كنتم تلومونه لابتدائه بالظلم والشتم. وهكذا، لو شتم شخصا محترما عند قومه فعوقب على ذلك بعقاب شديد كالسجن والقتل لقلتم إنه يستحق ذلك، فهل ذلك الشخص في نظركم أعظم من الله، أم تريدون أن أغضب لنفسي ولقومي ولرؤسائهم، حتى إذا جاء شخص دسه أعداء قومنا ودينا وأغروه بشتم إلهنا وإهانة مقدساتنا، حينئذ نعفو ونصفح، هذا شأن المنافقين الذين لا مبدأ لهم ولا إيمان، وأما إيراد الآيات والأحاديث، فلم أوردها للاحتجاج بها عليه، وإنما أوردتها تحديا له أن يجد فيها مطعنا، على أن القرآن لا يفرض على الناس أن يؤمنوا بلا دليل ولا برهان، وإنما أمرهم بالنظر في البراهين التي عرضها وبسطها بأسلوب بليغ، لا ينظر فيه ناظر عاقل منصف إلا كان مضطرا للإيمان والتصديق.

**من اين سرق الحبشي ذلك الراي السخيف؟؟**

بعد ما كتبت ما تقدم وجدت النص الذي سرقه الحبشي وتظاهر بأنه رأيه الخاص الذي وصل إليه بتفكيره العبقري، وأراد أن يقدمه هدية للتربية العربية تبرعا منه دون أن يلتمسه ملتمس أو يسأله سائل.

من حسن المصادفة أني بعد ما فرغت من كتابة الحلقة الثانية، وذكرت فيها تأليف جوليان هكسلي الإنكليزي Julian Huxley الذي أسماه Man Stands Alone أي الإنسان يقوم وحده. ورد العالم الأمريكي كريسي مورسن. Cressy Morrison بكتابه الذي أسماه Man Does Not Stand Alone الإنسان لا يقوم وحده. ومعني

الاسم الأول أن الإنسان مستقل بنفسه لا يحتاج إلى إله يدبر شؤونه. ومعني الرد عليه ليس الإنسان قائما بنفسه، بل هو محتاج إلى خالقه. وقفت على ملخص لكلام هكسلي في مجلة البعث الإسلامي الهندية في الجزء الرابع والخامس من السنة التاسعة للدكتور وحيد الدين خان، بعد ما لخص كلام المؤلف الإنكليزي عاد عليه بالنقض وأورد عليه رداً مفحماً لعالم أمريكي آخر اسمه (سيسيل بيس هامن Cecil Bayce Hamann) وسألخص كلام هكسلي ليتبين القارئ العربي أن الحبشي سرقه ليتحف به العرب، ولم يذكر الرد عليه طبعاً، لأنه سارق يقصد الهدم والتخريب، وهذا كلام هكسلي مختصراً بعد الترجمة:

إن الديانة لدي مفكري العصر الحديث لا تحمل قيمة، بل وإنها غريزة الإنسان التي تدفعه إلى تأويل هذا الكون. إن الداعي إلى البحث عن التأويل ليس خطأ في نفسه، غير أن قلة المعلومات هي التي دعت آباءنا الأولين إلى ردود خاطئة تعبر عن الإله أو الديانة، والإنسان الذي عثر على أخطائه القديمة في كثير من أمور الحياة بفضل نهضته العلمية وتقدمه الثقافي بلغ اليوم إلى موقف يستطيع فيه إصلاح أخطائه الفاحشة حول تأويل هذا الكون.

وبناء على هذا النوع من التفكير تصبح الديانة تأويلا غير حقيقي لحقائق غير ثابتة، وبما أن الإنسان كان محدود العلم والثقافة قديما لم ينجح في تأويل الوقائع والأحداث، فاضطر إلى اختراع فروض خاطئة باسم الدين، ولكن قانون التقدم العلمي العام أخرجه اليوم من ظلمات الأوهام إلى نور العلوم الحديثة، فأمكن له في ضوء المعلومات الجديدة أن يطلع على حقائق الأشياء عن طريق التجربة والمشاهدة بدلا من أن يؤمن بعقائد لا صلة لها بالحقيقة أصلا. ولذلك فإن الأشياء التي كانت نتيجة أسباب ما فوق الطبيعة في الزمن القديم أصبحت اليوم حقيقة ملموسة مصدرها الأسباب الطبيعية. وقد أثبت الأسلوب الحديث لدراسة الأشياء أن الإيمان بوجود الإله لم يكن اكتشافا حقيقيًّا، وإنما كان ذلك تخمين العهد الجاهلي الذي قضي عليه نور العلم الحديث.

لقد أثبت (نيوتن) أنه ليس هناك إله يحكم دورة الأفلاك والكواكب، كما أن نظرية (لابلاس) تصدق أن النظام الفلكي لا يحتاج إلى إله يسيره بانتظام. وقد قام (دارون) و(باسجر) بإثبات هذا المبدأ في المجال البيولوجي. إن تقدم علم النفس، وزيادة المعلومات

التاريخية في القرن الحاضر أزاح الإله عن مقامه المفروض ليحكم الحياة الإنسانية وسير التاريخ.

إن بطل هذه الثورة في عالم الطبيعة إنما هو (نيوتن) الذي قدم نظرية أن الكون مرتبط بمبادئ غير قابلة للتغيير والحدوث. وهناك قوانين ثابتة تشرف على حركة الأجرام السماوية كلها، وظهر في الأخير كثير ممن قاموا بهذا التحقيق حتى بدا لهم أن جميع ما بين السماء والأرض من الأحداث، إنما هي طوع إشارة لنظام خاص محكم يدعي باسم قانون الطبيعة (Law of nature) وهذا التحقيق يقضي طبعاً على وجود إله قادر وراء هذا الكون قائم بتسيير نظام الكون الدقيق، وأكثر ما يقال في هذا الصدد هو أن هناك إلها حرك جهاز الكون مرة في البدء، ولذلك كان الناس قديما يؤمنون بإله كأول محرك للكون، ويقول (والتير) أن الإله يشبه في تكوين نظام الكون صانع الساعات الذي يركب الآلات الدقيقة في شكل خاص ثم يتركها للناس يستعملون، دون أن تبقي له علاقة بها، وجاء (هيوم) فقضي على هذا الإله العاطل بقوله: إننا رأينا الساعات تصنع، ولكننا لم نر الأكوان تصنع وتكون، فكيف يمكن لنا أن نؤمن بإله قام بصنع هذا الكون.

تقدم العلوم الطبيعية وتوسعها مكن الإنسان مما لم يكن يحلمه من قبل. فقد كنا لا نعرف حادثة كيف حدثت لعدم إطلاعنا على أوضاع الوقائع والأحداث، ولكنها أصبحت اليوم شيئا معلوما لظهور أوضاعها. واضرب لذلك مثلاً ، وهو أن الإنسان عندما لم يكن يعرف كيف تطلع الشمس وتغرب، كان يعتقد بوجود إله يأمر بطلوع الشمس وغروبها، وهكذا نشأت فكرة قوة ما وراء الطبيعة التي كانت تحول كل شيء تجهل مصدره إلى تلك القوة، ولكننا الآن حينما عرفنا أن طلوع الشمس وغروبها إنما يحصلان بدوران الأرض حولها لا نحتاج إلى فرض إله ينظم طلوع الشمس وغروبها. وهكذا كل شيء كان مصدره غير معلوم، وكان يحول إلى قوة خفية أصبح اليوم نتيجة عمل القوي المعلومة ورد فعلها في ضوء دراسة العلوم الحديثة. كأن العلوم بأسباب الأحداث الطبيعية قضي على حاجة فرض إله، أو قوة ما وراء الطبيعة التي كان الناس قد سلطوها عليهم. إن تسمية قوس قزح علامة الله فوق الشمس ظن خاطئ إذ كان ذلك ينشأ من انعطاف أشعة الشمس على المطر النازل.

**رد العالم الأمريكي «سيسيل بيس هامن» على هكسلي:**

كيف يحتج هكسلي على مبدئه بمثل هذه الأفكار، يقول: إن كانت الأحداث تصدر من أجل أسباب طبعية، فلاشك أن قوة ما وراء الطبيعة لا تستطيع أن تكون مصدرها، وينبغي أن نبحث الآن عن الحجة التي عرضت في ضوء دراسة الطبيعة. وهي أن دراسة الكون تعطي فكرة أن الوقائع لا تحدث إلا وفق مبدأ الفطرة، إذن لا حاجة لتأويلها إلى فرض إله، لأن المبدأ المعلوم إنما هو دليل على وجود الوقائع والأحداث.

وقد رد على هذا النوع من الاستدلال أحسن رد العالم الأمريكي سيسيل بيس هامن (Nature is a fact not an explanation) يعني أن مبدأ الفطرة حقيقة الكون، وليس تأويل الكون، سلمنا أنكم أطلعتم على مبدأ الفطرة، ولكن الذي أطلعتم عليه ليس جوابا لتلك المسألة التي يحتج فيها بالديانة. إن الدين يعطي فكرة عن تلك الأسباب والعوامل التي تعمل عليها وراء هذا الكون. على حين، الاكتشاف العلمي يتعلق بمسألة الكون وهيكله الخارجي. إن العلم الحديث يفسر لنا تفاصيل الأحداث فقط، وليس هو تأويلها الحقيقي. إن العلوم الطبعية كلها تدور حول الموجود وماهيته، وهي لا تقدر على أن تبحث عن الموجود، كيف ظهر إلى حيز الوجود ولماذا؟؟ بالرغم مما يعلم الجميع أن علاقة التأويل إنما هي بهذا الجانب الآخر.

ولكي نفهم ذلك جيدا أضرب لكم مثلا. كلنا يعلم أن فرخ الدجاج يتربى في جوف البيضة وبانكسارها يخرج إلى العالم الخارجي. فكيف يحدث هذا الواقع، وكيف تنكسر البيضة ويخرج الفرخ الذي لا يعدو أن يكون مضغة لحم؟. لقد كان الإنسان يجيب على هذا السؤال قديما بأن الله هو الذي يفعل ذلك، ولكن اليوم بعد المشاهدة الآلية بدا أن مدة (٢١) يوماً لا تكاد تتم، إذ يبدو على منقار الفرخ شيء خشن مثل القرن الصغير، وذلك هو الذي يساعد الفرخ على كسر البيضة، والخروج منها، وأما هذا القرن الصغير فيسقط بنفسه بعد ولادة الفرخ بأيام.

هذه المشاهدة تكذب الوهم القديم بوجود إله يأمر بخروج الفرخ لدي جاحدي الدين اليوم، لأن الآلة تبين لنا بكل وضوح أن هناك قانون ٢١ يوما يحدث خلالها كل ما يساعد الفرخ في خروجه من جوف البيضة، ولكن ذلك مغالطة صريحة لا غير لأن المشاهدة

الجديدة تفسر لنا عدة حلقات الواقع، وبعض أشكاله فقط، دون أن توضح السبب الأصلي للواقع. إن الفرق الذي حدث بعد هذه المشاهدة الجديدة هو أن مسألة انكسار البيضة، إنما توقفت على القرن الصغير الذي يحمله الفرخ. أما كسر الفرخ البيضة بقرنه فحلقة متوسطة للواقع، وليس ذلك سبباً له. فإن السبب يتضح عندما نعلم كيفية ظهور القرن على منقار الفرخ. وبعبارة أخرى، يجب أن نبحث عن السبب الأخير الذي كان يعرف بحاجة الفرخ إلى شيء خشن على منقاره للخروج من جوف البيضة. فأمر المادة بأن يظهر على منقار الفرخ كقرن صغير بتمام ٢١ يوماً ثم يسقط بعد ولادة الفرخ بنفسه. فكأن المسألة تحولت من كسر البيضة إلى خلق القرن. والمعلوم أنه ليس هنا فرق نوعي في الحالتين كلتيهما. وأكثر ما يسمي ذلك مشاهدة واسعة للحقيقة، دون أن نسميه تأويل الحقيقة. كان الناس فيما مضي من الزمان ينسبون عمل هضم الغذاء وتحلله في الجسم إلى الإله، ولكن العلم الحديث أثبت أن ذلك نتيجة تأثير كيميائي، فهل كان ذلك نفياً لوجود الإله؟ ولي أن أسأل، ما هي تلك القوة التي أوحت إلى الأجزاء الكيميائية أن تبدي مثل هذا التأثير النافع؟؟. والغذاء عندما يدخل المعدة ويمر بمراحل متعددة عن طريق نظام متحرك يبدو جليا أن هذا النظام المدهش الغريب ليس مصادفة من المصادفات، ولم يأت إلى حيز الوجود بنفسه، والحقيقة أن هذه المشاهدة تحتم الإيمان بوجود إله يقوم بإملاء إرادته على الخلق بواسطة قوانينه العظيمة التي خلق الحياة من أجلها.

وبذلك نستطيع أن ندرك حقيقة الاكتشافات الحديثة، ومما لا يسعنا إنكاره هو أن علم الطبيعة زاد من معلومات الإنسان حول الكون ومشاهداته فيه، إنه استطاع أن يقدم له تلك القوانين الطبعية التي تحكم الكون وتحركه. وأضرب لذلك مثلا وهو أن الإنسان في قديم الزمان لم يكن يعرف عن المطر سوى أنه ينزل من السماء، ولكنه عرف الآن جميع مراحل المطر التي يمر بها من بخار البحار يصعد إلى السماء وينزل إلى الأرض أمطاراً، ولكن هذه الاكتشافات كلها صورة للواقع، وليست تأويل الواقع، لأن علم الطبيعة لا يعلم الإنسان عن قوانين الفطرة كيف أصبحت قوانين، وكيف هي مستمرة في عملها بشكل نافع في السماء والأرض، وبصورة صحيحة يقوم عليها أساس القوانين في علم الطبيعة. والحقيقة أن الطبيعة التي أطلع عليها الإنسان فبدأ يدعي أنه تمكن من اكتشاف تأويل. مثلا إذا سألت

طبيبا عن لون الدم وقلت له، لم يكون للرد على السؤال الحقيقي، وتعبير خاطئ عن الحلقة الأخيرة للواقع.

إن الطبيعة لا تؤول الكون، وإنما هي في حاجة إلى تأويل. مثلا إذا سألت طبيبا عن لون الدم وقلت له، لم يكن لون الدم أحمر؟؟ يرد عليك فوراً، إن الدم يحمل كرات صغيرة حمرا، وهي التي تسبب له لونا أحمر، صحيح، ولكن ما الذي جعل هذه الكرات الصغيرة حمرا؟؟. إن هذه الكرات تحمل مادة اسمها (هيموجلوبين Haemoglobin) وعندما تدفعها نبضات القلب داخل شبكة شعيرات الرئة الهائلة تتصل كل كرة منها بأوكسجين الهواء الجوي وتتحول إلى لون أحمر قان.

صحيح، ولكن من أين جاءت هذه الكرات الحمر التي تحمل مادة (هيموجلوبين؟؟ إنها تتكون في الكبد. فهمت قولك أيها الطبيب، وهو يثير الاستغراب بدون شك، غير أنني لم أتمكن من أن أفهم ذلك القانون الذي يجعل الدم والكرات الحمر والكبد إلى غير ذلك من أشياء كثيرة مما يحمله جسم الإنسان مرتبطا في نظام دقيق لا يتخلف عن وظيفته في حال ما؟؟ إنه قانون الفطرة.

**ماذا تعني بقانون الفطرة؟؟**

إن معناه، وظيفة القوة الكيميائية والطبعية الخرقاء. ولكن ما الذي يجعل هذه الطاقات الخرقاء تعمل عملها بوجه معلوم على الدوام، وتدفعه إلى مصير معلوم، وكيف تنظم نشاطها بطريق يوحي إلى طائر ليطير، وسمك ليسبح، وإنسان ليظهر على مسرح الكون بمواهبه الخاصة وكفاءاته المدهشة؟؟. وانزعج الطبيب وقال:

لا تسأل عن هذه الحقائق، فإن عالم الطبيعة إنما يخبرك عن شكل الواقع وكيفية وجوده في الكون، ولكنه لا يستطيع الإخبار عن حقيقة الواقع وعن السبب الذي يدفعه إلى حدوثه في ذلك الشكل.

إن هذا الحوار يكشف لنا القناع عن وجه الاكتشافات العلمية، بالرغم مما أعطانا إياه علم الطبيعة من آلات ومرافق وزاد في معلوماتنا زيادة قيمة، ولكنها لا تنوب عن (الدين) ولا تغني الإنسان عنه في أي حال، وإنما هو في حاجة إليه في كل لحة من حياته مهما تضخمت هذه الاكتشافات وتكدست العلوم الحديثة وتضاعفت ملايين الأضعاف مما

هي عليه الآن. وذلك لأن هذه الاكتشافات تخبر بالواقع الموجود، ولكنها لا تجدي علما بالسبب الأخير الذي يبعثه إلى الوجود ومصدره الذي ينبع منه.

إن الاكتشافات التي تحملها العلوم الحديثة، إنما هي حلقة متوسطة للواقع والحوادث، على حين الدين حلقة أخيرة لها. وكل شيء يريد أن يحتل محل الدين يجب أن يكتشف الشرح الأخير والكامل للواقع. واضرب لذلك مثلاً:

إذا كانت هناك ماكينة مغطاة بغطاء نعلم عنها أنها تتحرك فقط، ولكن إذا رفعنا الغطاء عن وجهها نرى العجلة التي في خارجها كيف تتحرك بعجلة أخرى في داخلها. ثم تلك العجلة الصغيرة كيف تتحرك بقوة آلات كثيرة في داخلها. وهكذا نستطيع أن نطلع على جميع آلاتها وحركاتها، ولكن ذلك لا يعني أننا كشفنا السر عن وجودها وصانعها، وهل الإطلاع على عمل ماكينة وآلاتها، يعني وجدت بنفسها وبدون أن تكون وراءها يد صانعة؟؟. كذلك إذا تسني لنا أن نكشف بعض أسرار هذا الكون، لم يتسن لنا أن نقوله إن الكون وجد بنفسه، وهو مشتغل بوظيفته بدون أن تكون هناك يد خالقة قوية. وما أصدق قول (هريز): إن قانون الطبيعة، إنما يؤول وجود مظاهر الحياة الجميلة، ولكنه لا يخبر عن تلك الحياة كيف وجدت. انتهى.

### حاصل كلام جولين هكسلي

يقول هكسلي: إن الأقدمين كانوا جاهلين بحقائق الكون وأسباب مسبباته، فبحثوا عن تأويل يفسرون به تلك الحقائق والمسببات، والبحث في نفسه لا يعاب عليهم، غير أنهم لما كان علمهم بأسرار الطبيعة قاصرا افترضوا أن هناك إلهاً هو الذي يعمل تلك الأعمال ويظهر تلك المسببات ويوجدها بلا أسباب، وظنوا أنهم بذلك قد حلوا المشكلة. ولما ظهر العلم الحديث الذي اكتشف حقائق الكون وعرف لكل حادثة سببها لم يعد يعبأ بذلك الافتراض. وبعبارة أخرى، أن الأقدمين كانوا يخافون من كل ظاهرة تبدو لهم فقدروا وجود الإله ونسبوا إليه كل شيء من شدة فزعهم، فإذا سمعوا الرعد يجلجل قالوا، إن الله هو الذي خلق تلك الجلجلة، وإذا رأوا المطر ينزل قالوا: إن الله رأي حاجة الأرض إلى المطر فخلق المطر وأنزله عليها. وإذا رأوا البرق يلمع قالوا إنه نور خلقه، ونار يخوف بها الناس. وإذا شهدوا زلزلة فسروها بأن الله هز الأرض بهم ليعرفهم قدرته. وإذا رأوا قوس قزح،

قالوا، هذه علامة الله فوق الشمس، إلى غير ذلك.

أما في عصرنا هذا، فكل هذه الأمور قد عرف منشأها وحقيقتها وأسبابها، فلا حاجة بالناس إلى افتراض وجود الإله، ثم نقل كلام والتر الذي قال: إن الإله يشبه في تكوين نظام الكون صانع الساعات الذي يركب الآلات الدقيقة في شكل خاص ثم يتركها للناس يستعملونها، دون أن تبقي له علاقة بها.

قال محمد تقي الدين كاتب هذا المقال: والعجيب من هكسلي إمام الملحدين في هذا العصر كيف نقل قول والتر، مع أنه ينقض مبدأه ويأتي علي بنيانه من القواعد، لأنه أثبت الصانع للساعات، ثم زعم أنها تستغني عنه بعد ذلك، ولم يحسب حسابا لاختلالها وفسادها وحاجتها إلى الإصلاح وإدارتها وتسييرها، ثم إنها لا تخلد آلاف السنين، بل يأتي عليها الفناء فيحتاج الناس إلى ساعات جديدة، ويزيد عدد المستعملين للساعات، فإذا مات صانعها بقي من يخلق من الناس بعد موته بلا ساعات. وهذا إسفاف من القول ينزه عنه كل من عنده ذرة من العقل. وكيف تشبه السموات بكواكبها وشموسها وأقمارها، والأرض بحيوانها ونباتها، فضلا عن الذرة وأجزائها التي اكتشفت في هذا العصر بنظام دقيق، يستحيل أن يكون صنيعة الاتفاق ووليد المصادفة بلا خالق قدره بعلمه وحكمته وسيره بقدرته.

ثم نقل كلام (هيوم) الذي قال، إنه شاهد صانع الساعات يصنعها، ولم ير صانع الأكوان يكونها، فأين الحواس الأخرى غير البصر، وأين العقل الذي كرم الله به الإنسان وفضله به على من سواه من الحيوان والنبات والجماد، وسخر له به كل شيء، وجعله سيدا مطاعا متصرفاً به في غيره من المخلوقات. فالحمد لله الذي حرم الجاحدين من نور العقل وفضحهم بهذه الأقوال السخيفة المتهافتة المتناقضة، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

**بيان رد العالم هامن على هكسلي**

افتتح هامن رده بأن الطبيعة هي حقيقة، وليست تفسيرا للحقيقة، ثم ضرب لذلك أمثلة واضحة لا لبس فيها ولا غموض. الأول، الفرخ في جوف البيضة عندما يناهز ثلاثة أسابيع يخلق له شبه القرن على منقاره فيثقب به البيضة ويخرج، ثم يزول ذلك القرن، فمن الذي خلقه وصوره من سائل في البيضة إلى عظم ولحم، وأعطاه كل ما يحتاج إليه من ساقين يمشي

بهما، وجناحين يطير بهما، وسمع وبصر ومنقار، وجهاز للتنفس، وآخر للهضم، وثالثا للتناسل إلى غير ذلك من بدائع الصنع. ولماذا لم ينبت له ذلك القرن إلا عندما احتاج إليه ليكسر به البيضة، ثم لماذا زال عنه بعد أن لم تبق له حاجة إليه، فهل هذا كله وقع بدون قصد ولا تدبير على حد لغة الحبشي ولا منهاج ولا تدبير ولا علم، وإنما هو اتفاق ومصادفة، فأين تذهبون، وأني تؤفكون وتأفكون، فإنها لا تعمي الأبصار، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور.

**المثل الثاني: هضم الغذاء**

من المعلوم عند جميع الباحثين في نشأة الأرض أنها كانت في أول أمرها غازا، ثم أخذت تتجسم في أزمنة متطاولة. وحين كانت غازا، كانت حرارتها اثني عشر ألف درجة مئوية كما حققه رئيس المجمع العلمي الفلكي الأمريكي «كريسى مورسن» في كتابه (الإنسان لا يقوم وحده) المتقدم الذكر، وأخذت تبرد بانقلاب الغازات إلى أمطار، وتكتل مادة الأرض وتجمدها في أحقاب وأحقاب. ولم يكن هنالك مجال لوجود الحياة فيها بأي شكل من الأشكال حتى بردت، ثم دحيت وتميزت جبالها من سهولها وأوديتها في المقدار القليل الذي هو اليابسة، واستقرت البحور في أماكنها بعد الطوفان المتكرر الذي كان يغمر وجهها، وحينئذ تهيأت لوجود الحياة فيها.

واتفقوا أيضا على أن أصل الحياة كلها واحد، وهو ذرة لا ترى بالبصر، ولكنهم عجزوا أن يعرفوا كيف نشأت هذه الذرة، ومن أين جاءت أمن داخل الأرض التي كانت نارا حامية، أم من كوكب آخر، وكيف تنوعت الحياة من تلك الذرة إلى أنواع لا تعد ولا تحصى مختلفة الأشكال والحجوم والطباع، فمن الذي أوجدها؟، ومن الذي نوعها؟، وعين لكل نوع منها ما يصلح له ويلائمه على أحسن وجه؟. ومن هنا نتنقل إلى هضم الغذاء كل شيء يتصف بالحياة من إنسان وحيوان ونبات، لابد له من هضم وتعويض، وذلك التعويض هو الغذاء، فإن مادة الحي يتحلل جزء منها دائما ويستعاض عنه يتكون جزء جديد بواسطة الغذاء، حتى قيل، إن الحيوان عموما ينعدم في سبع سنين ويجدد بناء جسمه. وسواء أكان هذا كما قيل أم لا، فالغذاء والهضم ضروريان لكل حي. وقد اكتشف العلم الحديث أن الجسم الحي مركب من عناصر مختلفة، وكل ما يتحلل منها يعوض بمثله من الغذاء، وانتقال

الغذاء من حاله كاللحوم والخضر والحبوب بالنسبة إلى غذاء الإنسان إلى أن يصير لحما وعظما وعصبا وغضاريف وغيرها، ثم إلى أن يتحد كل عنصر بما يماثله في الجسم يمر بأطوار كثيرة دقيقة، ويحتاج إلى آلات ومعامل كيماوية، كل منها يقوم بما يختص به في تناسق وتضامن مع الآلات الأخرى، وقد بسطت القول فيما ترجمته وعلقت عليه من كلام كريسي موريسن في رده على جوليان هكسلي الذي سرق الحبشي كلامه. ونشر في المقال السادس عشر تحت عنوان (دواء الشاكين وقامع المشككين) في الجزء الثاني من السنة الخامسة من مجلة «دعوة الحق». في الفصل الذي عقده المؤلف المذكور للبحث في الهضم تحت عنوان (أكبر معمل في العالم) فأرجع إليه أيها القارئ إن أردت تفصيل القول في الغذاء وهضمه، والاستدلال بذلك على أن لهذا الكون مدبرا حكيماً عليماً. والحاصل أن نظام الهضم يدل على منهاج موضوع من قبل، وتطبيق دقيق ناشئ عن علم وإرادة وحكمة، ولا يقبل العقل غير هذا أبداً.

**المثل الثالث: نزول المطر**

عوام الناس قديما وحديثا لا يعرفون من حال المطر إلا أنه ماء ينزل من السماء لري الأرض وإعداد ثمارها وحاصلاتها، وهو مقدر بقدر، وموقت بأوقات تناسب حاجة الناس إليه. أما الباحثون فيعلمون أن المطر يتبخر من البحار بسبب الحرارة ويصعد إلى الطبقات العليا من الجو فيبرد وينقلب ماء فينزل على الأرض مطرا وبردا وثلجا وجليدا. وقد عرف الناس هذا منذ زمان قديم، قال أبو ذؤيب يصف سحابا.

**شربن بماء البحر ثم ترفعت　　　متى لجج خضر لهن نئيج**

قال العيني في شرح الشواهد: قاله أبو ذؤيب يصف به السحاب من قصيدة من الطويل. الضمير في شربن يرجع إلى السحب، وضمن معني روين، فلذلك وصلت بالباء، وقيل شاذ. وترفعت أي توسعت. والشاهد في متي لجج، فإنها حرف جر هاهنا بمعني من، وهي لغة هذيل. ولجج جمع لجة، وهي معظم الماء، ونئيج مبتدأ، ولهن خبره ، من نأجت الريح تنأج نئيجاً تحركت ولها نئيج، أي مر سريع مع صوت. انتهي

يعني شربت السحائب من ماء البحر ثم ارتفعت من معظم ماء البحر وهي لجحه يسمع لمر الريح فيها صوت. وهذا يثبت أن العرب كانت تعرف أن أصل المطر من البحر. قال الخضري في حاشيته على ابن عقيل. والصبان في حاشيته على الأشموني: تزعم العرب والحكماء أنها (أي السحائب) تدنو من البحر الملح في أماكن مخصوصة، فتمتد منها خراطيم عظيمة كخراطيم الإبل فتشرب من مائه بصوت مزعج، ثم تصعد في الجو فيلطف ذلك الماء ويعذب بإذن الله تعالى في زمان صعودها في الهواء، ثم تمطره حيث شاء الله تعالى. انتهي.
وقال المتنبي:

**كـــالبحر يقـــذف للقريـــب لآلئـــا أبـــدا ويبعـــث للبعيـــد ســـحائبا**

وهذا يدل على أن المتنبي كان يعرف أن السحاب من البحر، والمطر من السحاب. ومعرفة ذلك ليست جوابا عن سؤال، لماذا تبخرت البحار وصعد بخارها إلى أعالى الجو، ثم توزع نقط مطر أو حبات برد ، أو ثلج، كل ذلك بقدر معلوم. ولماذا ينزل في أوقات معلومة ولا ينزل في أوقات أخرى؟، وما الذي جعل فيه الحياة بخلاف الماء الذي يبخره الإنسان من ماء البحر فيصير عذبا صالحا للشرب؟، ولكنه لا ينبت شيئا؟. وما أحسن قوله تعالى في سورة الزخرف ٩ — ١١ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾.

**المثل الرابع: مناظرة الطبيب في حمرة الدم**

وهي واضحة لا تحتاج إلى تعليق. وما مثل الذي يكشف قوانين الكون ونظمه، يقنع بذلك ويزعم أنه بلغ الغاية في العلم بأسرار الوجود وينفي ما عدا ذلك إلا كمثل بدوي دخل السينما لأول مرة فرأي فيها أشخاصا يتحركون ويتحدثون، ورأي فيها معامل ورجالا يشتغلون فيها، وبحورا وجبالا وغيرها من المناظر فتعجب منها كل التعجب ونفي أن يكون هناك أحد قد صورها ورتبها وأخرجها بتلك الصور. هذا على سبيل التقريب، وإلا فإن عجائب السموات والأرض وإحكام صنعها لا مناسبة بينها وبين السينما..

هذا وموعدنا المقال الرابع حيث نذكر أقوال الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين في هذه المسألة إن شاء الله.



## التدين والإلحاد في أوربا وأمريكا

من الأمور التي شاعت وذاعت عند أدعياء الثقافة والمعرفة والتجديد والعصرية وانتقلت منهم إلى عامة الناس أن الأوربيين والأمريكيين، وخصوصا الولايات المتحدة، التي تساوي أوربا في الرقي أو تفوقها، قد تركوا دينهم ونبذوه نبذ النواة، أو نبذ الحذاء المرقع بعد حصول الجديد، كما يقول الحريرى، قالوا: وبذلك تمكنوا من إدراك العلوم الكونية وتسخيرها في مصالحهم السلمية والحربية وقطعوا شأوا بعيدا في المدنية والحضارة، وتركوا الأمم المتخلفة بسبب تمسكها بالدين، وما يسمونه بالتقاليد العتيقة، تركوها تغط في نوم ثقيل وتتخبط في جهالة عمياء، وزعموا كما يزعم ريني الحبشي أن هذه الشعوب لا تنهض ولا تحيي وتسير في طريق الرقي إلا إذا تركت الدين. وأنا لا أتعجب من الذين يسمعون هذه الدعاية الاستعمارية الروحية فيتلقونها بالقبول والتصديق مثل ما أتعجب من ألوف المتعلمين في جامعات أوربا وأمريكا من العرب وسواهم من الآسيويين والأفريقيين الذين يرون هذه الدعاية ولا يكذبونها، بل قد يشجعونها (وقد، هنا للتحقيق) ويبثونها بأنفسهم، فإما أن يكونوا قد ذهبوا إلى أوربا وأمريكا واشتغلوا باللهو والعبث والحصول على الشهادات، ولم يهمهم شيء من أحوال سكان تلك البلاد فلم يطلعوا عليها، وإما أن يكونوا قد أطلعوا علي الحقيقة وكتموها وأخبروا بخلافها تدليسا وغشاً لشعوبهم، فهما خطتا خسف لا خير فيهما لمختار.

ومنذ أقمت في أوربا وخالطت أهلها، أي منذ ما يزيد على ثلاثين سنة علمت علم اليقين أن الأوربيين متمسكون بدينهم، وكثيرا ما يبلغ بهم هذا التمسك إلى حد الغلو والتعصب. وقد شاهدت من ذلك حوادث عجيبة، لست الآن بصدد ذكرها، ولكن مناقشتي لريني الحبشي وشيعته من معاول الهدم والتخريب أوحت إلي بفكرة جديدة، وهي أن أعمد إلى سفارات الدول الأوربية والأمريكية التي بلغت أعلى مستوى في الحضارة فأوجه إليها سؤالاً عن عدد المتدينين وعدد الملحدين من سكان بلدانهم. وقد حصلت الآن على جوابين رسميين من سفارتين لدولتين في مقدمة الدول الراقية. وهما سفارة الولايات المتحدة بالرباط وسفارة الجمهورية الألمانية في الرباط عاصمة المغرب. وقد ترجمت الجوابين

باللغة العربية، وأصلهما محفوظ باللغة الأصلية، فدونكم أيها القراء الأعزاء جواب سفارة الولايات المتحدة الأمريكية.

جواب مكتبة الاستعلامات بالسفارة الأمريكية بالرباط في ٢٥ نوفمبر ١٩٦٤.

**عزيزي البروفسور الدكتور تقي الدين الهلالي.**

أرجو من فضلكم المعذرة في تأخير الجواب عن سؤالكم المتعلق بالحياة الدينية في الولايات المتحدة، فإن هناك أمورا مستعجلة منعتني من مراجعة الإحصاء الذي التمستم معرفته.

**تفضلوا فانظروا في الإحصاء أسفله تجدوا العدد الذي تهمكم معرفته:**

مجموع عدد الأشخاص الذين أعلنوا عدم انتسابهم لأي دين في إحصاء سنة ١٩٦٠ ثلاثة ملايين ومائة وخمسة وتسعون ألف (٣,١٩٥,٠٠٠) من مجموع السكان البالغ عددهم مائة وتسعين (١٩٠) مليونا. والعدد الأكبر من هؤلاء، هم بلا شك من المتوقفين اللاادريين، أو غير المتمسكين بالمسيحية تمسكاً عملياً، لا من الملحدين المنكرين (لوجود الباري).

المخلص مالكولم ماكونيل مساعد ملحق الشؤون الثقافية.

فإذا كان العلم والتقدم في المدنية لا يكون إلا بترك الدين، كما يزعم الأفاكون، كان ينبغي أن يكون عدد المتدينين في الولايات المتحدة الأمريكية قليلا جداً، وقد رأيتم أن عدد الذين لا ينتسبون إلى الدين لا يزيد على واحد ونصف في المائة تقريباً، وأكثر هؤلاء ليسوا ملحدين منكرين لوجود الله ورسله، ولكنهم مهملون ومتكاسلون، فهذا الإحصاء الرسمي يكذب مزاعم أدعياء التجديد ويأتي على بنيانهم من القواعد فينهار بهم في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

### جواب السفارة الألمانية

وقد طلبت من السفارة الألمانية بالرباط أن تخبرني بعدد الملحدين من سكانها، فجاءني الجواب التالي، وهذه ترجمته:

سفارة الجمهورية الألمانية بالرباط، في ١١ فبراير ١٩٦٥.

سيدي الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي مكناس.

جوابا عن طلبكم، لي الشرف أن أخبركم أسفله بالإحصاء الأخير فيما يتعلق بأعداد الأقليات الدينية المختلفة في الجمهورية الاتحادية الألمانية.

١- المسيحيون البروتستانتيون: ٥١,١٣ = ٢٨,٧٢٥,٦٠٠ ثمانية وعشرون مليونا وسبعمائة وخمسة وعشرون ألفا وستمائة، وواحد وخمسون فاصلة ثلاثة عشر في المائة.

٢- المسيحيون الكاثوليكيون: ٤٤,١٢ = ٢٤,٧٨٦,١٠٠ أربعة وعشرون مليونا وسبعمائة وستة وثمانون ألف ومائة، وأربعة وأربعون فاصلة اثنا عشر في المائة.

٣- اليهود: ٠,٠٤ = ٢٢,٧٠٠ اثنان وعشرون ألف وسبعمائة، وصفر فاصلة صفر أربعة في المائة.

٤- المسلمون وأهل أديان أخرى: ٤,٠٥ = ٢,٢٧٢,١٠٠ مليونان ومائتان واثنتان وسبعون ألفا، وأربعة فاصلة صفر خمسة في المائة.

٥- الملحدون الذين لا ينتمون إلى أي دين، إما إهمالا وتهاوناً، وإما ادعاء أنهم أحرار الفكر: ٠,٦٦ = ٣٦٨,٤٠٠ ثلاثمائة وثمانية وستون ألفا وأربعمائة وصفر فاصلة ستة وستون في المائة.

هذا على مقتضى الإحصاء السنوي الثابت في مكتب الإحصاء الاتحادي لسنة ١٩٦٤.

هذا وأرجو أن تكونوا دائما بصحة طيبة وثقوا يا سيدي الأستاذ بمشاعري الطيبة نحوكم.

**«فسترنك سكرتير السفارة الأول»**

فأنت ترى أن الملحدين في الشعب الألماني الاتحادي أقل من واحد في المائة. وهؤلاء الملحدون ليسوا كلهم ينكرون وجود الله ورسله، بل بعضهم لا يعترف بالكنيسة ولا يريد أن يخضع لها ويؤدي الضريبة الدينية الشهرية ولا يتزوج إلا بإذنها، ولا يطلق إلا بإذنها، ولا يدفن الميت إلا بإذنها فلذلك حرمتهم وكفرتهم.

أما القسم الآخر فيزعمون أنهم أحرار الفكر وينكرون الدين كله. ومجموع الطائفتين لم يبلغ واحدا في المائة. فأين ما يدعيه أدعياء التجديد؟ ومن أين جاءتهم هذه العلوم، بل الجهول التي علموا بها أن التدين ينافي الرقي والتقدم، وأن الإنحلال من جميع القيود الأخلاقية والإباحية والفوضي والتخنث والجبن والعبودية لداعي الشهوات وموت الإرادة

التي تكبح عن ارتكاب الدنايا، وما أشبه ذلك من مساوئ الأخلاق هو الوسيلة الوحيدة للتقدم والرقي. فهذه الأمم التي بلغت أوج المدنية والعلم والتقدم وذاقت ثمرة ذلك وسعدت شعوبها به متمسكة بدينها أشد التمسك، ولم يمنعها ذلك من إحراز ما أحرزته من المراتب العالية والحياة السعيدة والعيش الرغد. وسأستمر في هذه الطريقة إن شاء الله من توجيه الأسئلة إلى سفارات الدول الديمقراطية الحرة التي بلغت الغاية القصوى في العلم والحضارة. أما الدول التي تفضل الحكم الدكتاتوري الاستبدادي فسأؤخر الكلام عليها إلى حينه المناسب، ولا أترك لريني الحبشي وأمثاله متعلقاً يتعلقون به، ولا ملجأ يلتجئون إليه فيفتضح أمرهم ويظهر مكرهم وينكشف دسهم، قال الله تعالى في سورة الأنبياء ١٨﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾.

## أقوال الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين

## وآراؤهم في وجود الباري عز وجل وفي تدبيره للعوالم كلها

**يقول محمد تقي الدين:** سأذكر المصادر في آخر ما انقله من كلام الفلاسفة، قال العلامة الأستاذ محمد فريد وجدي في دائرة المعارف له:

ولما كان الإنسان لا يقف من معقولاته عند حد تطرف بعض أفراده من الفلاسفة والمفكرين فأنكروا وجود الخالق، وزعموا أن الكون قديم، وأن ليس فيه غير المادة ونواميسها الأزلية الأبدية، وسرت تعاليمهم إلى بعض الجهال فألحدوا بالله واستتبع إلحادهم خروجا على نظام الخليقة، وتعديا على حقوق الغير، فتصدي الفلاسفة قديماً وحديثا للرد على هؤلاء الملحدين. ولابد لنا من إيراد الكثير مما قالوه في هذا الكتاب ليكون مرجعاً يرجع إليه من يريد استعراض مواهب الحكماء في هذا الأمر الجدير بالعناية والنظر، ثم نتبع ذلك بمذهبنا الخاص في هذا الباب إن شاء الله. ونحن قبل أن نخوض لجة هذا البحث الخطير نأتي على كلمات لكبار الفلاسفة في هذا الصدد فنقول، قال الفيلسوف اليوناني ابيكتيت:

(العقيدة بالله يجب أن تكون مستمرة كاستمرار التنفس) وقال الفيلسوف باسكال (الخالق كرة لا نهاية لها، مركزها في كل مكان، ومحيطها ليس له مكان) وقال هو أيضا (كل شيء غير الله لا يشفي لنا غليلا) وقال شاتو بريان (لم يتجرأ على نكران الله غير الإنسان) وقال لامنيه: (الكلمة التي تجحد الخالق تحرق شفة المتلفظ بها) وقال هو أيضا (البحث عن

شيء خارج عن الله هو البحث عن العدم المحض) وقال لوكورديو (الله هو الشمس الوحيدة التي تمد أشعتها الخالدة الموجودات) وقال فيو (الله عليم بكل شيء، متصرف في كل شيء، ومدبر لكل شيء، إدارة الرب المطلق السلطة) وقال جوردان (الله هو الناموس الأزلي الثابت الذي تستمد منه الكائنات وجودها وترقيها) وقال هو أيضا (الله هو كل ما هو موجود) وقال كوتييه (الجمال في حقيقة، معناه هو الله).

وفي دائرة معارف القرن التاسع عشر قال العلامة الاقتصادي برودون (الله هو الكائن الذي لا يدرك ولا يوصف، ومع هذا فهو ضروري) وكقوله (إن ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل أن تكشفه لنا عقولنا) ونقلت عنه أيضا قوله (إني لا أعرف إلها، لأن ذلك من الأمور الغامضة، وقال (كل من يكلمني عن الله، إنما يقصدني في دراهمي أو حريتي) ونقلت عنه دائرة المعارف ما هو أشد في الإلحاد مما يدل ظاهره على أن الرجل شديد العداء لهذه العقيدة، فلما انتشر هذا الجزء الذي يشمل لفظة (الله) ورائي أقواله ممثلة فيه كتب إلى لجنة تحرير الدائرة يخبرها، أنه ليس ملحدا بالله كما تدل عليه بعض ألفاظه، وإنما هو يقصد أن رجال الدين الذين يتخذون العقائد أحابيل لصيد حطام الدنيا واستغلال عقول البسطاء، فوافق ذلك ما روي عنه من العبارات المفيدة لإيمانه).

وقال لامارتين إن (ضميرا خاليا من الله كالمحكمة الخالية من القاضي)، وقال بيلوتان (الله هو الحياة العامة، فهو الأصل والمرجع لكل حياة) وقال توريه (الله كل شيء وكل شيء هو الله).

بعد هذا يحسن أن نورد براهين أشهر الفلاسفة أقدمين ومحدثين على وجود الخالق ثم نتبعها برأينا الخاص فنقول: (براهين سقراط) سقراط فيلسوف يوناني كان عائشاً قبل عيسى عليه السلام بنحو أربعة قرون. قال المسيو بوشيت في كتابه المسمي (التذكرة في تاريخ البراهين على وجود الخالق) قال: إن اعتقاد الأفراد والنوع الإنساني بأسره في الخالق، اعتقادا اضطرارياً ، قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده، ومهما صعد الإنسان بذاكرته في تاريخ طفوليته (كذا). فلا يستطيع أن يجد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق، تلك العقيدة التي نشأت صامتة، وصار لها أكبر الآثار في حياته، فقد حدثت هذه العقيدة في أنفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا. ولا شك أنها تحت تأثير

الأغاني الأموية (كذا) والدروس التهذيبية الأولى قد نمت تدريجياً، وزادت نموا في أدوار الحياة، سواء بالدرس والبحث أو بالتغييرات التي تحدثها الأحوال على أرق عواطفنا، وكل ما يحدث في طفولة الإنسان يحدث نظيره بالضبط في طفولة الأمم، سواء اعتبرنا ذلك في أول الخليقة أو درسناها في الأزمنة القريبة منا حيث تجتمع قبائل وثنية ذات تقاليد خرافية على ديانة جديدة. ففي الحالة الأولى يرينا التاريخ الناس حاملين عقيدة فطرية على وجود قدرة خالقة وحافظة للعالم، وحاكمة بين الناس بالعدل، تكافئ على الحسنة والسيئة، سواء في هذه الدنيا أو في الحياة المتسقبلة.

في هذا الدور لم تظهر الشكوك بأي مظهر من مظاهرها، وعلى ذلك لم تك من حاجة تدعو إلى ظهور البراهين المثبتة لوجود الله. وفي الدور الثاني، لم تظهر الحاجة أيضاً إلى الاستدلال على وجود الخالق بالبرهان والعقل والفكر، والرجال الذين يتصدون لنشر هذه العقيدة جعلوها أرقي من أن يجادل فيها وأيدوا دعاويهم بإحداث المعجزات أو بالانتصارات الباهرة.

من هذا القبيل كان في الأزمنة المتقدمة زوروواستر وموسي ومشرعو المصريين القدماء الخ. وقريبا منا عيسى ومحمد. ففي المسألة الخاصة التي تشغلنا اليوم لم تستفد البراهين على وجود الله شيئا من زوروواستر ولا من موسى ولا من عيسى ولا من مشرعي المصريين، فقد اكتفي الجميع بإعلانهم أنهم رسل الله إلى خلقه. وقد خلفهم عيسى ناهجا خطة الإسرائيلية (كذا) فقرر عقيدة وجود الخالق تقريره لأمر لا نزاع فيه ولا يصح النزاع فيه. ولم يشك لحظة في أن هذه العقيدة يقول بها جميع الذين أرسل إليهم على السواء. أما محمد فقد بني العقيدة بوجود الله ووحدانيته على أنقاض العقيدة المشوشة بتعدد الآلهة التي كان يدين بها العرب ، والتي أخذ على عهدته مكافحتها، ولكنه في مواعظه المختلفة لم يظهر بمظهر من يريد أن يعطي على هذه المسألة البرهان الدقيق، فقرر الحقيقة وطالب بالاعتقاد بها، وأمر منها بما أمر، وفرض فيها ما فرض، ولم يظهر منه أو لم يكد يظهر منه أنه مال لسد حاجة العقل منها بطريق منطقي أو جدلي. انتهي كلام المسيو بوشيت.

**التعليق على كلام بوشيت**

يقول كاتب هذا المقال محمد تقي الدين: يفهم من كلام العالم بوشيت أن الأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل محمد ﷺ لم يقيموا دليلا على وجود الله وربوبيته، ولا على توحيده في إلهيته، وإنما قرروا الحقيقة دون أن يقيموا عليها برهانًا. أما محمد ﷺ فقد أقام البرهان على توحيد الإلهية والعبادة، ولم يقم دليلا على وجود الله وربوبيته بالطريق المنطقي. وأنا أقول، إن القرآن قد أقام البرهان المنطقي على وجود الله وربوبيته لكل من سواه، قال الخازن في قوله تعالى في سورة الطور ٣٥ – ٣٦ ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ قال ابن عباس، من غير رب خالق، والمعنى أم خلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق، وذلك مما لا يجوز أن يكون، لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ أي لأنفسهم، وذلك في البطلان أشد، لأن ما لا وجود له كيف يخلق، فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقا فليؤمنوا به وليوحدوه وليعبدوه.

وقال البيضاوي: أم أحدثوا وقدروا من غير محدث ومقدر، فلذلك لا يعبدونه.

وقال محمد جمال الدين القاسمي في تفسيره لهذه الآية. ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ ﴾ البقرة (٢٥٨)، أي جادل ﴿ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ كيف أخرجه الطاغوت من نور نسبة الأحياء والإماتة إلى ربه إلى ظلمات نسبتهما إلى نفسه ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ أي لأن أتاه الله، يعني أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر فحاج لذلك، أو حاجه لأجله، وضعا للمحاجة التي هي أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه الشكر. كما يقال: عاداني فلان، لأني أحسنت إليه. تريد أنه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان، ونحوه قوله تعالى في سورة الواقعة (٨٢) ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾.

قال الحرالي: وفي إشعاره أن الملك بلاء وفتنة على من أوتيه. ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ ﴾ حين سأله من ربك الذي تدعونا إليه ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أي بنفخ الروح في الجسم وإخراجها منه ﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ ﴾ أي بالقتل والعفو عنه. ولما سلك الطاغية مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع، وكان بطلان جوابه من الجلاء والظهور، بحيث لا يخفي على أحد، والتصدي لإبطاله من قبيل السعي في تحصيل الحاصل، انتقل إبراهيم عليه السلام، إرسالا لعنان

المناظرة معه، إلى حجة أخرى لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمخرج مكابرة أو مشاغبة أو تلبيس على العوام. وهو ما قصه تعالى بقوله ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود، في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته. فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلها — كما أدعيت — فأت بها من المغرب ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾ تحير ودهش وغلب بالحجة، لما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لا يلهمهم حجة وبرهانا. بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد. انتهي

وقال تعالى في سورة الأنعام ٧٦ — ٧٩ ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

قال القاسمي في تفسير هذه الآيات: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ قال المهايمي: لما رأي — يعني إبراهيم عليه الصلاة والسلام — الملكوت، وأيقن أن شيئا منها لا يصلح للإلهية، أراد الرد على قومه في اعتقاد إلاهيتها لخستها، باعتبار افتقارها في أفعالها إلى أجسام لها دناءة الأفول وإن كانت علوية، وكذا في اعتقاد إلاهية تلك الأجسام، كما رد عليهم في اعتقاد إلاهية الأصنام، فلتظهر ظهور الكواكب التي كانوا يعبدونها. انتهى

وبالجملة، فالآية بيان لكيفية استدلاله عليه الصلاة والسلام، ووصوله إلى رتبة الإيقان، ومعني (**جن عليه الليل**) ستره بظلامه، و(الكوكب) قيل، الزهرة، وقيل، المشترى.

أقول: (الكوكب) لغة: النجم. قال الزبيدي في شرح القاموس: وكونه علما بالغلبة على الزهرة غير معتد به، وإنما هي الكوكبة بالهاء. انتهي

قال الزمخشري: كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئا منها لا يصح أن يكون إلها لقيام دليل الحدوث فيها، وان وراءها محدثا أحدثها، وصانعا صنعها، ومدبرا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها.

وقول إبراهيم لقومه (**هذا ربي**) إرخاء للعنان معهم بإظهار موافقته لهم أولا، ثم إبطال قولهم بالاستدلال، لأنه أقرب لرجوع الخصم.

قال الزمخشري: قول إبراهيم ذلك، هو قول من ينصف خصمه، مع علمه بأنه مبطل. يحكي قوله كما هو غير متعصب، لمذهبه، لأن ذلك أدعي إلى الحق، وأنجي من الشغب .. ثم يكر عليه بعد حكايته، فيبطله بالحجة.

(**فلما أفل**) أي غاب (**قال لا أحب الآفلين**) أي لا أحب عبادة من كان كذلك، فإن الأفول دناءة تنافي الإلهية ، بل تمنع من الميل إلى صاحبها، فضلا عن اتخاذه إلها أو معبودا، فضلا عما يفتقر إليه.

(**فلما رأي القمر بازغا**) أي: طالعا منتشر الضوء (**قال هذا ربي**) على الأسلوب المتقدم (**فلما أفل قل لئن لم يهدني ربي لأكونن من الظالمين**) فإن ما رأيته لا يليق بالإلهية لدنائته بمحوه.

قال الزمخشري: وفيه تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلها، وهو نظير الكواكب في الأفول فهو ضال، وإن الهداية إلى الحق بتوفيق الله تعالى ولطفه.

وفي (الانتصاف): التعريض بضلالهم ثانيا أصرح وأقوي من قوله أولا (**لا أحب الآفلين**) وإنما ترقي إلى ذلك، لأن الخصوم قد أقامت عليه. بالاستدلال الأول، حجة فأنسوا بالقدح في معتقدهم ، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون، ولا يصغون إلى الاستدلال. فما عرض صلوات الله عليه بأنهم في ضلالة، إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود، واستماعهم إلى آخره. والدليل على ذلك أنه ترقي في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم، والتقريع بأنهم على شرك حين تم قيام الحجة، وتبلج الحق، وبلغ من الظهور غاية المقصود.

وقوله تعالى: (**هذا أكبر**) أي: أكبر الكواكب جرماً، وأعظمها قوة، فهو أولى بالإلهية. وفيه تأكيد لما رامه عليه الصلاة والسلام من إظهار النصفة، مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى، ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر.

(**فلما أفلت قال**) صادعا بالحق (**يا قوم إني برئ مما تشركون**) أي من الأجرام المحدثة المتغيرة من حالة إلى أخرى، أو من إشراككم.

(**إني وجهت وجهي**) أي وجه قلبي وروحي في المحبة والعبادة، بل جعلته مسلما (**للذي فطر السموات والأرض حنفيا**) أي مائلا عن الأديان الباطلة، والعقائد الزائغة، (**وما أنا من المشركين**).

ثم قال، قال الرازي: تدل هذه الآية على أن الدين يجب أن يكون مبنيا على الدليل لا على التقليد، وإلا لم يكن لهذا الاستدلال فائدة البتة.

وقال تعالى في سورة الأعراف ٥٤ ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

### تلخيص واستدلال

لو أردت أن أورد من مثل هذه البراهين القرآنية شيئا كثيرا جدا لفعلت، ولكني أقتصر على هذه النقول الأربعة وأوضح وجه الاستدلال على الطريق الجدلي ليعلم من يقرأ كلام بوشيت أن القرآن لم يهمل الاستدلال على وجود الله تعالى، وعلى كونه الخالق المهيمن على خلقه المدبر لجميع شؤونهم.

١- آية الطور، تقدم أن حبر الأمة عبد الله بن عباس فسرها بقوله: أم خلقوا من غير رب خالق، والاستفهام هنا إنكاري، فهو نفي لأن تكون هذه العوالم المحكمة الصنع المتقنة وجدت من غير موجد يتصف بالربوبية، وهي القدرة على التربية.

قال البيضاوي: الرب في الأصل مصدر بمعني التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا انتهي. وهذا هو الاستدلال بالمصنوعات الكاملة على الصانع الكامل. وقوله سبحانه (أم هم الخالقون) ينفي كون المصنوعات قادرة على صنع نفسها، فضلا عن غيرها لما سبقها ويلحقها من العدم، ولما يلازمها من التغير الذي أثبت لها جواز الوجود ونفي عنها وجوبه. وبهذا البرهان استدل جميع الحكماء على وجود الله تعالى واتصافه بصفات الكمال، كما سترى ذلك صريحا في أقوالهم التي ننقلها بعد إن شاء الله.

٢- قصة إبراهيم مع نمرود ملك العراق، فقول إبراهيم له في محاجته (**ربي الذي يحي وميت**) معناه، الذي أوجدني وأوجدك وأوجد جميع العالمين، ورباهم بقدرته ونعمته إلى أن بلغهم كمالهم وحفظه عليهم، وهو المتصرف فيهم بالإحياء والإماتة، وإظهار الشمس

وإخفائها، ومثلها جميع الطوالع. وكل ما سواه مصنوع فان، ويستحيل أن يوجد شيء منه بدون صانع، أو أن يقوم بنفسه ويدبر شأنه. وهذه حجة الفلاسفة بعينها بطريق اللزوم، وهو فيما يقول علماء البلاغة أبلغ من دلالة التصريح.

٣- استدلال إبراهيم واحتجاجه على قومه بطريق لطيف لأنهم كانوا عبادا للأجرام السماوية، فبدأ بأصغرها في عين الرائي وأقلها ضوءا وهو الكوكب، وقال على سبيل الفرض إيناسا للخصوم ودفعا لهم إلى الأمام (هذا ربي) فلما تغير النجم بالأفول والاختفاء قال، هذا لا يصلح أن يكون ربا، أي صانعا ومدبرا، لأنه مصنوع ومدبر بفتح الباء. فلما طلع القمر وهو أعظم حجما وضوءا في أعين الناظرين قال مثل ذلك، فلما تغير بالأفول وظهر أنه مصنوع ومسير قال، لا يصلح أن يكون ربا، فلما طلعت الشمس التي هي أعظم ضوءا وحجما، فضلا عما تعطيه من الحرارة والحياة بإذن الله لما يتبعها قال مثل ذلك، فلما اختفت وتغيرت قامت حجته عليهم فقال، يا قوم، إني برئ مما تعبدون، إني وجهت وجهي بقلبي وكل حواسي ومشاعري للذي خلق تلك الأجرام السماوية والأرض وسائر العوالم، إذ لا يمكن أن تخلق نفسها ولا أن تسير نفسها، بل هي متغيرة، وتصرف غيرها فيها واضح. فالمتصرف فيها بالإيجاد والإمداد هو ربها، وهو واجب الوجود وخالق كل شيء والحجة في قوله فطر السموات والأرض، استدلال بالصنعة على الصانع، وهذا هو الطريق الجدلي المنطقي بعينه، ولا حاجة أن يكون على طريقة العجم، لأن أسلوب العربية يأباه، والمعنى واحد.

٤- من سورة الأعراف، أكد القرآن بلفظ (إن) والجملة الأسمية كون الله، وهو علم على الباري، ربا لجميع العالمين. ولم ذلك؟ لأنه خلق السموات والأرض في ستة أوقات ثم استوى على العرش، وتصرف في خلقه تصرف الصانع في مصنوعاته. وعلى قدر كمال الصنعة يكون كمال الصانع، ثم أخبرهم بتصرفه في مصنوعاته واحتياجها إلى بقوله (**يغشي الليل النهار**) أي يغطيه به فيتعاقبان تعاقبا متصلا وهو الذي يسخر الشمس والقمر والنجوم ويديرها في أفلاكها بغاية الإتقان، ثم عقب ذلك بالنتيجة المطلوبة، وهي قوله (ألا له الخلق والأمر) فله وحده الصنعة والإبداع، والتربية والتسيير، وله وحده الأمر القدري الكوني والشرعي، تبارك وتعالى رب العالمين.

وهذا إيضاح احتجاج منطقي كامل لا يمترى فيه إلا جاهل بالعربية أو معاند.

**خاتمة**

قد يخفي على العالم الفرنسي بوشيت وأمثاله، أن القرآن برهن على توحيدين اثنين، توحيد الربية، أي توحيد الصانع المدبر مع ما يلزم من صفات كماله، وتوحيد الإلهية، وهي العبادة، وقد يخلط بينهما كثير ممن يدعي العلم، أو يدعي له من المسلمين، فكيف بالأجانب؟ ومن ذلك أتى مسيو بوشيت، فظن أن محمدا ﷺ ، إنما خاصم المشركين وأقام لهم الحجة على توحيد الإلهية، وأهمل إقامة الحجة على توحيد الربوبية، وقد علمت بطلانه.

## جواب السفارة السويسرية عن عدد الملحدين في بلادها

يقول كاتب هذا المقال: قمت بزيارة للسفارة السويسرية فتلقاني الموظفون المختصون بكل حفاوة ولطف، واقترحوا على أن أقدم لهم السؤال متكوباً، فقدمته شاكراً لهم، فجاءني الجواب التالي. وها أنا ذا أتحف به القراء المؤمنين، فأضعه تاجاً على رأس هذه الحلقة من المقالات التي تفضح دعاة الهدم والتخريب المروجين للأباطيل الكائدين للإسلام، وأن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا. وهذه ترجمة الجواب.

السفارة السويسرية بالرباط في ١٥ مارس ١٩٦٥.

سيدى الأستاذ البروفيسور الدكتور تقي الدين الهلالي.

جوابا عن رسالتكم المؤرخة ١٤ مارس ١٩٦٥ وعلى زيارتكم التي قمتم بها ذلك اليوم لإدارة السفارة. لي الشرف أن أبعث لكم بعد ذلك المطالب التي تهمكم نحو مختلف الأديان لسكان بلادنا المتجنسين بالجنسية السويسرية.

طبقاً لإحصائيات ١٩٦٠:

١- البروتستانتيون: خمسمائة وواحد وسبعون في الألف ...... ٥٧١٪

٢- الكاثوليكيون الروم: أربعمائة وثلاثة عشر في الألف ...... ٤١٣٪

٣- الكاثوليكيون المسيحيون: ستة في الألف ...... ٦٪

٤- الإسرائيليون: اثنان في الألف ...... ٢٪

٥- مجموع الأشخاص المختلفي الأديان ، والذين لا يدينون بأي دين : ثمانية في الألف ...... ٨٪

التوقيع سفير سويسرا ب. فدشر

فتأملوا أيها القراء الأعزاء جواب هذه السفارة التي تمثل أعظم دولة بلغت الغاية في الديمقراطية والحرية، مع أن سكانها لا يتجاوزون خمسة ملايين، هم محافظون على حياد سلبي لا يشاركون في أي تكتل ولا يتحيزون إلى أي جانب، وقد مضت عليهم مئات السنين لم يدخلوا في أي حرب منذ حرروا أنفسهم بحد السيف ومضاء العزم من السيطرة النمسوية لم يستطع أي محارب بالغا ما بلغ أن يستميلهم إلى مشاركته في حربه مع عدوه، لا طوعا ولا

كرها. ومن المعلوم أن هتلر كان مجاورا لهم، بل محيطا بهم من كل جانب، ولم يستطع أن يضمهم إليه مع استيلائه على جيرانهم جميعا، وكذلك أعداء هتلر لم يستطيعوا جرهم إلى جانبهم لأنهم حافظوا على حيادهم بسلاحهم وعبأوا جيشهم الصغير وفرضوا التموين في الأقوات واستعدوا لمحاربة أي فريق تبدر منه بادرة جرهم إلى الحرب. هذا الشعب العظيم الحر كم عدد الملحدين من أفراده أربعة في الألف، على اعتبار أربعة متتبعي أديان مختلفة، وأربعة كفرة، هذا إذا بلغ الملحدون نصف العدد.

ومن خصائص هذا الشعب أن نساءه لا يشاركن في الانتخاب، وفي ذلك عبرة لمن يدعي من الشعوب المتخلفة أن التقدم والرقي لا ينالان إلا بمشاركة النساء في الانتخاب.

وهذا الجواب من السفارة البريطانية في الرباط.

**أقوال الفلاسفة في وجود الله عز وجل**

قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر، فليس لنا إذن أن نبحث عن أدلة وجود الخالق بطريقة دقيقة في الكتب المقدسة الهندية والفارسية والإسرائيلية والمسيحية والإسلامية. ومع ذلك، فأنا إن لم نصادف فيها برهانا منطقيا على وجود الخالق، فلن يفوتنا أن نعترف بأن هذه العقيدة في تلك الكتب تعبر عن العلل التي تنبني عليها باعتمادها على أصل سبب الكون وغايته، وهو الأصل الذي يعتبر بداية للبرهان الذي يدعي بالطبيعي الإلهي. هذا البرهان الذي قال فيه الفيلسوف (كانت) إنه يستحق الالتفات والاعتبار، وأنه أقدم البراهين وأشيعها يلبس في الكتب المقدسة حلة، هي إلى أن تكون شعرية أقرب منها إلى أن تكون فلسفية، ولكن يمكن أن يقال: إن هذا البرهان هو روح الإيمان الذي أثر على عقول الجماهير وأسس سلطة الداعين إليه، وإن لم يلحظ أو يظهر تمام الظهور. انتهى

نقول: ليس بحط من قدر الكتب المقدسة أن لا يأتي فيها الدليل على وجود الخالق لابسا حلة منطقية جدلية، فإن تلك الكتب أنزلت لتؤثر على العقول من جهة أرقى من الإدراك، ولذلك كان تأثيرها أكبر من تأثير الفلسفة التي تفتخر بالمنطق والعلوم الجدلية، بل لو جاءت للأمم بتلك الآلات الكلامية المصطنعة لما تعدي تأثيرها تأثير فلسفة أرسطو وأفلاطون وليس هذا المقصود من إيحائها.

على أن القرآن الكريم قد اختص من بين الكتب السماوية بما يعتبر أنه أصل أدمغ البراهين الجدلية، فقد قال تعالى: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فأنت ترى أنه جاء في هذه الآية الكريمة بالأصل الذي استمدت منه أقوى البراهين وجودها، وهي البراهين التي يعبر عنها الفلاسفة بالسببية فكأنه قال: إذا لم يكن إله، فمن فطر السموات والأرض.

وقد قرأنا في مجلد ١٨٩٣ من مجلة كوسموس بحثا كتبه الأستاذ مومنيه يثبت به وجود الخالق، فقال: «إن افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل أن الكون خلق اتفاقا بلا فاعل مريد مختار، وأن الاتفاقات المتكررة توصلت إلى تكوين رجل، فهل يعقل أن الاتفاقات أو المصادفات توصلت إلى تكوين مماثلاً له تماماً في الشكل الظاهر، ومبايناً له في التركيب الداخلي، وهو المرأة بقصد عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيها، قال، أليس يدل هذا وحده على أن في الوجود خالقاً مريداً مختاراً، أبدع الكائنات ونوع بينها، وغرز في كل نوع غرائز ومتعه بمواهب يقوم بها أمره، ويرتقي عليها».

نقول إن هذا البرهان الذي ظن الأستاذ مومنيه أنه أول من استلفت الأنظار إليه، مستمد من قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ فإذا لم يكن في القرآن براهين منطقية مبينة على أسلوب صناعي، ففيه أرقي من ذلك كما تري في قالب يستهوى المدارك والأرواح معا، ألا يرى القارئ معي أن قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ ينطوي على أصول جمهور كبير من البراهين التي يسميها الكتاب منطقية أو جدلية؟

قال أكسونوفون في كتابه (مذكرات أكسونوفون) قال سقراط لأريستوديم: قل لي يا اريستوديم، أيوجد رجال تعجب بهم لمهارتهم، وجمال صنائعهم؟. أريستوديم — نعم حقيقة. سقراط، أخبرني عن أسمائهم. أريستوديم — أعجب في الشعر القصصي بهومير، وفي المرائي بسفوكل، وفي صناعة التماثيل ببوليكتيت. ثم ذكر سائر الذين يعجب بهم من أهل الفنون كل واحد وفنه، قال سقراط: أي الصناع في نظرك أولى بالإعجاب، الذي يخلق صورا بلا عقل ولا حراك، أم الذي يبدع كائنات ذات عقل وحياة. أريستوديم — وحق جوبتير، إن أولاهما بالإعجاب هو الذي يبدع الكائنات المتمتعة بعقل وحياة، إذا لم تكن هذه الكائنات من نتائج الاتفاق. سقراط — ولكن أي الكائنات أولى أن تعتبرها من نتائج

الاتفاق أو من نتائج الإدراك، التي غايتها ظاهرة أم التي منافعها مشكوك فيها. أريستوديم- من العدل أن أقول، إن الكائنات ذات النفع هى أولي بأن تنسب إلى عمل الإدراك.

سقراط – ألا ترى أن الذي فطر الناس قد أعطاهم ما لديهم من الأعضاء لغايات ومقاصد خاصة، فأعطاهم الأعين للنظر، والآذان للسمع، وماذا كانت تجدينا الروائح إن لم تكن لنا أنوف. وهل كنا نشعر بمرارة المر، وحلاوة الحلو، إن لم تكن لنا ألسنة تميز بين هذه الطعوم؟ ثم ألا ترى من دلائل التبصر والحيطة أن تكون الأعين لرقتها وسهولة تأثرها قد متعت بالأجفان، تقفل، وتفتح بالإرادة، وتنسدل على العينين وقت النعاس، وقد حليت أطرافها بأشبه شيء بالغربال من الرمش ليحميها شر الرياح، وأن الحواجب قد وضعت لتمنع تساقط العرق إليها، وأن الآذان خلقت قابلة لتمييز جميع الأصوات بدون أن تمتلي قط. إلى أن قال – كل هذه الأعمال التي تدل على تبصر واحتياط إلى أي شيء تعزوها، إلى الاتفاق أم إلى الإدراك. أريستوديم – لا وحق جوبتير، إن هذه الأعمال إذا نظر إليها الإنسان تدل على أن قد صنعها صانع يحب الكائنات الحية.

سقراط – وماذا تقول في الميل المودع في النفوس للتناسل، وفي الحنان المخلوق في قلوب الأمهات للهيمنة على فلذات أكبادهن، وفي الخوف الموجود في تلك الكائنات من العطب؟. اريستوديم – لاشك أن كل هذا يدل على أنه اختراع كائن قرر خلق الحيوانات.

سقراط – أتعقل أنك وحدك قد تحليت بعقل وإدراك، وأنت كما تعلم لا تقارن بشيء من الوجود، وأن هذه المخلوقات كلها المتمتعة بإدراك مثلك لا تحتاج لعقل يرتب علاقاتها، ويقيم أمرها على قاعدة النظام. اريستوديم – أنا أنكر ذلك وحق جوبتير، فإني لا أري ذلك الصانع كما أري الصناع من الناس.

سقراط – إنك لا ترى كذلك روحك التي تتسلط علي أعضائك، فهل تستطيع أن تقول أن جميع أفعاله صادرة بلا عقل ولا إدراك، بل بالاتفاق.

**براهين أفلاطون**

استدل أفلاطون على وجود الخالق بالبرهان الذي يدعي بالسببي، فقال في كتابه المسمي (تيمية) من البديهي أن كل حادث له سبب أحدثه، ولا يعقل حدوث شيء بلا سبب.

ومن المعلوم بالضرورة أن العالم حادث، لأنه مشاهد ومحسوس ومادي، وكل هذه الصفات محسوسة فيه، ولما كان كل ما هو محسوس ممكن إدراكه بواسطة الحواس فهو حادث ومصنوع، فيكون الوجود، وهو أجمل الأشياء الحادثة له سبب أحدثه، هو أكمل الأسباب كلها.

**براهين ارسطو**

أرسطو أشهر فلاسفة اليونانيين، وهو تلميذ أفلاطون (٣٨٤ – ٣٢٢) ق.م. قال في إثبات الخالق في كتابه المسمي (اثولوجيا . عقل واجب الوجود) ثم قال إن واجب الوجود هو عقل لذاته، لأنه مجرد عن المادة منزه عن اللوازم المادية، فلا تحتجب ذاته عن ذاته أما كونه عقلا لذاته، فلأنه مجرد لذاته، فهو يعقل ذاته، ومن ذاته يعقل كل شيء، فهو يعقل العالم العقلي دفعة واحدة من غير احتياج إلى انتقال وتردد من معقول إلى معقول، وأنه ليس يعقل الأشياء على أنها أمور خارجة عنه كما نعقلها نحن، بل يعقلها من ذاته، وليس هو عاقلا وعقلا بسبب وجود الأشياء المعقولة، بل الأمر بالعكس، أي أن عقله للأشياء قد جعلها موجودة، وليس له شيء يكمله، فهو كامل بذاته مكمل لغيره، ولما كان هو لم يزل ولن يزال موجودا بالفعل فيجب أن يكون له من ذاته الأمر، الأكمل والأفضل.

**واجب الوجود لا يتغير**

ثم قال: إن واجب الوجود لا يتغير، لأن انتقاله عن حالته يكون إلى الشر لا إلى الخير، لأن كل رتبة هي دون رتبته، وكل شيء يناله هو دون نفسه. ثم قال محمد فريد وجدي ما نصه: هذه أصول براهين الأقدمين في إثبات الخالق جل وعز. وقد نحا العرب نحوهم، وحذا فلاسفة القرون الوسطى في أوربا حذو العرب، فلم تزد البراهين على وجود الخالق على ما كانت عليه قبل عيسى عليه السلام بنحو أربعة قرون. فلما ظهرت بواكر العلم في أوربا فتح على العقول ببراهين جديدة، رأينا أن نلم بها على ترتيب حدوثها.

وأول من جاء بشيء جديد فيها العلامة الكبير (ديكارت) الفرنسي (١٥٩٦ – ١٦٥٠م).

ديكارت هذا حول وجهة الفلسفة وجدد قواعدها، فبعد أن كانت مستقرة على مذهب أرسطو أقعدها على قاعدة العلم الصحيح المجرد عن الظنون والمسلمات، فجعل أساس

الفلسفة الشك ودليلها الوضوح والجلاء، وقد جري في استدلاله على وجود الخالق على سنة لم يجر عليها أحد ممن سبقه، فجرد نفسه من جثمانيته وأخذ يبحث عن الحقيقة في أعماقها لا في الوجود الخارج عنه، ليصل إلى الحق بذاته لا بوسائل خارجه عنه. فلم يسائل الوجود عن صانعه، ولم يناج العوالم عن عللها، بل اقتصر على نفسه ورغب أن ينكشف له ما غمض عليه منها هي وحدها دون سواها. فأعطي على وجود الخالق أدلة ثلاثة، كلها أدلة نفسانية.

**أولها:** قال إني مع شعوري بنقص ذاتي أحس في الوقت ذاته بوجوب وجود ذات كاملة، وأراني مضطرا للاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال، وهي الله.

**ثانيها:** قال ديكارت: إني لم أخلق ذاتي بنفسي، وإلا فقد كنت أعطيها سائر صفات الكمال التي أدركها، إذن أنا مخلوق بذات أخرى، وتلك الذات يجب أن تكون حائزة جميع صفات الكمال، وإلا اضطرت أن أطبق عليها التعليل الذي طبقته على نفسي.

**ثالثها:** قال ديكارت: إن عندى شعورا بوجود ذات كاملة، لا يفترق في الوضوح عن شعوري بأن مجموع زوايا أي مثلث تساوي زاويتين قائمتين. إذن فالله موجود.

ثم ذكر محمد فريد وجدى طريقة ديكارت في الاستدلال وأطال في بيانها إلى أن قال فيما نقله عنه: إن لفظة (الله) إن لفظت بها، فإنما أعني بها هيولي لا نهاية لها أزلية دائمة مستقلة عالمة بكل شيء، وقادرة على كل شيء. وإني أنا وجميع العوالم الموجودة مخلوقة لها وناتجة منها، وهذه معارف جمة كلما تأملت فيها بدقة ازددت اعتقادا بأني لم استنبط الشعور بوجود الله من ذاتي وحدها، وعليه فيجب أن أستنتج من ذلك أن لله وجودا مستقلا، وأن شعوري بوجود هيولي غير متناهية لا يمكن أن يكون أصله في ذاتي أنا ذلك الكائن المتناهي، بل غرست في ذاتي من قبل هيولي غير متناهية في الحقيقة.

**تعليقات:**

١- يقول محمد تقى الدين: قول دائرة معارف القرن التاسع عشر: فليس لنا إذن أن نبحث عن أدلة وجود الخالق بطريقة دقيقة في الكتب المقدسة . الخ.

فيه نظر كما بين من قبل، لأننا إذا أردنا أن القرآن، وهو أحد الكتب المقدسة، لم يسلك في البرهنة سبيل المنطق اليوناني الشكلي، فذلك صحيح، وأما إذا قيل أن القرآن لم يتعرض لإقامة البرهان على وجود الخالق أصلا، فليس بصحيح، لأن القرآن قد استدل بوجود الأثر البديع على الخالق المبدع في آيات لا تعد ولا تحصى، فبرهان (ديكارت) مثلا على وجود الله تعالى موجود في القرآن. قال تعالى في سورة الذاريات : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾. قال البيضاوي في تفسير الآيتين: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ أي فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوانات، أي وجوه الدلالات من الدحو والسكون، وارتفاع بعضها عن الماء واختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص والمنافع، تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته وإرادته ووحدته وفرط رحمته. ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ ﴾ أي وفي أنفسكم آيات، إذ ما في العالم من شيء إلا وفي الإنسان له نظير يدل دلالته مع ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الأفعال الغريبة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة. ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ تنظرون نظر من يعتبر. انتهى

هذا ما انكشف للمفسرين في زمان البيضاوي من البراهين الدالة على وجود الله وربوبيته وتدبيره للعالمين في الأرض وفي الإنسان نفسه. وقد انكشفت بعد ذلك للعلماء المفكرين آيات وتفصيلات هي أعظم دلالة، وأعلى برهنة على وجود الله تعالى، آخرها الذرة وما يدور حولها من الالكترونات، أما ما في الإنسان من الآيات التي انكشفت لديكارت وجعلته يوقن بوجود الله تعالى، فقد انكشف للعلماء بعده أسرار هي أعظم وأوضح مما انكشف له هو، وسأذكر بعضها إن شاء الله في المقالات الآتية ليعلم ريني الحبشي ومن يفرح بنقيقه من الذين استهوتهم الشياطين بوساويسها فأصبحوا حيارى أن ريحه لاقت أعصارا، وأن الحق لا يعدم، - حتى في هذا الزمان — أنصارا.

ومثل ذلك قوله تعالى في آخر سورة فصلت : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾.

هذه السورة مكية نزلت على النبي ﷺ وهو وأصحابه يلاقون الأمرين من أذى المشركين. والسين للتنفيس تدل على حدوث الفعل في المستقبل، أي سيري الله أولي الألباب أهل العلم والمعرفة من الآيات الدالة على وجوده وتدبيره للعالم بأسره في آفاق

الأرض والسموات على مرور الزمان ما لا يبقي ريبا ولا شكا في نفس أي طالب للحق، وسيرى الله أهل العلم والمعرفة في أسرار خلق الإنسان آيات واضحات تكشف لهم الحق ولا تبقي عندهم لبسا. قال القاسمي في تفسير الذاريات. انشد ابن أبي الدنيا في كتابه (التفكر والاعتبار) لشيخه أبي جعفر القرشي:

**وإذا نظـــرت تريـــد معتـــبرا ... فـــانظر إليـــك، ففيـــك معتـــبر**
**أنـــت الـــذي مســـي وتصـــبح في ... الـــدنيا وكـــل أمـــوره عـــبر**
**أنـــت المصـــرف كـــان في صـــغر ... ثـــم اســـتقل بشخصـــك الكـــبر**
**أنـــت الـــذي تنعـــاه خلقتـــه ... ينعـــاه منـــه الشـــعر والبشـــر**
**أنـــت الـــذي تعطـــى وتســـلب ، لا ... ينجيـــه مـــن أن يســـلب الحـــذر**

وهناك آيات في هذا المعني كثيرة، فالعجب من قولهم، إن القرآن لم يقم برهانا عقليا على وجود الله وتصرفه في خلقه.

٢- كل من له عقل يتنزه به عن درك الحيوان الأعجم، وتأمل مناظرة سقراط لأرسيتوديم يرى أن القول بالاتفاق والمصادفة غباوة عظيمة، أو مكابرة تزري بصاحبها وتنزل به إلى أسفل سافلين.

٣- المعلمون للأرواح أطباء القلوب المرشدون للشعوب المخرجون الأمم من الظلمات إلى النور هم الأنبياء، لا الفلاسفة، لأن الأنبياء مرسلون من الله لإصلاح العباد وإقامة الحجة عليهم، ومؤيدون بروح منه، أما الفلاسفة فقد امتازوا بعقول كبيرة تغوص في بحور الأفكار فتستخرج درر المعرفة وتعرضها على طلابها، ولا يلتزمون إصلاح فاسد، ولا تقويم معوج، وليسوا معانين على ذلك، لأنهم لم يكلفوا به. ألا ترى إلى أريستوديم الذي كان سقراط يحاوره، كيف يحلف بجوبتير، ومعناه الكوكب السيار الذي يسمي بالعربية (المشترى) فإن اليونانيين كانوا يعبدون الكواكب وينحتون لها تماثيل ويعبدونها، ولم يستطع فلاسفتهم أن ينقذوهم من عبادة الأحجار حتى جاءتهم المسيحية فدانوا بها وتركوا أصنامهم، ولو كانت الفلسفة تقدم للأرواح غذاءها وتنقذ النفوس من جهالتها وتربى الأمم بالأخلاق العليا، لكان الرسل المعلمون لدين الله الحق كلهم يونانيين. ونحن لا نسوق حجج الفلاسفة

على وجود الله تعالى وتصرفه في خلقه لإقامة البرهان على صحة ذلك، وإنما نوردها حجة على من يزعم أن الفلسفة والبحث الحر يوجب على الباحث إنكار وجود الله وتكذيب رسله ليعلم من لا يعلم أن الفلسفة ورجالها الأقدمين والمتأخرين براء مما ينسبه إليهم هؤلاء الجهال الكسالى.

ومن المعلوم عند أهل العلم والإيمان أن الحلف بغير الله كفر وشرك كما جاء في الحديث الصحيح، لأن الحلف من العبادة، كالدعاء والاستغاثة والنذر والذبح بقصد التعظيم، والخوف بالغيب، والاستعاذة، والتواكل، والخضوع بالقلب إلى غير ذلك من أنواع العبادات المفصلة في كتب التوحيد. فالفلاسفة يثبتون توحيد الربوبية ويقيمون عليه الحجج الدامغة ويهملون توحيد الإلهية والعبادة، ولذلك لم يستطيعوا إنقاذ قومهم من الشرك والوثنية.

٤- قوله: هي إلى أن تكون شعرية أقرب منها إلى أن تكون فلسفية، ممنوع، لأن البراهين القرآنية التي أشرت إليها سابقا كقوله تعالى في سورة الطور ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ معناه كيف يعقل أن يخلق هذا العالم البديع الصنع المحكم من غير خالق عالم حكيم قدير منزه عن مشابهة الخلق ذلك محال، لأن وجود الصنعة بلا صانع لا يقبله العقل. وهذا بعينه ما تؤول إليه براهين الفلاسفة التي تقدم بعضها وسيأتي إن شاء الله سائرها.

فإن الاستدلال بالمصنوع على الصانع قياس حقيقي يقال فيه: هذا العالم مصنوع، وكل مصنوع لابد له من صانع، ينتج: أن هذا العالم لابد له من صانع، ثم يقال: هذا العالم المحكم الصنع كامله، وكل صنعة محكمة كاملة لابد أن يكون صانعها كاملا، ينتج (خالق هذا العالم متصف بصفات الكمال)، ثم يقال: هذا العالم محتاج إلى صانع، وما احتاج إلى صانع لا يكون صانعا، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وذلك يدل على تنزه الله تعالى عن مشابهة المخلوق. والقياس الثالث توكيد وبيان، وإلا فهو من لوازم القياسين السابقين.

أما القياس الشعري فقد قالوا فيه (إنه قياس مؤلف من مقدمات متخيلة). والبراهين القرآنية الدالة على وجود الله تعالى وخلقه للعالم مقدماتها حقيقية بعيدة عن الخيال بعد الموجود من المعدوم.

٥- على أن قائل ذلك قد استدرك فقال عقبه مباشرة: ولكن يمكن أن يقال: إن هذا البرهان هو روح الإيمان الذي أثر على عقول الجماهير، وأسس سلطة الداعيين إليه. انتهي.

وهذا اعتراف من الفلاسفة أن أقيستهم الجامدة العارية عن البلاغة والبيان لا تنفذ إلى قلوب الجماهير ولا تؤثر فيها، لأنها لا تفهمها. والله سبحانه حين يرسل رسول وينزل كتابه، لا يرسله إلى الفلاسفة وحدهم، بل يرسله إلى جميع طبقات البشر كما قال تعالى في سورة اقتربت: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

والمحققون من العلماء يعتقدون أن البرهان لا يحتاج إلى مقدمات شكلية، بل متى كان معنى المقدمات موجودا في أي عبارة بدون مغالطة يستنتج السامع والقارئ البرهان القاطع من تلك العبارة كيفما كانت. ومن تأمل محاورات الناس التي تجري بينهم في كل يوم يستطيع أن يستخرج منها جميع الأقيسة المنطقية. وإنما وضعت الأقيسة المنطقية لتدريب المفكرين. يوضح لك ذلك أن الفرق المختلفة في العقائد كل واحدة منها تدعى أن الحق معها وتزن عقائدها بالميزان المنطقي وتستخرج النتائج المتفقة مع هواها. فإذا نظر فيها اللبيب يتبين له درها من مخشلبها وجيدها من زيفها ولا يروج عليه التمويه بالأقيسة الخطابية والشعرية والسفسطية. ومن نظر في المواعظ المروية عن المسيح عليه السلام في مجادلته لمعارضيه يرى كلامه موزونا بأدق الموازين المنطقية دون التزام أشكالها.

وتقدمت مناظرة إبراهيم الخليل عليه السلام لنمرود حين استعمل السفسطة فقال: أنا أحي وأميت، كيف جاءه بحجة دامغة لا تقبل المغالطة ولا السفسطة، وهي قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ ﴾ الآية.

٦- قول ديكارت: إن لفظة (الله) إن لفظت بها فإنما أعني بها هيولي لا نهاية لها أزلية دائمة مستقلة عالمة بكل شيء، الخ.

قال محمد تقي الدين: الهيولي عند الفلاسفة هي مادة الكون التي منها تنشأ الصور والأشكال كالحيوان والنبات والجماد بجميع أنواعها، وإذا فنيت هذه الأشياء تصير هيولي كما كانت من قبل، وشبهها ابن عربي الحاتمي بالخشب، بالنسبة إلى الكراسي والموائد وألواح الكتابة والمقاعد والأسرة والسفن والقوارب والبيوت الخشبية، كل ذلك، وإن اختلفت صوره وأسماءه فهو ناشئ من الخشب، فمادته واحدة، وشبهها غيره بالبحر وأمواجه، فالأمواج، وإن اختلف بالكبر والصغر فهي راجعة إلى ماء البحر، ويمكن أن تشبه بالشمع الذي تصنع منه تماثيل حيوانات من أشكال الحلوى يشتريها الصبيان في العيد

يفرحون بها، ثم يأكلونها. فالخشب هيولي الأدوات والأواني التي تصنع منه، وماء البحر هيولي الأمواج التي تثور منه. والشمع هيولي التماثيل التي تصنع منه، وما قاله ديكارت في الهيولي قد سبقه إليه الفلاسفة الأقدمون من اليونانيين وأهل الهند فأفضي بهم ذلك إلى عقيدة وحدة الوجود، فزعموا أن المخلوق هو عين الخالق – تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

وأنا لم أسق كلام ديكارت وغيره من الفلاسفة موافقة لهم في آرائهم، وإنما سقته حجة على أدعياء الفلسفة من أهل هذا الزمان في زعمهم أن الفلسفة أوجبت عليهم الإلحاد والتعطيل. وإذا تأملت الدليل الثاني من أدلة ديكارت الثلاثة يتبين لك أنه لا يقصد ظاهرة تلك العبارة، بل ينزه الله عن مشابهة خلقه ويوحده، ولا يقول بوحدة الوجود. وكذلك ما تقدم من كلام أرسطو يدل على تنزيه الله تعالى عن مجانسة خلقه.

## جواب السفارة البريطانية بالرباط عن عدد الملحدين في بلادها

الرباط في ٢٥ مارس ١٩٦٥.

سيدي الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي.

بناء على زيارتكم، أؤكد لكم في هذه الرسالة المعلومات التي أعطيت في مسألة الملحدين في بريطانيا العظمى. من دواعي الأسف، أنه لا يوجد إحصاء حقيقي في هذا الصدد، إلا أن الجمعية الإنسانية البريطانية أعلنت في دعايتها الإلحادية أن عدد الملحدين التابعين لها يبلغ عشرة آلاف في جميع البلاد البريطانية.

ثم قالت الجمعية: إن هذا العدد يرجح أنه غير دقيق، ولكن كثيرا من الناس لا يصدقونها في هذا العدد.

ومن دواعي أسفي أنني لا أستطيع أن أساعدكم أكثر من هذا.

أما عدد سكان المملكة المتحدة حسب الإحصاء الأخير سنة ١٩٦١ فإنه يقل بقليل عن ٥٣ مليونا من النفوس.

وثقوا يا سيدي بعواطفي الطيبة نحوكم.

التوقيع: أ. ف. وارد

### تعليق على هذا الجواب

والآن يا ريني الحبشي، ويا من يروجون دعاية الإلحاد المنتنة في البلاد الإسلامية والعربية ألا تستحون، ألا تخجلون؟ فهذه البلاد البريطانية، ولا يستطيع أحد في الدنيا كلها أن يتردد في الشهادة لها بأنها في مقدمة البلدان التي بلغت في المدنية أوجها، وفي العلوم والأعمال والسياسة والحرب والسلم الغاية القصوى فهذه جمعية الإلحاد فيها، ومنها — طبعا — جوليان هيكسلي، الذي سرق ريني الحبشي كلامه الأعرج وادعاه لنفسه، تدعي أن عدد أفرادها بلغ عشرة آلاف من مجموع ٥٣ مليونا، ثم لا يصدقها الناس، كما يقول الملحق الصحفي في السفارة البريطانية بالرباط. ولنفرض، أنها صادقة في دعواها. فما هي نسبة عشرة آلاف من ثلاثة وخمسين مليونا يا مسيو ريني الحبشي ومن يعمل على شاكلته من المتهوكين؟

والـــدعاوى مـــا لم يقيمـــوا عليهـــا بينـــــات أبناؤهـــــا أدعيـــــاء

شهادة عالم إنكليزي كبير وهو أرنولد توينبي (Arnold Toynbee).

بينما أنا أفكر في كتابة هذه الحلقة ذكرت أنى قرأت كلاما مهما في الموضوع للعالم الإنكليزي الكبير أرنولد توينبي في مجلة البعث الإسلامي الهندية اللكناوية بقلم الأستاذ أبي الحسن على الندوي فأحببت إثباته هنا صفعة إضافية لريني الحبشي ومن لف لفه من المدلسين والغوغاء. نشر الأستاذ أبو الحسن الندوى في مجلته (البعث الإسلامي) مقالا قيما تحت عنوان «الأقطار الإسلامية والحضارة العصرية» الجزء السادس من السنة التاسعة تاريخ ذى القعدة ١٣٨٤ الموافق مارس سنة ١٩٦٥م جاء فيه ما نصه:

إن مستقبل الإنسانية يتوقف على أخوة روحية لا يمنحها غير الدين، وهو الشيء الذي يحتاج إليه النوع الإنساني في هذا الوقت. الشيوعية تزعم أنها تستطيع أن توحد النوع البشري، كما أن الإسلام يثبت صلاحيته كقوة موحدة للإنسان في أفريقيا. المسيحية أيضا تستطيع أن تلعب هذا الدور إذا علمت بمبادئها. ولكن القومية أيضا تستطيع أن تلعب هذا الدور إذا عملت بمبادئها. ولكن القومية لا تستطيع أبدا أن توحد الإنسانية ، بل إنها توزعها وتشتت شملها. ومن أجل ذلك ليس لها مستقبل، إنها لا تستطيع إلا أن تدفن الإنسانية في ركامها.

إنه يجب علينا أن نختار إحدى النتيجتين في عصر الذرة وإننا إذا أردنا أن ننقذ أنفسنا من الهلاك والدمار، فينبغي لنا أن نحتضن الإنسانية كلها من غير استثناء ونتعلم كيف نعيش كأسرة واحدة. انتهي: نقل هذا الكلام من مجلة إسلامك رفيو .. Islamic Review-Mars ١٩٦١

عود إلى حجج الفلاسفة على وجود الباري وعموم ربوبيته سبحانه.

**براهين فنيلون**

فنيلون من كبار فلاسفة القرن السابع عشر قال في كتابه «وجود الله وصفاته»:

إنما علمت ببحثي في نفسي أني لم أخلق ذاتي، لأن إيجاد الشيء يقتضي الوجود قبله، فيلزم على ذلك أني كنت موجودا قبل أن أوجد، وهو تناقض صريح. فهل أنا موجود بذاتي، فلأجل أن أجيب عن هذا السؤال يلزمني أن أعرف ماذا يجب أن يكون عليه الكائن

الموجود بذاته. يجب أن يكون أزليا ثابتا لأنه يكون حاصلا من ذاته على علة وجوده، ولا يكون محتاجا لشيء من الخارج عنه. فكل ما يمكن أن يأتيه من الخارج لا يعقل أن يتحد به ولا أن يكمله، لأن الحادث المتغير لا يمكن أن يتحد مع الموجود بذاته الذي لا يقبل التغيير. فالفرق بين هاتين الطبيعتين يجب أن يكون لا نهاية له. إذن فلا يمكنهما أن يؤلفا مجموعا حقيقيا. إذن فالموجود بذاته لا يمكن أن يزاد شيء علي حقيقته ولا على رحمته ولا على كماله. فهو في ذاته كل ما يمكن أن يكون ولا يجوز عليه أن يكون أقل مما هو عليه. فالموجود على هذه الحالة هو على أرقي درجات الوجود.

بقي على أن أسأل هل الشيء الذي أسميه (أنا) الذي يفكر ويعقل ويدرك ذاته هو تلك الذات غير المتغيرة أم لا؟؟. إن الشيء الذي اسميه (أنا) بعيد جدا عن الكمال المطلق. فأنا أجهل وانخدع واشك، ويكون أحيانا هذا الشك الذي يعد نقصا من أحسن ما يجب على الاتصاف به، ومما هو أشد من ذلك أني قد أريد ولا أريد فإرادتي تتذبذب ولا تستقر على حال، فتناقض نفسها بنفسها. فهل يصح أن أعتقد في نفسي الكمال المطلق، وأنا في وسط هذه التقلبات والنقائص، في وسط هذه الجهالات والأضاليل غير الإرادية، بل والإرادية أيضا. إذن فلست أنا الكامل كمالا مطلقا، ولست أنا القائم بنفسي، فلابد إذن من قيوم أوجدني. وإذا كان غيري أوجدني فلابد أنه يكون موجودا بذاته، ويلزم من ذلك أن يكون كاملا كمالا مطلقا، فهذا الكائن القائم بذاته، والذي أنا قائم به هو الله.

وله برهان آخر مؤداه: أني وإن كنت محدوداً منتهيا، إلا أني أحمل في ذاتي شعورا بلا نهاية وبكمال لا حد له. فمن أين حدث لي هذا الشعور الذي يعلو مداركي ويدهش لي أحيانا؟ هل حدث من العدم؟ لا شيء مما هو محدود يستطيع أن يبعث في هذا الشعور، لأن المحدود لا يشعر بغير المحدود. ومما لا شبهة فيه أني لم أوجد لنفسي هذا الشعور، لأني أنا أيضا محدود ومتناه فلا مناص إذن من أن نستنتج من هذا أن الذي أوجد لي هذا الشعور هو الكائن الذي لا نهاية لكماله، وهو الله.

### براهين بوسويت

بوسويت كان معاصرا لفنيلون المتقدم ذكره وهو فرنسي مثله. له برهان خاص به مؤداه: (ليس علينا إلا أن ننظر إلى أنفسنا لنتحقق أننا صادرون من أصل رفيع، نرى أنفسنا أهلا

لأن نفهم الأشياء وندرك الموجودات. وإنها قد تجهل بعضها فنشك فيها، أو نرى الأحوط لها أن لا نحكم عليها بحكم حتى نصل منها إلى حقيقة ما، وما ذلك إلا لأنها تعتقد أن بها نقصا يمنعها الوصول إلى الحقيقة المطلقة. وإذا كان في الوجود عقل ناقص يشك ويتردد ويجهل، وهو مع ذلك موجود، فمن باب أولى يكون موجودا عقل كامل ليس عقلنا منه إلا قطرة من بحر أو شعاع من شمس، لأنه مما لا يعقل أن نكون نحن وجدنا المتمتعين بعقل وإدراك، ويكون الوجود العظيم كله خاليا منهما إذ يقال أنه إذا كان الوجود كله مكونا من مواد صماء عمياء لا عقل لها ولا إدراك، فمن أين نشأ للإنسان هذا العقل والإدراك، وفاقد الشيء لا يعطيه كما هو معلوم؟ إذن فلابد أن يكون في الوجود عقل مطلق وإدراك لا حد له.

نقول، هذا كلام جيد، فإن الإنسان معلوم أنه خلق من طين، والطين لا يعقل ولا يدرك، فمن أين ينشأ للإنسان هذا الإدراك إن لم يكن فوق طبيعة الطين طبيعة أرقي منها الإدراك مظهر من مظاهرها، ولبوسويت برهان آخر فحواه:

كل ما هو ثابت في العلوم الرياضية وفي العلوم الأخرى يجب أن يكون من النظام الأزلي الثابت. هذه الحقائق كانت، وستكون على مر الأحقاب حقائق مقررة، ولو رآها الإنسان في أي زمان وفي أي مكان لاعتبرها كذلك على الإطلاق، لأنه ليست حواسنا هي التي تريناها على هذه الصفة، بل لأنها هي في الواقع كذلك. ولو اتفق تلاشي الوجود كله وبقيت أنا وحدي فلا أزال أتصور تلك الحقائق واعتقدها حقائق، وأنها كانت حسنة نافعة. ولو زلت أنا أيضا، وزال كل عاقل في العالم، فلم ينقص ذلك من قدر تلك الحقائق، ولم يخرجها عن كونها كانت حقيقة ونافعة، فإذا بحثت عن الذات التي تتركز فيها هذه الحقائق أزلية أبدية كما في الواقع كنت مضطرا للاعتقاد بوجوب وجود كائن مستقرة فيه كل هذه الحقائق ومدركة لديه وهذا الكائن يجب أن يكون هو الحقيقة بعينها، بل منه تشرق الحقيقة ذاتها في كل وجود.

إذا تقرر هذا، فمن بين الحقائق المقررة الأزلية التي أدركتها حقيقة جليلة القدر، وهي أنه يوجد في العالم شيء موجود بذاته، وهو أبدى لا يدركه تحول ولا يعتريه تبدل. لأنه إذا فرضنا أنه كان وقت ليس فيه شيء مطلقا في العالم، أي لا شيء قائم بغيره ولا شيء قائم

بنفسه من القدم، فلم يكن غير العدم، والعدم لا يصلح لإيجاد شيء. فلا يصح أن يقال أن العدم حقيقة أبدية، وأن لا حق إلى الأبد إلا العدم، إذن فلابد أن يكون في الوجود شيء كان قبل كل شيء فيه من الأزل، وفيه تركزت جميع الحقائق الكونية. وإن تلك الحقائق الأبدية التي تدرك بالنظر في الوجود بلا تحول ولا تبدل هي صادرة من الله، أو بعبارة أحسن، هي الله نفسه، لأن جميع الحقائق الأبدية ليست في الواقع إلا حقيقة واحدة.

**براهين ليبتز**

ليبتز هو فيلسوف ألماني مشهور (١٦٤٦ – ١٧١٦) م ومصلح أسلوب علم الطبيعة وما وراء الطبيعة الذي قرره ديكارت المتقدم ذكره وبين الجهات الضعيفة منه أحسن تبيين.

ارتضي من براهين ديكارت على وجود الخالق برهانه الذي رمي به إلى ضرورة وجود كائن واجب الوجود. لليبتز برهان جليل القدر على وجود الخالق إليك مؤداه. قال في كتابه (تيوديسيه) الله هو العلة الأولى لوجود الأشياء، لأن كل ما هو محدود ومتناه ككل شيء تقع عليه أنظارنا وتتأثر له مشاعرنا هو من الممكنات، أي ليس بضروري الوجود، فقد يوجد أو لا يوجد، وليس في أحدها شيء يوجب له الوجود بذاته، والزمان والمكان والمادة المتحدة فيما بينها تستطيع أن تقبل حركات وصورا من نوع آخر غير النوع الحالي.

إذن يجب البحث عن الأولية لوجود العالم الذي هو مجموع هذه الكائنات الممكنة، يجب البحث عنها في الهيولي التي تحمل معها علة وجودها، فهي الواجبة الوجود والأزلية. يجب أن تكون هذه العلة عاقلة، لأن الكون الموجود لما كان ممكنا أي قد يكون ولا يكون، وفي الإمكان حدوث دنياوات أخرى من نوعه، فيلزم من ذلك أن تكون علة الوجود محيطة بعلاقات أجزائه قبل أن تتمكن من أحداث دنيا جديدة فيه، ويكون تحديد تلك الدنيا على حال مناسب للمجموع فعل إرادة واختيار، ولا شيء يجعل تلك الإرادة فعالة إلا القدرة التي لها هذه العلة الحكيمة يجب أن تكون غير محدودة ولا متناهية من كل وجه وكاملة كمالا مطلقا من حيث القدرة والحكمة والرحمة، ولما كان الوجود كله مرتبطا ببعضه ومفرغا في قالب واحد فلا سبيل لفرض وجود علة ثانية معها.

**براهين نيوتن**

نيوتن أكبر علماء الفلك في عصره من الإنجليز، وهو يعتبر من العقول النادرة التي ظهرت في العالم (١٦٤٢ — ١٧٢٧) وهو مكتشف قانون الجاذبية العامة وغيرها من القوانين الفلكية وأساليب حلول مسائلها مما خلد ذكره في تاريخ النهضة العالمية، الذي يقارن بين مذهب نيوتن في إثبات الخالق ومذهب ديكارت الطبيعي الفرنسي المتقدم الذكر، يجدهما على طرفي نقيض. فإن الثاني كما رأينا اطرح جميع البراهين الحسية المنتزعة من الوجود واعتمد على البراهين النفسانية، فجاء نيوتن على عكسه متخطيا البراهين النفسانية وغير معتمد إلا على البراهين الحسية. ذلك لأن بين الفيلسوف الإنكليزي والعالم الفرنسي فرقا أساسيا في الوجهة والأسلوب وكيفية التفكر والتعليل والبرهنة.

فديكارت جعل التحقق من وجود ذاته ووجود الله قاعدة بناء فلسفته، ومنهما تحقق من الوجود واستنتج نواميسه وخواص مادته قائلا: أن غرضي من ذلك تفسير المعلولات بعللها لا العلل بمعلولالتها. ولكن الفيلسوف جعل قاعدة فلسفته النظر في خواص المادة ونواميس الطبيعة، واستنتج من ذلك عقيدة وجود الخالق ومعرفة صفاته، ولم يتأثر أقل تأثر بذلك النفوذ الكبير الذي نالته فلسفة ديكارت على عقول معاصريه، فكان نيوتن يقول: كل ما لم يستنتج من حوادث الوجود يجب أن يسمي فرضا، والفروض مهما كانت أنواعها لا قيمة لها في الفلسفة الطبيعية.

بهذا الأصل أحدث نيوتن انقلابا عظيما في عالم العلم الطبيعي وأهدى للعقول المتعطشة للحقائق أحسن المدركات على الوجود ونواميسه، فلما اشتهر ببعد النظر وقوة الإقناع سأله الناس من كل مكان أن يأتيهم بدليل على وجود الخالق يكون في درجة المحسوسات، فأجابهم قائلا: لا تشكو في الخالق، فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هي قائدة الوجود، لأن ضرورة عمياء متجانسة في كل مكان وفي كل زمان لا يتصور أن يصدر منها هذا المتنوع في الكائنات ، ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة، بل إن كل هذا لا يعقل إن كان يصدر إلا من كائن أولى له حكمة وإرادة. ثم قال: من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل

الجاذبية العامة، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها. ثم قال: ومن الجلي الواضح بأنه لا يوجد أي سبب طبيعي استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران في وجهة واحدة، وعلى مستوى واحد بدون حدوث أي تغيير يذكر. فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه. ثم إنه لا يوجد سبب طبيعي استطاع أن يعطي هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسبا دقيقا مع مسافتها بالنسبة للشمس ولمراكز الحركة تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بين جميعها. فلأجل تكوين هذا النظام مع جميع حركاته يجب وجود سبب عرف هذه المواد وقارن بين كميات المادة وجوده في الأجرام السماوية المختلفة وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة، وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين توابعها وساتورن وجوبيتر والأرض، وقرر السرعة التي يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مراكزها.

إذن فمقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاما يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه، كل هذا يشهد بوجوب وجود (سبب) لا أعمى ولا حادث بالاتفاق، ولكن على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة.

ثم قال: ليس هذا كل ما في المسألة، فإن الله ضروري أيضا، سواء لإدارة هذه الأجرام على بعضها وهو الأمر الذي لا يمكن أن ينتج من مجرد قوة الجاذبة أو لتحديد وجهة هذه الدورات لتتفق مع دورات الكواكب، كما يرى ذلك في الشمس والكواكب وتوابعها، على حين ذرات الأذناب تدور في كل وجهة على السواء.

ثم قال: وغير هذا، ففي تكون الإجرام السماوية كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تنقسم إلى قسمين القسم المضيء منها انحاز إلى جهة لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها كالشمس والنجوم. والقسم المعتم يجتمع في جهة أخرى لتكوين الأجرام المعتمة كالكواكب وتوابعها. كل هذا لا يعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له.

ثم قال: كيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة، ولأي المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواميسه،

والأذن بدون إلمام بقوانين الصوت كيف يحدث؟ إن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها، ومن أين جاء هذا الإلهام الفطري في نفوس الحيوانات؟

ثم قال: وهذه الكائنات كلها في قيامها على أبدع الأشكال وأكملها، ألا تدل على وجود الله منزه عن الجسمانية حي حكيم، موجود في كل مكان، يرى حقيقة كل شيء في ذاته ويدركه أكمل إدراك ، الخ.

جاء في كلام العالم الفرنسي بوسويت إيضاح قوله: (أو بعبارة أحسن، هي الله نفسه) لا يدل على أنه يعتقد وحدة الوجود، لكن جاء في كلام بعض الفلاسفة ما يوهم اعتقاد وحدة الوجود، كما جاء في كلام أكثرهم ما هو صريح في بطلانها، فكل ما جاء في كلامهم مما يدل على وحدة الوجود، فأنا أتبرأ منه وأعتقد بطلانه، وإنما أوردته حجة على الخصم الذي ينفي كل شيء غير هذا الوجود الناقص المتغير المحتاج إلى موجد ومدبر.

قول نيوتن: (لا أعمى ولا حادث بالاتفاق) يعني أن السبب في وجود هذا العالم لا يجوز أن يكون متصفا بالعجز ولا يجوز أن يحدث على سبيل المصادفة، لأنه واجب الوجود، ووجوده من ذاته، لا من غيره، وهو متصف بالعلم الذي لا حد له، وبالقدرة التي لا حد لها، وبالإرادة التي لا نهاية لها. فهذه صفات واجبة له يمتاز بها الصانع عن المصنوع قول الأستاذ محمد فريد وجدي (الذي يقارن بين مذهب نيوتن في إثبات الخالق، ومذهب ديكارت الطبيعي الفرنسي المتقدم ذكره يجدهما على طرفي نقيض، إلى قوله (إن غرضي من ذلك تفسير المعلولات بعللها لا العلل بمعلولاتها).

يقول محمد تقي الدين الهلالي: لم تظهر لي صحة ما قاله، لأن نفس ديكارت التي نظر فيها واستدل بها على وجود الله تعالى هي أيضا معلولة، وليست علة، لأن العلة والسبب هو الله، وما سواه معلول، ومسبب. فالفرق بين العالمين في الاستدلال على وجود الله تعالى، هو أن ديكارت اقتصر على النظر في بعض المعلولات، وهي نفسه، ومنها استنبط الدليل على وجود الباري بخلاف نيوتن، فإنه نظر في جميع الموجودات، وخصوصا الأجرام السماوية فاستنبط منها الدليل على وجود الخالق المدبر لها، فليتأمل.

## جواب السفارة النرويجية

زرت السفارة النرويجية فتلقاني الموظفون بحفاوة وإكرام وسألت الموظف المختص أن يجيبني كتابة عن عدد الملحدين من رعايا المملكة النرويجية فكتب إلى بالإنجليزية ما ترجمته:

بناء على طلب البروفسور الدكتور تقي الدين الهلالي نعطي المعلومات التالية على أساس كتاب الإحصاء السنوي للمملكة النرويجية سنة ١٩٦٤ لسنة ١٩٦٠:

١- مجموع السكان ٣,٥٩١,٢٣٤ .

٢- عدد الأشخاص الخارجين عن الكنيسة القومية ١٣٤,٥٥١.

٣- عدد الأشخاص الذين لا ينتمون إلى أي دين ٢٢,٤١٣.

**الطوائف المتدينة غير التابعة للكنيسة القومية:**

١- الكاثوليكيون الروم ٧,٨٧٥.

٢- الأرثودوكسيون اليونانيون ٦١٠.

٣- الإنكليكانيون ٤٩٤.

٤- طوائف إنجيلية أخرى ١,٠٥٤.

٥- النظاميون ١١,١٩٦.

٦- طائفة من النصارى لا يعمدون إلا البالغين ٩,٣١٥.

٧- الأدفينتسيون «السبتيون» ٥,٢٧٢.

٨- طائفة من النصارى، يسمون المهتزين ٢٠٨.

٩- اللوثريون أتباع الكنيسة الحرة ١٦,٧٧٣.

١٠- جماعة جارليسبرك الأحرار ١٩٦.

١١- جماعة الله ١,٤١٧.

١٢- جماعة المرسلين الالينيين ٤,٤٢١.

١٣- الجمعية الإنجيلية ٤٣٨.

١٤- إرساليات أخرى متفرقة ٤٥٣.

١٥- جمعية عيسى المسيح ٤٩٦.

١٦- البنتكو ستاليون ٣٤,١٢٢.

١٧- طوائف أخرى تلتزم التعميد بعد البلوغ ١,٢٥٢.

١٨- الكنيسة الرسولية ٣٧٥.

١٩- طائفة شهود جهوفا ٤,١٨٨.

٢٠- المسيحيون العلميون ١٣٤.

٢١- الموحدون ١٧.

٢٢- المرمومنيون «الذين يبيحون تعدد الزوجات» ١,٢٤١.

٢٣- طائفة يهودية ٨٤١.

٢٤- طوائف دينية أخرى ٣,٤٥٨.

٢٥- أناس خارجون عن نظام الكنائس السابق ذكرها ٦,٣٩٢.

**ختم السفارة — والتوقيع غير مقروء**

فتأملوا أيها القراء المنصفون هذه النسبة الضئيلة من الملحدين في تلك البلاد، وفي ذلك الشعب الذي هو عريق في الحرية والديمقراطية، كل أفراده مطمئنون على حقوقهم وملتزمون لأداء واجباتهم، يدلك على ذلك كثرة الطوائف الدينية مع قلة عدد سكان تلك البلاد الشاسعة المترامية الأطراف، فقد سافرت من عاصمتها أوسلو إلى مدينة نارويك في أقاصي الشمال مسافة ألف ومائتي كيلومترا، لم أبلغ منتهي حدودها الشمالية، حتى أن طائفة الموحدين وهم الذين يوحدون الله ولا يقولون بإلهية المسيح، ولا بأنه ابن الله، وإنما هو بشر كسائر البشر أكرمه الله بالنبوة والرسالة، لا يزيد عددهم على سبعة عشر شخصاً. والحكومة مع ذلك معترفة بهم، وهم أحرار في التمسك بعقيدتهم التي هي مضادة كل المضادة لعقيدة سائر أفراد الشعب. ثم إن هذه الدولة كذلك من الدول العريقة في المدنية والحضارة. فأين ما يزعمه المخادعون لأنفسهم ولشعوبهم من زعمهم أن شعوب أوربا لم تستطع أن تضرب بسهم في المدنية حتى تركت دينها وأصبح أهلها كلهم ملحدين إلا قليلا جداً. هذه دعاية إجرامية جاهلة كاذبة خاطئة، كانت تروق للمستعمرين الماديين.

والآن يروجها المستعمرون الروحيون والغوغاء الجهال أتباع كل ناعق، والمستهترون بالشهوات وفساد الأخلاق. وقد ظهر بما نقلناه وما سننقله أن الله غشهم وكذبهم.

وقد سبقت الإشارة إلى أنني أؤخر الكلام على عدد الملحدين في البلدان التي ليس فيها حرية رأي ولا حرية اعتقاد ولا غيرهما من الحريات، إذ لا يمكن أن يعلم ما في ضمائر الناس إلا إذا كانوا أحرارًا في التصريح بآرائهم وإظهار عقائدهم غير خائفين على حقوقهم أن تفقد بسبب مخالفتهم لغيرهم من المواطنين المتعصبين.

**عود إلى سرد حجج الفلاسفة والعلماء على إثبات وجود الخالق سبحانه**

**براهين كلارك**

كان تلميذا وصديقا للعلامة نيوتن المتقدم ذكره، وهو من أشهر فلاسفة الإنجليز «١٦٧٥ - ١٧٢٩» قال في كتابه «إثبات وجود الله»:

لأجل أن أثبت وجود الله ألفت نظر القارئ إلى أننا نحمل في أنفسنا فكرة على الأبدية واللانهائية «يريد أننا ندرك أبدا لا آخر له ونهاية لا حد لها» وهي فكرة يستحيل علينا أن نلاشيها أو نطردها عن عقولنا، وهي صفات يجب أن يكون موصوفا بها كائن موجود.

كان كلارك يريد أن يقول: إن لم تكن الأبدية واللانهاية موجودتين، فمن أين حدثت في أذهاننا فكرة عنهما.

ثم قال كلارك ما مؤداه: لابد لنا من فرض أن شيئا وجد من الأزل بدليل وجود الأشياء الآن، وهذا الفرض حقيقة لاشك فيها، لأن كل موجود يجب أن يكون سبب أوجده أو أصل قام عليه وجوده، وهذه الأشياء، إما موجودة بذاتها، فهي إذن قديمة أزلية وإما أن تكون موجودة بموجد تقدم عليها، فيكون هو القديم الأزلي.

ثم قال كلارك ما خلاصته: لا يمكن أن يكون هذا الوجود المادي مستقلا بنفسه ولا أبدياً، إلا إذا كان هو واجب الوجود بذاته. ولكن مما لا شك فيه أن الوجود ليس هو واجب الوجود، لأنه سواء تأملت في شكله الظاهرى مع قابليات أجزائه وحركاتها المختلفة، أو اعتبرت مادته التي هو مكون منها بدون التفات إلى شكلها الذي هي ظاهرة به الآن، فلا أرى فيها إلا آثار إرادة واختيار، فمجموعها في جملته، وكل من أجزائها في موضعه وحركته ومادته وشكله. وبالجملة كل ما فيه يظهر لي أنه متعلق بغيره غير مستقل، وبعيد من أن يكون موجودًا بذاته. أنا أعترف أن الوجود لأجل أن يكون صالحا يجب أن تكون أجزاؤه

على الترتيب الذي هي عليه اليوم، ولكني لا أرى أن ذلك الترتيب وجد بضرورة طبيعية، وهي الضرورة التي يستند عليها الملحدون ويدافعون عنها.

**براهين لــــوك**

لوك فيلسوف إنجليزي شهير قال في كتابه على العقل الإنساني: إنه لأجل إثبات الخالق لا نرانا في حاجة إلا إلى التأمل في أنفسنا وفي وجودنا، فإنه مما لا مشاحة فيه أن كلامنا يعتقد أنه موجود، وأنه شيء من أشياء الوجود. أما الذي يشك في وجود نفسه فليس لنا معه كلام.

وإنا نعلم أيضاً ببداهة العقل بأن العدم لا ينتج مطلقا كائنا حقيقيا. ومن هنا يظهر لنا بوضوح جلي وبأسلوب رياضي بأنه لابد من أن يكون قد وجد شيء في الوجود من الأزل، لأن كل ما له بداية يجب أن يكون ناتجاً من شيء تقدمه. ومما لا ريب فيه أن كل كائن يكتسب وجوده من وجود غيره يستمد منه كل ما هو متمتع به من الخصائص والصفات. إذن فالينبوع الأزلي الذي نتجت منه جميع الكائنات يجب أن يكون هو أصل جميع قواها، فهو إذن قادر على كل شيء. وغير ذلك فإن الإنسان يرى في نفسه قوة على العلم، فيجب أن يكون الأصل الأزلي الذي نتج منه الإنسان عالما، لأنه لا يعقل إن ذلك الأصل يكون مجردا عن العلم وتنتج منه كائنات عاقلة. ومما يناقض البداهة أن المادة المجردة من الحس تمتع نفسها بعقل لم يكن لها من قبل. فيجب بالبداهة أن يكون أصل الكون عاقلا، بل لا حد لعقله، وهو الله.

**براهين فولتير**

فولتير أشهر فلاسفة الفرنسيين وأكبر كتابهم وباحثيهم «١٦٩٤ - ١٧٧٨» تعزى إلى تعاليمه هو وروسو المبادئ التي أججت نار الثورة الفرنسية المشهورة، وهو فوق ذلك يعتبر من العقول الكبيرة في العالم. قال في قاموسه الفلسفي ما يأتي:

إن الطريقة الطبيعية للوصول إلى معرفة الله وأكمل الأساليب الصالحة للمدارك العامة هو عدم قصر التأمل على نظام الوجود، ولكن يجب مده على المقاصد التي خلق لها كل شيء. وقد انشأوا على هذه الفكرة أسفارا ضخمة، وكلها في الحقيقة يمكن أن تلخص في

هذا البرهان وهو: أني إذا رأيت ساعة يشير عقربها إلى الأوقات المختلفة أستنتج من ذلك بأن لابد من أن يكون عقل قد رتب لوالب هذه الآلة حتى استطاع العقرب أن يدل على الساعات دلالات حقيقية. وكذلك أراني إن تأملت في آلات الجسم الإنساني استنتج أن لابد من أن يكون عقل قد نظم أجزاءه وأجهزته وجعله قابلا لأن يتغذى في الرحم تسعة أشهر متوالية، وأنه قد متع بأعين لينظر بها وبأيد يتناول بها الخ.

من هذا البرهان وحده لا استنتج أنا شيئاً، غير أن كائناً عاقلا صور المادة على أبدع الأشكال، ولكني لا أستطيع أن استنتج منه أن هذا الكائن خلق المادة من العدم، وأنه لا نهاية له من كل وجه. ولقد حاولت أن أمثل بفكري هذه الأفكار الآتية وهي: أنا مخلوق لكائن أقوى مني، إذن فيكون هذا الكائن موجودا من القدم، وعليه فيكون قد خلق كل شيء، وهو غير محدود بحد الخ.

بحثت لأمثل هذه الأفكار بذهني فلم أجد سلسلة الاستنتاج تؤدي إلى هذه النتائج وغاية ما رأيته أني تحققت أنه يوجد شيء في الوجود أقوى مني ليس إلا.

يكفي من مثل فولتير، وهو ذلك العقل الثوري المستعصي أن يقر ويعترف بوجود شيء أقوى منه في الوجود خلقه وأحكم صنعه، ولو لم يكن هذا الاستنتاج من البداهة بالمكان المعهود لسمعت له صيحات ضد المعتقدين تصم الآذان، يفخر الملحدون بها في كل مكان. وكم لفولتير غير ما قدمنا من كلمات ثمينة واستهزاءات وجهها على الماديين الذين لا يرون في الكون إلا نواميسه الصامتة.

فمما قاله في قاموسه الفلسفي ضد الماديين الذين يزعمون أن الكون خلق بالاتفاق المجرد، وأن أعضاء الإنسان مثلا لم تخلق لتؤدي غرضا مقصودا، ولكنها أدت هذا الغرض اتفاقا، فقال فولتير حين بلغه هذا التهوس الفلسفي: إن الإدعاء بأن العين لم تخلق لنا لننظر بها، ولا الأذن لنسمع بها، ولا المعدة لنهضم بها، يعد أفظع الغباوات العقلية وبأكثف العمايات الجنونية التي تلم بالعقل الإنساني.

**براهين جان جاك روسو**

روسو من أشهر فلاسفة الفرنسيين، بل العالم كله، هو صاحب نظرية العقد الاجتماعي المشهورة التي سار المشرعون والساسة عليها سنين طويلة، ويعتبر أكبر مهيئ للثورة الفرنسية

بما بثه في مؤلفاته من إيقاظ الهمم وإحياء النفوس، وتنبيه العواطف «١٧١٢ - ١٧٧٨» بدأ روسو في كتابه الاعتراف بالعقيدة بالاستدلال على أن المادة المحسوسة تكون تارة متحركة، وتارة ساكنة، واستنتج من ذلك أنه لا الحركة ولا السكون صفة أصلية من صفاتها.

ثم قال: ولما كانت الحركة عملا فهي نتيجة سبب لو ارتفع حدث السكون بعدها. فإذا لم يؤثر شيء على المادة فلا تتحرك مطلقا، وهي لا يعنيها أن تتحرك أو تسكن، والسكون هو حالتها الطبيعية.

ثم لاحظ روسو أن هناك نوعين من الحركة: حركة وقتية إرادية وحركة قهرية آتية من مؤثر خارجي، والتمييز بين هذين النوعين من الحركة مؤسس على التجربة وشهادة الضمير. فقال بالحرف الواحد: إنك لتسألني من أين علمت بوجود حركة وقتية، فأجيبك بأني علمتها، لأني أحسست بها، فأراني أردت أن أحرك ذراعي تحرك في الحال بدون أن يكون لحركته سبب مباشر غير إرادتي.

ثم تساءل روسو عن الحركة المشاهدة في الوجود هل هي صادرة من سبب خارج عنه، أم هي إرادية فيه. فقال: من المستحيل أن نفترض بأنها إرادية فيه لأن هذا الوجود المشاهد ليس في مجموعة التئام ولا نظام آلي، ولا حس عام كما يوجد بين أجزاء الجسد الحي. ومما هو محقق أننا ونحن جزء منه لا نشعر بشعوره الكلى. والوجود في حركاته المنتظمة المتلائمة الخاصة لقوانين ثابتة لا توجد له تلك الحرية التي تظهر في الحركات الإرادية للإنسان والحيوان.

فاستنتج روسو من ذلك أن الوجود ليس بحي في نفسه يتحرك بذاته وبإرادته، إذن فحركاته آتية إليه من سبب خارج عنه.

ثم قال روسو بعد ذلك: إن التجربة والمشاهدة تكشفان لنا نواميس الحركة في الوجود. وهذه النواميس تعين نتائج الحركة ولا تعين أسبابها. فهي لا تكفي لتعليل نظام العالم وسير الوجود. إن ديكارت، قد كون السماوات والأرض «بالكشتبانات» ولكنه لم يستطع أن يطبع في كشتباناته حركاتها الأولى، ولا أن يضع قوة هذه الأجرام المبعدة لها عن المركز بالاستعانة بقوة دورة رحوية فرضها فيها. وقد وجد نيوتن ناموس الجاذبية العامة، ولكن الجذب وحده

يحيل الوجود كله إلى كتلة واحدة لا حراك لها، فلزمه أن يضيف على هذا الناموس قوة أخرى، هي قوة الدفع لتطبع في الأجرام السماوية حركة تدبرها دورات انحنائية. ليقل لنا ديكارت أي ناموس طبيعي أدار له تلك الزوابع التي تكلم عنها. وليرنا نيوتن تلك اليد التي دفعت الكواكب لتجري على مماسات مداراتها.

فالوجود في رأي روسو لا حركة ذاتية له، وإنما حركاته كلها مكتسبة من محرك خارج عنه يطبع فيه تلك الحركات على النحو الذي تطبع إرادتنا الحركات على أعضائنا المختلفة. ثم صعد روسو من السبب الطابع للحركة إلى السبب المريد المختار فقال:

كلما أمعنت النظر في الحوادث التي تحدثها قوى الطبيعة وما يقابلها من رد الفعل، وتأملت في كيفية تأثير بعضها في بعض تحققت من الانتقال من نتيجة إلى نتيجة بأنه لابد من أن يكون السبب الأول متمتعاً بإرادة، لأن فرض تسلسل الأسباب الأولية إلى ما لا نهاية هو كفرض عدم وجود أسباب أولية بالمرة. وبالاختصار كل حركة ليست نتيجة حركة أخرى، لا تكون إلا نتيجة عمل وقتي إرادي. ولما كانت الأجسام الجامدة لا تنفعل إلا بحركات، فلا يوجد عمل صحيح إلا بإرادة، هذا هو الأصل الأول الذي أعتمد عليه. فأنا أعتقد إذن أن إرادته تحرك الوجود وتحيي موات الطبيعة.

بعد أن أثبت الفيلسوف روسو من عرض حركات الوجود أن لابد أنها صادرة عن قوة وإرادة، أخذ في إثبات أن هذه الإرادة يمدها عقل وإدراك فقال: إن التأثير والمقارنة والاختيار هي أعمال كائن مؤثر مفكر. هذا الكائن موجود. ولكنك ستقلول لي أين هو؟ فأقول: إنه موجود، لا في السموات التي يحركها، ولا في الكوكب الذي يضيء علينا، ولا في فقط، بل يوجد أيضا في النجمة التي ترعي، وفي الطائر الذي يطير، وفي الحجر الذي يسقط، وفي الورقة التي يستطيرها الريح. أنا أحكم بأن في العالم نظاما، وإن كنت أجهل غايته، لأنه يكفي في الحكم على وجود هذا النظام المقارنة بين أجزائه ودرس مظاهر تضامنها وعلاقاتها وعرض نظامها وتلاؤم أبعاضها.

أنا أجهل لماذا الوجود موجود، ولكنى لا أغفل النظر إلى كيفية تغييره وملاحظة هذا التبادل الصميم الذي تتساعد بواسطته أجزاؤه، فلنقارن بين غاياتها الخاصة ووسائلها وعلاقاتها المنظمة في كل ضرب من الضروب، ثم لنسمع صوت ضميرنا الداخلي عن

حكمه عليها، فأي عقل سليم يستطيع أن يرفض شهادته لها. أي عين ليس عليها غشاوة لا يكشف لها نظام هذا الوجود عن أنه صنع حكمة ليس فوقها حكمة عليها، فأي عقل سليم يستطيع أن يرفض نظام هذه الكائنات والتضامن العجيب الذي بينها في حفظ مجموعها، لا يوجد في هذا الوجود كله كائن لا يمكن اعتباره من بعض الوجوه أنه وسط مشترك لجميع أمثاله المحتفين به، بحيث يظهر للناظر أنها جميعا مقاصد ووسائل، بعضها لبعض، إن العقل ليرتبك إذا تأمل في أن هذه العلائق التي لا تحصى بين الكائنات لا تضيع منها واحدة، ولا تختلط بغيرها في المجموع. فما أبعد تلك الفروض عن العقل، تلك الفروض التي تزعم أن هذا النظام البديع المتلائم الأجزاء هو نتيجة الحركة العمياء المطبوعة في المادة بالاتفاق. إن الذين يجحدون وحدة القصد الظاهر في العلائق الموجودة بين جميع أجزاء هذا الود العظيم، إنما يحاولون عبثا أن يخفوا سفسطتهم تحت ستار التجريدات، والترتيبات، والأصول العامة والعبارات الخالية، مهما عملوا، فمن المحال أن أدرك نظاما للكائنات مستمرا كما أرى ولا أدرك معه تلك الحكمة التي وهبتها هذا النظام، فلست أنا الذي يستطيع أن يعتقد بأن المادة الميتة تستطيع أن تنتج كائنات حية، وأن الضرورة العمياء تستطيع أن تخلق كائنات عاقلة، وأن ما لا يعقل يستطيع أن يوجد كائنات مدركة.

**اقوال بعض كبار العقول:**

قال العلامة هرشل الإنجليزي من أكابر علماء الفلك في العالم كله: كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلي لا حد لقدرته ولا نهاية. فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم، وهو في الواقع صرح عظمة لله وحده.

وقال العلامة العمراني الكبير هربرت سبنسر الإنجليزي كما نقله العلامة «جون لوك» الإنكليزي في كتابه، ثمرة الحياة الذي نقله للعربية الفاضل حسن أفندي رياض، قال سبنسر: نرى من بين كل هذه الأسرار التي تزداد غموضا «تأمل» كلما زاد بحثنا فيها حقيقة واضحة لابد منها، وهي أنه يوجد فوق الإنسان قوة أزلية أبدية نشأ عنها كل شيء.

وقال العلامة الطائر الصيت «لينيه» الفزيولوجي الفرنسي كما نقله عنه العلامة كامل فلامريون في كتابه «الله في الطبيعة» قال لينيه: إن الله الأزلي الكبير العالم بكل شيء والمقتدر

على كل شيء، قد تجلي لي ببدائع صنائعه حتى صرت دهشا متحيرا، فأي قدرة ، وأي حكمة وأي إبداع أودعه مصنوعات يده، سواء في أصغر الأشياء أو أكبرها. إن المنافع التي نستمدها من هذه الكائنات تشهد بعظم رحمة الله الذي سخرها لنا، كما أن جمالها وتناسقها ينبئ بواسع حكمته، وكذلك حفظها عن التلاشي وتجددها يقر بجلالته وعظمته.

وقال العلامة فونتنل في دائرة معارفه: إن أهمية العلوم الطبيعية لا تنحصر فقط في إشباع نهمة عقولنا، ولكن أهميتها الكبرى هي رفع عقولنا إلى خالق الكون وتحليتنا بإحساسات الأعجاب والإجلال لذاته المقدسة.

**تعليقات:**

١- قول كلارك «إن الوجود ليس هو واجب الوجود، لأنه سواء تأملت في شكله الظاهرى مع قابليات أجزائه وحركاته المختلفة، أو اعتبرت مادته التي هو مكون منها».

هذا يبطل دعوى القائلين بوحدة الوجود الذين يزعمون أن الوجود واحد، فإذا اعتبرت مادته وهيولاه سميته خالقا، وإذا اعتبرت أشكاله الظاهرة سميته خلقا ويمثلون لذلك بالذهب وأنواع الحلي والأواني المصنوعة منه، فإن كل ما صنع من الذهب ذهب يمكن أن يذاب ويرجع إلى مادته وهيولاه. وكذلك الأدوات الخشبية كلها خشب، والأسماء التي جاءتها إنما كانت بسبب الأشكال المحدثة، وقس على ذلك سائر المواد، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. والحق كما قال كلارك، أن هناك وجودين، أحدهما واجب، وهو وجود الحق سبحانه، والآخر ممكن، فهو محتاج إلى موجد يرجح وجوده على عدمه ويضمن بقاءه إلى نهاية أجله. وهذا الوجود الثاني له مادة وأشكال، وكل ذلك محدث وجوده جائز غير واجب ومستمد من غيره غير قائم بنفسه. ووجود التجانس بين المادة والشكل يحتم ذلك. وادعاء أن المادة واجبة الوجود، أي موجودة بذاتها ومستقلة بنفسها، بخلاف الأشكال والصور باطل، لتحتم وجود التضاد بين واجب الوجود القائم بنفسه وجائز الوجود الذي استمد وجوده من غيره.

٢- قول لوك «إننا لأجل إثبات الخالق لا نرانا في حاجة إلا إلى التأمل في أنفسنا» هو مثل قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.

٣- القوة الجاذبة التي اكتشفها نيوتن، هي التي تربط بين الشمس وبين كل ما يدور حولها ويتبع نظامها من الكواكب، ولكن هذه القوة الجاذبة محتاجة إلى موجد ومعدل يعدل جذبها حتى لا يستمر إلى أن تلتصق الكواكب التابعة بمحورها فتصير معه كتلة واحدة.

وهكذا يقال في تابعية الشمس لجرم آخر هو أكبر منها كالشعرى مثلا، فإن القوة الرابطة بينهما تحتاج إلى موجد يحفظ أبعادها وأفلاك دورانها ويمنعها من التكتل والاختلال.

٤- قول روسو «لابد من أن يكون السبب الأول متمتعاً بإرادة» أقول: ولابد أن يكون متصفاً بعلم غير محدود وقدرة غير محدودة، وهذه بعينها الصفات الضرورية للخالق العلى العظيم. وما يسمونه بالطبيعة ونواميسها لا يتصف بشيء من ذلك فلا يصح أن يكون هو السبب الأول.

٥- قوله: «وبأي سفسطة يستطيع الإنسان أن يجحد نظام هذه الكائنات والتضامن العجيب الذي بينها في حفظ مجموعها» أقول: يستطيع ذلك بسفسطة الجهل والاقتناع به وإهمال نعمة العقل، وبذلك يلتحق بالحيوان الأعجم ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ويستطيع ذلك بسفسطة التملص من الواجبات الخلقية والاجتماعية، والانغماس في حمأة الشهوات البهيمية مندفعا مع ما تسوله له نفسه من ارتكاب الموبقات، والتدنس بالدنايا المخزيات.

انتظروا في المقال التالي جواب سفارة دولة السويد عن عدد الملحدين في بلادها وذكر شبهات الملحدين التي أوردوها في الاستدلال بزعمهم على التعطيل وجحود الخالق تعالى والرد عليها. وبالله التوفيق.

### جواب سفارة المملكة السويدية بالرباط عن عدد الملحدين في بلادها

زرت السفارة السويدية غير مرة، وفي كل مرة تلقاني الموظفون بالترحيب والإكرام، وسألت الموظف المختص عن عدد الملحدين في بلادهم ونسبتهم إلى عدد السكان، فكتب إلي ما ترجمته:

الرباط في ٣١ مارس ١٩٦٥.

سيدى الأستاذ الدكتور تقى الدين الهلالى.

بناء على زيارتكم الأخيرة لسفارتنا، لي الشرف أن أخبركم أنه من سنة (١٩٥٢ — ١٩٦٤) يعني أثناء مدة (١٢) سنة.

مجموع عدد الذين تركوا كنيسة الدولة بالنسبة المائوية، صفر فاصلة خمسة في المائة.

من مجموع السكان البالغ عددهم سبعة ملايين وستة أعشار المليون.

أما تفاصيل الطوائف المسيحية وعدد كل منها، فسأطلب معرفة ذلك من وزارة الشؤون الخارجية في استوكهلم، ومتى حصلت على جواب فسأتشرف بإرساله إليكم.

وتفضلوا يا سيدي الأستاذ بقبول عواطفي الممتازة نحوكم.

التوقيع: **هيمنك كاد**، المستشار بالسفارة.

من المعلوم أن الشعب السويدي في مقدمة الشعوب البالغة الدرجة القصوى في المدنية. ومع أن الشعوب السكندنافية كلها عريقة في الحضارة والرقي، ومن أقدم الشعوب أخذا بالديمقراطية والحكم النيابي. ومن مزاياها الاستقرار والطمأنينة والبعد عن الثورات والقلاقل وتطاحن الأحزاب المفرط، فمن ذلك أخذها بالحكم الملكي الدستورى واغتباطها به، وعدم المبالاة بالاضطرابات والانقلابات التي وقعت في جيرانها من الأوربيين. ويمكن أن يقال، إن الشعب السويدي هو أنشط هذه الشعوب وأقواها، فإنه استطاع أن يحافظ على حياده في الحرب العالمية الأخيرة، ولم يستطع هتلر أن يخضعه إلى نفوذه، فضلا عن احتلال بلاده، ولا أستطاع أحد من أعداء هتلر الأقوياء أن (....)[1] ولا أن يبسط عليه نفوذه، وبذلك سلم من ويلات الحرب وبقي محفوظ الكرامة مرفوع الرأس، لا يشاركه في ذلك إلا

---

(١) غير واضح في الأصل.

الشعب السويسري والشعب الأيرلندي المستقل. ومن آيات الاستقرار في هذه الشعوب السكندنافية أنني لما زرتها في السنة الماضية، مع أني كنت حاصلا على سمات الدخول من سفاراتها الثلاث في الرباط لم يسألني أحد عن جواز السفر إلا حين وطئت قدمي أرض دانمارك بعد عبور بحر بلطيق في معدية من ألمانيا الشرقية إلى دانمارك، ومنها عبرت الحدود إلى الأراضي السويدية ومن الأراضي السويدية إلى الأراضي النرويجية، وقع ذلك مرارا وتكرارا ذهاباً وإياباً، فلم يوقفني أحد ولم يسألني أحد، لا في الحدود السويدية ولا في الحدود النرويجية حتى كأن هذه البلدان الثلاثة بلد واحد.

وكل هذه الشعوب متمسكة بدينها أشد التمسك مع حرية الاعتقاد الواسعة التي يتمتع بها أفرادها، وقد رأيت أيها القارئ في الحلقة التي قبل هذه تدين الشعب النرويجي، وأنت ترى في هذه الحلقة أن عدد الملحدين الخارجين عن الكنيسة — بقطع النظر عن الأسباب التي دعتهم إلى الخروج عليها، وكثيرا ما تكون غير الإلحاد، كالتزوج بين شخصين، أحدهما. كاثوليكي والآخر بروتستانتي وكالتأخر عن دفع ضريبة الكنيسة والإلحاح المفضي إلى الكفر بها ، لا بالدين نفسه إلى غير ذلك من الأسباب، ومع ذلك لم يخرج عن الدين من سكان البلاد السويدية إلا نصف واحد في المائة. فأين ما يتبجح به دعاة التحلل من قيود الأخلاق والمروءة الذين غلبت عليهم الطبيعة البهيمية فأهملوا عقولهم وأخلدوا إلى أرض الحيوان الأعجم واقتنعوا بالعيش للأكل والشراب والنوم وما أشبه ذلك من الغرائز التي يشاركهم فيها كل صاهل وناهق وعاو وخائر، ومن هو أقل من هذه الحيوانات شأنا حتى يبلغ الأمر إلى الأميبات التي لا تبصر بالعين المجردة. ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان ٤٣ — ٤٤.

### شبهات الملحدين

تقدم إبطال شبهات «جوليان هكسلى» الفيلسوف الإنكليزي في المقالات الأربع والعشرين التي نشرت في مجلة دعوة الحق من الجزء الرابع، السنة الثالثة إلى الجزء الثالث — السنة السادسة. ثم عدت لنقل كلامه والرد عليه باختصار لما سرق كلامه «ريني الحبشي» وتبجح به عدت لذلك في الحلقة الثالثة من هذه السلسلة، ونشرت السلسلة الأولى تحت عنوان (دواء الشاكين وقمع المشككين) وهذه السلسلة تنشر تحت عنوان (نقد مقال العوائق

النفسانية للتخطيط) وفي كلتا السلسلتين يؤخذ «ريني الحبشي» فيغل ويسلك، ثم يعتل هو وإضرابه إلى سواء الجحيم، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، وسترى هنا شبهات سائر الملحدين والرد عليها وإزهاقها بالبراهين العقلية القاطعة والحجج الدامغة بحول الله وقوته.

**شبهات الدكتور بخنر الألماني**

قال الأستاذ محمد فريد وجدى رحمه الله: من أكبر الداروينيين الدكتور «بخنر» الألماني، وقد أورد شبهات على الخالق، نقلها عنه العلامة «كامل فلامريون» الفلكي الفرنسي في كتابه (الله في الطبيعة) منها أنه لما كتب العلامة «أوستيد» قوله (إن الكون محكوم بحكمة أزلية تظهر لنا آثارها بواسطة القوانين الثابتة في الطبيعة) لم يرق قوله هذا في عين الدكتور «بخنر» فكتب يرد على «أوستيد» بما يأتي:

«لا يمكن أن يتصور أحد أن تتفق حكمة أزلية مع نواميس طبيعية ثابتة. فأما أن تكون النواميس هي الحاكمة، وأما أن تكون الحاكمة هي تلك الحكمة الأزلية. فإذا كانت الحكمة الأزلية هي الحاكمة فلا لزوم لقوانين الطبيعة. وإذا كان الأمر بالعكس، وكانت النواميس الطبيعية هي الحاكمة، فإن ذلك ينفي كل تدخل سماوي». انتهى

قال «كامل فلامريون» عقب هذا: اتفق أن «بخنر» هذا ناقض نفسه بنفسه، وأقام الدليل على فساد استشكاله وهو لا يشعر وذلك أنه لما انتشرت الكوليرا في بلاد الإنجليز، وأخذت تفتك بالناس فتكا ذريعا، طلبت هيئة «الأكليروس» الإنجليزي من اللورد «بالمرستون» وزير الدولة إذ ذاك أن يصدر أمره، بأن يصوم الناس يوما ليرفعوا فيه أكف الضراعة إلى الله أن يزيل الكوليرا عن بلادهم.

فأجابهم اللورد، بأن (ملاشلاة) [1] الكوليرا لا تتأتي إلا باتخاذ الوسائط الصحية، وأن لا دخل للدعاء والعبادة في مثل هذا الحادث. فمدحه الدكتور «بخنر» هذا واثني عليه في مقالة كتبها جاء منها: (كيف يعقل أن المشرع الأقدس يخالف ما وضعه من النواميس والقوانين الثابتة بدعوات الداعين وبكاء الباكين).

---

(١) كما بالأصل.

فانظر كيف ناقض نفسه بنفسه، لأنه قال في رده على الأستاذ «أوستيد»: أنه لا يمكن تصور وجود النواميس الثابتة متحدة مع حكمة أزلية، وهنا يستبعد أن الخالق الأقدس يعارض سير النواميس التي وضعها بنفسه وحكم بها مخلوقاته.

يلوح لنا أن الملحدين حين يهمون بالاشتباه على وجود الخالق يمثلون في عقولهم تلك العقيدة على النحو التي هي عليه عند أحط الناس عقولا.

يقول كاتب هذا المقال: هذه شبهة واهية، بل مغالطة جلية، زيادة على كون «بخنر» تناقضت أقواله فأثبت وجود الخالق سبحانه في موضع ونفاه في موضع آخر، يقال له، أرأيت هذه النواميس التي تزعم أنت أنها تحكم العالم، أهي واحدة، أم متعددة كما يدل عليها لفظها؟ ثم ألها علم وقدرة وإرادة وخطة مرسومة، أم هي عمياء صماء تعمل أعمالا دقيقة مختلفة مؤقتة مطردة بلا علم ولا قدرة ولا إرادة ولا خطة مرسومة، فإن قال، إنها متعددة عمياء لا علم لها ولا إرادة فقد أبطل زعمه، لأنها حينئذ تحتاج إلى واضع خالق مدبر مسير كما اعترف به في الموضع الآخر. ثم يقال له: أخبرنا عن هذه النواميس، أهي أزلية أبدية، أم محدثة، فإن قال إنها أزلية كذبه ما تقدم من براهين الفلاسفة والعلماء، وإن قال، إنها محدثة، أورد عليه ما يلزم المحدثات من العجز والافتقار إلى غيرها كما تقدم مبسوطا، فلا حاجة إلى إعادته. انظر أقوال الفلاسفة في الحلقات السابقة.

**الشبهة الثانية «لبخنر» أيضا**

زعم «بخنر» أن عموم النظام في كل ما يدركه الإنسان من الأجرام القريبة والبعيدة، حتى التي لا تدرك إلا بأكبر مجهر (تلسكوب) وعدم شذوذ شيء منها عن النظام يدل على أنه ليست هناك قوة تحركها إذا شاءت، وتوقفها إذا شاءت وتبيدها إذا ظهر لها ذلك، وتعكس سيرها تارة، وهذه الحجة بنفسها هي حجة المثبتين، فإن هذه الأكوان القريب منها والبعيد، والمدرك بالحواس، والمدرك بالآلات بلغت في الإتقان والنظام إلى حد يستحيل على العقل أن يصدق أنها تسير بالمصادفة، وكان حدوثها بالمصادفة بدون قصد ولا علم ولا خطة سابقة. راجع كلام «روسو» و«فولتير» وغيرهما من الفلاسفة المثبتين.

قال كاتب هذا المقال: كل من حصر العلم في معلوماته أو مشاهداته وحكم ببطلان كل ما لا يعلمه فقد سد على نفسه باب المعرفة وصار أجهل الجاهلين. وفي كل يوم تنكشف

للإنسان معلومات كان يجهلها كل الجهل، بل كان ينكرها ويعتقد أنها من قسم المستحيل، ثم بعد اكتشافها صارت عنده من البديهيات، وما أحسن قول الله تعالى في سورة الإسراء ٨٥ ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وقوله تعالى يخاطب رسوله محمدًا ﷺ ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ وحكاية الخضر مع موسى لما سافر إليه لطلب العلم، وهي مفصلة في سورة الكهف ترشد العقلاء إلى أن العلم لا حد له، وأن الإنسان كلما ازداد علما ازداد معرفة بقلة علمه.

ونقل محمد فريد وجدي عن الفيلسوف (اجوست سباتييه) في كتاب (فلسفة الأديان): إن العلماء أول المعترفين في كل فرع من فروع العلم بأنهم لم يدركوا منه الأجزاء محدودا، وأن أكثرهم تواضعا هم أكثرهم علما، على أن كلهم يعترفون بأن ما حصلوه للآن من الاكتشافات، وما درسوه من هذا الجزء اليسير من الطبيعة ليس إلا عدما بالنسبة لما يجهلونه، فهم مستعدون لتنقيح القوانين التي قرروها، وتوسيع الفروض التي فرضوها، وضم كل ما يشاهدونه من المشاهدات الصحية إلى ما لديهم منها.

نعم، إنه يوجد من بين هذه المشاهدات ما يدهشهم ويشوش أفكارهم كما تراه كل يوم، ولكنك لو تلاحظ موقف العالم الحق أمام هذه الظواهر الجديدة تراه لا يشك في أنها تابعة لنواميس مجهولة، ولكنها حقيقة وموجودة، وتراه لا ييأس من إمكان عزوها إلى تلك القوانين وزيادة مواد العلم بها. ونجاحه السابق يضمن له نجاحه في المستقبل، وتراه يتبع أبحاثه بدون طيش، لأنه لا يعرف الجبن الأدبي.

### شبهات الحسيين

نقل محمد فريد وجدى عن أ حد أئمتهم وهو «ليتريه» في كتابه المسمي (كلمات عن الفلسفة الحسية) قوله: لما كنا نجهل أصول الكائنات ومصائرها، فلا يليق بنا أن ننكر وجود شيء سابق عليها أو لاحق لها، كما لا يليق بنا أن نثبت ذلك. فالمذهب الحسي يتحفظ كل التحفظ في مسألة وجود العقل الأول لإقراره بجهله المطلق في هذا الشأن، كما أن العلوم الفرعية التي هي منابع للمذهب الحسي يلزمها أن تتحفظ من الحكم على أصول الأشياء ونهاياتها. بمعني أننا إن لم ننكر وجود الحكمة الإلهية فلا نتعرض لإثباتها، فنحن على الحياد التام بين النفي والإثبات.

قال محمد فريد وجدى عقب نقله كلام «ليتريه» ما نصه: هذا قول عمدة من عمد الفلسفة الحسية، ومنه يرى كل إنسان أن ليس لدي القوم برهان ولا شبه برهان على نفي الصانع. وأنهم ناس حبب إليهم عدم التدخل في هذه المسألة بالمرة. وبعبارة أصرح، أنهم أناس يريدون في أثناء حكمهم على الأشياء كما يقول الدكتور (روبنيه) في كتابه (الفلسفة الحسية) أن يبعدوا كل ما لا يدرك بالحس، وأن لا يعتمدوا إلا على المشاهدة المحسوسة.

نقول: إن كان الأمر كما يدعون فالخطب سهل، ولا يهمنا أمر قوم أخذوا على أنفسهم أن يثبتوا ولا ينفوا شيئا إلا بدليل محسوس، ولكن ما قولهم في أنهم خالفوا قانونهم، وكان أول من خالفه شيخهم «ليتريه». وذلك أن هذا الأستاذ نفسه كتب في مقدمة وضعها لكتاب «المذهب المادي» تأليف (لابليه) هذه العبارة: إن الطبيعي يعلم أن للمادة وزنا، كما أن الفزيولوجي يعلم أن المادة العصبية تفتكر، ولكن بدون أن يدعي واحد منهما معرفة كيف تزن المادة ولا كيف تفتكر الأعصاب.

انظر كيف خالف «ليتريه» قانونه بنفسه، وزعم أن الأعصاب هي التي تفتكر؟ هل لديه دليل محسوس أن لا روح للإنسان، وأن الأعصاب هي التي تفكر؟ أما كان الأجدر به أن يقر بالعجز أمام هذه المسألة، وهي أعوص المباحث الفلسفية على الإطلاق ، إن كان يريد أن يحرص على قانون الفلسفة الحسية.

أتريد دليلا آخر على نفي الحسيين للأشياء بدون برهان؟ قال «ليتريه» نفسه في كتابه (كلمات عن الفلسفة الحسية) : يظهر لنا أن الأسباب التي أوجدت الكون، هي ذاتية فيه غير متميزة عنه، وهي التي نسميها نحن بالنواميس الطبيعية.

انظر كيف ادعي بدون برهان (محسوس) أن الأسباب التي خلقت الكون ذاتية فيه، وأنها هي المسماة بالنواميس. على أن الناس في بحثهم عن الخالق لا يضربون في الخيال، ولا يخوضون في الأوهام، إنهم يبحثون عن السبب الأول الذي أوجد الكون على النحو الذي يبحث به العلماء عن النواميس.

يقول محمد تقي الدين الهلالى: من أمثال العرب السائرة (إذا كنت كذوبا فكن ذكورا) أراد هذا المادي المعترف بالعجز والجهل أن يطبق عقيدته التي لا يختلف فيها الإنسان عن الحيوان الأعجم. فلما وصل إلى الأداة التي خلق الله فيها التفكير، وهي الأعصاب، خانته

الذاكرة فأثبت التفكير للأعصاب، وهذا مخالف لعقيدته ، لأن نسبة التفكير إلى الأعصاب من نسبة الفعل إلى الفاعل بالمعني اللغوي. ولا يوجد دليل حسي حسب مذهبه يثبت أن الأعصاب هي التي تفكر، فظهر تناقضه. وكان ينبغي له — لولا أن الله أراد أن يفضحه — أن يلجأ إلى الجهل عند العجز كعادته فيقول: إن الفكر موجود في العصب، ولكن لا أدري من أين جاء هذا الفكر إلى العصب. فنقول نحن: إن كنت أنت لا تدري فنحن ندري إن الذي أوجده في العصب هو الذي رجع وجود العالم الممكن على عدمه ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ ، وقد تقدم البرهان على أن العالم ليس أزليا، وتقدم البرهان كذلك على أن العالم لا يمكن أن يوجد نفسه، لأن وجوده آت من غيره. وهذه أركان البرهان على وجود الله سبحانه وقيوميته وتدبيره لجميع الكائنات.

ثم لخص محمد فريد وجدى بحث الماديين وبحث الفلاسفة المثبتين لوجود رب العالمين فقال ما نصه، قال «ليتري» يظهر لي أن الأسباب التي أوجدت الكون ذاتية فيه، وهي التي نسميها بالنواميس.

وقال قائل الطائفة الثانية: يظهر لي أن للكون سببا واحدا بصيرا بما يعمل، وإلا فمن أين نشأ هذا الإبداع المستفيض على الأكوان، وكيف خلقت هذه الكائنات لمقاصد متنوعة وغايات مقررة؟؟

فالبحث عن الخالق، ليس من باب البحث عما لا ينفع، لأن إدراك السبب الأول للوجود رغيبة من رغبات العقل، بل حاجة من حاجات الروح، فليس الإنسان كالحيوان خلق ليأكل ويشرب ثم يموت، بل له وراء هذه الحاجات الجسدية حاجات لا يحددها وهم الواهم، ولا يصورها خيال المتخيل.

إن الكائن الذي سخر الهواء والماء والمغناطيس والكهرباء وما وراء ذلك من الأشعة الخفية، والقوى غير المرئية، لا يقنعه أن يعيش معيشة الحيوان، فهو ميال بطبعه لاكتشاف سر الحياة والموت، بل سر الوجود كله، وكائن هذه صفاته لا ينصرف عن البحث في السبب الأول للكون، ولو جعلت عقابه على البحث فيه الموت.

يقول كاتب هذا المقال: والماديون يريدون منا أن نطفئ نور العقل ونقنع بالجهل، أو أن ننسب الأعمال الباهرة الدقيقة المتنوعة المختلفة المتضامنة التي يسير كل جزء منها، وأن كان

دقيقا في منهاجه المرسوم، لا يحيد عنه أبدا، يريدون منا أن ننسب ذلك إلى المادة الصماء العمياء التي هي فاقدة للحس والشعور وللعقل والإدراك، ونعتقد أنها تعطى حسا، ولا حس لها وتعطي شعورا ولا شعور لها ، وتعطى عقلا ولا عقل لها، وذلك منهم شطط ما بعده شطط وتعسف تجاوز الحد، وليس في قدرة عاقل أن يقبله، ولعل قائلهم يقول: نحن مضطرون إلى ذلك التعسف لنخرج من سلطان الكنيسة الذي أرهقنا وضيق علينا الخناق، وتدخل في كل شيء من شؤوننا، فنقول له: لقد أخطأت طريق الرشد وسلكت سبيل الغي، فهلا ناقشت الكنيسة الحساب مع الاعتراف بحكمة الملك الوهاب، لترجع إلى الصواب، أو تخرج أنت من ربقتها متمتعاً بنعمة عقلك غير ملوم، فنحن لا نؤله البشر، ونجعل الحكم كله لله مستنيرين بنور العقل، طالبين زيادة العلم، غير متعسفين في الحكم، فإن أبيتم فلكم دينكم ولي دين.

وموعدنا الجزء التالي لسرد بقية الشبهات والجواب عنها بحول الله.

ليعلم ذو «الرين الحبشي» إن ريحه لاقت إعصاراً، وأن الحق لا يعدم أنصاراً ، وقل اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون.

## سرد بقية الشبهات

تقدم أن أقوى دسيسة يتذرع بها المتهوسون بالدعوة إلى الإلحاد والتعطيل، هي زعمهم أن الشعوب الأوربية والأمريكية التي بلغت أوج الرقي في العلم والمدنية، والحضارة والحرية، لم تبلغ ذلك إلا بنبذ الدين، قالوا: فإذا شئنا معشر المسلمين أن نبلغ ما بلغوا فعلينا أن نترك الإسلام، وبدون تركه نبقى دائما متأخرين، وهذه الحجة المزعومة، ظلمات بعضها فوق بعض، وبناء باطل على باطل، وفاسد على فاسد، كما يحكى عن بعض العجم أنه ادعي التحقيق في علم التاريخ والأنساب، فسئل عن الحسن والحسين فقال «هزا وازح خسن وخسين بنات معاوية ابن أبي طالب» يعني، هذا أمر واضح فالحسن والحسين ابنا معاوية بن أبي طالب. وقد بدأت في هدم بنيانهم من الأساس، فبينت بالرقوم الدقيقة الرسمية من سفارات الأمم الراقية، كالولايات المتحدة وبريطانيا وسويسرا وألمانيا الاتحادية والسويد والنرويج، أن عدد الملحدين في مجموع سكان هذه البلدان، المتباعدة في الأوطان، المختلفة في اللغات، ونظام الحكم، وغير ذلك من وجوه الخلاف، إذا جمعت الملحدين فيها لا يكاد عددهم يبلغ واحدا في المائة، فتهدم الأساس الذي بنوا عليه كذبهم الوقح، ومنهم من يزعم أنه بلغ الغاية في العلوم العصرية والفلسفة.

والحق أنه لم يدرك منها إلا الوتد، وهو «سفه» وفاته السبب، وهو «فل» فهل كان هؤلاء المتحذلقون المتهوسون الفاتنون المفتونون، يعلمون هذه الحقائق وكتموها، وحاولوا إثبات نقيضها، غشا لشعوبهم، وتدليسا ومؤامرة مع أعدائها، واصطياداً في الماء العكر، أم كانوا يجهلونها، فإن كانوا يعلمونها، فحسبهم خزيا وعارا، خيانتهم لقومهم وأوطانهم، وخيانة للعلم وإضاعة للأمانة. وإن كانوا لا يعلمونها — مع أنهم يزعمون — أنهم يعلمون من أحوال أوربا ما لا يعلمون من شؤون أوطانهم وقومهم، فكيف خفيت عليهم هذه الحقائق؟؟ أم ذهبوا إلى أوربا وأمريكا لتعلم الرقص وشرب الخمر، والتزي بأزيائهم اكتفاء بالقشور، ورجعوا بشهادات مزيفة يصولون بها على أبناء وطنهم، ويتكبرون عليهم ويبتزون أموالهم، ويبثون الفتن والبلبلة في أفكارهم، والتفرق في صفوفهم ويسممون أفكار الشباب، لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة، فبعدا للقوم المفسدين.

وقد شهد أربعة من أقطاب الأدب والثقافة لهذه المقالات التي انشرها في هذا الموضوع أنها حق، وهم الأستاذ العبقري المؤلف الطائر الصيت السيد عبد الله كنون. والأستاذ الطبيب النطاسي الدكتور المهدي ابن عبود. والأستاذ العالم الأديب السيد محمد الطنجي والأستاذ الصحفي القدير الأديب السيد عبد الكريم غلاب. وهؤلاء الأقطاب أدوا شهادتهم دون أن يسألها منهم أحد. ولاشك أن هناك من فطاحل العلم والمعرفة في هذا الوطن، وفي غيره كثيرا من المعجبين بها أمثالهم، لو بحثنا عنهم وسألناهم عن أرائهم، فإن ظن المفسدون أن الجو خلا لهم ليبيضوا ويصفروا وينقروا ما شاءوا أن ينقروا، فقد أخطاؤا في حسابهم، فلا يزال — ولله الحمد في هذا الوطن المنكوب بأمثالهم — بقية باقية يفضحون دسائسهم، ويأتون على بنيانهم من القواعد، فيخر عليهم السقف من فوقهم، ويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون. أولئك رجال جمعوا بين الثقافتين، القرآنية والأوربية، ولم تشغلهم أوربا بزخارفها، ولا أعشت أعين بصائرهم أشعة مدنيتها عن انتقادها نقد الدنانير والدراهم، فأخذوا جيادها، وتركوا زيوفها، كما قال تعالى في سورة الزمر ١٧ — ١٨ : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝﴾

وسأتوجه بالسؤال إلى سفارات أخرى وانشر أجوبتها ليزداد وجه ريني الحبشي ومن يغتر بسفاسفه أسوداداً يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، ويزداد أهل الحق اغتباطا وابتهاجا.

**إذا رضيت عني كرام عشيرتي ... فلا زال غضبانا علي لئامها**

**ذكر بقية شبهات الملحدين والرد عليهم**

يقول الأستاذ ليتريه: يظهر لي أن الأسباب الأولية التي خلقت الكون ذاتية فيه، وإنما هي التي تسمي النواميس.

ونحن نلقي عليه أسئلة فعليه أن يجيبنا عنها هو أو من ينشر المبادئ الإلحادية في هذه البلاد وهي: كيف أن المادة، وهي عمياء صماء ، استطاعت أن تتكون هذا التكون البديع وتشكل هذا الوجود الضخم على تنوع كائناته، وتباين موجوداته؟

إننا نرى بأعيننا أن المادة منقادة بواسطة قوانين ونواميس إلى التشكل على حسب نسب مقدرة، فكيف نتصور أن شيئا محروما من نعمة الإدراك والتعقل يتجه من نفسه إلى غاية كمالية تدهش لها عقول البشر، وتحار لها مدارك الفكر؟ كيف أن المادة المجردة من العقل

والإدراك تكون كائنات متمتعة بعقل وإدراك كالإنسان مثلا، وكيف أن المادة تحكم نفسها بنواميس حكيمة، وهي لا تعرف معني الحكمة ولا تحس بها؟ وكيف يسود النظام والوئام بين مكوناتها، وهي لا تعرف للنظام معني، ونحن نرى رقيا محسوسا في مكوناتها من جماد إلى نبات إلى حيوان إلى إنسان وكل هذه الممالك الأربع في رقي مستمر إلى غاية اسمي مما تتصور؟ كيف أن المادة العمياء غير المدركة تتبع من نفسها خطة التدرج والترقي؟ وكيف تخلق المادة هذه المبدعات في عوالم الجمادات والنباتات والحيوانات، وتهبها كل ما تحتاج إليه من حيل الحياة وأسباب حفظ النوع، وأسباب البقاء والارتقاء والمادة في نفسها لا تعي ولا تدرك؟ وكيف أن المادة المجردة عن الشعور تتوصل إلى خلق الحواس الحيوانية بهذه الدقة والمهارة؟ ولماذا كل هذه الحواس مركبة تركيبا يدهش له العقل، ولم يوجد منها ما هو مختل الوظيفة[1] عبء ثقيل على صاحبه؟ ولماذا لم تكن الطبيعة ذات قوى مختلة، وأنظمة معتلة، ونواميس متعاكسة، يبطل بعضها أثر بعض؟ ولماذا هذا التضامن بين النواميس، وهذا التلاؤم بين قوى الوجود؟

ليس للماديين على هذه المسائل أجوبة مقنعة، وأكثرها لا جواب له عندهم، وكل ما لديهم ألفاظ فارغة نسردها على القارئين ليروا رأيهم فيها.

### نظريات الماديين في نظام الكون

الكون عند الماديين مادة ونواميس، فإن قلنا لهم كيف نشأ هذا الوجود على ما فيه من جمال وإبداع؟ قالوا: نعم، اسمعوا، حصل كل ذلك بواسطة ناموس الانتخاب الطبيعيّ... ما هو يا تري ناموس الانتخاب هذا؟ يقول: معناه، أن الطبيعة مندفعة، للرقي الدائم، ومسوقة، لأن تنتخب الجيد الصالح من الكائنات وتبيد الردي الفاسد منها، فهي تميل دائما

(١) أرجو من القراء الكرام الذين يتتبعون هذه المقالات أن ينعموا النظر بهذا المقال والذي بعده، فإنهما يشتملان على محاسبة الماديين ومناقشتهم بحجج قاهرة خانقة، لا قبل لهم بالجواب عنها، فضلا عن مناهضتها. راجع خلقة العين وتركيبها العجيب في سلسلة مقالات (دواء الشاكين وقامع المشككين) بقلم كاتب هذه السطور المنشور في مجلة (دعوة الحق)، الجزء الثاني من السنة الرابعة، فإنك إذا قرأت ما كتبه العالم (كريسي مورسن) في أسرار تركيب العين، لا يخامرك أي ريب في أن من يقول بأن العالم خلق بالمصادفة، إما أن يكون مكابرا يتعمد الكذب، أو يكون أجهل من حمار أهله.

من كامل إلى أكمل ....

هل هذا جواب أيها الحكماء؟ أيحسن بك أن تجيب من يسألك لماذا تسير الباخرة بقولك، إنها مدفوعة إلى السير ومسوقة لقطع المسافات.

لا يليق بنا في شرعة الإنصاف أن ندحض هذا الجواب حتى نعطيه كل ما يحتمله من قوة وسلطان فنقول: قول الماديين، إن الإبداع الوجودي حدث بواسطة ناموس الانتخاب الطبيعي الذي من مقتضاه أن لا يبقى إلا الأصلح للبقاء[1] ، معناه: أن المادة لما كانت قديمة هي ونواميسها دائمة الحركة والتشكل بمقتضى تلك النواميس، فلنفرض أن قد حدث نوع من الحيوان، فالمعروف أن كل أشخاص ذلك الحيوان لا تكون على درجة واحدة من النماء والقوة، فيحدث أن الأنمي والأقوى من أفراد هذا النوع يسبقون الضعاف إلى مظان الغذاء وينازعونهم البقاء، فيزداد الأقوياء قوة على قوتهم، ويزداد الضعاف ضعفا على ضعفهم، فيلد الأقوياء أفرادا أقوياء يكتسبون مع الزمن صفات جديدة ترسخ فيهم فتصير أحوالاً، ويلد الضعاف ذرية ضعيفة تنحط عن أصلها درجات، ثم ينتهي الأمر بتلاشي الضعاف وبقاء الأقوياء، فإذا تغير الوسط الذي يعيش فيه هؤلاء الحيوانات واشتد عليهم البرد، أو صعب عليهم الغذاء، أو احتاج لشيء من التحايل أو التسلق أو الجراءة مالت أفرادهم إلى مشاكلة الوسط الجديد، فلا يقوى على ذلك إلا أفراد منهم بمجهود عظيم، وبعد أجيال عديدة يكونون في أثنائها اكتسبوا صفات جديدة صارت فيهم أحوالا راسخة، وربما طالت أعناقهم بعد أن كانت قصيرة، ودقت سيقانهم بعد أن كانت غليظة، وكسوا بوبر كثيف بعد كانوا مجردين منه.

ولما كانت النواميس عاملة، والأوساط في تغير مستمر، فلا شبهة عندهم في أن الكائنات تدخل من طور إلى طور، وتتنوع من حال إلى حال، وقد حدث ذلك حين انفصلت الأرض

---

( ١ ) الأصول التي بني عليها داروين نظرياته أربعة : النشوء والارتقاء، وتنازع البقاء، وبقاء الأصلح. فأما النشوء، فقوله: أن جميع الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات ، أصله خلية واحدة لا تكاد تبصر بالعين المجردة، وسترى صفتها في هذا المقال. وأما الارتقاء فقوله: إن الكون دائما في رقي مستمر، لا يمكن الرجوع فيه إلى الوراء أبدا. وأما تنازع البقاء، فمعناه عنده: أن أنواع الحيوان والنبات تتنازع البقاء، كل منها يسعي ليبقي ولو بفناء غيره، فيبقي منها ما هو صالح للبقاء، وهم الأقوياء، ويفني منها الضعفاء الذين لا يصلحون للبقاء.

عن الشمس[١] في مبدأ تكونها، فنشأت أولا الحياة في خلية نباتية، ثم اختلفت الفواعل والأوساط، فتشكلت تلك الخلية، ونشأ من بعضها حيوانات، ومن بعضها نباتات مختلفة، ومازالت الأوساط تتغير والكائنات تتطور مئات الألوف من السنين، حتى نشأ الإنسان وبقي أكثر ما نشأ قبل ذلك من نبات وحيوان إلى الآن، وباد كثير من أنواعه كما يشاهد في الطبقات الأرضية «انظر جولوجيا» وكلمة حفريات.

فالوجود في نظرهم كان على ما هو عليه اليوم، لا بقصد ، بل بمجرد الاتفاق، أو كما يقولون «بالصدفة» فقد اتفق أن تكون آثار النواميس العاملة على المادة المتحركة بطبيعتها هي ما نشاهده من نباتات وحيوانات واتفق أن تكون الكائنات التي وجدت على المريخ أو المشترى[٢] أو الدنياوات الأخرى على غير هذا الشكل.

هذه نظريتهم في كل قوتها وغاية أبهتها، فلنرد عليهم الآن مطمئنين لا غالين ولا مقصرين: هب أن المادة ونواميسها قديمة، أي موجود من الأزل، فلا يعقل حتى مع هذا الفرض أن يخلق الكون بالاتفاق المجرد من العقل والاختيار، لأنه إن عقل أن يخلق بالاتفاق حيوان ما، فكيف يعقل أن تخلق بجانبه بالاتفاق أيضا أنثي تناسبه تمام المناسبة لاستدامة نوعه، وإن عقل حصول ذلك في نوع من أنواع الحيوانات، فهل يعقل حصوله في جميع الأنواع على السواء؟

هب أنه يعقل ذلك، فهل يعقل أيضا أن الاتفاق يرغم الأنثى على تربية صغارها وتجشم الصعاب في سبيل ذلك، ويجبر الذكر أحيانا – كثيرة لمعاونة الأنثى في هذا العمل الشاق.

---

( ١ ) قوله: حين انفصلت الأرض عن الشمس. أعلم أن نظرية انفصال الأرض عن الشمس لم يقم عليها أي دليل يقيني، وإنما هي افتراء وتخمين ، ولكن هذه النظرية ساعدها الحظ فانتشرت وشاعت أكثر من سائر النظريات، حتى صارت عند العامة حقيقة لا تقبل الشك، ولكن القول بهذه النظرية – على تسليمه – لا حجة فيه للماديين ، وإنما هو وبال عليهم، كما سيأتي في هذا المقال أو في الذي بعده عند البحث في حدوث الحياة على وجه الأرض.

( ٢ ) قوله: على المريخ أو المشترى الخ. لم يثبت إلى حد الآن وجود أي نوع من أنواع الحيوان في المريخ، ولا ي غيره من الكواكب السيارة. غير أن بعض علماء الفلك يظنون ظنا، وما هم بمستيقنين، أن في النواحي الشمالية من المريخ بعض أنواع النبات في شكل بدائي، والله أعلم.

هل لذلك «الاتفاق» عقل أدرك به أن إبداع هذا الميل في قلوب الذكور والإناث ضروري لحفظ بقاء نوعها، وما للضرورة وذلك، بل أين هي من هذا الترتيب، وهي لا تدركه ولا تعقله؟

إنا نرى أثمار البلاد الباردة مغطاة بوبر ليحفظ فيها مقدارا كافيا من الحرارة ، فلا تهلك في الشتاء وكذلك الحيوانات، فإنها محلات هنالك بفرو لتحميها من الزمهرير، فهل يعقل أن الاتفاق المجرد من العقل تصدر منه جميع هذه الأعمال الدالة على مقاصد وغايات حكيمة؟

نقول إنها تحلت بكل هذه الأعضاء الواقية بحكم «الضرورة» ومعنى ذلك أن تلك الأصقاع لم تكن باردة على الدرجة التي تشاهد عليها الآن، وكانت عائشة عليها تلك النباتات والحيوانات، فلما أخذت في البرودة تدريجياً أحست تلك الكائنات بلزوم دثار يحميها عوادي ذلك الجو البارد وباد من أشخاصها الضعيف المجرد من كل وبر، وبقي القوي المحلي بشيء منه، فنما وبره «بالضرورة تدريجيا» حتى إذا وصل الجو إلى ما هو عليه الآن وصل هو أيضا من التحلي بالوبر إلى حالته الراهنة.

«فالضرورة» هي التي أوصلته إلى هذه الحال. نقول، إن أمثال هذه التعليلات الكلامية لا تكفي لتفسير وجود الكون على هذا الإبداع الباهر الذي أعجز عقل الإنسان، ولا تزال أكثر آياته غامضة لم تصل المدارك إلى إدراك أسرارها المعجزة، ومع ضعف هذا التعليل ووهن أركانه نرى أن الأحسن مجاراة الماديين ومقارعتهم عليه فنقول: أنكم تقولون، إن الضرورة هي التي تدفع المادة بتأثير الوسط للتحلي بكل ما يمكنها من البقاء فيه، ولسنا نفهم لهذا الكلام معنى، بل هو لا معنى له على الإطلاق، وإليك البيان:

سلمنا لكم جدلا أن المادة قديمة، وأن فيها نواميسها، فهل آثار النواميس في عرفكم إلا حركات بسيطة، كناموس الجذب يجذب الأجسام، وناموس الدفع يدفعها، وناموس الساكن مستمر على سكونه حتى تأتيه قوة تحركه، والمتحرك مستمر على حركته حتى تأتيه قوة توقفه الخ. مما لم يخرج عن حركات بسيطة غير مركبة، لا يمكن أن تفسر خلق أصغر الكائنات ، فضلا عن الكون وما فيه.

**أيها القراء الأعزاء أرجو أن تقرؤوا هذه الحلقة بتدبر وإمعان، فإن فيها حججا خانقة للماديين الجاحدين تقطع عليهم كل سبيل وتحبسهم في أجحارهم مختنقين وتدعهم متحيرين، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.**

## ذكر بقية شبهات الملحدين والرد عليهم

### نشأة الأرض

دعونا ننظر معكم إلى الأرض، وهي منفصلة من الشمس، فماذا نرى في مادتها ونواميسها؟؟ نرى كتلة ملتهبة انفصلت من جرم كبير كما تقولون. بأي ناموس انفصلت؟؟ والمعروف أن الجسم الكبير يجذب الصغير، كما تجذب الأرض كل ما عليها من الأجسام فتمنعها التناثر في الجو. لنقل معكم: أنها انفصلت، ولكن لا تنسوا أن ذلك ضد ناموس الجذب، فما حدث بعد ذلك؟؟

حدث أن الأرض وقفت على مسافة من الشمس لأي سبب وقفت في هذه المسافة ولم تمعن في الهبوط إلى ما لا نهاية له؟ السبب غير معروف، ولا يوجد ناموس يمنعها من إمعان التدهور إلى ما لا حد له.

قلتم، إنها انجذبت إلى الشمس والكواكب الأخرى، ليكن ما قلتم، وقفت الأرض في مركزها، ثم رأيناها دارت على نفسها، أي ناموس أدارها؟. تقولون، أنها انفصلت عن الشمس دائرة فاستمرت كذلك. نقول، إنها كانت في الشمس دائرة، ولكن غير دورتها حول مركزها، بل حول مركز الشمس لأنها كانت قطعة من سطحها لا من مركزها كما هو المعقول. لنمش معكم إلى حيث تريدون. فلنسلم لكم بدورانها حول مركزها، فأي ناموس أدارها حول الشمس بعد ذلك؟ لا يوجد في العلم ناموس من هذا القبيل، بل ولا يعقل وجوده (انظر ما قاله العلامة الفلكي نيوتن) في براهينه المتقدمة.

لنسلم لكم أنها دارت حول الشمس بسبب مجهول، فما حدث بعد ذلك؟؟ حدث أن قشرتها أخذت تبرد، سلمنا، ثم ماذا؟ فتكونت عليها سحب من الأبخرة فهطلت عليها أمطار.

نقول، إن الأبخرة المتصاعدة من الاحتراق لا تكون سحبا كما هو مشاهد، فكيف نشأت المياه على سطحها، لنرد على هذا. ثم ماذا؟ فتكونت بحار وأنهار ومستنقعات. حسن، فماذا حدث بعد ذلك؟ حدثت الحياة النباتية في أبسط أشكالها. فكيف حدثت وبأي ناموس نشأت؟ هذه عضلة العقد، والطلسم الذي لا حل له. فإن الحي لا ينتج إلا من حي. والنواميس المعروفة كلها تعجز عن تعليل حدوث أحقر الأجسام العضوية. أراكم تقولون: دع الحياة جانبا فسيكشف العلم سرها في يوم من الأيام، ولنستمر في تعليل خلق الكون. نقول، على رسلكم، كفاكم ما مضي من التحكم في تعليل انفصال الأرض عن الشمس وفي دورانها على نفسها وحول الشمس، وفي تكون السحب. أما وقد وصلت المسألة إلى وجود الحياة فلا نتسامح معكم فيه، فإن الحياة سر الوجود، بل هي (....)[1]، إذا عرف سرها فقد عرف سر كل شيء.

إنكم تقولون، إن أول ما حدث من آثار الحياة الخلية البسيطة. فما هي هذه الخلية؟ هي كل شيء. وهل الإنسان بما أفيض عليه من إبداع إلا مجموع خلايا بسيطة تركبت فيه تركيبا خاصاً. فإذا أغضينا عن الخلية فقد أغضينا عن كل شيء، فهو دونها في الحقيقة.

فما هي الخلية وما تركيبها؟ الخلية هي غشاء حي على شكل الكرة يحوى في داخله مادة لزجة يقال لها (البروتوبلاسما عائم فيها نوبات صغيرة، وهي بما حوت لا تدرك إلا بالمنظار. هذه هي الخلية، فكيف حدثت بمجرد فعل النواميس؟؟ ما الذي نسج ذلك الغشاء بتلك الرقة التي لا يكتشفها إلا أقوى منظار، مع علمك بأن الأرض كانت بلاقع مقفرة، (....)[2] سهوبا غامرة؟ إن كان ذلك الغشاء نشأ بالاتفاق، فما هي النواميس التي اقتضت تكوينه، وما هي تلك المادة اللزجة المشمولة فيه؟ من أين أتت، وفي أي معمل كيماوي تركبت بعد أن تنقت من قذر الطبيعة وخلصت من أقذائها وكثافتها؟

هب أن ذلك كله حصل، فلماذا هي حية أي نامية؟ ما هو ذلك السر المودع فيها؟ إلى هنا يرى الماديون أن نواميس الطبيعة المعروفة أعجز من أن تكفي لتعليل أصغر الكائنات الحية، بل هي لم تكف لتعليل الحركات المجردة من الحياة كدوران الأرض حول الشمس

---

(١) غير واضح في الأصل.

(٢) غير واضح في الأصل.

بشهادة الفلكي نيوتن وغيره، فما معنى التبجح بها والترنم بذكرها وترديدها في تعليل الموجودات بمناسبة وغير مناسبة، بل ما معني تلك التعليلات الفاقدة لأعظم أركانها؟ من المحال تعليل وجود كل هذه الكائنات البديعة بمجرد حركات النواميس الميكانيكية، فإما أن تخضعوا لبداهة العقل فتقولوا بضرورة وجود عقل لا حد له قاد نواميس الوجود قيادة حكيمة، وإما أن لا تتعرضوا لتعليل خلق الوجود وتفسير تنوع الكائنات.

أراكم تكثرون من قولكم (الضرورة) في تعليل وجود كثير من أعضاء الحيوانات والنباتات كما فعلتم في تعليل وجود الوبر الطويل في حيوانات البلاد الباردة ونباتاتها، فما هي تلك الضرورة، وما تأثيرها؟ يقولون، إن أردت معرفة بعض آثار الضرورة ومبلغ قوتها في الإبداع، فانظروا إلى الحيوان المسمي بالزرافة مثلا، فإنك إن تعجبت من طول عنقها، مع طويل أيديها وقصر أرجلها، فما ذلك إلا لأن (الضرورة) أثرت عليها فأحدثت هذا التغيير في جسمها. أما الزرافة في أصلها فكانت كجميع الحيوانات عنقها مناسبة لجسمها ويداها في طول رجليها. ولكن (اتفق) أن أمهاتها ولدتها في مكان لم يكن فيه ما تتغذي به من الأورق إلى على رؤوس أشجار عالية فاضطرت هذه الكائنات المسكينة لأن تشرأب بأعناقها كلما وخزها الجوع بأسنته لتصل إلى غذائها، فقضت (الضرورة) بأن تطول أعناقها تدريجاً حتى وصلت إلى حالتها الراهنة.

هكذا يقولون، وهو كلام لا يفهم ولا يعقل، ولكنا نناقشهم فيه من باب التسامح فنقول: هل الزرافة كانت في جهة فيها أوراق الأشجار تعلو عن متناول صغارها من أول وجودها على سطح الأرض، أم حدث لها ذلك بعد؟ إن قلتم على هذه الصور بطل تعليلكم (بالضرورة) ولكنكم تقولون، إنها كانت قصيرة العنق متناسبة الأطراف، ثم حدث لها ذلك.

قلنا فكيف يعقل أن يكون حدث ذلك بكل الزرافات في كل قارة. فهل يتصور أن يتفق أن جميع الزرافات وقعن في جهات فيها أوراق الأشجار بعيدة عن سطح الأرض؟ هب أنه (اتفق) ذلك، - مع أنه مستحيل – فلم لم تهلك هذه الزرافات بدل أن تطول أعناقها وأيديها؟ ولم لم توجد لها خاصة تسلق الأشجار بدل أن تطول أعناقها وأيديها؟ إن كان كل ما في الطبيعة مخلوقا بغير قصد، بل بمحض النواميس والضرورة، فما هي الضرورة

التي أوجبت أن يكون كثير من أنواع الطيور مزيناً بأجمل النقوش مزدانا بأرق الألوان، ما هي الضرورة التي حتمت أن تتحلي الأزهار بهذه الروائح العطرية الزكية، بل ما هي الضرورة التي جعلت تلك الألوان والروائح متنوعة إلى ما لا نهاية له، ولم تجعلها لونا واحداً ورائحة واحدة؟

ألا يسمح لي حضرات الماديين أن أقول لهم بأن لا ضرورة لذلك، وقد شهد بذلك داروين نفسه، ولم يكن من المنكرين للخالق، مع أنه صاحب مذهب تسلسل الأنواع.

من هنا يتبين القارئ عجز الماديين عن تعليل وجود الكون بدون خالق حكيم. إذن فلابد من وجود خالق متصف بجميع صفات الكمال المطلق الذي لا حد له. ومن صفاته العلم والقدرة والإرادة والحياة التي لا أول لها ولا آخر، وهي غير مستمدة من غيرها كسائر صفاته تعالى. هذه الصفات مذكورة في الكتب السماوية وموضحة في القرآن أتم توضيح في سورة الإخلاص وآية الكرسي ومواضع أخرى. فهذا الخالق العظيم هو الذي أفرغ الوجود في هذا القالب البديع وله القدرة والحكمة التي لا سبيل لعقل إلى نكرانها، ولا سلطان لمتعنت في الجحود بها.

**توضيح وتفصيل:**

١- الرأي السائد عند الباحثين في هذا الزمان أن الأرض التي نعيش فيها انفصلت عن الشمس وكانت قطعة منها، فكيف سمحت قوة الجذب والاتحاد التي أودعها الله في الشمس لقطعة كبيرة كهذه الأرض أن تقتطع منها وتنفصل عنها وتبتعد عنها دون أن يحدث خلل في الشمس يؤدي إلى تفرق أجزائها وتلاشيها، مع فرض أن ذلك وقع على سبيل المصادفة، فهذا الأصل الذي بنوا عليه بحثهم في نشأة الأرض في غاية الضعف يفتقر إلى دليل يثبته حتى تطمئن إليه النفس وتؤمن به.

والمعروف الثابت في الأجرام السماوية بالمشاهدة الحسية أن كل جرم كبير يجذب الأجرام الصغيرة، ولا يمكنها من الإفلات كما تتجاذب أجزاء جرم الأرض وتجبر كل ما عليها من جماد وحيوان ونبات أن يبقي على ظهرها. فإذا حاول الحيوان أن يقاوم هذا الجذب وينفصل عن الأرض لم يستطع أن ينفصل حين يثب منها إلا لحظة، ثم يجد نفسه قد أجبر على العودة إليها. ولولا ذلك الجذب لانفصل كل ما علي وجه الأرض عنها، ثم لم يعد

إليها. فأول ما ينفصل عنها الغلاف الهوائي الذي كساها الله به ليستنشقه الحيوان البري من الناس والدواب والطير ويعيشوا باستنشاقه ولو فقدوه لحظة لفقدوا معه حياتهم.

وبعد انفصال الهواء تنفصل مياه البحار، ثم يتلوها تفكك أجزاء الأرض. وقد يستطيع بعض الحيوان إذا أعطى آلة لمقاومة الجذب أن ينفصل عن الأرض إلى مسافة محدودة، كالطير التي أعطيت أجنحة تحركها، فتنفصل عن الأرض وتسبح في الهواء، ولكنها لا تستطيع أن تنفصل عن الهواء، ولا تستطيع أن تنفصل عن الأرض إلا لوقت محدود جداً، ثم ترجع إلى مستقرها. ومثل ما قيل في الطير يقال في طيران الإنسان، فإن الله أعطاه عقلا صنع به آلات لمقاومة الجذب الأرضي، فاستطاع أن يحلق في الجو بتعمل وتكلف لوقت محدود يضطر بعده أن يعود إلى المستقر الأصلي، وهو الأرض التي منها خلق وإليها يعود.

وكان العقل قبل هذا الزمان عاجزا عن اختراع آلة تقاوم ضغط الغلاف الجوي وما في أعاليه من العوائق التي منها ضعف الهواء بحيث لا يكفي لاستنشاف الإنسان والحيوان الذي يحفظ به حياته، ثم هدي الله العقل إلى اختراع آلة تقاوم تلك العوائق، فيتزود الإنسان بالهواء الصالح للتنفس لمدة طويلة وبصواريخ لها من قوة الاندفاع ما يتغلب على الضغط والجذب، ولها أجسام تقاوم الاحتراق الذي تتعرض له عند الخروج من هذا الغلاف، والإمعان في الارتفاع وبذلك استطاع الإنسان أن ينفصل عن الأرض وعن غلافها الجوي، ولكنه بقي مرتبطا بها وعالة عليها، لأن الغذاء والهواء اللذين يحفظ بهما حياته هما من الأرض.

والمدة التي يبقي منفصلا فيها عن الأرض محدودة أقصى ما بلغته إلى حد الآن أربعة عشر يوما، ثم اضطر أن يرجع إلى المستقر. وللإنسان آمال في تطويل مدة الانفصال، ولكن مهما طالت مدته خارج الأرض، فإنه يبقي مرتبطا بها، لأن الزاد والمدد الذي يحفظ حياته من الأرض. فانفصال هذا شأنه لا يمكن أن يقاس بما افترضوه من انفصال الأرض عن الشمس. إذن لم يقم دليل مقنع على أن الأرض انفصلت من الشمس. وإنما هو افتراض وخرص، وليس من العلوم في شيء.

٢- سلمنا جدلا أن الشمس سمحت لتلك القطعة أن تنفصل عنها، فلماذا ابتعدت عنها إلى مسافة محدودة ثم وقفت إلى الأبد، ولم تبتعد بعد ذلك قيد أنملة ولا أقل منها. راجع

مقال (دواء الشاكين وقامع المشككين) المنشور في مجلة دعوة الحق رجب ١٣٧٩ الجزء الخامس السنة الثالثة تجد فيه ما نصه.

والشمس التي هي مصدر جميع الحياة. تبلغ الحرارة على وجهها اثني عشر ألفا (فارنهايت)، وأرضنا بعيدة عن الشمس التي هي نار حامية، بعدا كافيا بالقدر الذي تعطينا فيه الحرارة الكافية لحياتنا، لا أكثر ولا أقل، إنه لنظام عجيب.

ومع مضي الملايين من السنين لم تختلف حرارتها إلا قليلا، ولذلك بقيت الحياة مستمرة، لو تغير مقياس الحرارة على وجه الأرض حتى بلغ معدله خمسين درجة لمدة سنة لمات كل نبات على وجه الأرض، ولاحترق الإنسان أو جمد. وتدور الأرض حول الشمس بسرعة ثمانية عشر ميلا في كل ثانية. ولو أن سرعة دورانها كانت ستة أميال، أو أربعين ميلا في كل ثانية لبعدنا كثيرا جدا من الشمس أو لقربنا منها كثيرا، وحينئذ لا يمكن أن تكون حياتنا على الشكل الذي هي عليه الآن.

فمن الذي جعل دوران الأرض حول الشمس ثمانية عشر ميلا في الثانية، وقدر ذلك عالما به وجعله على القدر الذي تصلح عليه حياة الحيوان والنبات، لا يزيد ثانية ولا ينقصها، أليس هو العليم القدير ؟؟؟

٣- ثم بعد ما وقفت في تلك المسافة المحددة تحديداً دقيقا أخذت تدور على نفسها، فمن الذي أدارها على نفسها؟ ثم من الذي جعل دورانها محددا بثمانية عشر ميلا في الثانية، لا تزيد سرعته ولا تنقص؟ وكيف علمت الطبيعة الصماء البكماء العمياء التي ينسب إليها الماديون كل شيء، كيف علمت أن تحديد سرعة الدوران بهذا المقدار هو المناسب لحياة الحيوان والنبات اللذين على وجه الأرض، وأن السرعة إن زادت أو نقصت أضرت بحياتهما، أليس هذا غاية في التحكم والتعسف، وقلة الحياء من أنفسهم ومن الناس؟

٤- ثم من أدارها حول الشمس في مدة محدودة هي سنة شمسية، لا تزيد شيئا ولا تنقص على مر الأحقاب؟ وما الذي جعل مدة دورانها مناسبة للفصول الأربعة في بعض أجزاء الأرض، وفي النواحي القطبية قدر لها تجزئة أخرى. بحيث تغيب الشمس عن الأرض لمدة تسعين يوما دون أن يموت الحيوان من شدة البرد، وفي الصيف تبقي الشمس تسعين يوما مشرقة لا تغيب دون أن يحترق الحيوان والنبات. وفي الربيع والخريف تطلع وتغيب.

(انظر جغرافية شمالي النرويج وشمالي السويد والأراضي القطبية، أليس ذلك تقدير العزيز العليم؟) بلي والله، ولكن الماديين قوم مغالطون.

٥- قالوا، لما انفصلت الأرض عن الشمس كانت درجة حرارتها اثني عشر ألفًا بمقياس (فارنهايت) وهو مقدار حرارة الشمس، فما الذي بردها؟ إن زعموا أنه الدوران، فإذا كان الدوران يبرد الحرارة فلماذا لم يستمر تبريدها إلى أن تنقضي، فلا يمكن أن يعيش على ظهرها حيوان ولا نبات، ولماذا وقف ذلك التبريد عند حد محدود، هو القدر المناسب لحياة كل حي على وجه الأرض. لا يزيد هذا القدر ولا ينقص؟

٦- وكيف حدثت الأمطار التي زعموا أنها لينت قشرة الأرض وجعلتها صالحة لوجود النبات والحيوان وحياتهما. زعموا أن الأبخرة، بل الأدخنة التي كانت تتصاعد من تلك الكتلة النارية صارت سحابا، ثم عاد السحاب ماء ووزع على قطرات محدودة الحجم، وصار يمطر على الأرض حتى بردت ولانت، وأنبتت النبات.

والدخان ليس من طبعه أن يصير سحاباً أبداً، إذ لا ماء فيه، والسحاب إنما هو ماء ناشئ عن بخار صعد من الماء كبخار القدر، وكل ماء أغليته وبخرته لتقطير ماء ورد أو غيره، فإنما هو ماء يختلف شكله ولا تختلف حقيقته، فالماء يأتي من الماء. أما الدخان فلا ينقلب ماء أبداً.

قالوا إن الماء الناشئ عن الدخان – بزعمهم – تجمع حتى غمر وجه الأرض كله ثم انحسر وتجمع في بحار وأنهار ومستنقعات، وانكشف نحو ربع الأرض فصار يابساً، فما الذي حسره وحدده بهذا المقدار لا يزيد زيادة ذات بال ولا ينقص.

٧- ثم تجيء المسألة الكبرى، بل الطامة العظمى التي تنزل على رؤوس الماديين فتبهتهم حتى لا يبقي عندهم عرف ولا نكر، وهي عضلة العضل، واللغز الذي لا يحل، ألا وهي وجود الحياة في البحار واليابسة، حياة النبات وحياة الحيوان ، فهذه المسألة هي التي حيرت ألباب الماديين والطبيعيين والحسيين، وطمست قلوبهم وأخسأتهم، فما لهم بجوابها يدان.

فقد قال الطبيعيون أنفسهم، إن الحياة لا تجيء إلا من الحياة، فمن أين جاءت الحياة الأولى؟ لم يجدوا لهذا السؤال جواباً يحسن السكوت عليه، فتشاغلوا عنه بوصف الحياة ووحدتها وأطوارها وتنوعها، آملين أن ينسي الناس السؤال عن أصلها ويشتغلوا بما وراء

ذلك، وهيهات هيهات، إن طلاب العلم لا يشتغلون بالفروع إلا بعد معرفة الأصول، فإذا عجزوا عن معرفة الأصول، فهم عن معرفة الفروع أعجز، كما قال بعض العلماء في أمثالهم من المقلدين: (إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول) وقلت في قصيدة مخاطباً أحد المقلدين:

**حرمت وصولا للحقيقة عندما أضعت أصولا من يضعها يلدد**

أيها القراء الأعزاء انتظروا المقال التالي الذي يعرض نظريات الماديين في أصل الأنواع ويناقشهم فيها الحساب، ويسد عليهم كل باب، وذلك بحول الله وحسن عونه، من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا.

## ملاحظة على ملاحظة

## انتقاد الشرايبي والرد عليه

أطلعت على النقد الموسوم «بالعدد الماضي في الميزان» للأستاذ عبد الهادي الشرايبي فرأيت فيه ما نصه: أما بحث الدكتور الهلالي في نقد مقال العوائق النفسية، فأولي به — كما لوحظ في أعداد سابقة من المجلة — أن ينشر في كتاب، إذ أنه يعني قلة من الباحثين، بالإضافة إلى أنه ينشر على أجزاء متفرقة. اهـ.

وكان ينبغي للأستاذ الشرايبي أن يبدي رأيه أولاً في الموضوع، هل هو حق أو باطل؟ وهل هو مستقيم الحجج أو معوجها؟ وهل وفي بالغرض المطلوب منه أم لا؟ فهذه أمور جوهرية يجب البدء بها قبل النظر في نشره مجموعا أو متفرقاً، لأن ذلك أمر عرضي كمالي في نظر حضرته. والأنظار تختلف في هذا الأمر.

وهل علم الأستاذ الشرايبي ما هو الباعث على كتابة هذه السلسلة من المقالات دفاعاً عن أقدس شيء عند مئات الملايين من البشر. كل من يقرأ هذه المجلة بانتظام يعلم أن السبب في ذلك هو أن أحد المتهورين الفوضويين الذين يدسهم أعداء الإسلام وأعداء العرب بقصد بلبلة الأفكار وبث التفرقة بين أبناء أمة واحدة والملة الواحدة نشر مقالا بعنوان «العوائق النفسانية للتخطيط» في مجلة لبنانية تسمي «صحيفة التخطيط التربوي في البلاد العربية» في الجزء الخامس من سنتها الثانية الصادر في شهر يوليوز — تموز ١٩٦٤.

فلما وصل هذا الجزء الذي يتضمن ذلك المقال إلى إدارة مجلة دعوة الحق، وقرأه أعضاء لجنة تحريرها وجدوا فيه من الهجوم الطائش على مقدسات الإسلام ما لا يسكت عليه إلا منافق أو خائن مارق من أعداء الإسلام وأعداء الشعب المغربي المسلم فكتبت إلى لجنة التحرير المحترمة تقترح على الرد على ذلك الكاتب الكاذب الشتام، فشكرت الأساتذة المحترمين المشرفين على تحرير مجلة دعوة الحق على حسن ظنهم بي واستعنت بالله على القيام بهذا الواجب، فجاء بحمد الله قرة عين لكل مسلم مخلص داخل المغرب وخارجه، لكنه كان سخنة عين وشجي في حلوق المارقين وحاملي معاول الهدم والتخريب. ثم لا يخفي على ألمعية الأستاذ الشرايبي أن النشر في بلادنا لا يزال محدودا جداً، فأيهما أحسن، السكوت على سب الله تعالى والطعن في دين الإسلام حتى يتيسر لنا من ينشر الرد على

شكل كتاب؟ أم نشره مجزأ في مجلة واسعة الانتشار تقرأ تحت كل نجم، وفي كل صقع، فيه ناطق بالضاد.

ثم إن المردود عليه لم ينشر في كتاب، وإنما نشر في مجلة، والرد يتبع المردود، على أن كل مشترك في دعوة الحق، أو ملتزم شراءها هي مجموعة عنده من أعز مقتنياته متصلة الأجزاء، وليست كالصحيفة اليومية التي يقرأها ويلقيها ليستعملها البقال في لف مبيعاته لزبائنه.

وهل يعلم الأستاذ الشرايبي أن خلقاً كثيرا من جميع طبقات القراء في داخل المغرب وخارجه ينتظر حلقات هذه السلسلة بشوق وتلهف، فلا يكاد يظهر الجزء منها حتى يتلقفه ويقرأ الحلقة ويعيد قراءتها. وها أنا ذا انشر من ذلك ما ورد على في هذا اليوم نفسه فقط.

**الرسالة الأولى:**

من الأستاذ عبد الرحمن محمد صالح المحامى لرئيس ملاحظي الدائرة والذاتية لسكك الحديد العراقية في بغداد.

ونص ما قاله بهذا الصدد: إنني أطالع مجلة دعوة الحق المغربية، واتتبع مقالاتكم القيمة حول «نقد مقال العوائق النفسية — لريني الحبشي» الذي أفحمتموه بالحجج والبراهين الدامغة، فجزاكم الله خير الجزاء. اهـ

**الرسالة الثانية:**

جائتني من السيد عبد الكريم بن الحاج عمر الناسخ بالمحكمة الشرعية بمدينة أرفود جاء فيها ما نصه: لقد رأيت في مقالكم القيم بدعوة الحق في الرد على الملحدين «خسن خسين بنات معاوية» ولم أعرف معناها، أرجو منكم تفسيرها. اهـ

على أن نشر الكتب الكبيرة والمتوسطة والصغيرة سنة درجت عليها كثير من المجلات الأجنبية والعربية. فمنها أن الأستاذ خوجة كمال الدين نشر شرحا لأسماء الله الحسنى باللغة الإنجليزية في مجلة إسلامك رفيو موزعا على أجزائها الشهرية استغرق سنتين.

ومنها أن السيد رشيد رحمه الله كان ينشر تفسير القرآن موزعاً على أجزاء مجلة المنار التي استغرقت «٣٥» سنة، في كل جزء منها تفسير آيات من القرآن ونشر لي رحمه الله بطلب منه كتابا ألفته في حكم البناء على القبور، سميته «القاضي العادل» موزعاً على سبعة أجزاء.

ونشر لي الأستاذ عبد الرحمن الوكيل في مجلة «الهدي النبوي» التي تصدر بالقاهرة كتابين كل منهما وزع على أجزاء كثيرة، وللقراء أذواق مختلفة، يريد أن يقرأ الموضوع الطويل قراءة متواصلة حتى يتمه، وبعضهم يطيب له أن يقرأ في كل شهر، أو في كل أسبوع حلقة منه.

ثم إن نشر البحث الطويل مجزأ على أجزاء عديدة في مجلة لا يتنافى مع نشره في كتاب واحد، إذ يجوز أن ينشر متفرقاً، ثم يجمع في كتاب واحد، فيكون نفعه أعم.

والخلاصة أن الطعن في دين الإسلام فساد وباطل يجب رده — على كل حال — مجزأ أو مجموعا، ولا يجوز السكوت عنه أبداً، لأن الساكت عن قول الحق شيطان أخرس.

وفي شرح السنة عن أبي بن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من تعزي بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا**».

يعني من أحي سنة من سنن الجاهلية كالدعوي إلى العصبية القبلية فأحري سب الله والرسول ودين الإسلام فأغلظوا له القول، وصرحوا له بذكر ما يكره، ولا تستعملوا الكناية.

وقال تعالى في سورة القلم ٩ — ١٣: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾.

قال البيضاوي في تفسير هذه الآيات: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾ تلاينهم، بأن تدع نهيهم عن الشرك أو توافقهم فيه أحيانا ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ فيلاينونك بترك الطعن والموافقة. ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير الرأي من المهانة، وهي الحقارة ﴿هَمَّازٍ﴾ عياب ﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ نقال للحديث على وجه السعاية ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يمنع الناس عن الخير، من الإيمان والإيقان والعمل الصالح ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز في الظلم ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام ﴿عُتُلٍّ﴾ جاف غليظ، من عتله إذا قاده بعنف وغلظة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما عد من مثالبه ﴿زَنِيمٍ﴾ دعي، مأخوذ من زنمتي الشاة، وهما المتدليتان من أذنها وحلقها. انتهي.

أقول: المداهنة أن يتساهل المرء في دينه وشرفه ليربح جاهاً أو مالاً، وهي مذمومة لا يرتكبها إلا من كان عديم المروءة فاقد الشرف، عبد الدينار والدرهم، بخلاف المداراة، فهي التساهل في حفظ المال لسلامة العرض والشرف والدين. وقال بعضهم وأجاد: المداهنة أن تتنازل عن دينك لإصلاح دنياك. والمداراة أن تتنازل عن دنياك لإصلاح دينك.

وكل من يدعو المسلمين والعرب إلى الانسلاخ عن دينهم وشرفهم ومناقب آبائهم الكرام التي يتمناها كثير من الأمم، ولو بجدع أنوفهم، تنطبق عليه الأوصاف المذكورة في هذه الآيات، ولا يجوز التساهل معه أبدا. قال الله تعالى في سورة التوبة ٧٣: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

قال العلماء: جهاد المنافقين بمقارعتهم بالحجج وأخذهم بها وتضييق الخناق عليهم وفضيحتهم وتوبيخهم حتى يخزيهم الله. ومجاهدة الكفار أعداء الإسلام المعلنين عليه الحرب تكون بقوة السلاح.

وقوله تعالى: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ . قال صاحب فتح البيان: أي شدد عليهم بالانتهار والمقت والجهاد اهـ.

وقال تعالى في سورة الأحزاب ٥٧-٥٨: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾.

قال ابن كثير في تفسير الآية: في الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ : «**يقول الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره ...** » ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا، فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله عز وجل انتهى.

أقول: وهذا الحديث المروي في الصحيحين يدل على أن من سب الدهر، فقد آذى الله، وأن أعداء الإسلام الأولين كانوا يسبون الدهر، فلعنهم الله لذلك وأعد لهم عذابا مهينا، مع أن هذا السب مؤول، لأن الدهر ظرف للحوادث وليس بفاعل لها، فآل السب إلى الفاعل المختار وهو الله تعالى، فما بالك بهذا المدعو «ريني الحبشي» الذي صرح بسب الله تعالى، وآذى جميع رسله وجميع المؤمنين من لدن آدم إلى يوم القيامة؟ فكيف لا نلقمه الأحجار ونقرعه بالحجج التي تكبته ونعامله بالاحتقار.

وينبغي أن يعلم أن وزارة الأوقاف الموقرة أسست هذه المجلة أولاً لنصرة لإسلام والذياد عن حوضه. وثانياً لنشر العلوم النافعة من دينية ودنيوية، والآداب الرائقة، والفوائد والنكت اللطيفة. فلو سكتت عمن يسب الله تعالى ويؤذي رسوله والمؤمنين لأخلت بواجبها الأول،

وخرجت عن منهاجها الذي خطته لنفسها، وبه كان نجاحها وارتقاؤها، هذا رأيي، ولا أشك في أنه رأي القائمين على تحريرها، ومكانتهم في العلم والأدب لا تخفي على أحد.

وكأني بالمؤمن المخلص الذي يحب الله ورسوله والمؤمنين، ويعظم حرمات الله ويغار عليها يقول زدنا يرحمك الله من هذه الحجج القرآنية المحمدية التي هي سيوف قواضب لرقاب أعداء الإسلام، وأنوار لوامع للمؤمنين بالله، فأقول: لبيك.

قال الله تعالى في سورة التوبة ١٢-١٥: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

أيها القارئ الموفق المتحلي بالإنصاف ، تأمل هذه الآيات الكريمات تجد فيها مسائل، الأولى، أن كل من نقض العهد من المسلمين والمعاهدين يجب على المسلمين قتله أو قتاله، ولك من طعن في دين الإسلام، فإن كان من المنتسبين إليه تجب استتابته، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، لأن الإسلام دين ودولة. فمن نقض عهده فقد ارتكب ما يسمي في هذا الزمان «بالخيانة العظمى» فاستحق القتل في حكم الإسلام وفي حكم قوانين الدول.

أما دليل حكم الإسلام فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ : «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة**».

الثانية: قوله تعالى: ﴿ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ ﴾. يدل على أنه يجب على المسلمين أن يهتموا بقتال الدعاة إلى الكفر بالله الطاعنين في الإسلام، وأن يوجهوا إليهم من العناية أكثر مما يوجهونه إلى الأتباع والمقلدين. والمدعو ريني الحبشي نصب نفسه إماماً من أئمة الكفر وسب الله وطعن في الإسلام ودعا إلى الكفر بالله، فيجب على كل مسلم أن يقاتله بقدر ما يستطيع ويرد باطله ويكيل له الصاع صاعين ويدمغه بالحجج العقلية والنقلية.

الثالثة: أن من هم بالقضاء على شريعة الرسول وإزالتها من الوجود كمن هم بإخراج الرسول ﷺ في حياته من بلده.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾. ينطبق على ريني الحبشي، لأنه بدأ بالطعن في الإسلام وأفحش في ذلك وأقذع وجاء بكلام بذئ:

**وكل إناء بالذي فيه ينضح**

فوجب علينا أن نناضل عن دين الله وننافح عنه ونبلي في ذلك البلاء الحسن، ولو سخط الكافرون وغضب المنافقون.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾. يدل على أن المؤمن لا يجوز له أن يخشى أعداء الإسلام، بل يجب عليه أن يخشى الله ويجاهدهم، وإلا فليس بمؤمن.

يزيد ذلك وضوحا قوله تعالى في سورة التوبة ٥٦: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾. أي يخافون أن تبطشوا بهم لو أظهروا ما في قلوبهم، فالخوف من غير الله ينافي الإسلام الصحيح. ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً ﴾ لو تهيأ لهم حصن يتحصنون فيه فرار من الجهاد ﴿ أَوْ مَغَارَاتٍ ﴾ غيرانا وكهوفا ﴿ مُدَّخَلًا ﴾ أي نفقا تحت الأرض ينجحرون فيه ويختبئون فيه، لانطلقوا إليه وهم يسرعون كالخيل الجمح الشارة. وفي كتاب الله آيات أخرى تدل على هذا المعنى.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ يوجب على المسلمين أن يقاتلوا أعداء الإسلام المحاربين لهم، ليكون عذاب الله لهم بأيدي المسلمين وذلك أوجع لهم وأكثر إيلاماً، ولو شاء الله لأهلكهم بعذاب من عنده.

وقد وعد الله المؤمنين بالنصر وإخذاء عدوهم، وبذلك يحل الشفاء والانشراح بصدور المؤمنين التي يؤلمها ويوجعها محاربة أعداء الإسلام وطعنهم في الإسلام، وتركهم سالمين يصولون ويجولون دون أن يصابوا بأذى، وبقتالهم بقدر الطاقة يزول الغيظ من قلوب المؤمنين ويحل محله الانشراح والسرور والاستبشار.

فهذا وجه إطالتي في الرد على هذا العدو المهين، وأنا على يقين أن كثيراً من القراء يجدون هذه المقالات بردا وسلاما على قلوبهم، علمت ذلك بالرسائل التي تلقيتها، وأخبار المشافهة، وهذا في نظري من أجل الخدم التي تؤديها مجلة «دعوة الحق» لقرائها. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

## أقوال علماء المذهب الروحي وتجاربهم وشهادتهم

أعلموا أيها القراء الطالبون للحق، البريئون من الغش، الموفقون للحق، أنني مسلم لا أحتج إلا بكتاب الله وسنة الرسول ﷺ، في العقائد والأحكام والآداب، ولكن من القواعد المسلمة في علم المناظرة أن ما يعتقده الخصم حجة عليه، ولمخاصمه أن يحتج به عليه، وإن لم يعتقده هو، ولما سردت طائفة من شبهات الماديين وكررت عليها بالرد والنقض من طريق الماديين أنفسهم وأغلقت عليهم كل باب حتى صار كيدهم في تباب، وانقشع عن المغتر بهم الضباب، بدا لي أن لا أزيد على ما تقدم من مراوغاتهم وحججهم الواهية، ومغالطاتهم الواهنة، لأنها ظلمات يشبه بعضها بعضا، والإكثار منها يفضي إلى الملل، وبدا لي أن أذكر طائفة من حجج أضدادهم الروحيين من أساطين العلم والمعرفة الذين رسخت في المعارف أقدامهم، واصمت المخالفين سهامهم، لتعلم هذه الضفادع التي تنق نقيقا، وتوهم العامة أن جميع الباحثين والفلاسفة والمفكرين في أوربا وأمريكا وصلوا إلى عين اليقين أنه لا شيء وراء المادة، وأن المتدينين إنما يتمسكون بأوهام وخيالات أكل عليها الدهر وشرب، ومضى زمانها. فمن كان منهم يعرف الحقيقة فهو دجال مجرم خائن لوطنه ولأبناء شعبه، ومن كان يجهلها فهو مفتر كذاب عديم المروءة والشرف لا يستحي من نفسه ولا من الناس.

قال المحقق الأستاذ محمد فريد وجدي ما نصه: إن من يطلع على ما كتبه بعض علماء المادة في القرن الثامن عشر ومقدمة التاسع عشر يخيل له أن مستقبل الاعتقاد بوجود النفس والآخرة محفوف بالمخاطر، وأنه سيؤول الأمر بالناس إلى نبذ هاتين العقيدتين والتقين بأن المادة هي مصدر الحياة وموردها، وأن دار الثواب والعقاب ليست إلا من موضوعات العقول البشرية. وفي الواقع أخذت هذه الفكرة السيئة تنتشر بين الطبقات المثقفة في أوربا انتشارا أدي كثيرا من الكتاب إلى المجاهرة بها على رؤوس الأشهاد والمشافهة بها في كل ناد.

وكان العلماء المضادون لها من أهل الوجدان السليم، قاصري الحجة أمام أولئك الذين يصرحون بأنهم لن يقبلوا نظرية في العلم إلا إذا كانت مما تقبل الامتحان بأحدي مشاعر الإنسان. ولا مشاحة في أنه لو كان الحال دام على ذلك المنوال لكان الأمر آل اليوم إلى فشو

الإلحاد دفعة واحدة، وطروء اليأس على الأفئدة البشرية من الحياة الخالدة. ولا يخفي ما كان ينبني عليه من الفساد الخلقي الذي هو ميكروب السل الاجتماعي، ولكن خالق هذا الكون العالم بما سينتهي إليه حال الجمعية البشرية الضئيلة من الخلل والخطل من جراء ذلك المذهب المادي، خلق بإزاء هذه الحركة الشيطانية عقبة وقف أمامها غطاريف المادة حياري لا يحيرون جوابا، ولا يرجعون.

وعزم من رأي تلك العقبة منهم على تطليق مذهب المادة بتاتا وإقامة الأدلة الحسية لأقرانه بأنهم عن الحقيقة ضالون، وأن الروح لها وجود متميز عن الجسم، وأن الآخرة لاشك فيها. وما أحسن ما كتبه الدكتور الألماني الشهير (كارل دوبرل) في مجلة (شوكونفت) الألمانية قال: «إن العلوم الطبيعية قد تجارت على نكران خلود النفس، فعاقبها الله بأن حكم عليها بأن تكون هي نفسها التي تقيم على ذلك الخلود البرهان القاطع».

ما هي تلك العقبة التي اصطدم بها مذهب المادة فارتد طرفه خاسئا وهو حسير؟ هو ظهور طائفة الروحيين الذين يزعمون الاتصال بأرواح الموتى ومكالمتهم، ويعملون بواسطتهم من الخوارق ما لا يصدقه إلا من كان على مرائي منهم ومسمع.

كأني ببعض القراء من ذوى الأفكار الحادة ينكر على ذلك ويعده من الخرافات التي لا تليق أن تسطر على صفحات الكتب، أقول مهلا مهلاً، فسترى أن أعضاء هذا المذهب الذين بلغوا الآن نحو عشرين مليونا ليسوا إلا من رجال العلوم الطبيعية والعقول النقية.

قال (جان فينو): مدير مجلة (المجلات) بعد أن ذكر عدد الروحيين: ولنضف إلى هذا صفة أشياع هذا المذهب فهم إما علماء أو أساتذة فنيون أو أطباء أو مهندسون، وقال في موضع آخر: ونحن مع ثنائنا على الذين يريدون كشف أسرار المشعوذين منهم لا يجوز أن ننسي أنه يوجد بجانب هؤلاء رجال أذكياء من الطبقة الأولى وذوو ذمم طاهرة لا يشك فيها، وكيماويون وطبيعيون وعلماء مثل (كروكس)، و(نير)، و(ولاس)، و(زلنر)، و(أوليفيه)، و(لودج)، و(باريت)، و(دومرجان)، و(بوتليروف) الخ.

ولا يصح أن يفرض أن هؤلاء الرجال يستعملون الغش والتدليس لإنجاح الخرافات التي أهبطت كثيرا من العظمة الروحية كما أنه من الصعب أن نتهم هؤلاء العلماء بالسذاجة، فإن دقتهم الشديدة في التجارب العلمية أشهر من أن تذكر. اهـ

لما انتشر هذا المذهب بين علماء أوربا تألفت سنة ١٨٦٩ جمعية من أكابر علماء لندن لفحص هذه الخوارق فحصاً دقيقاً علمياً، وكانت هذه الجمعية مركبة هكذا: (جون لبك) رئيسا لها و(توما هكسلي) أشهر علماء بريطانيا و(لويس) الفسيولوجي الطائر الصيت وكيلان لها ومن أعضائها (ألفريد رسل ولاس) و(هونديد دارون) الشهير وزميله (مرجان) رئيس الجمعية الرياضية و(فارلي) رئيس مهندسي شركات التلغراف و(جان كوكس) المشترع الفيلسوف و(أكسون) أستاذ في كلية أكسفورد. الخ.

فلما تكونت هذه الجمعية المهمة أشرأب الناس من كل صوب إلى معرفة نتائج أبحاثها لعلمهم أن حكمها لا يقبل الاستئناف، فاستمرت في الفحص الدقيق (١٨) شهراً، وكانت النتيجة تأكيدها صحة تلك الأعمال، وكتبت بذلك تقريرا مطولا منه هذه العبارة: إن اللجنة اقتصرت في تقريرها على الأعمال التي شاهدها كل الأعضاء مما كانت محسوسة لمشاعرهم، وكانت صحتها مقترنة بالبرهان القاطع أن أربعة أخماس الأعضاء ابتدءوا البحث، وهم في أشد درجات الإنكار لهذه الأشياء، ومعتقدون قلبا وقالبا أنها ليست إلا نتيجة الغش أو الوهم، أو بالأقل، نتيجة العمل الاضطراري للأعصاب ولكن بعد أن وضحت لهم هذه الأشياء وضوحا تاماً في شروط نفت كل تلك الفروض، وبعد تجارب دقيقة جداً تكررت مراراً لم ير هؤلاء الأعضاء المنكرون بدا من اعتقاد أن هذه الخوارق حقيقة رغم أنفسهم الخ.

وهذا هو (كروكس) الطائر الصيت رئيس الجمعية الملكية البريطانية قد أكد في خطبته التي تلاها يوم توليه الرئاسة أنه لم يزل كما كان منذ ثلاثين سنة، يؤكد أنه يعتقد بوجود قوة في الطبيعة متمتعة بعقل وإرادة ومتميزة عن المادة.

وهذا هو الدكتور (لمبروزو) أشهر البحاثين في الجرائم بعد ما وصم في مؤلفاته الروحيين بالجنون أقر بغلطه وألف كتابا قال في آخره ناصحا لغيره: ولنحذر من ادعائنا دقة العقل واعتقاد أن كل الناس من قبيل المخرفين، والظن بأنا نحن فقط العلماء، فإن ذلك يوقعنا في الضلال.

وهذا هو الدكتور (جورج سكستون) الخطيب الإنكليزي الشهير، كان أقسي الناس قلبا، وأمضي العلماء لسانا على هذا المذهب، ثم حبب إليه أن يدرسه فاستمر في ذلك (١٥) سنة

ثم انتهي أمره باعتقاد صحته، وصار الآن من كبار أشياعه ومشيعيه وهذا هو الدكتور (شمبير) الشهير بعد ما كافح هذا المذهب مدة مديدة فحصه واعتقد صحته، وكتب إقراره بغلطه السابق في مجلة (سبرتيوالي مكازين) وكذلك كان حال الدكتور المشهور (جمس جللي).

وقد تألفت جمعية في بريطانيا وأمريكا تحت رئاسة الأستاذين الشهيرين (هبزلوب) عن أمريكا والدكتور (هودسن) عن بريطانيا، فاستمرت هذه الجمعية في الفحص والبحث نحوا من (١٢) سنة، ثم أعلنت أخيرا في سنة ١٨٩٩ أنها قد اقتنعت بصحة تلك المشاهدات، واعتقدت أنها فعل أرواح الموتي.

وقد وردت في المجلة الروحية بعض من أفكار رئيسي هذه الجمعية نترجم منها ما يأتي: قال الأستاذ (هبزلوب) أومل أن أثبت بعد مضي سنة للعالم أجمع ببراهين لا تحتمل شبهة أنه يوجد حياة بعد هذه الحياة ثم قال: وقد رأيت بعيني خوارق ومدهشات حقيقية ليست منسوبة للتدليس ولا للوهم.

وقال الأستاذ (هودسن): العالم على وشك رؤية حوادث خطيرة جداً فأؤمل بعد مضي سنتين أو أقل أن أهدي للعالم أجمع تفسيرا جديدا لنواميس الحياة الإنسانية، ولهذه الديانة القديمة التي لا يمكن أن يعارضها دين، ولا أن تصادمها طائفة من الطوائف ثم قال: فسيتضح كل شيء للنوع الإنساني الذي يئن ويتألم من الشكوك ويتذبذب معها إلى هنا وهناك، ثم قال: وإذا كان الأستاذ (هبزلوب) قد أعلن أنه تحادث مع أرواح الموتى، فإنه لم ينطق إلا بحقيقة نقية. اهـ

ولما قابله أحد مكاتبي الجرائد وسأله عن سبب إيمانه أجابه قائلا: قد ابتدأت أبحاثي أنا والأستاذ (هبزلوب) منذ (١٢) سنة وكنا ماديين دهريين لا نصدق بشيء مطلقاً، ولم يكن لنا إلا غرض واحد، وهو كشف الغش والتدليس ليس إلا أما اليوم وما أدراك ما اليوم، فإني اعتقد وأجزم بإمكان المحادثة مع أرواح الموتي وقد قام لي الدليل على هذا الأمر، بحيث لا أتصور أن يتطرق إليه الشك مطلقاً.

وقد أشاعت بعض الجرائد يوما أن الأستاذ الفلكي الشهير (كامل فلامريون) قد ترك ما كان يعتقده في الأرواح فقصده مكاتب (الفيكاروا) وحصلت بينهما هذه المحادثة:

الكاتب: نهارك سعيد يا حضرة الأستاذ، ما الذي طرأ، ولم رفضت مذهبك؟

الأستاذ: إني لدهش من الإشاعات التي ذاعت بشأني منذ أيام، فإني لم أرفض مذهبي مطلقا.

المكاتب: إذن هذا الأمر كذب محض؟

الأستاذ: يقينا، فإني أدرس دائما هذه الظواهر الروحية، وإني لمعتقد أكثر مما كنت بأننا في غاية الجهل بأسرار هذا الوجود، ومع هذا فإني مشتغل منذ بضعة شهور بعمل كتاب سيظهر قريبا اسمه (المجهول والمسائل الروحية) وسأتكلم فيه بالخصوص على ظهور أرواح الموتى.

ثم انتقل بهم الكلام إلى مسائل فلكية فقال الأستاذ (كاميل): في هذه المناسبة أقول لك: إنه توجد مسائل مهمة (يعني الاسبرتزم) يجب أن تدرس، وهي أولي بالعناية من كل المسائل الفلكية، وسأستمر على درسها باستقلال وأمانة.

قال الأستاذ (كروكس) الذي تولي رئاسة الجمعية الملكية العلمية البريطانية، وهذا اللقب وحده يكفي في تعريف قيمته، ويغني عن سائر الألقاب، قال أمام (مئين) من أقرانه في الجمعية في مناسبة الكلام على (الاسبرتزم): أنا لا أقول، هذا ممكن، بل أقول، لكم، إنه حقيقة موجودة.

وقال في كتابه المسمي (الأبحاث على الظواهر الروحية) الذي طبع عشرات المرات: وبما أني متحقق من صحة هذه الظواهر، فمن الجبن الأدبي أن أبي الشهادة لها بحجة أن كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن لا يعلمون شيئا في هذا الشأن، ولا يستطيعون لما علقوه من الأوهام أن يحكموا عليها بأنفسهم أما أنا فسأسرد بغاية الصراحة ما رأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة المدققة.

**تعليقات وتوضيحات**

١ – قوله: وكان العلماء المضادون لها من أهل الوجدان السليم قاصري الحجة، الخ. كذا الأمر الذي كان واقعا في أوربا في القرن الثامن عشر بتاريخ النصارى وفي أوائل القرن التاسع عشر هو بعينه الواقع اليوم في الشعوب المتخلفة، فإن علماء الدين المؤمنين بما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من الملائكة والثواب والعقاب الأخرويين، ووحي الله إلى رسله

وغير ذلك مما وراء المادة إذا جاءهم معلم في المدرسة الابتدائية، أو طالب راسب في الثانوية يعرض عليهم آراء الملحدين من أهل القرن الثامن عشر، فتصيبهم صدمة عظيمة لا قبل لهم بها، ولم يطلعوا على الحجج التي تقضي على تلك الآراء وتزهقها فمنهم من يغضب ويسب ذلك المعلم وذلك الطالب ويقوم من ذلك المكان، ويمتنع من الأكل معه، إن جمعتهم وليمة أو مأدبة ويشنع على خصمه بأنه كافر يجب أن يقتل، فيبلغ بذلك المعترض مراده من إهانة ذلك الشيخ وإضحاك السفهاء عليه، ويوهمهم أنه جاءه بالبراهين التي لا يستطيع ردها، ولذلك لجأ إلى الشتم والفرار، فيضلهم بذلك ضلالا بعيدا.

ومن الشيوخ من يكظم غيظه فلا يزيد على الحوقلة والاسترجاع ويذم الزمان وأهله، ويقول لمن حوله: هذا آخر الزمان، هذا هو الزمان الذي جاءت الأخبار التي ورد فيها، سيأتي على الناس زمان، يكون فيه بطن الأرض خيرا من ظهرها، ويمر الحي على قبر الميت فيقول: ليتني صرت مكانك، وهذا هو الزمان الذي جاء فيه الخبر (إذا رأيت هوي متبعا، وشحا مطاعا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك، ودع أمر العامة).

أقول: والأخبار الواردة في هذا المعني بعضها واه ضعيف لا يثبت، وبعضها ثابت، ولكن عامة الشيوخ لم يفهموا معناه، ولم يجمعوا بينه وبين الآيات والأخبار التي تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وجهاد الكافرين والمنافقين، والصبر على أذاهم، والذي يلقم أولئك الشياطين الفتانين الأحجار ويأخذ منهم بالثأر، ويسل عليهم من الحجج السيف البتار، حتى يلوذوا بالفرار، هو التسلح بسلاح العلم الديني والعلم الكوني، ومناهضة أولئك الجاهلين الفاتنين، والقضاء علي أباطيلهم بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، حتى يخسأوا ويستبشر المؤمنون ويفرحوا بنصر الله.

ولما كنت في الهند رئيسا لأساتذة اللغة العربية في كلية ندوة العلماء (بلكناو) جاءني متفلسف لم يحصل من الفلسفة إلا نصفها الثاني وهو السفه، فقال لي: القرآن يقول: إن الله خلق الكواكب والنجوم زينة للسماء، والزينة تحتاج إلى أشكال هندسية مضبوطة الأقيسة كما نري في الزرابي وفي الحدائق التي جعلت فيها الأزهار على أشكال جميلة. أما الكواكب والنجوم فإنها مبثوثة في السماء على غير نظام، فصارت زينة المخلوق جميلة متقنة، وزينة الخالق غير متقنة ولا منظمة. فقلت له: قولك، إنها مبثوثة على غير نظام لا نسلمه، لأننا

لا نري إلا بعضها بالعين المجردة، وحتى بأكبر منظار فقد ثبت عند علماء الفلك أنهم لم يستطيعوا أن يدركوا نهايتها، فكيف علمت أنها مبثوثة بلا نظام، وأنت لا تري إلا جزءا قليلا منها.

ولو سلمنا أنها في الواقع مجعولة على غير نظام ما جاز لنا أن ننفي أنها زينة، لأننا لو نثرنا لآلئ على بساط أزرق كيفما اتفق بدون ضبط لأبعادها لكانت زينة لذلك البساط بلا شك، ولكان الناظر إلى البساط المزين بها يفضله على البساط الخالي منها، كأني بك تقول: إن تنظيمها يكون أجمل وأكمل، وهي ناشئة عن قدرة الله وصنعه المتصف بالكمال المطلق، فكيف تجيء ناقصة. والجواب أن الله لم يخلقها للزينة وحدها، بل خلقها كذلك ليهتدي الناس بها في ظلمات البر والبحر كما قال تعالى: ﴿ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ ولأغراض أخرى يقصر عنها علمنا، فضحك وقال لي: إني قصدت أن أغضبك كما أغضبت كثيرا من علمائنا بهذا السؤال، فهل علماء العرب كلهم مثلك يقرعون الحجة ولا يغضبون، فقلت له: أنا لا أستطيع أن أحكم على علماء العرب كلهم، ولكني أعرف كثيرا منهم، يسلكون طريق المناظرة وهم أكبت للعدو وأهدي للصديق.

٢- قوله: الذين يزعمون الاتصال بأرواح الموتى ومكالمتهم الخ. أعلم أيها القارئ العزيز أنني لا أقصد بما نقلته هنا أن أثبت ما ادعوه من الاتصال بأرواح الموتى أو مكالمتهم، فذلك ما لا علم لي به، وإنما أريد أن أهدم ما بناه الجهال من بيوت العنكبوت التي أوهموا بها الناس، إن جميع علماء أوربا وأمريكا في هذا العصر نفاة معطلون، وكما زعم ذو الرين الحبشي أنه عن قريب سيقضي على الإيمان بالله ولا يبقي له أثر في نفوس الناس، وهذا كلام بال سرقه ممن سرقه من هكسلي وإضرابه المكابرين وأنت ترى هنا جما غفيراً من علماء أوربا وأمريكا، بعد ما كانوا أشد الناس تكذيبا لما وراء المادة وأقاموا سنين طويلة في البحث والتنقيب ليقهروا رجال الدين وعلماء الروح بدا لهم ما لم يكونوا يحتسبوه، فأصبحوا أشد الناس إيمانا بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية، فلا يستطيع الجاحدون أن يطعنوا في علمهم، ولا في تحقيقهم، ولا في أمانتهم، كما لا يستطيعون أن يتهموهم على كثرتهم بالشذوذ. على أن هؤلاء الضفادع إذا سألت أحدهم من أين جاءك هذا العلم يقول: من فلان، فإذا بحثت عنه تجده ضفدعاً بشرياً مثله، ولتسمح جمعية الضفادع

البشرية إذا استعملت هذا اللفظ في هذه الضفادع الضارة الحقيرة، فإني لا أقصد تشبيهها بهم، فإنهم رجال يغوصون في البحار ويكتشفون أسرارها ودفائنها وينقذون الغرقي من الناس والقوارب والسفن.

أما هذه الضفادع، فإنها تسبح في بحور الجهل وتغرق معها الجهال، ولا تنفع الناس بشيء.

وقوله: قال (كارلدوبرل) في مجلة (توكونفت) الخ أعلم أن لفظة (توكونفت) معناها باللغة الألمانية المستقبل، ونستطيع أن نفهم من تسميتها بالمستقبل، ومن كلام ذلك الأستاذ العظيم أن المستقبل للمؤمنين المثبتين لا للكافرين النفاة المعطلين، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

وسأثبت هنا أمرا شاهدته بعيني من أمور الغيب، وقد خاب من افتري كنت مشارطاً في دوار المغوالية من قبيلة حميان، دائرة عين الصفراء بالجزائر، وكان الفصل شتاء، والثلج يكسو السهول فضلا عن الجبال والخيمة التي أعطاني أولئك القوم هي حصير منصوب على عمود قصير على قدر جلسة الإنسان، وفي أطرافه الأربعة قد ربطت أربعة أوتاد مثبتة في الأرض، وليس لي فراش ولا غطاء إلا غرارتان باليتان قد خيطت أحداهما بالأخرى، فألهمني الله تعالى فحفرت قبرا في وسط الخيمة، وعمقته حتى صار جانبه يستوى مع خاصرتي، وجمعت نوعا من الحلفاء يسمي (الصنغة) وملأته بها وأوقفت الحلفاء الخشنة إلى جوانب القبر وحفرت إلى جانب رأس الحفرة بقدر عمق ذراعين وأوصيت المسافرين إلى المدن فاشتروا لي قديرة بقدر فوهة الحفرة، فصرت ألتقط العيدان الصغيرة اليابسة من الحطب واملأ تلك القديرة بالثلج، وأضع العيدان في أسفل الحفرة وأوقد فيها النار، فيمتد لهبها إلى أعلى، ولكنه لا يكاد يتجاوز فم الحفرة، وأضع عليه القديرة، وهي من الخزف، فيذوب الثلج ويصير ماء فأتوضأ به، وأجلس على فم الحفرة، وفي أسفلها الجمر، فأدفأ حتى أعرق، وأقوم للصلاة في جوف الليل — خارج الخيمة طبعا — وفي ذات ليلة بينما أنا قائم أصلى إذا رأيت غماما أبيض، أسفله في الأرض وأعلاه في السماء قد سد الأفق حتى لا يبصر شيء سواه، وجاء من بعيد وأخذ يدنو حتى لم يبق بيني وبينه إلا بضعة أمتار، فخرج منه شخص عليه ثياب تشبه ثياب النساء، ووقف غير بعيد مني وأخذ يصلي بصلاتي كأنني

إمامه. إلا أنه كان يخالفني قليلا في القبلة، فلا أدري أينا كان مخطئاً وأينا كان مصيباً وما أن أبصرته حتى أخذت ارتجف من الخوف، وكنت أقرأ في سورة السجدة، فخرجت منها إلى سورة أخرى، وأيقنت أنني من شدة الخوف لا أستطيع أن أقرأ السور الطوال التي فيها الآيات المتشابهة، فعمدت إلى قراءة السور القصار التي أحتاج في قراءتها إلى إحضار ذهني وخطر ببالي ما يوصي به المتصوفة، وكنت إذ ذاك على طريقتهم، وهو قولهم: يجب على السائر إلى الله تعالى أن لا يلتفت إلى أي شيء يعرض له في طريقه، فلذلك لم أرد أن أكلمه، فصلي معي ست ركعات، أسلم بعد كل ركعتين، فالتفت بالسلام عن يميني فيفعل هو مثل ما أفعله، فلما كنت في سجود الركعة السادسة دعوت الله، فقلت: يا رب إن كان في محادثة هذا الشخص لي خير فاجعله هو يكلمني وإلا فأصرفه عني، فلما سلمت من تينك الركعتين قام فمشي متئدا حتى دخل في الغمام الذي كان ينتظره، وبمجرد دخوله فيه واختفائه أخذ الغمام يتراجع ويبتعد حتى اختفي عن بصري.

فلما التقيت أستاذي الأول الشيخ الصالح الرباني محمد سيدي بن حبيب الله رحمه الله حكيت له ذلك فقال لي: أظن أن ذلك شيطان، إذ لو كان ملكا لما أصابك منه ذلك الخوف، واعتقدت صحة هذا الجواب مدة طويلة من الزمان، ثم بدا لي أنه غير صحيح، لأن النبي ﷺ لما جاءه جبريل وهو في غار حراء خاف منه خوفا شديدا وإلى الآن لا أعرف حقيقة ذلك الشخص.

وسيقول الضفدع المغتر بأقوال الماديين: حديث خرافة يا أم عمرو، أو يقول: إنما استولي عليك الوهم والخيال، فأقول على رسلك أيها الضفدع فقد رأي العلماء المذكورون في هذا المقال من الخوارق أعظم بكثير مما رأيت أنا، وهيهات أن تستطيع تكذيبهم أو نسبتهم إلى التخيل والوهم وقد أذكر في المقالات التالية بعض مشاهداتهم إن شاء الله.

٣- قوله: (سبرتبوالي) معناه المجلة الروحية.

٤- قوله: (سبرتزم) معناه علم الأرواح.

انتظروا المقال التالي لتطلعوا على نتائج أخرى وتقريرات لأشهر العلماء الباحثين.

واختتم هذا المقال بإهداء أطيب الشكر وأزكى التحيات للأستاذ الأديب الناقد السيد إدريس الكتاني على ذلك النقد النزيه الذي جاء في وزنه للجزء الثاني من السنة التاسعة

لهذه المجلة الحافلة، وأخبر سيادته بأني جمعت هذه المقالات، ومقالات سابقة لها في هذا الموضوع، نشرت تحت عنوان (دواء الشاكين وقامع المشككين) ودعوت وزارة الأوقاف الموقرة على صفحات هذه المجلة لنشر هذا الكتاب، وأكدت لها أن الناس في هذا الزمان في أشد الحاجة إلي قراءته، وأن نشره في المجلة لا يسد حاجتهم، ولا أزال أنتظر وآمل أن توفق وزارة الأوقاف إلى القيام بهذا العمل وبالله التوفيق.

## ذكر تجارب تسعة وثلاثين عالما أوروبيا
## واثباتهم للأرواح بطريقة لا تقبل الشك عندهم

دونكم أيها القراء الأعزاء آراء طائفة أخرى من العلماء ونتائج تجاربهم على اختلاف اختصاصهم في العلوم، واختلاف أوطانهم وشعوبهم. وأعيد ما قلته من قبل، إني مسلم، أومن بالكتاب والسنة، وإجماع الأمة، وأقبل كل رأي لا يناقض ذلك، ولا يلزمني اعتقاد كل ما أوردته هنا، ولكنه حجة على الماديين المعطلين الذين يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بما يدرك بالحواس الخمس.

وقد أدرك هؤلاء العلماء ما ننقله عنهم بعقولهم وبالحواس الخمس أيضا، ولا يستطيع الماديون تكذيب هذه الجمهرة من العلماء، أو نسبة التوهم لها، فما لهم من ملجأ يلجأون إليه، ولا مهرب يفرون إليه، والحق أبلج، والباطل لجلج، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم.

١- ومن القائلين بهذا المذهب الدكتور «جورج سكستون» الإنكليزي، ويعد ركنا من أركان النهضة العلمية في هذا العصر، وكان في مبدأ أمره من أشد أعداء هذا المذهب، وقد كان كثيرا ما يجرد عليه عضبا من لسانه مرهفا حتى كاد بفصاحته أن يتغلب على شهادة الحس عند أولئك الباحثين فخشي الكل تأثيره، لاسيما ولم يكن من الرجال الذين يمكن إقناعهم بشيء، لأنه كان مشهورا بشدة الانتقاد والتشكك، ولكن لأمر يريده الله، حبب إليه بحث هذا المذهب، فظل يحاول خمس عشرة سنة، لا ليعتقده إن كان صحيحا، ولكن ليجد الوسيلة التجريبية إلى دحضه فلم يسعه – رغم أنفه – إلا الانقياد للحق واعتقاده، وكتب مقراً بغلطه عن نفسه يقول: إني تحصلت في بيتي الخاص، وبمعزل عن كل واسطة «للتحضير»، غير أصحاب لي، لديهم قوة استحضار الأرواح على البرهان الذي يستحيل دحضه والذي هو من طبيعة تؤثر على كل عقل ثابت بأن المخاطبات التي حصلت عليها هي من أحباب وأقارب ميتين.

٢- أما الأستاذ «لودج» الذي يلقبه العلماء «داروين الطبيعة» فقد وقف أمام الجمعية العلمية الإنكليزية وقفة الذين لا يخشون في الحق لومة لائم وترجي إخوانه أن يهتموا غاية الاهتمام بهذه المسائل الروحية التي هي كما يقول: تأسر الباحث بغرائبها المدهشة أسراً.

٣- ومثل هؤلاء كان حال الدكتور «شامبير» الذي له القدح المعلي في العلوم الطبية.

٤- والدكتور «جمس جللي» صاحب كتاب «القانون الصحي للأمراض المزمنة» الذي طار صيته في جميع أقطار العالم الطبي.

٥- ومثلهم الأساتذة «أكسون» أستاذ كلية أوكسفورد أشهر المدارس الإنكليزية.

٦- «وسيرجون كوكس» الفيلسوف المشترع الإنكليزي الشهير.

٧- والأستاذ «باركس» الجيولوجي الإنكليزي الشهير. كل هؤلاء غير الثلاثين عالما الذين كلفتهم جمعية العلوم بتحقيق خوارق هذه المسألة كما تقدم تفصيلا قبل قليل.

٨- وكان المستر «غلادستون» من كبار المصدقين بهذا المذهب، قال في بعض كتاباته كما هو مكتوب في المجلة الروحية «أدرس مشاهدات الاسبرتزم، فإذا وجدت فيها غشا وتدليسا، فأهزأ بسائر المصدقين بها، وأسخر بي في مقدمتهم».

٩- قال اللورد «بالفور»، وهو السياسي المشهور: «عندي الاسبرتزم أفضل من السياسة لأنها تفيدني أكثر منها» ونحن لم ننقل كلام هذين الرجلين الأخيرين إلا لكونهما معدودين من رجال العلم.

١٠- وقال العلامة «كرمويل فارلي» المتقدم ذكره: أن الشتائم والسخرية التي تكبدناها في سبيل الاعتقاد بالاسبرتزم لم تأت إلا من جهة الذين لا يحصل لديهم إقدام على البحث والتنقيب إلا بعد معادات ما يجهلونه.

١١- وكتب الأستاذ الشهير «باركس» في مجلة «يوتلنيس أوف انفستيجشن انتومودرن سبيريتواليزم» أي فائدة البحث في علم الروح العصري. قائلا إنه قبل أن يعتقد حقيقة الاسبرتزم قرأ كل كتاب ألف للدفاع عنه أو في دحضه، وجادل كل متكلم فيه، ثم جرب مشاهداته بنفسه مدة عشرة سنوات، قال وبعد هذا كله أستطعت أن أتكلم في مشاهداته، وأخطب فيه بعلم ودراية.

١٢- وكتب العلامة «أجست مورجان» المتقدم ذكره في مجلة «فروم ماستر اوف سبيريت» من معلمي الروح — قال: أنا مقتنع بصحة الاسبرتزم مما رأيته بعيني وسمعته بأذني، اقتناعا يجعل تطرق الشك إلى مستحيلا عندي، وأن الروحيين لعل الطريق الذي

تقدم العلوم الطبيعية، وليس أضدادهم إلا مشخصين للذين يريدون وضع العقبات في سبيل الترقي.

١٣- وكتب الأستاذ «اكروموبل فارلي» إلى الأستاذ الشهير «تندل» يقول: إنا لندرس الآن من «الاسبيرتزم» ما كان قبل ألفي عام، الشغل الشاغل للفلاسفة، ولو ترجم رجل من العارفين باللسانين اليوناني واللاتيني والواقعين على حقيقة المشاهدات الروحية ما كتبه رجال الماضي لرأينا أن الذي يحصل الآن ليس هو إلا جانبا قديما من التاريخ، لدرجة تعلي مقام أولئك العقلاء الأقدمين لكونهم استطاعوا أن يرتفعوا عن الأوهام الضيقة التي كانت سائدة في زمانهم، ويظهر لنا أنهم درسوا هذه المسألة بتوسع يفوق في أشكاله الكثيرة معلوماتنا الحالية فيها.

١٤- وقال القس «سنتون موزس» مدرس علم اللاهوت بلندن بعد فحص الاسبرتزم عدة سنين هو وطائفة من رجال العلم معه قال: إن وضوح وجود هذه القوة المحكمة بعقل يرتكز على ما يأتي:

أ) وضوحها لحكم الحواس.

ب) تكلمها غالبا بلغة يجهلها المستحضر.

ج) سمو الموضوع الذي تتكلم فيه على معلومات المستحضر غالبا.

د) ثبوت استحالة إنتاج هذه النتائج بواسطة الغش في الشروط التي حصلت فيها.

١٥- وقال الأستاذ «كروكس» أحد رؤساء جمعية العلماء الإنكليزية: أنا أقول بغاية البساطة كل ما رأيته، وكل ما ثبت لي بالتجارب المتكررة المتدققة — وأنا لا أقول: أن هذا ممكن، ولكني أقول أنه ثابت محقق.

١٦- وقال العلامة الفسيولوجي «ولاس» مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي مع دارون في كتابه المسمي «خوارق العصر الحالي»: لقد كنت دهريا صرفا مقتنعاً بمذهبي تمام الاقتناع، ولم يكن في ذهني أدني محل للتصديق بحياة روحية ولا بوجود عامل في هذا الكون كله غير المادة وقوتها، ولكني رأيت أن المشاهدات الحسية لا تغالب، فإنها قهرتني وأجبرتني على اعتبارها أشياء مثبتة قبل أن اعتقد نسبتها إلى الأرواح بمدة طويلة، ثم أخذت هذه المشاهدات مكانا من عقلي شيئا فشيئا، ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ولكن بتأثير

المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضا بطريقة لا يمكن التخلص منها بوسيلة أخرى «أي بغير نسبتها إلى الأرواح».

١٧- وقال الأستاذ «اليوت» رئيس جمعية العلماء الأمريكية في مجلة «انال بسيشك» ما يأتي: منذ مدة وجيزة كان يشق على الأمر كلما افتكر في أنني سأكون كاتبا لتاريخ مثل هذا «تاريخ مشاهدات الاسبيرتزم» ولكني أراني لا أستطيع أن أخون اعتقادي بدون أن أهبط من كمالي العقلي، ولا يمكنني السكوت أمام هذه المشاهدات الحقة، لئلا أنسب للجبن الأدبي.

١٨- ومن ضمن مشهوري أنصار هذا المذهب الأستاذ «تسولنر» الفلكي الألماني الشهير المعدود نادرة الزمان في الذكاء، اعتني هذا العلامة بالبحث فيه ومعه الأساتذة الألمانيون المشهورون:

١٩- «ويبر».

٢٠- «فيشنر».

٢١- «شيبنر».

٢٢- «التريسي».

٢٣- «ويندت».

٢٤- وكان الواسطة معهم «سلاد» المشهور. بعد شدة البحث والتدقيق اعتقد هو ورفاقه صحة الاسبرتزم كما اعتقدها ألوف غيره من العلماء، ولم يكد ينتشر اعتقاده بذلك المذهب حتى تصدى له الأساتذة:

٢٥- «فيرخو».

٢٦- «هلمولنز».

٢٧- «هيكسل» ونشروا في بعض الجرائد العلمية أن الأستاذ زولنر قد انخدع وانغش، وكادوا يؤثرون على مقامه العلمي تأثيراً سيئاً فبرز إليهم «زولنر» ودعاهم لمناظرته، ثم نشر كتابه المسمي «أوراق علمية» أثبت فيه بغاية الوضوح والدقة ما رآه هو ورفاقه من المشاهدات الحسية، فلم يسع أولئك الأساتذة إلا السكوت والانهزام أمام تلك الحجج الناطقة.

٢٨- وكتب الأستاذ «شارل فوفتي» في كتابه المسمي «الوحي الجديد - الحياة» يقول: لما فقد الفكر قدرته على التصديق بوجود الأرواح، صارت الحياة الأدبية مهددة بالزوال، وأحس المجتمع الإنساني من نفسه بأنه قد دخل في دور الفتن والانحلال الذي يجب أن يعقبه الخراب التام، ولكن لما أشرقت في الأذهان هذه الفكرة الجديدة «الاسبرتزم» وإن لم تكن بينة الحدود الآن – أحست النفوس بقرب حدوث تغير جديد في الأفكار، في المؤتمر الاسبيرتي العام الذي انعقد في لندن ٢٢ يونيه ١٨٩٨ قام العلامة.

٢٩- «دوروشاس» وتلا مقالة عنوانها «حدود الطبيعة» جاء منها «والحاصل فإن هذه المشاهدات الخارقة للعادة، والتي يغضب النطق بها رجالا يحسبون أنفسهم علماء ببحثهم الكثير أو القليل في بعض الفروع العلمية، ليست هي بالنسبة لنا إلا امتدادا للمشاهدات التي رأيناها بأنفسنا، وصار الشك فيها من قبيل المستحيلات».

وقام الأستاذ «لودج» الرياضي الشهير الذي يفخر به الإنكليز في مؤتمر جمعية تقدم العلوم الإنكليزية الذي انعقد في سنة ١٨٩١ وتلا مقالة كان لها تأثير عظيم في العالم كله، قال منها مشيرا للاسبيرتزم: إن الحد الفاصل بين العالمين المادي والروحاني قد قرب أن ينهار كما انهارت فواصل كثيرة غيره، وبهذا سنصل إلى إدراك سام على وحدة الطبيعة، وأن الأشياء الممكنة لا حد لها، كما أن الوجود نفسه لا غاية له ولا نهاية، وأن الذي نعلمه الآن منه لا يساوي شيئا بالنسبة لما غاب عنا علمه، ولو اكتفينا بما كشفناه للآن واقتنعنا به، نكون قد خنا أقدس الواجبات العلمية.

اجتمع في سنة ١٨٩٣ عند الأستاذ:

٣٠- «فنزي» في ميلان الأساتذة:

٣١- «الكسندر اكزاكوف» مستشار القيصر الروسي ومدير مجلة «بسيشيش ستوديان».

٣٢- والأستاذ «جيوفاني» مدير مرصد ميلان الفلكي.

٣٣- والدكتور الألماني الطائر الصيت «كارل دوبرل».

٣٤- والأستاذ «انجلو بروفيربو».

٣٥- والأستاذ «جيوزب جيروزل» مدرس الطبيعيات في مدرسة «بورتيسي» العليا.

٣٦- والأستاذ الشهير «شارل ريشه» المدرس بمدرسة الطب، ومدير المجلة العلمية.

٣٧- والأستاذ «لومبروزو» أجتمع كل هؤلاء العلماء، وفحصوا المشاهدات الاسبيرتية في سبعة عشر مجلسا، وكانت الواسطة «مدام أوزانيا بلادينو» فكتبوا تقريرا، وقع برمته في مجلد سنة ١٨٩٣ من المجلة الروحية، وفيه يشهدون علنا أمام العالم بأن كل ما شاهدوه من الخوارق لا غش ولا تدليس فيه، وأن هذه المشاهدات جديرة بالدخول في سلك المسائل العلمية.

تقدم قبل بضع صفحات أن الأستاذين «هيزلوب» و «هودسن» وعدا بأن يكشفا اللثام عن معتقدهما في الاسبيرتزم ويثبتا للعالم ببراهين دامغة خلود الروح ففعل كلاهما ما وعد به. وابتدأ الأستاذ «هيزلوب» فسرد مشاهداته المدققة وختمها بهذه العبارة: لا يمكن تفسير هذه المشاهدات بغير الاسبرتزم. أي بغير نسبتها إلى أرواح الموتى.

أما الدكتور «هودسن» فقد كتب تقريره في الجزء ٢٢ من نشرة جمعية الأبحاث النفسية الإنجليزية نقتطف منه ما يأتي مترجما عن اللغة الفرنسية. قال في صحيفة ٣٩٦: لقد جربت «التلباتيا» بين الأحياء مدة سنين عديدة، وها أنا لا أتأخر عن التأكيد بطريقة مدققة، بأن الفرض الاسبريتي «أي كون هذه المشاهدات منسوبة للأرواح» حق لا شبهة فيه، وتدل عليه نتائجه بخلاف الفرض الأول.

وجاء في صحيفة ٤٠٥ إن وضوح هذه المسائل هذا الوضوح التام قد أزال عني كل ما كان يصرفني عن التصديق بأن هذه الظواهر نتيجة أفعال الموتي.

وجاء في صحيفة ٤٠٦: لأن لا يمكنني أن أقول بأن لدي أدني شك أو ارتياب في أن المرائي المهمة التي تكلمت عنها في الصحائف المتقدمة، هي حقيقة عين الأشخاص الذين تدعي هي أنها هم، وأنهم لم يزالوا أحياء بعد تلك الاستحالة التي نسميها نحن الموت، وأنهم بواسطة جسم مدام «بيبر» المتشنجة يتعرفون مباشرة إلينا نحن الذين نسمي أنفسنا أحياء.

٣٩- أما الدكتور «جيبيه» المؤلف الفرنسي الطائر الصيت، ومعتمد الأستاذ «باستور» في مكتشفاته البديعة، حبب إليه البحث في الاسبرتزم منذ زمان طويل. وله في هذه المسألة كتابان جليلان جدا، أحدهما اسمه «الاسبرتزم» والآخر اسمه «تحليل الأشياء» ظهر الأول في سنة ١٨٨٦ والثاني في سنة ١٨٩٠.

أخذ هذا الدكتور في فحص الاسبرتزم مدة ثلاثين سنة، فدقق النظر فيه، وجرب بنفسه تجارب يقصر عنها من لم يكن على شاكلته، ثم ألف كتابيه المذكورين على التعاقب، فيري المطالع لهما أنه لم يصل إلى نتيجته الأخيرة إلا بعد تردد عظيم من كثرة تشككه ودقة نظره.

فإذا تصفحت كتابه المطبوع في سنة ١٨٨٦ تجد أنه لم يكن لذلك الوقت حاصلا على البرهان القاطع بخلود الروح، ولو كان فكره «المادي» قد تحول عن مركزه تماما. فإنه قال في آخر مقدمته: لنعلن على رؤوس الأشهاد بأننا أول ما بدأنا درس هذه المباحث النفسية، كنا نعتقد من صميم فؤادنا بأننا أمام عالم من خيالات وأباطيل يجب علينا كشف الستار عنها وفضحها. وقد صرفنا كثيرا من الزمن للتخلص من هذه الفكرة «أي فكرة كونها خيالات وأباطيل».

ولكنه مع اعترافه، بأن مشاهدات الاسبرتزم ليست بخيالات ولا أباطيل لم يحصل على البرهان القاطع بخلود الروح، لأنه ختم عبارته بقوله: فلنصرح إذن بفكرنا ونقول: كلا، إن كل هذه الظواهر المدهشة التي لا يمكن تفسيرها بمقارنتها بالشيء القليل الذي نعلمه لا تثبت لنا بطريقة مطلقة أن الموت يهب الحرية للذات الإنسانية المدركة الباقية.

ولكنه لم يجبن أمام صعوبات هذا البحث، ولم يكتف بهذا الموقف المشكك، بل مشى للأمام بقدم الشجاع الثابت الجأش، ثم كتب بعد أربع سنوات كتابه الجليل المسمي «تحليل الأشياء» فصرح فيه بعقيدته حيث قال: في جلسات التجسد «أي التي تتجسد الأرواح فيها، وتظهر في جسم يلمس ويحس» يمكن لكل إنسان أن يري شخصا من أسرته قد مات منذ زمان بعيد أو قريب، فيظهر له عيانا ويكلمه.

نعم يكلمك بسريرته الخاصة التي لا يعلمها غيرك، وترى أن صورته لم تتغير ولم تتبدل، وأن له قلبا يخفق، ويمكن أن تأخذ صورته الفوتوغرافية، ويترك لك شكل يده، بل وشكل رأسه بالجبس، كل هذه الأشياء الفوتوغرافية والجبسية تبقي لك برهانا محسوسا دامغا على أنك لم تر ذلك في الحلم، بل يقظة.

ولنضف لك هنا أن هذا التسجيل يحصل بواسطة الأرواح العاملة على قوة الواسطة المستعارة منها. فثبت من هنا لدي العلماء الذين رأوا هذه الآثار الخارجية الحاصلة بحضور

الواسطة، بأن هذه المرئيات تحتوى على البرهان المفحم الذي لا نتحصل علي مثله قط، بأن لنا روحاً مدركة ومتميزة ومخلدة بعد الموت.

بعد الموت يجد الإنسان نفسه في عالم أسميه «ما بعد الحياة» في حالة ليست في الحقيقة إلا ذاته الكاملة. أما هذه الحالة التي يعيش فيها الآن فليست إلا حالة وقتية ولا أقول بدون فائدة.

وإذا أراد المطالع أن يتحقق من صدق هذه المشاهدات بنفسه، فإنه سيقتنع بسرعة، بأني لم أبالغ فيما قلته وأنه سيري اعتقاده يقوي ويشتد على قدر ما تكون أبحاثه حازمة ومتكررة، ولو كانت هذه المرئيات باطلة لحصل عكس ذلك.

**توضيحات لما تقدم:**

نقلت ما تقدم من دائرة المعارف، وقرأته مرارا فرأيته واضحاً لا يحتاج إلى شرح إلا قول الدكتور جيبيه في كتابه الأول «الاسبرتزم»: إن الموت يهب الحرية للذات الإنسانية المدركة الباقية اهـ. يعني أن الدكتور جيبيه لم يحصل على نتيجة تامة عندما ألف كتابه «الاسبرتزم» ولم يقم عنده البرهان القاطع على الموت يعطي الحرية الذات الباقية المدركة.

فإن قلت: كيف يتصور أن الموت يعطي الإنسان شيئا، والذي يظهر لنا أنه يسلبه كل شيء، فالجواب: إذا كانت الروح مستقلة بوجودها قبل الموت وبعده وخالدة لا تفني يمكننا أن نتصور أن الإنسان في حال حياته يكون في أسر وقيود ترابية منها حاجته إلى المعيشة إلى المكان والزمان والغذاء، ومنها خوفه على حياته وعلى جسمه من المرض والموت والمصائب التي تنغص عليه عيشه، فإذا مات تحرر من تلك المخاوف كلها.

ثم إن كثافة الجسم الترابي تضيق معلوماته، وتصعب عليه فهم الحقائق، حتى إذا تخلصت الروح من الجسم الترابي يعود لها صفاؤها، وتدرك حقائق المعلومات بدون تعب، ويكون اتصالها بخالقها، وبالعالم العلوي تاما، وترتفع عنها الحجب، وانشد علماء الزهد في هذا المعني:

| | |
|---|---|
| **سبيت الوري طراً وأنت محجب** | **فكيف بمن يهواك إن زالت الحجب** |
| **وأصبحت محبوب القلوب بأسرها** | **ولا ذرة في الكون إلا لها قلب** |

وقد أثبت الدكتور جيبيه بعد دراسة أربع سنين أخرى أن الموت يهب تلك الحرية للإنسان على أكمل وجه كما رأيت.

قال المحقق نعمان خير الدين، الشهير بابن الألوسي البغدادي في كتابه «جلاء العينين، في محاكمة الأحمدين» ص ١٤٨.

اختلف الناس أيضا في الروح: هل تموت أم لا؟ فذهب طائفة إلى أنها تموت، لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت، وإذا كانت الملائكة يموتون، فالأرواح البشرية أولى.

وقالت طائفة: إنها لا تموت، للأحاديث الدالة على نعيمها وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله تعالى إلى الجسد.

قال في روح المعاني: والصواب أن يقال: موت الروح هو مفارقتها الجسد، فإن أريد بموتها هذا القدر، فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل فهي لا تموت، بل تبقي مفارقة ما شاء الله تعالى، ثم تعود إلى الجسد وتبقي معه في نعيم أو عذاب أبد الأبدين. اهـ.

وللروح معان آخر، ليس هذا موضع ذكرها، من أرادها فليرجع إلى كتب التفسير. والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.اهـ.

وقد أجاد الرئيس أبو على ابن سينا عميد فلاسفة الإسلام في قصيدته العينية فوصف الروح وصفا دقيقا جدا بطريق الإشارة. انقل هنا بعض أبياتها. قال رحمه الله تعالى:

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقـــاء ذات تعـــزز وتمنـــع
محجوبــة عــن كــل مقلــة عــارف ... وهـــي الـــتي ســـفرت ولم تتبرقـــع
وصــلت علــى كــره إليــك وربمــا ... كرهـــت فراقـــك وهـــي ذات تفجـــع
أنفــت ومــا أنســت فلمــا واصــلت ... ألفـــت مجـــاورة الخـــراب البلقـــع
وأظنهــا نســيت عهــودا بــالحمي ... ومنـــازلا بفراقهـــا لم تقنـــع
حتـــى إذا اتصـــلت بهـــاء هبوطهـــا ... عـــن مـــيم مركزهـــا بـــذات الأجـــرع
علقـــت بهـــا ثـــاء الثقيـــل فأصـــبحت ... بـــين المعـــالم والطلـــول الخضـــع
تبكـــي وقـــد ذكـــرت عهـــودا بـــالحمى ... بمـــدامع تهمـــي ولم تتقطـــع
وتظـــل ســـاجعة علـــى الـــدمن الـــتي ... درســـت بتكـــرار الريـــاح الأربـــع

| | |
|---|---|
| إذا عاقهـا الشـرك الكثيـف فصـدها | نقـص عـن الأوج الفسـيح المربـع |
| حتـى إذا قـرب المسـير عـن الحمـى | ودنـا الرحيـل إلى الفضـاء الأوسـع |
| سجعت وقـد كشـف الغطاء فأبصـرت | مـا لـيس يـدرك بـالعيون الهجـع |
| وغـدت تغـرد فـوق ذروة شـاهق | والعلـم يرفـع كـل مـن لم يرفـع |

وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ : «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه** – فقالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت، قال: **ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه**».

قال تعالى في سورة فصلت ٣٠-٣٢: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

قال أئمة التفسير في قوله تعالى، قالوا ربنا الله، أي وحدوه في ربوبيته وعبادته، ودعائه، والرغبة إليه والرهبة منه، والالتجاء إليه وحده لا شريك له في تفريج الكربات وقضاء الحاجات. ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ على طاعته وإتباع سنة رسوله ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ عند موتهم يبشرونهم قائلين لا تخافوا مما تقدمون عليه، فإنكم مقدمون على سعادة لا حد لها ﴿ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ على ما خلفتم من أهل، فالله يخلفكم فيهم ﴿ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في كتاب الله وعلى لسان رسوله ﷺ: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ معناه أن الملائكة لم يزالوا مع المؤمنين في حياته الدنيا يثبتونه ويستغفرون له، ولن يزالوا معه بعد موته يؤنسونه، غير أنه لا يراهم إلا عند خروج روحه حين يتغلب سلطان الروح على الجسد. أما بعد الموت فإنه يشاهدهم عيانا دائماً ﴿ وَلَكُمْ ﴾ في الآخرة كل ما تشتهي أنفسكم، وكل ما تريدونه إكراماً وضيافة من رب عظيم المغفرة وواسع الرحمة. انتهي تفسير الآية.

وهذا برهان قاطع على بقاء الروح ونعيمها وسعادتها بعد الموت كما قرره أولئك الفلاسفة، وقال تعالى في سورة الواقعة ٨٣-٩٥: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ

إن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾.

يقول الله تعالى: فلولا، أي هلا إذا بلغت الحلقوم، أي الروح المفهومة من السياق وأنتم أيها الحاضرون عند الميت تنظرون إليه ولا تدركون حقيقة أمره. ونحن أقرب إليه بعلمنا منكم. لكن لا تبصرون. كما قال تعالى في سورة الأنعام ١٠٣: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فيراه المؤمنون في دار الكرامة بأبصارهم كما يرون القمر ليلة البدر، صحت الأخبار بذلك.

فلولا، هلا، إن كنتم غير مدينين محكومين ومجزيين — كما تزعمون أيها الكفرة، ترجعونها، أي تردون الروح وتدفعون عنها الموت، إن كنتم صادقين في زعمكم أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا حياة بعد الموت. فأما إن كان، أي الميت من المقربين أي السابقين من الأصناف الثلاثة المذكورة في أول السورة، فروح، أي فله راحة، وريحان، أي رزق كريم، وجنة نعيم، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وأما إن كان الميت من أصحاب اليمين فسلام لك أيها المخاطب من أصحاب اليمين، أي سلامة لهم، أو سلام يصلك منهم، أو ناهيك بما هم فيه من الكرامة كما يقال بالعامية: يا سلام عليه .. وأما إن كان من المكذبين لله ولرسله الجاحدين ربوبيته أو ألهيته، أو إرسال رسله إلى خلقه، فنزل من حميم، أي فلهم ضيافة من الماء الحميم البالغ درجة الغليان. وتصلية جحيم، أي إحراق بنار جهنم، إن هذا الذي ذكر لهو حق اليقين، أي اليقين الحق الذي لاشك فيه.

وقد تبين الآن أن الروح بعد الموت باقية خالدة، إما في نعيم، وإما في جحيم، وفي القرآن آيات كثيرة تدل على هذا المعني. وقد توصل الفلاسفة بطرقهم الخاصة إلى بقاء الروح وخلودها بعد الموت ، ولكن ما توصلوا إليه بالنسبة إلى ما جاء به رسل الله نقطة في بحر. فالحمد لله الذي أحق الحق وأزهق الباطل ولو كره المجرمون، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.



## مسائل فلامريون الأربع التي أثبتها في عالم الأرواح

ذكرت فيما مضى أقوال طائفة كبيرة من علماء أوربا وأمريكا جماعات وأفرادا، كلهم أطالوا البحث والتنقيب في العالمين المادي والروحي، وانتهت مباحثهم بنتيجة واحدة، لا يختلفون فيها، وهي أن هناك عالمين، عالم الغيب وعالم الشهادة، وبعبارة أخرى عالم المادة وعالم الروح. ونتائج البحوث الباهرة أرغمت أشد الماديين عناداً أن يؤمن بعالم الروح، وبخالق جميع العوالم وفي هذه الحلقة أضيف إلى ما تقدم مباحث أخرى ونتائجها مما تقر به عين المؤمن المخلص، والباحث المنصف، وتسخن به عين المكابر المتعسف.

قال الأستاذ فريد وجدي: من بين الدافعين في صدر الإلحاد في أوربا والطاعنين كبده العلامة الفلكي الطبيعي الشهير كامل فلامريون، فإن كتبه في هذه المواضيع أشهر من أن تذكر، من بينها كتاب نشره تحت عنوان (المجهول والمسائل الروحية) بمجرد ما طبع هذا الكتاب أكب الناس على مطالعته حتى توالت منه عدة طبعات في أيام معدودة، لأن الكاتب عالم طبيعي من الطبقة الأولى وفيلسوف حسي، شديد العارضة فما زال في كتابه يحاكم المشاهدات ويقارن أحوالها المختلفة، ويردها إلى القوانين والنواميس المعروفة، حتى اتضح له صحة أربع نظريات وضوحا محسوسا أتي بها في كتابه نتائج لمقدماته السابقة، تلك النظريات هي:

١- الروح، موجودة وجود كائن مستقل عن الجسم.

٢- وهي متمتعة بخصائص لم تزل للآن مجهولة لدى العلم.

٣- يمكن الروح أن تؤثر أو تتأثر من بعد بدون إعانة الحواس.

٤- المستقبل مقدر من قبل وقوعه ومحدد بأسباب ستحدثه فيما بعد، فالروح قد تدرك هذا القدر قبل وقوعه أحياناً.

هذه هي النظريات الأربع التي برهن الأستاذ الفرنسي على حقيقتها ببراهين حسنة مهمة. ومن ضمن ما طالعناه في ذلك الكتاب قوله في ص ٢٤٦ (الإنسان مسوق بطبعه لإنكار كل ما يظهر أنه مشكوك فيه، وكل ما لا يعلمه وما لا يستطيع أن يفهمه، فإننا إذا قرأنا فيما كتبه (هيرودوت) أو (بلين) أن امرأة كان لها ثدي في فخذها الأيسر، وكانت

تغذي ولدها منه، نضحك ونستهزئ، ومع ذلك، فإن مثل هذه المشاهدات قد تقررت صحتها في جمعية العلماء الفرنسية في باريس بجلستها المنعقدة في ٢٥ يونيو سنة ١٨٢٧ وإن أخبرنا مخبر بأن رجلا وجد في أحشائه ولد بعد تشريحه، وأن هذا الولد كان توأما لذلك الرجل ومحبوساً في جثمانه، وأنه قد شاخ فيه والتحي، فإنا نعتبر هذا خرافة محضة مع أننا قد شاهدنا بأنفسنا من مدة ليست ببعيدة مولودا ولد ميتا، وله من العمر (٥٦) سنة.

قال أحد مترجمي كتب (هيرودورت) إن زعمهم أن روكسان (امرأة الإسكندر) ولدت طفلا بغير رأس يعد من الأشياء المنافية للعقل التي نتيجتها أن تهبط من شرف كيزياس (مؤرخ يوناني) ومع ذلك، فإن جميع النواميس الطبيعية في هذا العصر تثبت الأطفال الذين يولدون بغير رؤوس.

كل هذه الأمثلة وكثير غيرها تدعونا إلى الاحتياط والتبصر، فإن الذين ينكرون الأشياء بدون تحفظ هم الأغبياء الجاهلون. وقد يمكننا أن نكثر من هذه الأمثلة، ولكن رأينا أن ذلك غير مفيد لقرائنا الأفاضل، فلنكتف بقوله: إن المشاهدات التي (....)[1] هي مطابقة للأسلوب التجريبي نفسه تمام المطابقة.

نقول هذا كله يدل على أن في الوجود حركة اعتقادية مهمة جداً ستؤدي إلى نتيجة غير منتظر تحقيقا لوعد الله ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

سبحانك اللهم ما أكبر سلطانك. إن هؤلاء الرجالات العظام الذين نقلنا أقاويلهم في مكالمة الأرواح. لو قيل لأحدهم قبل ردح من الزمان قصير. إن له روحا لضحك من عقل مخاطبه واستهزأ به، وعده واحدا من المتأخرين في العلم، ولأبى أن يحاوره في هذه المسألة إلا بالنكتة اللطيفة تمضية للوقت. لكن انظر هم الآن تجدهم يثبتون لك ما يترفع أن يقوله أحد جهلة الشرقيين، ويمضي أحدهم ثلاثين سنة من عمره في بحث واستحضار وأخذ ورد، ثم يؤلف كتابا عقب ذلك يقر فيه أمام الملأ أنه كان ماديا كافرا فأصبح الآن بفضل الاسبرتزم روحياً مؤمناً، ثم ينبري للطعن فيما كان يقول به بالأمس طعن المنتصر للحق على الباطل، والمغلب للفضائل على الرذائل أليس هذا بعجيب.

---

( ١ ) غير واضح في الأصل.

نعم جلت رحمة ربي وعظمت حكمته، كم له في تأديب البشر من وسائل، وفي كبح عرامهم من ذرائع لو تدبرها الإنسان لرأي بعين بصيرته يد العناية الرحمانية ترفع الإنسان مما يرتطم فيه من مهاوي سقطاته، وتقيمه على نهج السبيل ووضح المحجة.

تخيل قوما رأوا ما وقع فيه الأقدمون من الخيالات وما حملوه عواتقهم من الأوهام وما استلزم ذلك من بعدهم عن الحقيقة التي هي ضالة الإنسانية، وما استدعاه من عشوتهم عن تنور الظواهر الجلية لما ران على ألبابهم من تلك القواعد الاعتقادية، قلنا تخيل قوما رأوا ذلك بأعينهم ثم انظر كيف يكون مبلغ كراهيتهم لبنات الأفكار التي لا يؤيدها من الواقع دليل ولا يعززها من الحس برهان. قالوا، ماذا يفيد الدليل والبرهان إن كانا عقليين، وقد ثبت أن مدارك العقل كثيرا ما تحيد عن الجادة وتلقي بالإنسان إلى متائه من الأضاليل لا يميز فيها بين الحقائق والأباطيل، ما الذي أوقع الأقدمين في أوهام الخرافات فحرموا بذلك أنفسهم أنوار العرفان؟ ما الذي دهورهم في تيهور المدركات السافلة، والتصورات النازلة، فسدوا دونهم طريق الحقيقة التي هي الغاية لمحاولات الإنسان؟ أليس لأنهم أطلقوا لأفكارهم عنان الجولان، ولعقولهم حرية الجزم في الأحكام؟ أليس لأنهم عموا عما يتنازع الوجدان من المؤثرات، وما يتقاسمه من الأعراض التي تجعله في واد والحقيقة في واد.

ثم قالوا إذا كان الأمر كذلك ، وكان محض الدليل العقلي غير كاف في إثبات شيء أو نفيه، فلا سبيل إلى معرفة الحقيقة الصحيحة إلا إذا سندها من الحس دعامة ركينة، وكان لها من الواقع شهادة قوية. فهم إذن لا يسلمون بغير امتحان، ولا يخضعون لغير المحسوسات وينبذون كل بحث يتعلق بمنشأ الوجود ومصير الإنسان كما نقلنا ذلك في الفصل السابق عن أحد زعمائهم الأستاذ (ليتريه). وعليه فمدار فلسفتهم على العلوم الحقيقية التي موضوعها الموجودات والنواميس التي تتسلط عليها. فقسموا العلوم إلى ستة أقسام، الفلك والطبيعيات، والكيمياء والرياضيات، وعلم الحياة والهيأة الاجتماعية. وقالوا، إن العلوم سلسلة مؤلفة من حلقات، متصلة بعضها ببعض ، لا تدرك الواحدة حتى تدرك ما قبلها من الحلقات وأولها الرياضيات، ثم ذهبوا إلى أن المعارف تقطع في ارتقائها ثلاثة أدوار مهمة. الأول الدور الديني، الثاني دور ما فوق الطبيعة، الثالث دور العلوم الحسية، وهو دور الإنسان الحالي.

قل لي بربك إذا كان هؤلاء لا يريدون أن يعتقدوا وجود أصل من الأصول، أو حقيقة نظرية من النظريات إلا إذا كان لمشاعرهم الظاهرة سلطان على تحقيقها، فكيف يمكنك مهما أوتيت من مواهب الجدل ودقة التعبير وحسن صياغة البراهين أن تثبت لأحدهم أن له روحا، وأنه سيحيا بعد أن يموت في عالم غير هذا العالم؟ وكيف تستطيع مهما كنت بليغاً أن تقنع أحدهم بوجود عوالم نورانية كعالم الملائكة وأشياء أخرى وراء ما ندركه بمشاعرنا الغليظة ما دام لا يريد أن يصدق بعقله إلا ما إذا لمس بيده؟

عنت الوجوه للحي القيوم، وقد خاب من حمل ظلما، إن الذي خلق الإنسان على هذه الصورة من الطماح الفكري والجماح الحسي لا يعجزه أن يرده إلى العدل كلما جار، ويلفته إلى الهدى كلما ضل، سنة بالغة وحكمة غير متناهية.

إن الذي قال في محكم كتابه ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ يعرف من أين تقتاد العقول المستعصية، وكيف تستلان القلوب القاسية، وبأي وسيلة تلجأ تلك الحياة العالية العاتية إلى السجود والإخبات أمام عظمته وجبروته.

(سبحان ربنا الذي أعطي كل شي خلقه ثم هدى الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا) الذي أمهل هؤلاء الطغاة حتى ملأوا الكون صياحا، واستنفدوا كل وسعهم ومجهودهم في الحملة على العقائد الفطرية حتى ظنوا أنهم ملكوا زمام مشاعر البشر بما شنوه من الشبه والشكوك، وأنهم توصلوا إلى إطفاء نور العقائد من القلوب، ثم أرسل عليهم آية من آيات القهر والجبروت، فقلبت كل ما أقاموه رأسا على عقب، وحولت مجرى أفكارهم دفعة واحدة إلى ما زعموا أنهم أرفع من الخوض فيه، فآبوا إلى عقولهم وحشو أهابهم الندم وّالحسرة على ما غلوا فيه من قبل، وعلموا أن للوجود إلها تعنو له الجباه الشم، وتستخذي أمام عرشه الهمم القعساء، وأن للإنسان روحا ستخرج من الجسد إلى عالم ينتظرها فيه عذاب أليم أو نعيم مقيم.

بالله أي فؤاد لا يمتلئ إيمانا، وأي إحساس بشري لا يتضلع يقينا وثباتا حينما يرى بعينيه أن أساتذة الماديين قاموا يجأرون إلى الله منيبين إليه ملتجئين إلي جنابه مقرين بسابق غلطاتهم، بعد أن كانوا بالأمس، وليس العهد ببعيد يشمخون بأنوفهم كبرا وعتوا، ويتبجحون بأنهم أرفع مقاما من أن يأخذوا بعقيدة من العقائد، وأسمي نفسا من أن

يأسروها لدين من الأديان.

من كان يصدق أن مثل الأستاذ العلامة (روسل ولاس) الإنكليزي، وهو أكبر فسيولوجي في العصر، ومكتشف أعظم نواميس الطبيعة، وهو ناموس الانتخاب الطبيعي، ونده العلامة (داروين) في تأسيس مذهبه الذي كفر الملايين من العالم. قلنا من كان يصدق أن مثل هذا الأستاذ الكبير يرجع بعد تلك الكبرياء فيقول: لقد كنت دهريا صريا مقتنعاً بمذهبي تمام الاقتناع، ولم يكن في ذهني أدني محل للتصديق بحياة روحية، ولا بوجود عامل في هذا الكون كله غير المادة وقوتها، ولكني رأيت أن المشاهدات الحسية لا تغالب، فإنها قد قهرتني وأجبرتني على اعتبارها أشياء محسوسة قبل أن أعتقد روحانيتها بمدة مستطيلة، ثم أخذت هذه المشاهدات مكانًا من عقلي شيئاً فشيئاً، ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية، ولكن بتأثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضا بطريقة لا يمكن التخلص منها بطريقة أخرى (أي بغير نسبتها لأرواح الموتى).

ولقد مر بك من مثل هذه الشهادات ما لا يمكن الزيادة عليه في مثل هذا المختصر وكل تلك الشهادات منسوبة لكبار أساطين العلم ورجال المعارف، فانظر رحمك الله كيف يداوي الله تعالى أمراض القلوب ويعالج جراح العواطف.

لما قام هؤلاء يقولون، نحن لا نصدق إلا ما نحس به، وقالوا ما دام عالم الغيب مستورا عنا، ولا يمكن تحقيقه فهو ليس بموجود إلا في الوهم، وتذرعوا بذلك لإطفاء نور العقائد، فتح الله لهم نافذة صغيرة من نوافذ ذلك العالم المغيب عن المشاعر، وأعطاهم القوة على تحقيقه بالحس والمشاهدة ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ ﴾ كل ذلك رحمة منه تعالى بهذا النوع الإنساني الذي جعله قمة إبداعه وغاية اختراعه. وكم في المستقبل من آيات سيظهرها الله لعباده تحقيقا لوعده ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾.

**اسبرتزم: علم استحضار الأرواح والتحدث معها**

كنت وعدت القراء فيما مضي أن أذكر لهم شيئا من هذا العلم الذي أذعن له كبار علماء أوربا وأمريكا، وتبعهم كثير من الباحثين في البلاد العربية، وألفوا في ذلك كتباً، وذكروا الوقائع التي شاهدوها كالأستاذ محمد فريد وجدى، فإنه ألف كتابا سماه (على أطلال المذهب المادي) ورجال دار الهلال في مصر على ما أذكر، وقد قدمت أن أقوال

أولئك الرجال وبراهينهم حجة قاطعة على كل غراب ناعب من الآسيويين والأفريقيين، إنما يصولون على خصومهم بما يزعمون أنهم أخذوه من علماء أوربا وأمريكا، فإذا رأي القراء الأعزاء أن كبار علماء أوربا وأمريكا على خلاف ما نسبه إليهم أولئك الغربان سقط في أيدي الغربان، واستحقوا الاحتقار، ولا يلزم المحتج عليهم بذلك أن يكون معتقداً له، أو قائلاً به.

وبيان ذلك أن كل من احتج علينا معشر المسلمين بدلائل القرآن أو السنة الصحيحة لزمنا قبول احتجاجه، وإن كان المحتج غير مسلم.

جاء في دائرة المعارف ما نصه: (اسبرتزم) هو فن استحضار أرواح الموتى، يقول أشياعه: أن الحد الفاصل بين الأحياء والأموات ليس على ما يظنه الناس من الخطارة، فإن الموت ليس في ذاته إلا انتقالا من حال مادي جسدي إلى حال مادي آخر، ولكن أرق منه وألطف بكثير، فإنهم يعتقدون أن الروح جسما ماديا شفافا لطيفا ألطف من هذه المادة بكثير، ولذلك لا تسري عليه قوانينها.

ويقولون: إن الموتى بعد الموت مباشرة يكونون في عالمنا هذا بين أيدينا وعن أيماننا وشمائلنا، ولا يزالون كذلك مدة تختلف باختلاف درجتهم الروحية، ثم ينتقلون إلى حال أرقي من هذا، وإن كانوا لا يبرحون هذا العالم، فإن العوالم في نظرهم اختلاف حالات ومقامات لا اختلاف جهات وأمكنه.

ويقولون: إن الروح، وهي في حالها الأول بعد خروجها من الجسد يمكن مكالمتها، بل ورؤيتها مجسمة بواسطة شخص يكون فيه الاستعداد لأن يقع في خدر عام عند إرادته تحضير الروح، فتستفيد الروح من استعداده فتكلم الناس بفمه بلغات يجهلها كل الجهل، وتنبئ عن أمور للحاضرين من أقاربها وخاصتها، لا يدري الواسطة منها شيئا، بل وتكشف من أسرار العلم والفلسفة والرياضيات العويصة ما يجهله الواسطة والسامع، ولا يدركه ممن فوق سطح الأرض إلا نفر يسير، وقد تستولي على يده فتكتب وعيناه مغمضتان صحفا ورسائل.

وقد تظهر بجسم مادي محسوس، على حين يكون الواسطة ملقي أمام المجربين مكتوفا على كرسيه وسبب ربطه هكذا أن الذين يبحثون في هذه الأمور المدهشة من العلماء

ملحدون ماديون لا يعتقدون بشيء، ولأجل أن يثقوا من صدق مشاهداتهم التي تهدم لها كل مقررات فلسفتهم لا يرضون في حالة تجسد الروح إلا أن تكون الغرفة مغلقة والفرش مفتشة، والواسطة مربوطا على كرسيه بأربطة متينة مسمرة أطرافها بالأرض. ولا يكتفون بذلك أيضاً، بل منهم من وضعه في قفص حديدي، ووضع كرسيه على سطح مائي، وأوصل بيده سلكا كهربائياً متصلا بجلوانومتر ليسجل عليه كل حركة وكل نفس، ولم يكتف بذلك، بل أرصد له من يراقبه من أخوانه العلماء. ورغما عن ذلك كله تظهر الروح مجسمة، تبتدئ أولا بشكل سحابة منيرة ثم تأخذ في التشكل شيئا فشيئاً حتى تصير على شكل إنسان منير، ثم تتكاثف حتى تصير دما ولحما وعظما أمام أعينهم، فتقف أمامهم وتطوف حولهم عالية بقدميها عن الأرض قليلا، لابسة هيئة عربية بدوية متمثلة بشرا سويا، ولكن شوهد أن جسمها يكون لينا لدرجة أن الإنسان لو ضغط يدها بين أصبعيه تنبعج يدها بينهما حتى يتلاقيا كأنهما عجين ذو قوام متماسك، ولكن شوهد أن لها نبضا وقلبا وتنفسا وكل ما للجسم الحي.

وحين تسأل من أين لها هذا الجسد نقول: إنها استعارته من جسم الواسطة وفي الواقع إذا وزنت الواسطة وجدت أن جسمها قد نقص وزنه، وقد شوهد أن الجزء الأسفل من الواسطة تلاشي بالمرة وصار لا وجود له، فلما ذهبت الروح عاد إليها.

هذه الأمور جربت في كل عاصمة وتولي شأنها العلماء الأعلام من كل قبيل فلم تزد على مر الأيام إلا انتشارا وثبوتاً، وقد بلغ عدد أشياعها كما روته مجلة المجلات الفرنسية نقلا عن الأستاذ (روسل ولاس) أكبر الفزيولوجيين الإنكليز إلى عشرين مليونا.

**تعليقات**

١- قول كامل فلامريون في الروح: وهي متمتعة بخصائص لم تزل للآن مجهولة لدي العلم: يتلقاه المسلم بالترحيب والإجلال والاغتباط، لأنه تفسير لقوله تعالى في سورة الإسراء ٨٥: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

قال الإمام ابن حزم في كتابه (الملل والنحل) بعد سرد مذاهب شتي: وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرة بالمعاد إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان، عاقلة مميزة مصرفة للجسد. قال: وبهذا نقول. والنفس والروح اسمان لمسمي واحد، ومعناهما واحد.

ثم قال: وأما من ذهب إلى أن النفس ليست جسما فقول يبطل بالقرآن والسنة، وإجماع الأمة. فأما القرآن فإن الله عز وجل قال: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ فصح أن النفس هي الفعالة الكاسبة المجزية المخطئة، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فصح أن الأنفس منها ما يعرض على النار قبل يوم القيامة فيعذب، ومنها ما يرزق وينعم فرحا، ويكون مسرورا قبل يوم القيامة.

ولاشك أن أجساد آل فرعون وأجساد المقتولين في سبيل الله، قد تقطعت أوصالها وأكلها السباع والطير وحيوان الماء، فصح أن الأنفس منقولة من مكان إلى مكان، ولاشك في أن العرض لا يلقي العذاب ولا يحس، فليست عرضا. وصح أنها تنتقل في الأماكن قائمة بنفسها، وهذه صفة الجسم لا صفة الجوهر عند القائل به، فصح ضرورة أنها جسم.

وأما من السنن فقول النبي ﷺ : «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنة» فصح أن الأنفس مرئية في أماكنها، وقوله عليه السلام: «إن نفس المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى السماء وفعل بها كذا. ونفس الكافر إذا قبضت فعل بها كذا». فصح أنها معذبة ومنعمة ومنقولة في الأماكن، وهذه صفة الأجسام ضرورة.

وأما من الإجماع، فلا اختلاف بين أحد من أهل الإسلام في أن أنفس العباد منقولة بعد خروجها من الأجساد، إلى نعيم أو إلى صنوف ضيق وعذاب. وهذه صفة الأجسام، ثم قال: ومعني قول الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ إنما هو لأن الجسد مخلوق من تراب، ثم من نطفة ، ثم من علقة، ثم من مضغة ، ثم عظما، ثم لحما، ثم أمشاجا. وليس الروح كذلك. وإنما قال الله تعالى أمرا له بالكون (كن فيكون) فصح أن النفس والروح والنسمة أسماء مترادفة لمعني واحد، وقد يقع الروح أيضا على غير هذا. فجبريل عليه السلام الروح الأمين، والقرآن روح من عند الله.

ثم قال ابن حزم أيضاً: صح أن الله عز وجل خلق الأرواح جملة، وهي الأنفس، وكذلك أخبر عليه السلام: «أن الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» وهي العاقلة الحساسة. اهـ.

وقال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في تفسير سورة الإخلاص بعد أن ذكر نزاع المتكلمين المتفلسفة في الملائكة هل هي متحيزة أم لا؟ وكذلك نزاعهم في روح الإنسان التي تفارقه بالموت، على قول الجمهور الذين يقولون: هي عين قائمة بنفسها ليست عرضا من أعراض البدن كالحيوان وغيرها. ولا جزءا من أجزاء البدن كالهواء الخارج منه، فإن كثيرا من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن، أو جزء من أجزاء البدن. لكن هذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والخلف. ولقول جماهير العقلاء من جميع الأمم ومخالف للأدلة، وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام. اهـ.

قال أبو المعالي: إن الروح أجسام لطيفة مشابكة للأجسام محسوسة. أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابكتها لها. فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة في استمرار المادة. ومذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر سلف الأمة وأئمة السنة، أن الروح عين قائمة بنفسها تفارق البدن، وتنعم وتعذب، وليست هي البدن ولا جزءا من أجزائه كالنفس المذكور. اهـ

وأقوال علماء الإسلام وفلاسفته في مباحث الروح كثيرة. وقد ألف فيها الإمام شمس الدين محمد بن قيم الجوزية مجلدا وهو مطبوع. وفيما ذكرته ما يدل بغاية الوضوح على أن ما توصل إليه فلاسفة أوربا وأمريكا في القرن التاسع عشر بتاريخ النصارى بتجاربهم المكتسبة ممن تقدمهم، ومعلوماتهم الخاصة التي أفنوا فيها أعمارهم هو عين ما توصل إليه فلاسفة الإسلام بأفكارهم الثاقبة، وتحقيقاتهم البالغة، مع زيادة تفصيل عند الأوربيين والأمريكيين، يخرج المطلع عليه من دائرة المعقولات إلى دائرة المحسات التي لا تمكن المكابرة معها. أفلا يحق للمسلم الحنيف المتمسك بدينه أن يفتخر بأولئك الأقطاب الذين سبقوا الزمن، ووصلت أفكارهم إلى حقائق لم يكتشفها العلم الحديث إلا بعد مئات السنين مضت على وفاتهم.

**أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع**

فهل بقي للضفادع البشرية التي تنق بالهذيان، والقرة الحاكية التي تقلد الإنسان، هل بقي لهم في مسألة وجود عالم الروح ما يهرفون به، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولهم الويل مما يصفون.

**اعتراض وجوابه:**

جاءني أحد الإخوان فأخبرني أن معلما في المدارس الابتدائية في وجدة قال له: إن الدكتور الهلالي يأتي بالمتناقضات، فبينما نراه يثبت كرامات الأولياء في الخوارق التي سردها في مجلة «دعوة الحق» في استحضار الأرواح، نراه في دروسه يقول: لا ينفع إلا الله ولا يضر إلا الله، ولا يتصرف في العالم إلا الله، وهذا إنكار لتصرف الأولياء وكراماتهم، فقال له الأخ المذكور: أتقرأ القرآن، قال: نعم. وأحفظه عن ظهر قلب، قال: فهل قرأت قوله تعالى في سورة الأعراف ١٨٨: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

قال: أعرف هذه الآية، ومع ذلك اعتقد أن النبي ﷺ ينفع ويضر، وأن الأولياء يتصرفون في العالم والرد على ذلك من وجوه:

الأول: أن هذا المعترض يجهل توحيد الربوبية الذي كان يعترف به المشركون الذين قاتلهم رسول الله ﷺ، قال تعالى في سورة العنكبوت ٦١-٦٣: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

قال الإمام ابن كثير في تفسيره: يقول تعالى مقررا أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض، والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم، ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلا منهم. ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك، فلم يعبد غيره، ولم يتوكل على غيره. فكما أن الواحد في ملكه، فليكن الواحد في عبادته، وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية وقد كان المشركون

يعترفون بذلك كما كانوا يقولون في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك).

قال القاسمي في تفسيرة آية الأعراف: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا ﴾ أي لا أقدر لأجل نفسي على جلب نفع ما، ولا على دفع ضر ما ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ أي تمليكه لي من ذلك بأن يلهمنيه فيمكنني منه ويقدرني عليه. وهذا كقوله تعالى في سورة يونس ٤٨-٤٩: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ ﴾ ﴿ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ ﴾ ، أي النفع بترتيب أسبابه، فكنت مثلا أعد للسنة المجدبة من المخصبة، ولوقت الغلاء من الرخص ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ ﴾ أي الضر للتوقي عن أسبابه ﴿ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾ أي عبد أرسلت نذيرا وبشيرا، وما من شأني أن أعلم الغيب. اهـ

وقال تعالى في سورة يونس ٣١-٣٢: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾.

قال القاسمي في تفسيره: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ بالأمطار والإنبات، وهل يمكن إلا ممن له التصرف العام فيها ﴿ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ أي من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة كقوله تعالى في سورة الملك ٢٣: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾.

﴿ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ ﴾ ، يعني النسمة من النطفة، أو الطير من البيضة، أو السنبلة من الحبة ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ ﴾ أي ومن يلي تدبير أمر العالم كله، بيده ملكوت كل شيء، تعميم بعد تخصيص، ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ ﴾ إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه ﴿ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي أفلا تخافون بعد اعترافكم من غضبه لعبادة غيره اتباعاً للهوي.اهـ

وقال تعالى في سورة الأنعام ٥٠: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾.

قال ابن كثير: يقول تعالى لرسوله ﷺ، ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ أي لست أملكها ولا التصرف فيها ﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ أي ولا أقول أني أعلم الغيب، أي ما غاب من علم الله، إنما ذاك من علم الله عز وجل، لا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه، ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ ﴾

أي ولا ادعي أني ملك، إنما أنا بشر من البشر ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ من الله عز وجل شرفني بذلك وأنعم علي به، ولهذا قال: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ أي لست أخرج عنه قيد شبر، ولا أدنى منه. اهـ.

والآيات في هذا المعنى أكثر من أن تحصى فالعجب ممن يحفظ القرآن ولا يعرف معنى لا إله إلا الله، ولو قرأ ترجمة هذه الآيات إنكليزي أو فرنسي لعرف معناها كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون.

الوجه الثاني: ما معنى الأولياء وما معنى كراماتهم؟ قد ذكر الله سبحانه وتعالى في الكتاب العزيز ولايته وأولياءه في مواضع، منها قوله تعالى في سورة البقرة ٢٥٧: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

وقال تعالى في سورة المائدة ٥٥-٥٦: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾. وقال تعالى في سورة الأعراف ١٩٦: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

وقال تعالى في سورة يونس ٦٢-٦٤: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

وقد نظرنا في هذه الآيات وغيرها فعلمنا أن أولياء الله هم الذين يتصفون بالإيمان والتقوى، فكل من تولى الله بأن آمن به وبرسوله ﷺ وبما جاء به واتقى الله بفعل ما أمر به واجتناب ما نهي عنه فهو ولى الله، ومن لم يكن ولي الله فهو عدو الله، ولا يشترط في ولي الله أن يكون معصوما من الذنوب، إلا أنه لا يصر عليها إذا حدثت منه، بل يتوب إلى الله منها.

وقد قرأت في كتب الصوفية أن الجنيد رحمه الله سئل، أيزني الولي؟ فأطرق برأسه ثم رفع رأسه وقال: وكان أمر الله قدرا مقدورا وصدق رحمه الله، فإن ماعزا الصحابي الذي **جاء إلى النبي ﷺ واعترف بالزني وسأل النبي ﷺ أن يقيم عليه الحد، فأقامه عليه، بأن رجم** حتى مات من أولياء الله الصالحين ﷺ.

والمرأة الغامدية التي جاءت إلى النبي ﷺ فاعترفت بالزني مرارًا فأمر النبي ﷺ برجمها فرجمت، وصلى عليها فقال له بعض أصحابه كيف تصلى عليها وقد زنت؟ فقال النبي ﷺ : إنها تابت توبة، لو قسمت على سبعين منكم لغفر الله لهم، أو كما قال، فهي من أولياء الله.

ولا يشترط في الولي أن تجري على يديه خوارق العادات، فإن أكثر أصحاب رسول الله ﷺ وأكثر التابعين والأئمة المجتهدين لم تنقل عنهم خوارق، وهم أفضل أولياء الله، وقد قال النبي ﷺ في فضل السابقين من أصحابه على المتأخرين منهم: «**لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»، يعني: أن السابقين من أصحاب رسول الله ﷺ لهم فضل عظيم على المتأخرين من الصحابة، حتى إن الواحد من المتأخرين لو انفق مثل أحد ذهبا، وهو جبل عظيم بقرب المدينة لا يساوي أجر إنفاقه نصف حفنة مما أنفقه السابقون، هذا في فضل السابقين من الصحابة على اللاحقين فكيف بفضل الصحابة على التابعين؟ فكيف بفضل التابعين على من بعدهم وقد قال النبي ﷺ خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم،

ثم الذين يلونهم، ثم يأتي قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته، يشهدون ولا يستشهدون، ويعدون ولا يوفون، أو كما قال والقرن عند المحققين أربعون سنة فقرن النبي ﷺ ينتهي على رأس سبع وعشرين من الهجرة في خلافة على بن أبي طالب والقرن الثاني ينتهي بنهاية سنة سبع وستين من الهجرة والقرن الثالث ينتهي سنة مائة وسبع من الهجرة، في زمان هشام بن عبد الملك.

الوجه الثالث: أن خوارق العادات تجري على يد الكفار والفساق والصالحين، ولا تعتبر كرامات إلا إذا جرت على أيدي الصالحين المحقق صلاحهم كمريم أم عيسى، وأبي بكر الصديق، وأسيد بن خضير، وغيرهما من الصحابة.

أما مريم، فمن كرامات الله لها أن الله كان يرزقها حين كانت في المحراب بدون سبب ولا اكتساب كما قال تعالى في سورة آل عمران ٣٧: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قال المفسرون: كان زكريا عليه السلام كلما دخل على مريم في محرابها، أي المقصورة التي تتعبد فيها وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، قال:

يا مريم، من أين لك هذا؟ قالت: هو من الله رزقنيه بلا سعي ولا سبب.

ومن كرامات الله لها أنه رزقها ابنا سريا مباركا نبيا رسولا من أولى العزم دون أن يمسها بشر، فجعل ولادته بلا فحل من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته.

ومن كراماته لها أنه أوجد لها رطبا يسقط عليها عند هزها لجذع النخلة، ومن ذلك نطق عيسى ببراءتها وهو في المهد.

ومن كرامات الله لأبي بكر ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي عثمان عن عبد الرحمن بن أبي بكر أن أصحاب الصفة كانوا أناسا فقراء، وأن النبي ﷺ قال: من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، وإن أربع فخامس أو سادس، وإن أبا بكر جاء بثلاثة فأنطلق النبي ﷺ بعشرة، قال: فهو أنا وأبي وأمي — فلا أدري. قال: وامرأتي — وخادم بيننا وبين بيت أبي بكر. وإن أبا بكر تعشي عند النبي ﷺ، ثم لبث حتى صليت العشاء، ثم رجع فلبث حتى تعشى النبي ﷺ فجاء بعد ما مضي من الليل ما شاء الله، قالت له امرأته: وما حبسك عن أضيافك، أو قالت ضيفك؟ قال: أو ما عشيتهم، قالت: أبوا حتى تجيء، قد عرضوا فأبوا، قال: فذهبت أنا فاختبأت فقال: يا غنثر، فجدع وسب وقال: كلوا لا هنيئا، فقال: والله لا أطعمه أبدا، وأيم الله ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها، قال: يعني حتى شبعوا، وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر، فإذا هي كما هي أو أكثر منها فقال لامرأته: يا أخت بني فراس، ما هذا؟ قالت: لا، وقرة عيني، لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات، فأكل منها أبو بكر وقال: إنما كان ذلك من الشيطان، يعني يمينه، ثم أكل منها لقمة، ثم حملها إلى النبي ﷺ فأصبحت عنده، وكان بيننا وبين القوم عقد، فمضي الأجل، ففرقنا اثنا عشر رجلا، مع كل رجل منهم أناس، الله أعلم كم مع كل رجل، فأكلوا منها أجمعون أو كما قال.

حاصله أن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضى الله عنهما أخبر أن أهل الصفة كانوا يسكنون في المسجد النبوي في مكان خاص بهم مسقف، يسمي الصفة. وكانوا فقراء مهاجرين غرباء ليس لهم أهل ولا بيوت ولا مال، متى جاء الجهاد جاهدوا مع رسول الله ﷺ وإذا لم يكن جهاد غرفوا من بحر علم النبي ﷺ وكان الناس يطعمونهم، فقال النبي ﷺ لأصحابه من أهل المدينة: من كان عنده طعام اثنين فليأخذ واحدا من أهل الصفة

يتعشى معه، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليجعل رابعهم واحدا من أهل الصفة، ومن كان عنده طعام أربعة فليأخذ معه خامسا، وإن شاء فليأخذ اثنين.

وقد جاء في موضع آخر من صحيح البخاري عن النبي ﷺ ، طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الأربعة – الحديث ولكن النبي ﷺ لم يشأ أن يشق عليهم فلم يقل: من كان عنده طعام واحد فليذهب باثنين، ومن كان عنده طعام اثنين فليذهب بأربعة، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بثمانية، لكن أبا بكر الصديق ﷺ أخذ ثلاثة من أهل الصفة، وكان عنده طعام خمسة هو وزوجته أم رومان، وابنه عبد الرحمن، وزوجة ابنه أميمة، وخادم كان يخدمهم.

أما النبي ﷺ فإنه أخذ عشرة من أهل الصفة قال أهل الحديث: وكان عند النبي ﷺ في تلك الليلة طعام عشرة، فخفف على أصحابه وشق على نفسه وأهل بيته وذلك كان شأنه ﷺ ، يتحمل من الأعمال أكثر مما يأمر الناس به، فكان يواصل الصيام، أي يصوم يومين أو أكثر وينهي أصحابه عن ذلك فإذا قالوا له: إنا نراك تواصل يقول: إني لست كهيئة أحدكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني، يعني طعاماً روحياً وشراباً روحيا.

وترك أبو بكر الصديق الأضياف الثلاثة لابنه عبد الرحمن وزوجته أم رومان وذهب إلى بيت النبي ﷺ وتعشي عنده، وأقام إلى ما بعد صلاة العشاء، فلما رجع سأل زوجته أعشيتهم؟ يعني الأضياف، فقالت: إنهم امتنعوا من قبول العشاء حتى تجئ أنت، وخاف ابنه عبد الرحمن من غضبه فاختبأ، فأخذ يناديه، يا غنثر، معناه يا لئيم فلم يجبه خوفا منه، فسبه ثم قدم العشاء إلى الأضياف. وقال: كلوا لا هنيئا، قال ذلك غضبا عليهم، لأنهم أساؤوا الأدب، إذ لم يقبلوا عشاءهم فأخذوا يأكلون والطعام يزيد حتى صار كما قالت أم رومان أكثر مما كان بثلاث مرات وحلف أبو بكر في وقت غضبه أن لا يأكل من ذلك الطعام، فلما رأي الكرامة ظهرت في زيادة الطعام أكل منه لينال من تلك البركة، فأكل أهل البيت وضيوفهم وعددهم ثمانية، ثم حملت تلك الجفنة مفعمة بالطعام إلى النبي ﷺ فرحا بما أكرمه الله به فباتت الجفنة كذلك إلى الصباح فأكل منها اثنا عشر عريفا، كل عريف معه جماعة من الناس جاؤوا للتفاوض مع النبي ﷺ.

وأما كرامة أسيد بن حضير، فأخرج البخاري في صحيحه من كتاب المناقب بسنده إلى أنس أن رجلين خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة وإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا، فتفرق النور معهما. والرجلان هما أسيد بن حضير وعباد بن بشر.

والكرامة التي أكرم الله بها عباده الصالحين كثيرة لا يأتي عليها الحصر، وقد أجمع أهل السنة على قبولها، وما جاء في القرآن منها يؤمن به جميع المسلمين، ولكن ليس كل من جرت على يديه خوارق العادات هو من الصالحين، فإن الخوارق تقع للكافر والمسلم، فإذا وقعت للمؤمن المتقي فهي كرامة، ولكن لا يجوز أن يأمن من مكر الله بعد حصولها، لأن الخاتمة مجهولة فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**فوالله الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**».

إذن فلا يثبت أنه من أولياء الله الصالحين بجريان الخوارق على يديه حتى تثبت له الاستقامة، والاستقامة لا يعلمها إلا الله. وعقيدة أهل السنة والجماعة كما قرر الإمام الصابوني في عقيدته وغيره أنهم لا ينزلون أحداً جنة ولا ناراً إلا من شهد له المعصوم ﷺ كالعشرة المبشرين بالجنة، وخديجة وعكاشة ابن محصن، وكل من صح الحديث بأنه من الجنة. أما غيرهم فمن رأيناه يطيع الله ويتبع رسوله نرجو له الخير ولا نجزم بأنه من أهل الجنة، ومن رأيناه من المسلمين الموحدين المصلحين منهمكا في المعاصي نخاف عليه أن يكون من أهل النار ولا نجزم، لأن الخاتمة مجهولة.

وفي الصحيحين عن أم العلاء قالت: مات عثمان ابن مظعون، قلت: شهادتي عليك أبا السائب، لقد أكرمك الله، فقال لها رسول الله ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟ والله وأنا رسول الله ما أدري ما يفعل بي.

وروي الحافظ بن عبد البر في الاستيعاب عن ابن عباس، قال: لما مات عثمان بن مظعون، قالت امرأته: هنيئا لك الجنة يا عثمان بن مظعون، فنظر إليها رسول الله ﷺ نظر غضب، وقال: وما يدريك؟ قالت: يا رسول الله، فارسك وصاحبك، فقال رسول الله ﷺ:

إني رسول الله، وما أدري ما يفعل بي.

وروى الترمذي بسنده عن عائشة، قالت: قبل النبي ﷺ عثمان بن مظعون وهو ميت، وهو يبكي وعيناه تذرفان، ولما توفي إبراهيم بن النبي ﷺ قال: ألحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون ومن أخبار عثمان بن مظعون أنه كان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية، وقال: لا أشرب شرابا يذهب عقلي ويضحك بي من هو أدني مني، ويحملني على أن أنكح كريمتي، فلما حرمت الخمر أتي وهو بالعوالي فقيل له: يا عثمان قد حرمت الخمر، فقال: تبا لها، قد كان بصري فيها ثاقبا.

وقال سعد بن أبي وقاص: رد رسول الله ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون، ولو أذن له لاختصينا، وكان عابدا مجتهدا من فضلاء الصحابة، وقد كان هو وعلى بن أبى طالب وأبو ذر هموا أن يختصوا ويتبتلوا فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك. اهـ

فانظر يا رعاك الله هذا الصحابي الجليل وما له من المناقب، حرم الخمر على نفسه قبل أن تحرم، بل قبل الإسلام، وكان من السابقين إلى الإسلام، وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، فهو من أهل الهجرتين، وكان النبي ﷺ يحبه حباً كثيراً، حتى أنه قبله بعد موته وبكي عليه، ومع ذلك لما قالت امرأته: هنيئا لك الجنة. غضب عليها النبي ﷺ ، وقال لها: إني رسول الله، وما أدري ما يفعل به، وسماه النبي ﷺ سلفا صالحا.

ولما قالت أم العلاء: شهادتي عليك أبا السائب، لقد أكرمك الله، ونهاها عن ذلك، فمن شهد على ميت كيفما كانت درجته من الصلاح أنه من أهل الجنة، أو أنه من المكرمين عند الله، فقد عصي الله ورسوله وقفا ما ليس له به علم، وقد بلغ الجهل بأكثر الناس في هذا الزمان إلى أن صاروا يقيسون درجات الأموات عند الله بالقباب التي تبني على قبورهم فعلي قدر جمال القبة وزخرفتها وكثرة تحفها وزوارها، والذبائح التي تذبح عندها، والمواسم التي تقام لها، تكون منزلة صاحبها عند الله بزعمهم، اللهم علمنا ما جهلنا وارزقنا العمل بما علمناه، ولا تجعله حجة علينا يا رب العالمين. .

الوجه الرابع: إن ما نقلته من الخوارق التي وقعت لمستحضري الأرواح في سلسلة المقالات التي نشرتها مجلة «دعوة الحق» بالعنوان المذكور أعلاه وقعت تلك الخوارق لأناس لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا بأحد من الأنبياء، فلم تكن من كرامات الأولياء، كما

زعم ذلك المتوهم، ونسبني من أجل ذلك إلى التناقض ومن ذلك تعلم أن الخوارق في حد ذاتها، وإن بلغت في الغرابة كل مبلغ لا علاقة لها بالإيمان ولا بالصلاح، فإنها تقع للمؤمن والكافر، والصالح والطالح.

والميزان الصحيح لأولياء الله الصالحين هو الاستقامة، قال تعالى في سورة فصلت ٣٠-٣٢: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ ، معناه وحدوا الله فلم يشركوا به شيئا لا في ربوبيته ولا في عبادته، ومعنى ﴿ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ آمنوا بالرسول ﷺ واتبعوه في كل ما جاء به، وقال الجنيد رحمه الله: لو رأيتم رجلا يطير في السماء أو يمشي على الماء، فلا تلتفتوا إليه، فإن الاستقامة أفضل من ألف كرامة.

وقال أيضاً رحمه الله: أمرنا هذا مبني على أربعة أمور، أولها اتباع السنة، وثانيها أكل الحلال، وثالثها كف الأذى، ورابعها تحمل الأذى. اهـ

وهذه الأمور الأربعة التي بني عليها الجنيد رحمه الله طريقة أهل الزهد موافقة لكتاب الله وسنة رسوله ولولا خوف الإطالة لسردت براهينها.

وقول سعد بن أبي وقاص: رد النبي ﷺ على عثمان التبتل، ولو أذن له لاختصينا المراد بالتبتل هنا، الترهب والانقطاع عن متاع الحياة الدنيا، والاشتغال بالعبادة وقد استأذن جماعة من الصحابة، منهم المذكورون هنا، ومنهم أبو هريرة في الاختصاء ، وهو إزالة القدرة على مباشرة النساء بعمل جراحي معلوم، وإنما أرادوا ذلك حتى يأمنوا اشتهاء قرب النساء، فلا يشغلهم شاغل عن عبادة الله، ومن خلال ذلك يرى كل منصف عاقل أن أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل من أصحاب الرسل السابقين وأتباعهم فلم نر في أتباع الرسل السابقين من هم بالاختصاء، وأن فيهم من اعتزل النساء وحرم قربهن على نفسه، ولكن النبي الحكيم الذي جاء بدين قويم منعهم من الاختصاء لما فيه وفي الترهب من المفاسد فالشجاع هو الذي يثبت في مواجهة العدو ويستعين بالله ويحمي نفسه من هجماته والاختصاء والترهب فرار من وجه العدو وهزيمة وحرمان للنفس من بركة التعاون

مع الزوجة على طاعة الله، وعلى إنجاب الأبناء الصالحين والبنات الصالحات وحسن تربيتهن والسعي عليهم في اكتساب رزقهم.

فالمختصي والمترهب عضوان ميتان في جسم الأمة وقد قال النبي ﷺ لما علم أن ثلاثة من أصحابه هموا أن ينقطعوا للعبادة، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال الآخر: أنا أصوم النهار أبدا ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء النبي ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله واتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلى، وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. رواه البخاري ومسلم.



## ختام السلسلة

قراء مقالات هذه السلسلة، وهم كثير في المغرب وفي الخارج يعلمون الباعث على كتابتها، وهو أن أحد دسائس الاستعمار الروحي الخبيث الذي هو شر ألف مرة من الاستعمار المادي، بل هو سل الشعوب وسرطانها نشر مقالا سب فيه الله جل جلاله وفي سبه سبحانه وتعالى سب لجميع المؤمنين من المسلمين واليهود والنصارى والبوذيين والهنادك وكل من يؤمن بما وراء المادة. فندبتني لجنة إدارة مجلة دعوة الحق لرجم هذا الشيطان المارد وإسكات هذا الغراب الناعب بشهب ثواقب من براهين العقل والنقل، وأقوال الفلاسفة والعلماء المتقدمين والمتأخرين، وشهادات سفراء الدول الديمقراطية التي تكفل الحرية التامة لكل فرد من شعوبها في اعتقاده، وإبداء رأيه في حدود القانون آمنا من كل طائلة عقاب أو حرمان كما يقع في غير الدول الديمقراطية التي يحكم الشعب فيها نفسه بنفسه بواسطة مجلس نواب منتخب انتخابا حراً.

أما الشعوب التي لا ترى دولها هذا المسلك، سواء أكانت مؤمنة بالله أم كافرة. فإني لم أتوجه إلى سفاراتها ولم التمس منها إحصاء لعدد المؤمنين بالله من شعوبها، لأن حرية الاعتقاد وإبداء الرأي محظور على أفراد شعوبها، ولا يمكن التوصل إلى معرفة آراء تلك الشعوب إلا إذا كانوا أحرارا في إبداء آرائهم، وليس مقصودى بهذا الكلام مدح أحد الفريقين ولا ذم الآخر، وإنما ذكرت هذا اعتذارا للقراء عن عدم تعميم الزيارة لجميع السفارات والتماس الإحصاء منها على أني تركت زيارة سفارات توفرت فيها الشروط كالسفارة الفلاندية مثلا اكتفاء بما ذكر، وفيه مقنع لكل منصف.

والآن اختم هذه السلسلة بفقرات لم استطع إغفالها لقوتها ووضوحها وإعجابي بها، ولو ذهبت أنقل كل ما وجدته في هذه القضية لاستمرت الكتابة سنين، ولكني أردت الاقتصار على هذا القدر، فقد قرت به عيون المؤمنين وسخنت عيون الكافرين والمنافقين، وخصوصا المردود عليه ذو الرين الملقب بالحبشي.

قال الأستاذ فاضل صالح السامرائي في كتابه (نداء الروح) نقلا عن كتاب الرد على الدهريين للفيلسوف الإسلامي العظيم جمال الدين الأفغاني.

**أصل الحياة**

يقول بعض الطبعيين: إن تركيب الخلايا هذا التركيب الكيماوي المعروف، وبهذه النسب الثابتة من العناصر المختلفة هو الذي منحها الحياة ومن عليها بالإحساس، ووهبها هذه الصفات.

وأبسط ما يرد عليهم، أنه قد أظهر لكم المختبر جميع أجزاء الخلية، وعرفتم جميع عناصرها وأوزانها ونسبها وتركيبها، فلم أذن لم تفلحوا في إنشاء خلية واحدة تنبض بالحياة وتتغذي وتنمو وتشعر وتتكاثر وتحتاط في الدفاع عن نفسها احتياطاً يعجز العقول ويأخذ بالألباب شأن (ذوات الخلية الواحدة؟) إنه طلب معقول، كان وجهه أحد الكتاب المعروفين (هذه عناصر الخلية، هاتوا لنا خلية واحدة)

هل تستطيع أجهزتكم أن تكون لنا (نواة تمرة) لها صفات النواة وخصائصها خشبة صغيرة متى غرست في الأرض انفجرت عن جذير وسويق وامتدت ضاربة في الهواء تحمل الرطب الجني والتمر الشهي.

هل تستطيع أجهزتكم أن تكون (نواة) مرة كنواة المشمش مثلا أو بذرة البرتقال حتى إذا غرست في الأرض وسقيت بالماء وصارت شجرة وارفة أتت بالثمار الحلوة والفاكهة الشهية؟.

كيف يعقل – يا هؤلاء – أن يكون تركيب الخلية أصل حياتها، والحياة هي التي تغذيها وتنميها وتحول المواد الجامدة فيها إلى مواد حية؟

إن الحياة هي التي تحفظ على الخلية وجودها، وتجمع عناصرها، وتمسكها من التحلل والافتراق، فإن فارقتها الحياة ذهب وجودها واختفي تكوينها، وافترقت عناصرها، وتحللت موادها، إن الحياة هي التي تمنعها من التفرق، وتعصمها من التحلل، وبدونها تفرق شملها، وتمزقت أوصالها، كيف يعقل إذن أن يكون تركيب الخلية أصل حياتها، مع أن الحياة هي التي حفظت على الخلية تركيبها، ولولاها لتعفنت وضربتها الرياح وذهبت سدي، ولتحللت عناصرها وتمزقت أوصالها.

إن الحياة هي التي تجعل من المواد الميتة، ومن العناصر المتحللة مواد حية تضع كل مادة بمحلها، وتجمع بين هذا وذاك بنسب ثابتة، وتحفظ تماسك هذه المواد على الوضعية التي أنتجتها.

إن الكائن الحي ذا الخلية الواحدة مثلا من حيث هو مخلوق بسيط: من يحفظ مواده من أن تعبث به الرياح؟ من يمسك عناصره حتى لا تحطمه الطبيعة بحملاتها الشديدة؟ إنها الحياة.

ترى، ماذا سيحدث لو فارقتها الحياة؟ إن هذه المواد المتماسكة التي يزعم الزاعمون أن تماسكها وتركيبها هو أصل الحياة ستفقد تماسكها، وتتحلل تراكيبها بعد خروج الحياة منها.

لقد عجزت الطوائف عن بيان السبب لحياة الجراثيم، حياة نباتية أو حيوانية، خصوصا بعد ما تبين لهم، أن الحياة فاعل في بسائط الجراثيم، موجب لالتئامها، حافظ لكيانها، وأن قوتها الغاذية هي التي تجعل غير الحي من الأجزاء حيا بالتغذية، فإذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجاذبها، ثم صارت إلى الانحلال.

ثم نقل المؤلف المذكور كلام العلامة (كريسى موريسن) في حقيقة الحياة، وقد ترجمت هذا الفصل برمته ونشرته في سلسلة مقالات (دواء الشاكين وقامع المشككين) في الجزء العاشر من السنة الثالثة من هذه المجلة فليراجعه من أراده.

ثم قال المؤلف المذكور، وقال (....)[١] أرثر فندلاي: فما السبب في أن الشجرة المزهرة تحتفظ بشكلها وأوراقها، على حين تتناثر شجرة أخرى من تلك التي نسميها (ميتة) وتتساقط أجزاؤها عند لمسها وتتفتت في الثري؟ لابد أن يكون هنالك ثمة شيء، وهو ما سميناه (حياة) هو الذي يوجد في الكائن الحي وينعشه ويختفي من الكائن الميت، ولهذا الشيء قدرة على اكتساب المادة الشكل واللون، فإذا ما اختفي ذهب باختفائه الشكل واللون، ويتوفى[٢] الشيء الذي كان حيا فيما مضي إلى الأرض مكونا جزءا منها.

من ثم يتضح أن هناك شيئا لا يمكن أن نراه ولا أن نلمسه، ولكنه مع ذلك حقيقي وقادر، وله خاصية تشكيل الصور من الأرض غير الحية. أقول: إنه لابد أن يكون قادراً، لأنه يقوي على رفع المادة رغم قوة الجاذبية. ويستطيع الاحتفاظ بها في وضع معتدل، فإذا ترك المادة عادت لقوة الجاذبية سيطرتها، وتأثرت المادة بقوى الطبيعة كلها فالإنسان أو الحيوان أو النبات يمكنه أن يقف معتدلا عندما تسري فيه هذه القوة، فإذا ما وقف سريانها

---

(١) غير واضح في الأصل.

(٢) كما بالأصل.

هوي هؤلاء جميعاً إلى الأرض، فالحياة إذن قوة منظمة تقاوم في المادة ميلها إلى الاختلال وعدم الانتظام.

الحياة قوة منظمة مفكرة تسري في المادة فتنظمها، وبدونها تكون المادة مختلة النظام فهي إذن لا يمكن أن تكون جزءاً من المادة إلا إذا كان صانع الخزفة جزءاً من الصلصال الذي يصوغه أواني، وعدا هذا للحياة شخصية.

لكل كائن حي شخصية، لأن كل كائن حي يختلف عن غيره من الكائنات الحية، وبهذا التدليل يكون لهذه الحياة قوى تقصر عنها القوى المادية، فهي أقوى من المادة، وهي تستطيع تنظيم المادة. اهـ

**إيضاح وشرح لحجة جمال الدين الأفغاني**

إنما احتج به هذا العالم المفكر المسلم على الطبيعيين الجاحدين واضح لا يحتاج إلى شرح بالنسبة إلى ذوي الكفاءة العلمية من القراء، ولكني حريص على تعميم الفائدة وإبلاغ ذلك إلى أذهان سائر القراء، فلذلك أزيده توضيحاً فأقول: زعم عباد الطبيعة الجاهلة العمياء الصماء أن الحياة في الإنسان والحيوان والنبات إنما نشأت لتركب كل من هذه الأنواع من عناصر مختلفة بأجزاء متناسبة، فمتي تألف جسم الإنسان أو الحيوان أو النبات من تلك العناصر بتلك النسب والأجزاء جاءت الحياة من تلقاء نفسها، فتحداهم العلماء المثبتون لوجود الخالق المبدع لجميع ما في العالم والحافظ عليه وجوده والمدبر لشؤونه بقولهم: ها أنتم اليوم تملكون مختبرات كيميائية تحلل كل مركب حتى ترده إلى عناصره الأولية وتعلمون علم اليقين أجزاء المركبات ونسبها وحقائق البسائط غير المركبة، فهلا جمعتم أجزاء نوع من النبات أو الحيوان، فضلا عن الإنسان وركبتم ذلك؟ فتجيئكم الحياة وتستقر فيه وتعرضونه على خصومكم المؤمنين بالله وبعالم الغيب فتفحمونهم بحجة يحسونها، وأنتم تزعمون أنكم لا تؤمنون إلا بما يحس كالبهائم، فكيف تريدون من خصومكم أن يؤمنوا بخيال باطل لفقته عقولكم السخيفة، وأنتم تردون الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، وقد تستطيعون أن تقنعوا بذلك الصبيان ومن في معناهم من كبار الأجسام المضروبين بسوط الاستعمار الروحي الذين يتلقون كل هذيان تفوهون به بالتصديق. أما أهل العقول النيرة والإبصار الثاقبة فلا تجوز عليهم ترهاتكم، ولا تتمشي عليهم تلفيقاتكم.

ثم قال العلماء المؤمنون: بل الأمر بالعكس، فإن الحياة هي التي تحفظ الأجسام مستمتعة بخصائصها، ومتى فقدت منها الحياة تلاشت. ونحن نأخذ نواة تمر جامدة جمود الأحجار لا حياة فيها ولا أثر للحياة، ولا حركة ولا نمو، فنغرسها في أرض طيبة ونسقيها بالماء فتنشق ويخرج منها جذر يمد عروقه في الأرض إلى أسفل، ونبتة تمتد إلى أعلى في شكل وريقة ضعيفة، ولا تزال تنمو حتى تصير جذعاً، له خشب وكرب وليف وسعف وخوص وشوك وقلب، ثم تثمر، فنجني منها رطبا يانعاً وتمراً لذيذا، وتعيش ما شاء الله في زيادة ونمو حتى تصير نخلة باسقة صاعدة في السماء، فإن لم يطرأ عليها مرض مميت تطول حياتها حتى يدركها ضعف الهرم كالإنسان والحيوان فتقطع وينتفع بخشبها في البناء وغيره، وإن أصابها مرض كمرض (بيوضي) المنتشر في نخيل تفيلالت يذبل قلبها ثم ييبس ويتلوه سعفها فتموت وتتفتت ويسري الفساد في جذعها فلا ينتفع به في بناء ولا غيره، فقد رأينا أن الحياة هي التي تحفظ وجود الجسم وتماسكه وازدهاره، وفقدانها يؤدي إلى تلاشيه حتى يصير ترابا كما كان.

ومثل هذا يقال في كل نبات وكل حيوان، فالحياة هي سر الوجود، سواء أكانت بسيطة كما في الخلية الواحدة أو الأميبة التي هي أصغر حيوان، أم كانت في المركبات التي تتألف من ملايين الخلايا، فالحياة هي التي تحفظ وجودها وتضامنها واتحادها واتصافها بخصائصها من حركة ونمو وأعمال. وهذه الحياة هبة من الخالق جل وعلا لا حيلة لأحد في إيجادها ابتداء، ولا في ردها بعد فقدانها. قال تعالى في سورة الحج ٧٣-٧٤: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.

ومن أين جاءت الحياة لتلك النواة الجامدة حتى نشأت منها تلك النخلة العظيمة ثم لما قبضت الحياة تلاشت النخلة ولم يبق لها وجود. وهكذا يقال في كل نواة، وفي بذرة من بذور المزروعات قال تعالى في سورة الأنعام ٩٥: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.

فالنواة تكون ميتة فيفلقها الله، أي يشقها ويخرج منها شجرة تتدفق بالحياة. والحبة تكون ميتة فيفلقها الله تعالى فتخرج شطأها ويستغلظ ويستوى على سوقه ويخرج منه حبا متراكبا

رزقا للإنسان والحيوان يحفظ عليه حياته إلى أجل مسمي، ذلكم الله فأني تصرفون.

٢- قوله: لأنه يقوى على رفع المادة رغم قوة الجاذبية الخ. بيان ذلك أن الله أودع في هذه الأرض التي نعيش عليها قوة، يسميها علماء هذا العصر، الجاذبية، وبهذه القوة تتماسك أجزاء الأرض ويثبت عليها كل ما هو متصل بها من بحار وجبال وأحجار وحيوان وهواء محيط بها فلا يقوم شيء منها ويرتفع إلا إذا كانت فيه قوة تقاوم تلك الجاذبية. فالنواة قبل أن تغرس تبقي في مكانها لا يرتفع منها شيء، إذ ليس فيها قوة تقاوم الجاذبية، فإذا غرست أشربها الله الحياة وفلقها فارتفعت منها نبتة مقاومة للجاذبية حتى تبلغ ما قدر لها من الارتفاع، ولا تزال كذلك حتى تفقد الحياة فتفقد القوة التي كانت تقاوم بها الجاذبية، ويؤول بها الأمر إلى أن تهوي على الأرض ثم تصير ترابا ميتاً.

مثال آخر هو أوضح، إذا أراد الإنسان أن يثب إلى فوق، فإنه يجمع قواه فيثب في الهواء مقدار متر أو نحوه، والجاذبية تعاكسه وتقهره وتجبره على الرجوع إلى الأرض فلا يلبث أن يعود إليها مقهوراً . وإذا رمي الإنسان بحجر إلى أعلى يرتفع الحجر مقاوما الجاذبية على قدر القوة الدافعة، ثم تجبره الجاذبية على أن يعود إلى الأرض وهذه القوة الجاذبية لا تدرك بالحس، وإنما يدرك أثرها، ومركزها في جوف الأرض، وهي حجة على أشباه البهائم الذين يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بما تدركه الحواس الخمس.

٣- قوله: إلا إذا كان صانع الخزفة جزءا من الصلصال الخ. يعني أن المادة التي يتألف منها أجسام الحيوان والنبات لا تستطيع أن تهب الحياة لهذه الأجسام إلا إذا كان صانع القلة من الطين جزءا من ذلك الطين الذي يصنع منه القلل وغيرها من الأواني.

٤- قوله: لكل كائن حي شخصية يعني أن الله يهب لكل حيوان وكل نوع من أنواع النبات صورة خاصة وحياة خاصة، فعمل الحياة في البعوضة ليس كعملها في الفيل، وقس على ذلك جميع أنواع الحيوان، وبذلك يكون التباين والاختلاف بينها، وهكذا يقال في النبات، فالحياة التي وهبها الله لنوع من الأشجار تؤثر فيه شكلا ونوعا وثمرا ولونا غير الحياة التي وهبها الله للنوع الآخر.

**يقول محمد تقي الدين الهلالي:** بهذا المقال اختم هذه السلسلة، وقد بلغ عدد مقالاتها ست عشرة إذا ضمت إلى السلسلة الموسومة بـ (دواء الشاكين وقامع المشككين) التي بلغ

عدد مقالاتها أربعاً وعشرين وتضمنت كتاب العالم (كريسي موريسن) الموسوم بـ (ليس الإنسان مهملا) يكون مجموع المقالات أربعين اشتملت على براهين قاطعة وأنوار ساطعة يؤيدها العقل ويكملها النقل. يثبت الله بها المؤمنين ويشفي صدورهم ويطهر نفوسهم، وتطمئن إليها نفوس المنصفين، وتكبت بها نفوس المنافقين والجاحدين.

فلو جمعت في كتاب واحد، ويسر الله من ينفق على طبعه لكان حصنا حصينا لطلبة العلم الصادقين، وسلاحا فتاكا في أيدي المناضلين، وسيفا صارما في نحور أعداء الإسلام والمسلمين والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

**انتهى**



# الفهرس



## الفهرس

الموضوع | الرقم

| الموضوع | الرقم |
|---|---|

الموضوع الرقم

